

يوسف ميخائيل أسعد

سيكلوجية

الإنسان



مكتبة غريب

سيكولوجية الإلهام

تأليف

يوسف مختار أسعد

الناشر

مكتبة غريب
٢٤١ شارع كامل صديق (الفضالة)
ت: ٩٠٢١٠٧

مقدمة

في حياة كل إنسان لحظات إلهام يمكن أن يتذكرها ، وهي تلك اللحظات التي واثته خلالها أفكار رئيسية موجهة أو حاسمة . والواقع أنه على الرغم من أن تلك اللحظات الإلهامية شخصية جداً وذات صبغة ذاتية بحتة ، فإننا نستطيع أن نزعم أن تناول تلك اللحظات بالدراسة النفسية والفلسفية من الأمور الممكنة . ذلك أن الخبرة الانسانية العامة تشير إلى وجود تلك اللحظات الإلهامية في حياتنا .

على أننا ذهبنا في هذا الكتاب إلى زعم مؤداه أن الإلهام هبة أو عطية تمنح للمرء بعد توافر شروط معينة في شخصيته . فليس بمستطاع الانسان أن يكون ملهما ، ولكن بمستطاعه أن يوفر في شخصيته الظروف أو الشروط التي قد تجعله ملهما . وقد شبهنا الانسان الملهم بجهاز التليفزيون . فالجهاز السليم لا يستقبل صوراً وكلاماً إلا خلال ساعات الإرسال التليفزيوني . ولكن في غير تلك الساعات ، فإن الجهاز السليم لا يستقبل شيئاً . أما الجهاز العاطل فإنه لا يستقبل صوراً أو صوتاً حتى خلال ساعات الإرسال .

ومعنى هذا أن الإلهام لا يتوفر إلا للشخصية التي توافرت بها مجموعة من الشروط . والواقع أن تلك الشروط لا ترتبط بالعلم والخبرة . فالإلهام لا يكتسب بالتمرين ، ولكن عملية الابانة عما تلهم به هي التي لا تتوافر لنا إلا بعد أن نكون قد اكتسبنا العلم أو الفن أو الخبرة . فالانسان بالقبائل البدائية ربما كان أكثر قابلية لتلقى الإلهام الموسيقي ، ولكن علمه وفنه ودرسته على فنون الأداء الموسيقي كانت فجوة ، كما كانت الآلات الموسيقية

الى استطاع من خلالها أن يعزف موسيقاه بسيطة وغير فاضجة . وكذا
يمكن أن يقال عن جميع الفنون والعلوم والعلاقات الاجتماعية .

وكان من الطبيعي أن نبدأ كتابنا بتقديم التصورات المتباينة للإلهام ،
فقلنا خمسة معان له هي المعنى الغيبي والمعنى الواقعي والمعنى السيكلوجي
والمعنى الفردى والمعنى الاجتماعى . وبعد هذا تناولنا سيكلوجية الإلهام ،
وذلك من خلال دراستنا للوراثة والبيئة ، والعوامل البيولوجية فى الإلهام
وللور الذكاء والجنس فيه ، ثم عرضنا للاستغراق الإلهامى .

واسترسلنا بعد ذلك خلال فصول الكتاب ، فعرضنا لاكتشاف القارة
المجهولة والمجالات الإلهام والمعوقات التى تعترض طريقه ولعلاقة الحضارة
بالإلهام وللور التربية فيه ، كما قلنا نماذج للإلهام من حياة العابرة ، وكيف
يعد المرء نفسه للإلهام ، ثم لأثر المشكلات والصعاب فى الإلهام .

وفى الفصول الثلاثة الأخيرة من الكتاب عرضنا للتأمل والحرب إلى
الداخل ، ثم لما أسمىناه بالتلاحق الخبرى وعلاقته بالإلهام ، ثم أخيراً للاتحاد
الثلاثى بالشخصية .

ولسوف يكشف القارئ بنفسه من خلال قراءته لهذا الكتاب خمس
صفات يجده متصفا بها . الصفة الأولى – هى أن هذا الموضوع بكر لم
يمسه أحد من قبل . فاسبق أن كتب عن الإلهام ليس سوى شلرات
هنا وهناك ، ولم يكرس له أحد – على حد علمنا – كتاباً قائماً بذاته
كهذا الكتاب . أما الصفة الثانية – فهى الابانة اللغوية . فهذا العمل
تأج فكر مصرى عربى ذاتى بحث . ولا يعيبه أن يكون كذلك . على
أننا عرضنا فى ثناياه لاقتباسات مخلوذة أثبتناها لأصحابها وبعجنا المصدر الذى
استقيناها منه بعد الكلام المقتبس مباشرة . أما الصفة الثالثة – فهى
تقسيم الكتاب إلى خمسة عشر فصلاً ، وتحت كل فصل خمسة موضوعات .
فبين يلى القارئ إذن خمسة وسبعون موضوعاً نظن أنها تغطى كل ما يمكن
أن يخطر على باله من تساؤلات حول هذا الموضوع .

أما الصفة الرابعة لهذا الكتاب فهي صفة العمومية . فهو — شأنه شأن كثير مما سبق لنا نشره من كتب — يتصف بأنه عام من حيث إنه يتناول مفهوماً يحظر على بال معظم الناس . ولكن العمومية لا تعنى السطحية كما قد يظن . فنحن نعنى بالعمومية الشمولية ، أى أنه يهتم قاعدة عريضة جداً من القراء . والصفة الخامسة والأخيرة — وهى متعارضة شكلاً مع الصفة السابقة — هى الجدية التى نكتب بها ، وهى التى تستبعد ولا تعجب أولئك الذين يطلبون فيما يتناولونه بالقراءة التسلية والترفيه ، أو قل تحصيل الحاصل . فثمة بعض قراء اليوم ، يطالبون مؤلفى الكتب بأن يكتبوا ماسبق لهم معرفته ؛ فإذا ما واصلوا جديداً فى الكتاب الذى يتناولونه ، أو إذا واصلوا أن قراءتهم له سوف تكلفهم جهداً ، فإنهم يعزفون عنه وينفرون منه ، ويشيحون عن قراءته .

يوسف ميخائيل أسعد

فبراير ١٩٨٣

الفصل الأول

معنى الالهام

المعنى الغيبي :

ذهب كثير من الناس عبر العصور المتعاقبة إلى القول بأن الانسان وإن كان كائناً حياً كسائر الكائنات الحية ، حيث يشترك معها في نواح متعددة ومتباينة ، وحيث يرتبط بالمادة فيأكل ويشرب ويتناسل ، فانه من جهة أخرى متفرد بخصائص لم تتح لها . فالانسان وإن كان حيواناً بمعنى الكلمة ، فهو أيضاً غريب على الأرض بمعنى الكلمة . فهو ليس مجرد حيوان أرقى من سائر الحيوانات الأخرى ، وليس على القمة في ترتيبها فحسب ، بل هو كائن مابين تمام التباين وممتاز عنها تمام الامتياز . فهو الكائن الوحيد الملهم من الخارج ، أى أنه الكائن الوحيد الذى استطاع ويستطيع أن يتصل بالعالم الروحاني ، أو قل إنه الكائن الوحيد الذى تستطيع الكائنات الروحانية أن تجدد فيه محطة استقبال لما تريده وتبتغيه . فهو الوسيط الوحيد الذى تستطيع الكائنات الروحانية استنطاقه فينطق بلسانه ما تعنيه هي ، ويعمل يديه ما تريد هي عمله ، ويحقق على الأرض إرادة تلك الكائنات الروحانية ، سواء كانت الإرادة طيبة في حالة الكائنات الروحانية الحيرة ، أم كانت تلك الإرادة رديئة في حالة الكائنات الروحانية الشريرة .

ومعنى هذا في الواقع أن الانسان بمثابة شاشة تلفزيونية توجه الكائنات الروحانية لإرسالها إليها فتظهر أفكارها وعواطفها وانفعالاتها وتصرفاتها عليها ، أو قل أن الانسان بمثابة رادار دقيق يستطيع التقاط النشاط الروحية التي تصدر عن تلك الكائنات الروحانية . ولكن هل جميع الناس قينيون بأن يكونوا بمثابة أجهزة تلفزيونية أو أجهزة رادار تستطيع التقاط الرسائل

التي تصدر عن الكائنات الروحانية ؟ الواقع أن لا . فكما أن هناك أجهزة استقبال تلفزيونية أو رادارية قوية وأخرى رديئة ، وكما أن هناك أجهزة استقبال صالحة للاستعمال وأخرى معطوبة ، كذا فإن هناك أناسا قد نيطوا بأجهزة استقبال روحانية صالحة للاستقبال ، بينما هناك أناس آخرون أصاب العطب أجهزة استقبالهم الروحانية .

ونستطيع في الواقع أن نقف على تباينات بين الغيبيين في تفسيرهم للإلهام . فهم وإن كانوا يتفقون جميعاً على أن هناك كائنات روحانية من جهة ، وقدرات خارقة جبل عليها بعض الناس من جهة أخرى ، فإنهم ينقسمون إلى مدارس أو شيع يلتزم كل فريق منهم تحت لواء مدرسة منها أو في نطاق إحدى الشيع . ولكنهم جميعاً يشكلون فئة واحدة كبيرة تقف في معارضة شديدة وجنرية أمام المنكرين لوجود تلك الكائنات للروحانية أو المنكرين لوجود قدرات خارقة لدى بعض الأفراد .

أما الفريق الأول من فرقاء الغيبيين فهم أولئك الذين يقولون أن تلك الكائنات الروحانية بالإضافة إلى وجودها ، فإنها تهتم بأمور البشر، بل وتهتم بأمور كل فرد من أفراد البشر على حدة، وتتخذ موقفاً مؤيداً أو مناهضاً منها . فهي قد توازن المجموعة من الأفراد أو الفرد المعين من الناس وتقف إلى جانبه منللة أمامه الصعاب ومهيئة له الظروف الطيبة ، كما أنها قد تتخذ موقفاً مضاداً ومثبطاً من المجموعة أو الفرد فتعاكسه وتقف له بالمرصاد وتضرب محاولاته بالفشل .

ومن الغيبيين من يعتقدون أن الإرادة التي تسليح بها الكائنات الروحانية تكون دائماً أقوى من إرادة بني الإنسان ، بينما يعتقد بعض الغيبيين أن هناك أرواحاً أقوى من بعض الناس ، وبعضها أضعف منهم وبعضها تساويهم في القوة والتأثير والفاعلية . وبينما يعتقد بعض الغيبيين بأن الكائنات الروحانية جميعاً تصلق في إلهاماتها ، فإن بعضهم الآخر يعتقدون أن بعض الأرواح تتصف بالغباء ويكون ما توجهي به متسماً بالضحالة والسطحية أو حتى التضليل والمراوغة .

ومن الغيبين من يعتقدون أنه برغم وجود تلك الكائنات الروحانية فإنها لا تأبه بالأمور الانسانية ، ويكون استطلاع الحقائق عن طريقها بالطرق المشابهة للطرق العلمية . فما نحصل عليه من إلهام عن طريق تلك الأرواح إنما يكون عن غير رغبة أو إرادة من جانبها . فكما أننا نرى الأشياء بفضل نور الشمس دون أن يكون لدى الشمس رغبة أو إرادة في مساعدتنا على الرؤية ، كذا فإن ما نحظى به من إلهامات عن طريق تلك الكائنات الروحانية يأتينا بالمصادفة وعن غير قصد من جانبها .

أما من حيث الطبيعة الروحانية التي لا يختلف بشأن وجودها الغيبون فإنهم يتقسمون بدورهم بازائها إلى فرقاء متباينة . فهناك أولا فريق منهم يعتقد أفراده أن الناس جميعا حاصلون على الجانب الروحاني في جبلتهم . فكما أن جميع الناس لديهم أفواه يأكلون بها ، فإنهم جميعا حاصلون على هذا الجانب الروحاني لأنه جانب أساسي في الطبيعة البشرية . بيد أن هذا الجانب قد يدفن في أعماقهم دفناً بعيد الغور بحيث لا يكاد يبين عن نفسه ، فيظن خطأ أنه غير موجود أصلا لديهم . فليس هذا الجانب الروحي خبرة تكتسب ، بل هو طبيعة تنفتح من الداخل طالما أن الظروف الملائمة متوافرة . فإذا شاهدت شخصا ليس لديه هذه النزعة الإلهامية فلا تظن أنه محروم منها ، بل انظر إليه كما تنتظر إلى البكرة التي لم تجد التربة لكي تثبت فيها وتصير نباتا باسقا : ومعنى هذا أن هذا الجانب الروحاني الإلهامي قد يوجد في حالة ترعرع وازدهار ، كما أنه قد يوجد في حالة ضمور واختباء ؛ ولكنه في جميع الحالات موجود – بل وموجود بالتساوي – لدى جميع الناس . فلا فرق في ذلك بين عالم وجاهل ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين راشد وطفل ، ولا بين ذكي وأبله أو معتوه . فالناس سواسية مهما اختلفت بيناتهم أو ظروفهم أو أديانهم أو خبراتهم أو حضاراتهم .

وفي مقابل هذا الفريق الذي يعتقد في سواسية التوزيع بين الناس نجد فريقا آخر من الغيبين يعتقدون أن ثمة صفوة من الناس تتمتع بموهبة الاتصال بالكائنات الروحانية والأخذ عنها سواء بارادتها أم بطريقة عفوية

غير مقصودة . فهناك أناس قد اختبروا حتى قبل أن يولدوا لكي يفعموا بتلك المواهب الإلهامية . وعلى رأس هؤلاء الأنبياء والقديسون . فهم ولدوا بخصائص روحانية فريدة ، ولم يكن للتربية التي تلقوها أى تأثير فى تقوية أو إضعاف تلك الخصائص . فهي بمثابة عبقرية روحانية تعطى وتوهب مسبقا فيولدون أناسا روحانيين تحيط بهم مالة معينة ، ويولدو فى أقوالهم وتصرفاتهم منذ طفولتهم الباكرة ما ينم على ما أعموا به من مواهب روحانية إلهامية . وحتى أولئك الذين ولدوا ولديهم تلك المواهب الإلهامية الروحانية يتباينون فيما بينهم تباينا بعيد المدى مع التفاهم جميعاً حول محور واحد روحانى قد اختصهم بمالم يختص به غيرهم . فثمة من هؤلاء الناس أشخاص شديدو الإلهام بحيث يكونون على اتصال مباشر بالعالم الروحانى : ولعل وجودهم فى هذه الدنيا يكون فى الواقع وجوداً متمسماً بارتباط مباشر بذلك العالم الروحانى ، بينما يكون اتصالهم بالناس من حولهم أو تفسير دقة حياتهم الجسمية بما يكفل لهم استمرار الوجود فحسب . وهناك أشخاص أقل موهبة من أولئك العباقرة الروحانيين . فالناس يشهون النجوم فى السماء . فثمة نجم أزهى ضوءاً من نجم آخر مع اشتراك جميع نجوم السماء فى صفة النجمية .

وفى مقابل الفريقين السابقين من الغيبين فاننا نجد فريقاً ثالثاً منهم أيضاً يذهب مذهبا مبائنا ، فيعتقد أفراداه أن ثمة شروطا معينة يشترك فيها كل من الطرفين : أعنى الكائنات الروحانية من جهة والناس من جهة أخرى . فلا يكفي أن يكون الواحد من الناس عبقرىا فى الناحية الروحانية ، بل ليس شرطاً أن يكون موهوباً بتلك العبقرية الروحانية . المهم هو توافر تلك الشروط التى تجمع بين قطب العطاء الروحانى وقطب الأخذ الروحانى . والمسألة هنا شبيهة بالموجب والسالب فى الكهرباء . فلا يكفي وجود الكائنات الروحانية ، ولا يكفي أن يكون لدى المرء استعداد روحانى قوى لتلقى الإلهامات الروحانية ، بل يجب أن تتساق لإرادة الكائنات الروحانية وإرادة صاحب الموهبة الإلهامية لكي يتحقق للمرء

استقبال الإلهامات المتباينة . ولكن هل بيد المرء أن يتحدث تلك الظروف وتوفير تلك الشروط ؟ هنا نجد التباين أيضاً في الرأي . فثمة من يعتقدون أن تلك الظروف أو الشروط لا تتوافر إلا بالمصادفة والعقوبة . ومن هنا فإن الإلهام يوافق أى إنسان إذا ما توافرت الظروف الإيجابية من جانب الكائنات الروحانية والظروف السلبية الاستقبالية من جانب المتلقى للإلهام . أما الرأي الآخر فإنه يذهب إلى أن من الممكن استحداث تلك الظروف المواتية فيقع الإلهام من الكائنات الروحانية بلا مناص .

المعنى الواقعي :

إننا نجد في مقابل المعنى الغيبي للإلهام هذا المعنى الواقعي الذي يتعارض تعارضاً جوهرياً مع المعنى الغيبي . فبينما نجد أن أصحاب المعنى الغيبي ينيطون الإلهام بقوى روحية غير منلورة تؤثر في ذهن الإنسان بطريقة أو بأخرى ، فإنا نجد أصحاب هذا المعنى الواقعي يفتحون منحنى مغايراً تمام المغايرة . فهم يحلون المحسوس محل الروحاني ، ويجعلون الوقائع المادية التي تؤثر في حواس المرء هي المؤثر الوحيد في إحداث الإلهام .

فأصحاب هذا المعنى ماديون في التفسير وليسوا روحانيين . فهم ينكرون وجود أى كائنات مؤثرة خلافاً للكائنات التي تحيط بالمرء والتي يتسنى لها التأثير في حاسة أو أكثر من حواسه الخمس . فالموجود الوحيد هو الوجود المادي أو ما ينشق عنه من أشكال أو جوانب وجودية . بيد أن هذا المعنى يتسع في الواقع لوجودين فيزيائيين : الفيزياء الكبيرة *Macrophysics* والفيزياء الصغيرة *Microphysics* ونعني بالفيزياء الكبيرة ما يمكن الوقوف عليه مباشرة بأحدى الحواس الخمس أو بما يساعدها من مكبرات عادية . أما الفيزياء الصغيرة فإنها تستعصى على المشاهدة أو الإدراك الحسي ويكون الوقوف عليها بالمعادلات الرياضية وفي بعض الأحيان بالميكروسكوبات الألكترونية . وغير مثال لذلك النيوترونات والألكترونات في النواة .

والواقع أن القلماء من الماديين لم يكونوا يعترفون أو يعرفون إلا الفيزياء الكبيرة ، فكان إيمانهم مقصوراً على ما يمكن الوقوف عليه بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس وقوفاً مباشراً بغير وسيط بين الحاسة والشيء موضوع الإدراك . فالوجود المادى كان لديهم وجوداً ضيق النطاق حيث كان شرط الإدراك المباشر هو الأساس الوحيد للاعتراف بوجود الشيء . فما لم يكن يدرك بحاسة أو أكثر من الحواس الخمس كان يعتبر خرافة ويجب عزله عن مجال الوجود الموضوعى . ونستطيع أن نقرر في الواقع أن العلم الحديث — بافصاح مجاله للوجود الفيزيائى غير المدرك بالطريق المباشر — إنما يكون قد اقترب خطوات كثيرة من نطاق الروحانيات . فطالما استباح العلم لنفسه أن يفسح مجاله لما ليس بمحسوس فانه يكون في نفس الوقت قد فتح مجالات افتراضية سوف تتلرج في نطاقه في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد : ولعله قد بدأ بالفعل في تناول بعض الأمور الروحانية لا باعتبارها خرافات يجب محاربتها ، بل باعتبارها ظواهر يجب إخضاعها للتجريب العلمى لتقنيها . فمنذ ما لا يزيد عن بضع سنوات قليلة لم يكن أحد علماء النفس يجرؤ على التحدث عن الظواهر النفسية الخارقة والسحر والتنجيم ، إلا باعتبار أنها خرافات ومن افتعال القائلين بها والزاعمين لوجودها . ولكن الملاحظ في السنوات الأخيرة أن موضوع الخوارق قد بدأ يحتل فصولا بكاملا في كتب علم النفس الجادة ، وصار فرع علم النفس المعروف باسم الباراسيكولوجيا — أى علم نفس الخوارق — يحتل مكانة مرموقة في الكثير من الكتب والمراجع السيكلوجية .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه على أصحاب هذا المعنى الواقعى هو : هل تعمل الوقائع الحسية على إلهام الإنسان بفاعلية صادرة عنها كما تفعل للكائنات الروحانية في زعم أصحاب المعنى الغيبى ؟ إننا يلزاء هذا السؤال نجد إجابتين متباينتين : الإجابة الأولى تقول : نعم ، إن الوقائع الحسية تؤثر بلا شك في الإنسان وتلهمه بتأثيرها بالأفكار والعواطف والتصرفات .

أما الإجابة الثانية فهي تنكر مثل هذا التأثير إنكاراً تاماً ، ويعتقد أصحابها أن الإنسان هو الذى ينبعث فى فكره من دخيلته وأنه لا شأن للأشياء الحسية والوقائع المادية فى إلهامه من قريب أو بعيد بأى شئ ، وعلينا إذن أن نقاضل بين هاتين الإجابتين لتحديد موقفنا منهما . فبالنسبة للإجابة الأولى فإننا نخال أن أصحابها يبرهنون على التأثير الإلهامى المباشر للمحسوسات والوقائع الحسية بالبراهين التالية :

أولاً : إن الإنسان لا يعدو أن يكون جانباً أو شريحة من هذا الكون المحيط به . ومن أهم خصائص الكون الذى نعيش فيه أنه متفاعل بعضه ببعض ، ومؤثر ببعضه فى بعض . ولعل من بين التفاعلات والتأثيرات الإلهام يصلر عن الوقائع المحسوسة فيؤثر بطريقة أو بأخرى فى بعض الناس الذين يمكن اعتبارهم خامات صالحة للتأثر بتلك الإلهامات . فالإلهام هنا يفسر بطريقة ميكانيكية وليس بطريقة انتقائية من جانب الشخص الملهم . والمسألة تتوقف بالنسبة لمدى تأثير إلهام الوقائع الحسية على مدى جودة الحاسة البشرية . فالأشخاص الذين يعتبرون خامات جيدة لاستقبال الإلهامات يكونون أكثر من غيرهم قدرة على التقبل الإلهامى والامتداد به فى مجالات متباينة مناسبة . فالبعض منهم ينحى بالإلهام إلى منحنى عقلى وبعضهم يتجه به إلى منحنى عاطفى ، والبعض الثالث يتجه به وجهة عملية :

ثانياً : وحتى عندما يكون للإنسان دور انتقائى فيما يوجه إليه من إلهامات صادرة عن الوقائع الحسية ، فإنه فى نهاية الأمر لا يعدو أن يكون جزءاً من الطبيعة . وحتى إذا أراد الإنسان أن يميز نفسه عن الوجود العام ، فلا مانع من القول بوجود عالمين : العالم الكبير المحيط بالإنسان والعالم الصغير الذى هو الإنسان نفسه بما جبل عليه من إمكانيات عقلية ووجدانية وأدائية .

ثالثاً : يجب ألا ننسى أن الوجود من حول الإنسان يؤثر فيه تأثيراً مستمراً من جهتين : فهو يؤثر فى الكائنات الحية عموماً وفى الجنس

البشرى خصوصا . أما الجهة الأخرى التى يؤثر بها الوجود فى الإنسان فهو التأثير منذ الطفولة الباكرة أو قبلها بمعنى أصبح - فى أحشاء الأم - ويظل هذا التأثير مستمرا حتى الشيخوخة . ولعلنا نقول إن التأثير الشمولى فى الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان عبر ملايين السنين ، ثم التأثير الفردى فى الواحد من بنى الإنسان منذ أن كان جنينا حتى مماته ، إنما يكرن تأثيرا إلهاميا فى جوانب كثيرة منه . وما الذى يمنع من القول بأن ما يتبدى من طفرات فى الكائنات الحية إنما هو فى واقع الأمر إلهام لا شعورى يصلر إلى تلك الكائنات الحية فتستحيل إلى خط تطورى جديد . وكذا الحال بالنسبة لما يلدو من طفرات ذهنية أو من عبقریات تلتهم فجأة فى حياة بعض الأفراد . إننا نستطيع أن نقول أن هذا يمكن أن يترجم بكونه إلهامات لا شعورية ، وهى إلهامات تتقابل وتباین مع الإلهامات الشعورية . فبعض ما نلهم به يستحيل إلى واقع بغير أن نلدى بينا نجد أن بعض ما نلهم به يكون عن وعى وإدراك .

أما الإجابة الثانية عن السؤال الذى أثارناه عما إذا كانت الوقائع الحسية تعمل على إلهام الإنسان بفاعلية صادرة عنها كما تفعل الكائنات الروحانية فى زعم أصحاب المعنى الغيبى ، وهى الإجابة التى تتكر ذلك ويقول أصحابها بأن الإنسان هو الذى ينبعث فى فكره عن دخيلته وأنه لا شأن للأشياء الحسية والوقائع المادية فى إلهامه من قريب أو بعيد بأى شيء ، فإنهم يبرهنون على رأيهم بالبراهين التالية كما نحلها ونختيلها :

أولا : إن مصدر الإلهام هو مصدر داخلى بحت يعتمد على مبدأ تداعى الأفكار حيث لا يكون الإلهام سوى سلسلة يصنعها الملهم بعقله . وقد تكون تلك السلسلة طويلة فيكون الإلهام ممتدا إلى آفاق بعيدة ، كما أنها قد تكون قصيرة ، فيكون الإلهام مخلودا . فما يسمى بالإلهام ليس إلا تنظيما عقليا من صنع المرء . وما تأثير الأشياء من حولنا إلا تأثير ثانوى جدا . فقطعة البداية ومحور العملية الإلهامية هما عقل المرء ووجدانه ويداها .

ثانيا : ولقد نقول - أعنى ما يقوله أصحاب هذا الرأى - هو أن الإنسان يقوم بعمليات تجريبية تتبنى على أساس المحاولة والخطأ في ذهنه أو في الواقع العملى ، ويستخلص من تلك العمليات نتائج مبهرة تعتبر في أنظار البعض إلهامات خارقة . ولعل من الأوفى أن يقال إن بعض الناس يفيدون أكثر من غيرهم من عمليات المحاولة والخطأ . وهؤلاء هم الملهمون .

ثالثا : إن الإنسان يستطيع أن يعيد تنظيم الأشياء . وهناك من لأشخاص من لديهم قدرة هائلة على القيام بالعمليات التنظيمية بحيث يتسنى لهم خلق أنساق لم تكن موجودة . فما يخلقونه من أنساق مبهرة تترجم في أنظار بعض الناس بأنها إلهامات لدنية .

ولعنا بعد هذا نقول إنه على أية حال فإن أصحاب الإجابتين السابقتين يتفقون جميعا حول حقيقة واحدة هي إنكارهم للمعنى الغيبى للإلهام وليس اختلافهم إلا حول مركز الثقل في الإلهام الواقعى .

المعنى السيكلوجى :

بينما نجد أن المعنى الغيبى للإلهام يركز على فاعلية الكائنات الروحية وتأثيرها في عقل المرء ووجدانه وتصرفاته ، وبينما نجد أن المعنى الواقعى للإلهام يركز على الوجود المحيط بالفرد وتأثيره فيه ، فإننا نجد أن المعنى السيكلوجى للإلهام قد انتحى منحى ثالثا مابينا . فهو يتقل مركز الثقل إلى دخيلة الإنسان نفسه باعتبار أن عقل الفرد ووجدانه وإرادته هي بمثابة المصنع أو الدينامو الذى يصنع أو يولد الكهرباء الإلهامية إذا صح التشبيه . فعلينا إذن - ونحن يلزاء هذا المعنى السيكلوجى - أن نركز الذهن على دخيلة المرء وأن نقدم معنى الإلهام من هذه الزاوية الداخلية .

وبادىء ذى بدء نقرر أن مثلث النشاط الذهنى لدى الإنسان ■ أعنى العقل والوجدان والإرادة ، يعمل بصفة مستمرة شأنه في ذلك شأن القلب .

فهو لا يتوقف عن ممارسة نشاطه سواء كنا يقظانين أم نائمين ، وسواء كنا في حالة صحو أم في حالة كسل ، أو واقعين تحت تأثير مخدر . بيد أن النشاط الذهني يمكن أن يكون أكثر نشاطا في بعض الحالات عنه في حالات أخرى . ولكن مهما خفت وهج النشاط الذهني في بعض الحالات ، فإن ذلك الحفوت لا يمكن أن يصل إلى درجة التوقف التام عن العمل . ولقد نزع بحق أن بعض حالات النشاط الذهني في أثناء النوم أو تحت تأثير التخدير يكون أقل تقيدا وأكثر تحررا عنه في حالة اليقظة والوعي الكامل . فمن الحقائق المعروفة أن المنع البشري محكوم بقوتين متضادتين : قوة الكف أو المنع ، وقوة الإثارة أو الإنطلاق في النشاط إلى الخارج . وفي حالات النوم أو التخدير فإن قوة الكف تضعف وبذا تتاح الفرصة لظهور نشاط قوة الإثارة والانطلاق وتمتعها بالسيادة على ذهن المرء .

ونحن نعتقد أن الإلهام بمثابة شطحة أو خروج عن الخطية الفكرية أو الوجدانية أو النزوعية . ذلك أن الإلهام يتسم أكثر ما يتسم بالجدة وشق خط جديد لم يسبق للمرء أن شقه . فإذا كنت تلعب إلى عمك كل يوم واستيقظت في الصباح وواتك فكرة الهوض من الفراش والتوجه إلى عمك ، فانتا لا نستطيع أن نعتبر الفكرة التي وابتك في هذه الحالة إلهاما ، بل نعتبرها عادة ذهنية تواتيك كل يوم من أيام العمل بغير تخلف . ولكن إذا وابتك فكرة جديدة تماما لم يسبق لك أن فكرت فيها قبل ذلك كأن تنشئ مزرعة للدواجن على قطعة أرض تشتريها لهذا الغرض بما سبق أن ادخرته من مال وبدأت بالفعل في تنفيذ تلك الفكرة الطارئة فنجحت في مشروعك ثم استقلت من وظيفتك للتفرغ لمشروعك الذي اتسع نطاقه وتضخم رأسماله وكثرت مسؤولياته ، قانتا نعتبر أن تلك الفكرة التي وابتك ذات يوم فجأة إنما هي فكره إلهامية .

ولقد نعتبر أن الإلهام بمثابة ماسة نادرة لا يمكن صنعها في مصنع أو التخطيط لتطورها ونموها . فالتلقائية وحدها هي التي تتحكم في صنع أو بتعبير أدق تكوين — الماسة — كذلك الحال بالنسبة للإلهام . فنحن بارادتنا

وعقلنا الواعى وعواطفنا التى نستشعرها وإرادتنا التى نحركها ونوجهها لا نستطيع أن نلهم أنفسنا بأنفسنا . فالإلهام يواتينا ونحن فى غفلة من أمرنا . وإذا سعينا إليه فانه يسارع إلى الإفلات من قبضتنا إذا جاز أن تمسك بطرف ثيابه . ومن المبالغة أن نقول إننا نستطيع حتى مجرد الاقتراب من الإلهام . إنه يهبط علينا فجأة كما تفعل الأطباق الطائرة التى تهبط فجأة على إحدى البقاع بغير سابق ترقب أو توقع .

ونحن نزعم أن الأفكار والعواطف والإرادات بمثابة كائنات حية تعيش بداخلنا . وهى لا تكتفى بمجرد الحياة ثم يقضى عليها بالموت أو للنبول ، بل هى تتألف فيما بينها وتزواج وتنجب أجيالا جديدة من الأفكار والعواطف والإرادات . على أن الغالبية العظمى مما ينبج نتيجة ذلك الزواج يكون غشا هشا بل ويكون عرضة للهلاك الوشيك . ولكن من بين تلك الأجيال الجديدة من الأفكار والعواطف والإرادات نجد بعضا نادرا يكون فلذا عجيبا . وأكثر من هذا فان أكثر تلك الأفكار والعواطف والإرادات يكون ملحا على أن يظهر ويفرض نفسه على ذهن المرء ويصر على الطفو على سطح السلوك والتبدى فى حياة المرء .

والواقع أن هناك إلهامات كثيرة ترد إلى ذهن المرء ولكنها لا تكون بالقوة والإلحاح اللذين يسمحان لها بالطفو على سطح السلوك والتبدى فى حياة المرء أو ترجمتها إلى واقع سلوكى أو إلى تصرف مؤثر أو دائم . وليس بخاف أن هناك مجموعة من الشروط التى يجب أن تتوافر لدى الشخص حتى يتسنى له التقاط الإلهامات التى ترد إليه وإحالتها إلى واقع متجسد بالفعل فى حياته . ولعلنا نلخص تلك الشروط فيما يلى :

أولا : قوة الإلهام : ذلك أن ثمة عدة إلهامات متباعدة أو حتى متعارضة بعضها مع بعض يمكن أن ترد إلى ذهن المرء . والشأن هنا كالأشأن بالنسبة للكائنات الحية . فكما أن البقاء للأقوى بالنسبة للكائنات الحية ، كذا فان البقاء واستمرار الوجود لا يقيض للإلهامات جميعا ، بل يقيض للإلهامات

التي تستطيع الثبات في معركة البقاء . ومعنى هذا في الواقع أن هناك معركة طاحنة تدور بين الإلهامات المتباينة فتهلك معظمها ولا يظل على قيد الحياة منها إلا تلك الإلهامات القوية المناضلة التي تستطيع أن تغلب على سواها . ولا يخفى أن بعض الإلهامات تجدد لها إلهامات أخرى تنصرها وتظهرها وتساعدتها في معركتها من أجل البقاء . فثمة إلهامات منسجمة بعضها مع بعض ، وإلهامات أخرى تناهض بعضها بعضا وتحارب بعضها بعضا .

ثانياً : تسليح المرء بالإمكانات التي تساعد على رعاية الإلهامات التي ترد إليه : فهناك في الواقع مضمون الإلهام من جهة ، ووسائل رعايته وإخراجه من حيز الكون إلى حيز الواقع من جهة أخرى . ولتأخذ مثالا بشخص ترد إلى ذهنه إلهامات تتعلق بقصص رائعة . ولكن ذلك الشخص لا يمارس الكتابة ولا يعرف فنون التعبير القصصي . فهو يلتقط تلك الإلهامات ولكنه يعجز عن رعاية ما بزغ في ذهنه ولا يستطيع إحالة ما ألهم به إلى قصة مكتوبة . فعلى الرغم من توافر الإلهام للشخص ، فإن هجره عن التعبير بالكتابة عما يدور بخله ينأى به عن الإفصاح عن إلهامه القصصي في أسلوب مقبول أو فني .

ثالثاً : تأزر الفكر والوجدان والارادة : فليس بكاف أن ترد إلى عقلك بعض الإلهامات لكي يتسنى لك الإفصاح عنها ، بل لا بد من تأزر وتكاتف العقل والوجدان والإرادة معا ، فيتسنى بذلك إحالة الإلهامات إلى واقع وجودي . ذلك أن العقل وحده لا يستطيع أن يعمل . ولعلنا نقول بغير مبالغة إن الوجدان هو الذي يقدم الوقود أو الطاقة للفكرة ، وبعد ذلك يأتي دور الإرادة فيحيل الفكرة المدعمة بالطاقة الوجدانية إلى عمل . والإرادة والفكر وحدهما لا يتسنى لهما إحالة الإلهام إلى وجود فعلي . فكما أن السيارة لا تستطيع أن تتحرك بغير وقود رغم سلامة محركها وباقي أجزائها ووجود السائق الماهر المستعد لقيادتها ، كذلك فإنه بغير الوجدان وما يقدمه من طاقة إلى الفكرة ، فإن الإلهام يظل عاجزا عن الخروج إلى الواقع الخارجي .

رابعاً : تقديم الطاقة المناسبة لترجمة الإلهام إلى واقع : فكل منشط يضطلع به المرء مهما كان ، سواء وقع في نطاق الإلهامات أم خارجها : فإنه يحتاج إلى قدر معين من الطاقة يجب أن يتوافر ، بل يجب أن يجهزه المرء للاضطلاع والإنجاز . وبغير توافر تلك الطاقة بالقدر المناسب ، فإن الانحاز يستحيل . وعلينا أن ننبه إلى ضرورة أن تكون الطاقة أكبر قليلاً مما تحتاج إليه العملية المطلوب إنجازها . وكلما احتاج العمل الإلهامي إلى طاقة إضافية : فإن على المرء أن يجهز الكمية المناسبة لإتمام الإنجاز حتى النهاية . وهناك في الواقع لدى بعض الناس حكمة أو موهبة طبيعية يقدرون بها المناسب من الطاقة المطلوب تقديمها لكل عملية.

خامساً : توزيع الجهد وتجنب التعب والتهكة : فبعض المناشط الإلهامية تكون بحاجة إلى مدة طويلة للتعبير عنها ، ولإخراجها من حيز الكون إلى حيز الواقع . فإذا ما واصل المرء العمل بغير أن يوفر لنفسه القدر المناسب من الراحة والاسترخاء : فإنه قد ينهار قبل أن يتسنى له ترجمة الإلهام وإحالة إلى كيان مفعم بالحياة . والواقع أن الراحة بعد بذل الجهد المناسب وتوزيع وقت الراحة توزيعاً مناسباً وغير متكلف : إنما يساعدان المرء على تجديد نشاطه ، وعلى تلقي إلهامات جديدة . وليس يخاف أن الأشخاص المرهقين لا يستطيعون إنجاز ما سبق أن ألهموا به : أو تلقى إلهامات جديدة .

المعنى الفردي :

يعتقد أصحاب هذا المعنى أن الإلهام نشاط فردي بحيث لا يمت للجماعة التي ينخرط الفرد في إطارها بصلة . فالفرد وليست الجماعة هو الوسط الذي ينصب فيه الإلهام أو ينبثق منه . فسواء كان الإلهام غيبياً أم كان واقعياً أم كان سيكولوجياً : فإنه على أية حال يتسم بالسمة الفردية البحتة من حيث أصوله ونقط بدايته وإن كان مجال تنفيذه وإتجاه انصبابه هو المجتمع وإليه . فاللاعب على ملعب المجتمع هو الفرد بما يكون قد أقسم به من إلهام.

والملاعب - الذى هو المجتمع - متأثر ومتلق ، واللعب - الذى هو الفرد
المهم - هو المؤثر والمصدر لما ألهم به .

ويرهن أصحاب النزعة الفردية فى تفسير الإلهام على ما ينتحون إليه
بمجموعة من البراهين لعلنا نلخصها فيما يلى :

أولاً: طالما أن الإلهام هو خروج عن الخط أو الخطوط التى سبق أن رسمت
وطبقت وروعت فى مجريات الحياة، أو بتعبير آخر طالما أن الإلهام هو إضافة
جديدة لم تكن موجودة بالمجتمع فلا بد أن تلك الإضافة أو الإبداعات الجديدة
تكون من صنع الأفراد وليست من صنع المجتمع. ولقد نقول إن المجتمع ينحو
إلى النمطية ويرفض أن يقاوم الجديد . فن طبيعته الإبقاء على القديم والضرب
وفق الخطوط التى سبق أن رسمت منذ القديم والتى استمر تطبيقها وصارت
بمثابة عادات سلوكية وتطبيقية لا حيلة عنها : فمن أين تصدر إذن
التجديدات ؟ إنها من الأفراد بالتأكيد . وواضح أن كل جديد يقدمه
الفرد مما يثبت أنه عظيم الأثر فى المجتمع إنما يكون إلهاماً وأتى أولئك الأفراد
الملهمين المبدعين .

ثانياً : إن الإلهام كما قلنا بمثابة جوهرة نادرة أو ماسة يستحيل صنعها
عن قصد وتبعاً لتخطيط مرسوم .

وهذا يعنى فى الواقع أن تلك الندرة التى يتسم بها الإلهام لا يمكن أن
تتوزع على مجتمع بأسره . فهى من حظ بعض الأفراد النادرين فى أى
مجتمع وليست من حظ جميع الناس . ولقد نقول بتحرز إن الإلهامات
العظيمة لا تتأتى إلا للنادر من الأفراد ، بينما تواتى الإلهامات الصغيرة
الكثير من الأفراد ، أو قل إن جميع الناس يمكن أن يحظوا ببعض الإلهامات
الصغيرة غير النادرة .

ثالثاً : إن الكثير من الإلهامات التى واثت العباقرة الملهمين لم تكن
تحتاج فى تنفيذها وإخراجها إلى الواقع المحسوس إلى أكثر من الفرد الملهم

نفسه : فالشاعر الملهم والمصور الملهم والنحات الملهم والفيلسوف الملهم والعالم الملهم وغيرهم ليسوا بحاجة إلى مساندة أو إلى تعاون من أحد لكي يخرجوا روائعهم من حيز عقولهم وقلوبهم إلى الواقع المنفذ البادى للعيان : وحتى في الحالات التي يحتاج الأمر فيها إلى مد يد العون إلى ما ألهم به المرء لكي ينفذ ويخرج إلى حيز الواقع الموضوعي ، فإن من يساعلون الشخص الملهم لا يكونون سوى أدوات منفذة لا أكثر . ولتأخذ مثالا بتلاميذ أحد الأنبياء والمبشرين بالدين الذي ألهم به . إنهم لا يكونون سوى أدوات منفذة للإلهام الذي تلقاه النبي من السماء . فهم ليسوا أدوات فاعلة ، بل مجرد أدوات منفذة . فذاية النبي التي اعتمل فيها الإلهام تستحيل إلى موضوعية بادية للعيان بتلك الأدوات البشرية المتمثلة في صحبه والمبشرين بالدين الذي ألهم به .

ولعلنا نقسم الناس بعامة في أى مجتمع من المجتمعات البشرية إلى فئتين : فئة الملهمين من جهة وفئة التابعين لأولئك الملهمين من جهة أخرى . بيد أن الأفراد جميعاً قد أوتوا قدراً ما من الإلهام . فأنت قد تكون ملهماً في موقف ما وتابعا لما ألهم به غيرك في موقف آخر . فلقد يلهم شخص ما في مجتمعك بعمل إختراع ما في أى جانب من جوانب الحضارة التي تشارك فيها ، فبعد أن يضطلع بتنفيذ إختراعه وبعد أن يعم وينتشر ذلك الإختراع ، فانك تكون واحداً من المستفيدين منه والمستخدمين له . أو بتعبير آخر فانك تكون تابعاً على نحو ما لتلك الملهم حتى ولو لم تكن تعرفه بالاسم . فاليوم وأنت تشاهد التلفزيون فانك في الواقع تكون من فئة التابعين للشخص الذي اخترع التلفزيون بغير أن تعرف اسمه أو جنسيته . وكذا الحال بالنسبة للطبيب الذي يفيد من بعض العقاقير التي ألهم بها مخترعو تلك العقاقير في علاج مرضاه . بيد أن ذلك الطبيب نفسه يكون ملهماً في أثناء تشخيص المرض وفي أثناء عملية الربط بين التشخيص من جهة وبين وصف الدواء من جهة أخرى . وفي هذه الحالة يكون المريض أو ذويه تابعين لما ألهم به ذلك الطبيب . فالمسألة إذن نسبية بازاء تلقي الإلهام وتنفيذه والتبعية للملهم فيما يتعلق بتطبيق الإلهام وما يأمر به .

والواقع أن القائلين بهذا المعنى الفردى للإلهام يفسرون الحضارة الإنسانية برمتها في ضوء هذا الاتجاه الفردى في تلقى الإلهام . فما يزعمه أصحاب المعنى الاجتماعي الذي سنعرض له في الموضوع التالي من أن الإلهام هو عملية اجتماعية وأن الفرد من الناس ليس أكثر من مجرد مترجم لما يصدر عن المجتمع من اتجاهات ، وأن الفرد ليس ملهما في الواقع بل هو مجرد أداة للمجتمع يترجم بها ما يريد . إنما هو زعم خاطيء في نظر الفرديين بازاء الإلهام . فهم يفسرون الحضارة كلها بما ينبت وتبلور ويخرج جاهزا من الفرد إلى أفراد آخرين حوله . فليس للمجتمع أى تأثير إذن بناء على هذه النزعة الفردية في التأثير ، بل الفرد هو صاحب الفضل الأول والأخير في الإلهام . وبعبارة أخرى نقول إن الفرد هو المؤثر والفاعل ، وأن المجتمع هو المتأثر والمنفعل بما يصدر عن الفرد من إلهام متبلور في شكل فكرة أو اختراع أو عبارات أو نصائح .

وليس من شك في أن هناك ما يشبه العداء أو التصادم بين إرادة الإلهام من جهة ، وبين إرادة التنفيذ والتبعية من جهة أخرى . ذلك أن الإلهام الجديد لا بد أن يتعارض على نحو أو آخر مع ما سبق أن ألهم به أشخاص آخرون . وحتى في حالة التكامل أو التساوق بين إلهامين أو أكثر ، فإن مجرد التباين يعنى في نفس الوقت إسقاط جانب سابق لإقامة جانب جديد . والطبيعة البشرية القطعية أو الجمعية تحاول دائبة على أن تثبت بالقديم وأن تقاوم الجديد . فالجديد مخوف وينظر إليه بحذر وارتياح ، بينما القديم يتناول ويمارس بتقبل وارتياح . من هنا فإن الملهم لا يكون مجرد فرد مقبول ومحظى بالتجلة والرحيب ، بل هو في الواقع جسم غريب على المجتمع ، ومن ثم فإن إلهامه يلقي المقاومة والازدراء والبذ . ولكن ما أن ينتصر الملهم في معركة الضغط الإلهامى على المجتمع ، حتى يصير ما ألهم به وما قدمه إلى المجتمع من صلب التراث الاجتماعي للمجتمع . بيد أننا يجب أن ننبه إلى أن مقاومة المجتمع للإلهامات تكون مقاومة بسيطة بازاء الماديات ، بينما تكون شديدة وعنيفة بازاء المعنويات

والروحيات . فاختراع آلة جديدة لا يلقي سوى مقاومة خفيفة من المجتمع ولكن تقديم أيديولوجية جديدة أو دين جديد يلقي مقاومة عنيفة للغاية من جانب المجتمع . وشاهد ذلك ما سجله التاريخ نفسه بازاء المخترعات الجديدة من جهة والأديان الجديدة من جهة أخرى .

ونستطيع القول بأن أصحاب هذا المعنى الفردي للإلهام يعتقدون في نفس الوقت أن الإنسان الفرد هو الأصل والمركز في النشاط الإنساني بعمامة وليس الإنسان المجتمع . فاذا كنا نجد أن البعض يقللون من أهمية الفرد قائلين بالعتل الجمعي يدفع بالأفراد ويستخدمهم كأدوات للتعبير عن ذاتيته فاننا نجد على نقيض ذلك ما يذهب إليه أصحاب الاتجاه الفردي في تفسير الإلهام . فهم يعتقدون أن الفرد عندما يلهم بشيء جديد من أى نوع وفى أى مجال من مجالات الحضارة الإنسانية « فلا بد له من أن يكون قد أراح عن كاهله تمام الإراحة تلك المموم والضغوط الاجتماعية التى يضغط بها المجتمع عليه . وبتعبير آخر يجب على الفرد الملهم أن يكون ذاتاً خالصة مستحوذة على أنحائها بغير اندماج أو ذوبان في المجتمع . فهم يقولون إن الفرد إذا ما أدمج أو داب في المجتمع الذى يعيش فيه « فان الإلهام يستحيل عليه بل ويهرب منه . ذلك أن طبيعة الإلهام تستعصى على الشخص العادى أو على الشخص الذى لا يسلخ نفسه عن المجتمع أو الذى لا يستطيع إقامة عازل بينه وبين مجتمعه . ولعلنا نسوق هذا المفهوم على نحو آخر فنقول إن الملهم هو فرد يرى الحضارة الإنسانية من بعيد . ونفس هذا الابتعاد عن المجتمع يسمح للفرد بمشاهدة ذلك الواقع الاجتماعى من منظور موضوعى ، أما في حالة ذوبان الفرد في المجتمع ، فانه لا يستطيع أن يلهم بشيء جديد وذلك لأنه يكون جزءاً من ذلك المجتمع . وبالتالي فان الفرد لا يستطيع أن يكون ملهماً (بكسر الهماء) وملهماً (بفتحها) في نفس الوقت . فالفردية المنزلة أو المتباعدة والمشاركة للمجتمع من بعيد هى وحدها القمينة بتلقى الإلهامات الجديدة في كافة مجريات الحياة وتقليدها من ثم ثمرة ناضجة .

المعنى الاجتماعي :

يتلخص المعنى الاجتماعي للإلهام في القول بأن ما يلهم به بعض الأشخاص من الأفكار أو الأعمال إنما يكون في حقيقة الأمر مجرد تعبير أو ترجمة لما يعمل في صلب المجتمع من أفكار أو إرادات . وبتعبير آخر فإن الأفراد الملهمين لا يعلنون كونهم أبواقا لما يعمل في كيان المجتمع من إرادة . فالمجتمع هو الكل ، والفرد الملهم هو واحد من ذلك الكل . أو هو الجزء أو الجانب المعبر عن الكل . ولقد نقول إن أصحاب هذا المعنى ينيطون المجتمع بمركز الثقل ، بينما ينيطون الفرد الملهم بالجانب الأقل ثقلا أو أهمية . فالأساس هو المجتمع ، والظاهر أو الصدى هو الفرد الملهم . وحتى بالنسبة للزعماء والقادة السياسيين الملهمين ، فإنهم في نظر أصحاب هذا المعنى لا يصلحون في إلهاماتهم السياسية عن وحى من ذواتهم يصدر عن دخائلهم وينصب إلى الخارج حيث المجتمع ، بل هو في الواقع يصدر عن المجتمع وينصب إلى داخل الفرد الملهم . فالمجتمع هو الشمعة المضيئة ، والفرد الملهم هو المرأة التي ينعكس على صفحتها ما يصدر عن الشمعة — التي هي المجتمع — من ضوء . فالضوء الذي يصدر عن المرأة ليس سوى انعكاس لما تتلقاه من ضوء ينبعث أساساً من الشمعة .

ويؤكد الاجتماعيون في تفسير الإلهام بأنه لا يصدر عن الفرد الملهم أساساً ، بل يصدر في واقع الأمر عن المجتمع بالحجج التالية :

أولاً : إن المجتمع سابق على الأفراد الملهمين بالتأكيد . وحتى إذا كان المجتمع من حيث هو كيان بيولوجي يتشكل من مجموع الأفراد المكونين له ، ومن ثم فقد يقال إن الأفراد سابقون على المجتمع من الناحية البيولوجية ، فإن هذا لا يمكن أن يقال بازاء الأسبقية الثقافية أو الأسبقية الحضارية . فالمجتمع سابق على أفرادهِ من حيث الثقافة والحضارة . وما الإلهام الذي ينجح للفردين أنه صادر عن صميم الأفراد سوى إلهام ثقافي أو حضاري ، وبالتالي فإن ما يلهمون به مستشف بالتأكيد من

ثقافة المجتمع أو حضارته ، وليس مستشفا من ثقافة الفرد الملهم أو حضارته ، لأن الفرد خلو من الثقافة أو الحضارة الفردية لأن مثل تلك الثقافة أو تلك الحضارة ليس لها وجود مباين أو متفرد ينحصر به الفرد أو يصلر عنه بداءة .

ثانياً : الأساليب والصيغ التي يعبر بها الفرد الملهم عما ألهم به إنما هي في الواقع أساليب وصيغ اجتماعية . فالشاعر الملهم لا يعبر عن شعره بأساليب وصيغ فردية يبتكرها ابتكاراً أو يختلفها اختلافاً بل هي أساليب وصيغ لغوية مستمدة برمتها من لغة المجتمع الذي ينتمي إليه الشاعر . ونقص الشيء يقال عن الموسيقار الملهم والنحات أو المصور الملهم وعن المخرج الملهم وغيرهم من أفراد توصف منجزاتهم بأنها تعبير عن إلهام يصفه القاديون بأنه إلهام فردي ، والحقيقة أنه من المجتمع وإليه : ذلك أنه لولا الوسيلة التي هي من طبيعة اجتماعية بحته ما كان للإلهام أى وجود .

ثالثاً : ويؤيد الحجة السابقة حجة أخرى يقول بها أصحاب الدراسات اللغوية والفنية بل وأصحاب العلوم أيضاً . فهم جميعاً يؤكدون أن الفصل بين الموضوع وبين وسيلة التعبير عنه إنما هو فصل مفتعل ليس من الحقيقة في شيء . فالشعر مثلاً لا يفصل فيه الكلام عن المضمون ، وكلنا الحال بالنسبة لجميع الفنون والعلوم على تباينها . صحيح أن من الممكن أن نتخيل كلاماً موزوناً ليس شعراً ، أو أن نتخيل زخرفة لا توصف بأنها من الفن أو من صميمه . ولكن العكس أيضاً ليس صحيحاً . فلا يوجد شعر غير متلبس بالصورة اللغوية ، وأيضاً ليس هناك تصوير فني غير استخدام لوسائل التعبير الفنية ، وليس هناك علم غير استخدام لغة العلم أو بالتجريد من المعادلات الرياضية أو نحوها من أساليب التعبير العلمي . وبعبارة أخرى فإن من الممكن أن نجد جثة بلا روح ، ولكننا لا نستطيع أن نتخيل إنساناً آدمياً موجوداً بينما نراه ونعامل معه بغير جسد أو بغير صيغة جسمية نشاهده ونسمعه ونلمسه من خلالها : فالزواج بين جوهر

الشيء ووسيلته ليس اقترانا بل هو وجود تمايز في أنماطه جوانب يوصف جانب أو جوانب منها بأنها جوانب جوهرية ، بينما يوصف جانب أو جوانب أخرى فيه بأنها صورية أو شكلية . فاللغة والمضمون في الشعر لا يلتصقان ببعضهما البعض كما قد يظن البعض ، بل هما كيان واحد متفاعل بعضه ببعض أشد التفاعل وأوثقه وليس التمييز بين المضمون والوسيلة إلا تمييزاً نسبياً فحسب : فالمضمون يمكن أن يكون من إحدى الروايات وسيلة لمضمون آخر أكثر منه جوهرية . وحتى اللغة المستخلصة في الشعر يمكن أن ينظر إليها من زاويتين : زاوية المضمون وزاوية الشكل . وهكذا دواليك بالنسبة للصيغ والأساليب المستخدمة في التعبير الفني أو العلمي . فثمة زاوية يمكن أن ينظر منها إلى تلك الأساليب والصيغ لا باعتبارها أساليب أو صيغ ، بل باعتبار أنها مضامين لها صيغ وأساليب أخرى تستخدم للتعبير عنها ، وحيث إن الأساليب والصيغ هي من طبيعة اجتماعية بحثية ، فإن جميع ما يصدر عن الشخص الملهم إنما هو في حقيقة الأمر من صميم المجتمع ومن نتاجاته وليس من ابتداء الفرد الملهم كما يقول الفرديون في تفسيرهم للابتداء الإلهامي .

ويتضمن المعنى الاجتماعي للإلهام عدة جوانب علينا أن نلخصها ونبلورها فيما يلي :

أولاً : حاجات المجتمع ككل : فالمجتمع عبارة عن كائن حي كبير يتضمن أعضاء هم أبنائه . فعندما يحس ذلك المجتمع بحاجات أساسية تعمل في أنماطه ، فإنه ينبه بعض الأفراد بأن يبتكروا الوسائل المناسبة لسد تلك الحاجات . ولقد يكون أولئك الأفراد بمثابة المنح بالنسبة للجسم . والمنح هو الذي يفكر ويقع على الوسائل المناسبة الكفيلة بسد تلك الحاجات . فالإلهام الذي يعبر عنه الأفراد ليس سوى استجابة لما يعمل في أنماط المجتمع من حاجات . فالمجتمع ينبه أولئك الأفراد الممتازين بما ينبغي عليهم تقديمه لسد حاجاته ، والمجتمع كما قلنا بمثابة كائن حي كبير . وتمثل حاجات المجتمع الأساسية في الأخطار المحيطة به من جهة ، وفي خطى التقدم ببلدك المجتمع إلى الأمام من جهة أخرى .

ثانياً : الحاجات النفسية لأفراد المجتمع : فالمجتمع لا يهتم فقط بحاجاته الأساسية ككل ، بل هو يهتم أيضاً بالحاجات الخاصة بكل فئة من أبنائه وما يعمل على إسماعدهم وإدقائهم . فهو يهتم أيضاً بالهام بعض أفرادهم لتقديم الشعر والموسيقى والفن بعامه والعمل على إسماعاد أبنائه والاستمتاع بما يقدمه إليهم من خلال العباقرة من نتاجات فنية وعلمية ، وهى النتاجات التى لا يكون أولئك العباقرة إزاءها سوى مترجمين عما يدور بخلد المجتمع من رغبات ومثل عليا .

ثالثاً : يحتزن المجتمع آلامه وجوانب الفشل التى تردى فيها عبر العصور . فالاستعمار والعبودية التى يكون المجتمع قد رزح تحت نيرها حقبا طويلة من الزمن وما ساوقها من آلام وإحباطات إنما تظل حية فى لا شعور المجتمع . بيد أن ذلك المجتمع المحبط الذى تتور بدخلته تلك العوامل والمقومات اللاشعورية المنغصة لا يظل مكتوف اليدين بازائها ، بل هو يوحى إلى بعض أبنائه الذين لديهم استعداد لتقبل الإلهام بأن يبتكروا أشياء ووسائل معينة تخلصه من تلك الموم التى تقبل كاهله وتشعره بالاعتماد والإحباط . فما يلهم به الأفراد فى مثل تلك الحالات ليس سوى وسيلة تنفيسية يتخلص المجتمع عن طريقها من تلك المنغصات التى أملت به وأخلت به كل مأخذ واستولت على مقاليدته .

رابعاً : إن هناك ما يمكن أن نعتبره نمواً أو تطورا يحظى به المجتمع — أى مجتمع — . ذلك أن المجتمع فى نظر أصحاب هذا المعنى الاجتماعى بمثابة كائن حى كبير كما قلنا . فكيف يتحقق مثل هذا النمو أو التطور؟ إنه يتم عن طريق ما يقدمه الملهمون من أبنائه . فهؤلاء الملهمون يستشعرون الجوانب التى يخطتها النمو أو التطور ، فيقدمون إلهاماتهم الكفيلة بأحداث النمو أو التطور المنشود ، فليست الإلهامات إذن تسير بطريقة اعتباطية كما يظن الفرديون ، بل هى فى الواقع تسير وفق خطة نمائية تطويرية مرسومة من جانب المجتمع وفق حاجاته النماية أو التطورية. ومن هنا فأننا لا نستطيع اعتبار الأفراد الملهمين سوى مترجمين عما يعوز

المجتمع من نمو وتطور فيعملون إلى تقديم الوسائل والمقومات الكفيلة بإحداث ذلك النمو والتطور على خير وجه وأحسنه . وأكثر من هذا فإن كل ملهم إنما هو في الواقع مكمل لما عجز غيره من ملهمين عن تقديمه . فكان هناك إذن نوعا من التكامل بين الإلهامات المتباينة تفيض للأفراد الملهمين بغير ما زيادة أو نقصان^٤ . فمجموع الإلهامات تصدر عن الأفراد بالمجتمع الواحد إنما هي في الواقع تشكل قواما متكاملا « أو قل تشكل نبعاً كافياً لتحقيق النمو والتطور للمجتمع الذي يثبت فيه الأفراد الملهمون ويحسون الحاجات النائية والتطور التي تعتمل في أوصال المجتمع . ومعنى هذا في نهاية المطاف أن الأفراد الملهمين ليسوا فرديين في إلهامهم « بل هم أبواق تعبيرية يترجم المجتمع بواسطتهم عما يعتمل في جنباته من حاجات ورغبات ومثل عليا ونمو وتطور لتحقيق استمرار التقدم .

الفصل الثانى

سيكولوجية الالهام

الوراثة والبيئة :

قد ينظر البعض إلى الوراثة بالطريقة التى نظرها أرسطو إليها وقد اعتبر أن هناك وجودا بالكون ، أو بالقوة ، ووجوداً آخر بالفعل أو بالواقع . فنواة البليحة نخلة كاملة فى النواة ، أو هى نخلة بالقوة . وعندما تزرع تلك النواة وتصبح نخلة ، فإن الوجود الذى كان وجودا بالقوة سرعان ما يصير وجوداً بالفعل . ذلك أن النواة التى تمثل الوجود بالقوة صارت نخلة أى وجودا بالفعل ، وعلى أرض الواقع . فموجب هذه النظرة الأرسطية يمكن أن يقال إن الجنين يشتمل على جميع مقومات الإنسان المكتمل النمو ، أى أن الجنين هو إنسان بالقوة ، كما أن الإنسان الراشد هو إنسان بالفعل .

بيد أننا نخالف عما إتجه إليه أرسطو ، ونقول إن الوراثة لا تتضمن الإنسان أو مشتملاته كما يظن المتحمسون للوراثة ، بل إن الوراثة مجرد بداية للوجود وليست الوجود نفسه . فهى تشبه عود الثقاب ساعة اشتعاله . أما الحريق المائل الذى ينجم عن اشتعال عود الثقاب وقد امتدت النار منه إلى الأشياء التى تقبل الاشتعال فإنه لم يكن موجودا بدخيلة رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها . وبينما تشبه الوراثة بعود الثقاب فإننا نشبه البيئة بالمواد التى تقبل الاشتعال والتى تلاحق رأس عود الثقاب ساعة اشتعالها . وبذا فإننا نكون قد خففنا من النظرة الشمولية التى ينظر بها المتحمسون للوراثة إلى الإنسان .

وبالنسبة للإلهام فإن أصحاب الوراثة والمبالغين في تأثيرها وأهميتها يقولون إن كل ما يبدو على سطح سلوك المرء قد كان مطمورا بدخيلته . فليس لك أن تفعل شيئاً إلا إذا كان موجوداً بالقوة منذ اللحظة الأولى لوجودك . وكل ما يمكن قوله في نظر أصحاب الوراثة هو أن التركيبات المتباينة بين ما ورثته عن والدك وأسلافك لأبيك ، ثم ما ورثته عن والدتك وعن أسلافك لها يمكن أن تزداد فتزداد بالتالي نسبة ما تحصل عليه من طرف عما تحصل عليه من الطرف الآخر . ولكن المسألة لا تتجاوز في النهاية ما هو مطمور في كيانتك الوراثة سواء من أبيك أو أمك . وبعبارة أخرى فإن ما تلهم به في موقف أو آخر إنما كان في الواقع موجوداً في مقوماتك الوراثة . ولعل الفرق الوحيد في أنظار أصحاب الوراثة بين شخص وآخر في جيلين مختلفين أو أكثر إنما هو فرق في موضوع الإلهام وليس في طبيعته أو نوعيته .

أما بالنسبة للإلهام في نظرنا فهو مبين لهذه النظرة الشمولية . فما تلهم به في مجريات الحياة المتباينة إنما يختلف اختلافاً بيناً تبعاً لما حدث من تطور أو تفاعل بينك وبين المقومات البيئية المتباينة التي تفاعلت معها أو وفقاً لتشبهنا بعود الثقاب هو عملية الاشتعال التي استطاعت نار الوراثة إحداثها فيما حولها فاشتعلت أوارها وتوهجت بحسب ما قبض لها من قابلية للاشتعال أو من قابلية للتوهج اللذهني . فلست بموجب هذه النظرة التفاعلية أسير مجموعة محدودة من الإرثات التي تظل متحركة فيك منذ ميلادك حتى نهاية العمر ، بل إن ما تتفاعل معه من مقومات بيئية كثيرة ومتعددة هو الذي يحظى بنصيب الأمد في كمية ونوعية الإلهامات التي تصل إليك والتي تستطيع الاستحواذ عليها والطفو بها على سطح سلوكك .

وأكثر من هذا فإننا نعتقد أن تفاعلك مع المقومات الخيرية الجديدة إنما هو تفاعل بين آخر مستوى خبري وصلت إليه مع المؤثر الخيري الجديد . فعندما تقرأ الآن هذا الكلام المسطر أمامك فإنك لا تقرؤه بما ورثته من استعدادات عقلية وذكاء موروث ، بل تقرؤه بآخر مستوى

ثقافى قيض لك . ولعلك تشاهد فيه أو تستلهم منه أشياء لا يشاهدها أو يستلهمها غيرك بسبب الحصيلة النهائية التى توصل إليها كل منكما . فالإلهام لا يصل إلينا إلا فى ضوء شروط خبرية لابد أن نكون قد حصلنا عليها : ولتأخذ مثالا بواحد مثل أينشتين . إن لحظات الإلهام التى واثته لاكتشاف نظرية النسبية لم تقيض له اعتباطا بل قيضت له بعد أن نضج إلى مستوى خبرى فى الفيزياء لم يقيض لغيره ممن لم تكتمل ثقافتهم العلمية على نفس النحو وب نفس المستوى من النضج . فالإلهام هو إذن علاقة بين مستوى خبرى توصل إليه المرء وبين جديد يكتشفه فجأة ويطرأ على ذهنه كالتماع مفاجئ يواتيه . وبغير توافر المستوى الخبرى المعين ، لما كان للإلهام إذن وجود حتى ولو كانت الحقائق الإلهامية مرصومة رصا أمامه ، أو مقوشة أمامه ككتاب مفتوح . ذلك أنه مع افتقاد المستوى الخبرى المطلوب للإلهام ، فإنه يكون من رابع المستحيلات إحرازه أو استكناه مضمونه أو تبين قسامته والوقوف على ملامحه .

وهناك ما يمكن أن نسميه بحصيلة الشخصية أو قوامها الثقافى ، فالطفل ساعة ولادته لا يكون حائراً على تلك الحصيلة الخبرية أو على ذلك القوام اللغوى . ولكن ما أن يتفاعل مع المقومات الخبرية الكثيرة حتى يبدأ فى إحراز تلك النواة الخبرية التى تتأق له نتيجة التفاعلات الخبرية المواتية بعضها مع بعض مرة والمتنافرة بعضها مع بعض مرة أخرى . ذلك أن الخبرات التى يحصل عليها المرء لا تنسجم بعضها مع بعض بصفة مستمرة ، بل هى تنسجم مع البعض وتتنافر مع البعض الآخر . ولكن المحصلة الناجمة عن التآزر والتضارب أو تلك النواة الخبرية كما أسميناها هنا ، تتكون بحيث يصير لها كيان مستقل ومتماسك يستعصى على الدوبان ويقاوم المؤثرات الخبرية الجديدة الطارئة .

والواقع أن وجود تلك النواة الخبرية أو المحصلة الخبرية الكثيفة والمتعذر إذابتها هو الذى يحمل البعض على الذهاب إلى أفى الوراثة التى نزلت إلى المرء عبر أسلافه تظل تعمل عملها فى شخصيته . ولعلمهم يؤكدون

ما يذهبون إليه بما يلاحظ من تشابه بين الابن وأبيه أو عمه أو خاله .
والواقع أن من الممكن أن توجد أوجه شبه شديدة بين نواة خبرية لدى
أحد الأشخاص وبين نواة خبرية أخرى لدى شخص آخر بفضل تشابه
الظروف الخبرية ومصادر الخبرة التي تلقى عنها كلا الشخصين خبراتهما .

وواضح أن هذا التفسير الذي ننحو إليه للعلاقة بين الوراثة والبيئة
يتسم بالتأول . ذلك أن إطلاق مجال الاشتغال الخبرى - إذا صح التعبير -
وعلم تقييده محدود ما سبق أن تلقاه المرء عن أسلافه من مقومات موروثه
إنما يفتح المجال على مصاريحه الكثيرة أمام جميع الناس لتلقى الإلهامات
المتباينة إذا ما حاولوا التفاعل بأكبر قدر وبصفة مستمرة مع المقومات
البيئية المحيطة بهم . فمن الممكن أن يظل الاشتغال الخبرى قائماً حتى
الشيخوخة وفي أثناء مراحل الحياة المتباينة . وهذه النظرة التفاضلية تناهض
النظرة التثاؤمية التي ينظر بها أصحاب الوراثة إلى الإلهام . فهم يسجنون
المرء في إطار ما تلقاه من إرثات عن أسلافه القريين والبعيدين . وبالطبع
فإننا بنظرتنا المتعاقبة تقدم معنى جديداً لما يقوم بين الأفراد من فروق ،
فليست الفروق الفردية توجد بين شخص وآخر فيما يلهم به نتيجة للوراثة ،
بل نتيجة لتلك التفاعل الاشتغالي بين المقومات الموروثة وبين المقومات
الخبرية التي أتاحت له أو التي سعى للحصول عليها .

والواقع أننا بهذا الاتجاه التفاعلي نكون قد قلعنا الفرصة الخصبة أمام
جميع الناس لكي يتلقوا إلهامات كثيرة متباينة . ذلك أننا بهذا لا نكون قد
حصرن الإلهام في نطاق ما تلقاه المرء من مقومات وراثية . فليس للإلهام
شرط سوى التفاعل الخبرى مهما كانت المقومات الوراثية التي تلقاها المرء
بداية ضئيلة . فالتار التي يقلعها عود الثقاب ضئيلة على كل حال مهما
كانت كبيرة نسيباً ومهما اختلفت كما أوشدة من عود ثقاب لآخر . المهم
هو تلك المواد القابلة للاشتغال التي تقيض لعود الثقاب لكي يتم الاشتغال
والتوهج ولكي تتسع مساحة وحجم النار المشتعلة . فإذا أنت كفلت لنفسك
مجالات خبرية متعددة ومستمرة ، فإنك تستطيع بذلك أن توفر لنفسك

فرصة كبيرة سانحة لتلقى إلهامات أكثر وأخصب وشديدة التنوع . أما إذا قصرت خبرتك على نطاق واحد ضيق أو على نطاقات محدودة ، فإن المجال الإلهامى يكون من ثم ضيقا .

على أن من الجدير بالذكر أن التفاعل الجبرى يختلف اختلافا جنويا عن الحفظ في الذاكرة . فكل ما يظل كما هو في العقل كما تلقاه المرء لا يكون بالتالى قد خضع للتفاعل الجبرى . فإذا حفظت قصيدة من الشعر وقت بسردها كما حفظتها ، فإنك لا تكون قد تفاعلت خبريا مع مقاماتها . ولكن إذا تفاعلت مع مقوماتها سواء حفظتها أم لم تحفظها ، فإنك تكون بذلك قد تفاعلت معها . فالتفاعل الجبرى مع القصيدة ليس شرطه حفظ النص الشعري . إنه شيء آخر خلاف الحفظ . إنه حصيلة خبرية جليدة كأنها الطعام الذى استحال إلى عصارات مهضومة أو كأنه الماء الذى نشأ عن تفاعل غازى الأوكسجين والإيلروجين ، أو كأنه أى مركب كيميائى آخر . ومعنى هذا أنك يمكن أن تجد شخصا تفاعل مع القصيدة وحفظها في نفس الوقت ، كما يمكن أن تجد شخصا آخر حفظ القصيدة ولم يتفاعل مع مقوماتها ، وشخصا ثالثا لم يحفظ القصيدة ولكنه تفاعل مع مقوماتها الشعرية . فنحن نشترط توافره التفاعل الجبرى كما أوضحناه هنا حتى يتسنى تلقي الإلهامات المتباعدة حسب نوعية الخبرات التى تلقاها المرء وهضمها أو تفاعل معها .

العوامل البيولوجية في الإلهام :

على الرغم من أننا قد خفضنا من غلواء الوراثة في الإلهام ، فإننا نجد أن كيمياء الجسم لها بعيد الأثر في تلقى الإلهام أو استحداثه . ولعلنا جميعا نلاحظ أن أحوالنا الجسمية ذات دخل كبير في الإلهام . ويتبدى هذا أكثر ما يتبدى في الحالات التى يكون لدينا فيها نقص في النوم أو الغذاء أو عندما نكون واقعين تحت تأثير مخدر أو لدى تعاطينا فنجانا من القهوة أو تلخين سيجارة . ولا شك أن ثمة تغيرات كيميائية تقع بالجسم في جميع هذه الحالات وغيرها .

وبالنسبة للشخص الواحد الذى يمكن أن ينعت بأنه ملهم فإننا نجد أن هناك أوقاتا يكون خلالها أكثر إلهاما من أوقات أخرى . وما تفسير هذا إلا بأن كيمياء الجسم تتغير من وقت لآخر ، وأن المرء فى ظل بعض الحالات يكون - بما كفل له من حالات كيميائية جسمية - أكثر قدرة على تقبل الإلهام . ومن جهة أخرى فإن هناك ما يمكن أن ننعتة بالجلبة المزاجية . ولقد دأب الناس منذ القدم على تقسيم الناس إلى فئات مزاجية تخصص كل فئة منها بخصائص عقلية معينة . ولعانا نذكر بهذه المناسبة تقسيم يونج للناس إلى انبساطيين وانطوائيين . وقد قسم كل فئة من من هاتين الفئتين الكبيرتين إلى فئات أربع فرعية . فهناك فئة حلمية انبساطية وفئة حلمية انطوائية ، ضمن الفئات الهاتين التى حددها . وبهنا فى هذا المقام تلك الفئة التى تسمى بفئة الانطوائيين الحلميين . وتضم هذه الفئة الفنانين والشعراء وجميع أولئك الذين يقعون على الحقائق الذهنية الجديدة التى لم يسبق لأحد أن كشف النقاب عنها عن طريق إلهام داخلى مفاجئ لا نتيجة لإعمال العقل التقلى فى الموقف ، بل نتيجة البصيرة الحلمية المفاجئة التى يستطيعون بواسطتها كشف المستور خلافا للأشخاص العاديين الذين يتنرعون بالعقل أو بالحواس فى سبيل الوقوف على الوجود من حولهم . ونفس الشيء يقال عن الانبساطيين الحلميين . فهم يقعون على الحقائق الموضوعية وقوعا مفاجئا . فهم يستعينون بالجلس للقفز إلى النتائج بغير استعانة بالمقدمات الضرورية للوصول إليها فى الأحوال العادية .

والواقع أن الجلس يتباين عن الإلهام فى رأينا . فالجلس هو الخطوة الأولى نحو الإلهام . فبالجلس نكتشف الحقائق الأولية . ولكن بالإلهام نكتشف حقائق كبرى لا يستطيع الجلس وقفنا عليها أو تبصيرنا بها . فالجلس يشبه العمليات الحسابية الأولية التى لا تشكل الرياضيات العليا ، ولكنها الأساس الذى لا مناص عنه لتسلك سلم الرياضيات حتى مشارفها العليا . وبتعبير آخر فإنه بغير أن يكون الانسان حاصلا على الشروط

الكيميائية في جسمه فإنه لا يستطيع أن يصل إلى المرحلة اللاحقة . وهذا يتطلب أن يكون المرء واقعاً في إطار فئة الانطوائين الحسنيين أو في فئة الانبساطيين الحسنيين .

ولعل السؤال الذي يواجهنا هنا هو : هل يتاح الإلهام لهاتين الفئتين من الناس دون غيرهم من فئات أخرى ؟ وبعبارة أخرى : ألا توجد فرصة لتلقي الإلهام إلا لأشخاص معينين دون باقي الناس ؟ إننا نجد في الواقع أن ما لا يتوافر بالجيلة « يمكن استحداثه بالتأثير في كيمياء الجسم على نحو أو آخر . ولا شك أن العلماء يحاولون جهد طاقتهم التأثير في جيلة الانسان ، وذلك عن طريق ما يطلق عليه اسم « الهندسة الوراثية » التي تعد علماً جديداً في مجال استحداث تركيبات جسمية جديدة لدى الناس وذلك بالتأثير في المقومات الوراثية ذاتها قبل تكوين الجنين أو في أثناء حياة المرء .

ونحن نعتقد أن الأجيال القريبة القادمة سوف تشهد تحكما في الجيلة الإنسانية بعد أن صار بمقدور الإنسان أن يتحكم في العالم المحيط به ، أو قل في الكواكب البعيدة . ونستطيع القول بأن الناس يبدلون قصارى جهدهم لتحقيق التوازن بين البحوث التي تتعلق بالكون أو الواقع الخارجي وبين البحوث التي تتعلق بذات الإنسان أو بجيلته البشرية . فكلما سار الإنسان شوطا في البحوث التي تتعلق بالموضوعات الخارجية بالعالم الخارجي ، فإنه يشارع لقطع شوط مماثل ومساو بدخيلته ، أى لسبر أغوار ذاته في جيلته وجيلة الأجيال التالية . ولقد نقول إن ما يحس به الإنسان الحديث من قلق وتوتر إنما ينجم بصفة رئيسية عن إحساسه بأن البون الذي قطعه في معرفة أسرار العالم والكون أبعد بكثير من البون الذي قطعه في سبيل الوقوف على أسرار نفسه . ولكن لا شك أن السنوات القليلة القادمة سوف تشهد تقدما مذهلا في مجال التغيرات البيولوجية وبخاصة تلك المتعلقة بالوراثة والمقومات الوراثية .

وثمة مجال آخر جديد سوف يفتح أمام الإنسان ، ونخاله الآن مفتوحا ولكن بغير تخطيط طبي سليم ، ألا وهو مجال العقاقير الطبية التي تهنيء مزاج الشخص لاستقبال الإلهامات المتباينة . وإنا لنسمع أن بعض الفنانين يتعاطون أنواعا من المخدرات حتى تصفو أمزجتهم وحتى يتسنى لهم التلحين أو الغناء أو التمثيل أو ممارسة غير ذلك من ألوان فنية متباينة . ومن الطبيعي أن تكون تلك المواد المخدرة ضارة بشخصيات وعقول أولئك الفنانين . بيد أن الضرر لا يتأتى عن ذات المواد المستخلصة ، بل يتأتى عن الاستخدام الضار لها . ولكن إذا ما تم إخضاع تلك المواد للطب بحيث نصير ضمن العقاقير المعترف بها من جانب الجهات الطبية ، وبحيث يكون تناولها خاضعا لتوجيه الطبيب المختص ، فإنها سوف لا تكون عندئذ من الضرر في شيء ، بل ستكون طوع الإنسان ومفيدة له في حياته الإلهامية .

والواقع أن الطب قد بدأ بالفعل في معالجة بعض الحالات العقلية والمزاجية عن العقاقير طريق العقاقير فثمة الأقراص المهدئة والأقراص المنبهة كما أن ثمة أقراصا لتقوية الذاكرة . فلماذا لا تستحدث إذن أقراص مثيرة للإلهام أو مهينة لمزاج المرء للإلهام ؟ ولعلنا نقول إن الطب يسير وراء الوصفات الشعبية . فهو يستلهم الخبرات الشعبية التي ذاب الناس على الإيمان بها ثم يحاول كشف النقاب عن الوجهية فيها ، فيستبعد العناصر الضارة أو طرائق الاستخدام الرديئة ويحل محلها عناصر مفيدة وطرائق استخدام جيدة . فإذا كنا نجد اليوم أن بعض الفنانين يتعاطون المخدرات ويجدون في تعاطيها ما يهيمهم للإلهام ، فإن الطب بعلمائه يجب أن يتدخل فيعكف أولئك العلماء على البحث في الفوائد والمضار بغير وجل أو تهيب ، وذلك بقصد التوصل إلى المفيد والضار ، والناجع وغير الناجع وطرائق الاستخدام الطبية السليمة لما يكشف عنه البحث من عناصر مفيدة في تلك المواد . وليس هذا بالأمر المستغرب أو الفكرة المرفوضة من أساسها . فإننا نجد أن الطب بالفعل يستخدم المخدرات في العمليات الجراحية ولكن بعد أن

تستحيل تلك العناصر المخدرة إلى مواد طيبة مقبنة . فالتقنين إذن هو الأساس . وطالما أن الإشراف الطبى وإيلاج تلك المواد فى المعامل الطبية قد صار هو القاعدة المعمول بها « فلا جناح بالتانى فى مثل ذلك الاستخدام . المهم هو مراعاة الفائدة وإبعاد الضرر سواء على المدى القصير أم على المدى البعيد .

ومن يدرى ماذا يحمله المستقبل بالنسبة للإلهام فى علاقاته بالإنسان باعتبار أنه كائن بيولوجى ؟ ربما تكشف الدراسات الفسيولوجية المتعلقة بالملخ - وهو الجهاز المعقد الذى لم يتم كشف النقاب عن كثير من أسرارهِ بعد - عن أن بالملخ مراكز معينة للإلهام « وأن تلك المراكز تقوى عن طريق وسائل معينة كأن تكون أشعة كهربية دقيقة توجه إليها فتشطها أو تغذيها ، أو كأن ينظف حولها بنوع دقيق من الجراحات أو كأن يقوم الأطباء بإضعاف مراكز أخرى مجاورة لأنها تضايق أو تعاكس تلك المراكز الإلهامية . ولقد تكشف الدراسات والبحوث الطبية عن مواد معينة إذا ما حقن بها المرء فإن تلك المراكز الإلهامية بالملخ سوف تقوى وتنتعش . الواقع أن الملخ ما يزال غامضاً بدليل أن الطب لم يكشف النقاب بعد عن الوظيفة الاتصالية الروحية التى تضطلع بها بعض أنحاش الناس بعضهم ببعض فيما يعرف بالتخاطر عبر مسافات شاسعة ، وكذا الظواهر الخارقة الأخرى كمخاطبة الأرواح أو مشاهدة أشباح لها وجود حقيقى لأنها تترك أثرها على أشياء معينة كأن تكون بصمات على شمع فى درجة حرارة معينة دفيئة، أو نحو ذلك من براهين قاطعة على الوجود الموضوعى لتلك الأشباح .

ومن المؤكد أيضاً أن للغدد الصماء وبخاصة الغدة النخامية Pituitary gland أهمية خاصة فى هذا المضمار الإلهامى . ونستطيع القول بأن الدراسات الهرمونية سوف تحمل الكثير مما سوف يكون له بالملخ الأثر فى حياة المرء الإلهامية . ونأسف إذ نقرر أن القدر الأكبر من الدراسات حول الغدد وما تفرزه من هورمونات إنما ينصب على الحالات المرضية . ولكن

المستقبل سوف يحمل معه دراسات تتعلق بمن هم فوق مستوى السوية ،
أعني العباقرة والملمهين وأثر بعض المورمونات في إلهامهم .

الذكاء والإلهام :

الذكاء هو القدرة على إقامة علاقات بين الأشياء الموجودة بالموقف
أو بتلك التي ليست موجودة به . المهم أن الذكاء يتركز بصفة جوهرية
على إقامة العلاقات . وحتى بالنسبة للذكاء العملي أو الذكاء الاجتماعي
فإننا نجد أن القدرة على إقامة العلاقات بين المقومات المتباينة واستحداث
أنساق جديدة فيما بينها يترجم ما حبي به المرء من ذكاء . وبالنسبة للإلهام
في علاقته بالذكاء فإننا نجد أن الشخص الأكثر ذكاء يكون بالتالي أكثر
قدرة على تلقي الإلهامات المتباينة .

على أن الذكاء وحده ليس المسبب للإلهام أو محدثه . إننا نستطيع
القول بأن الذكاء هو الخامة العقلية – أو قل بتعبير أدق – هو إحدى
الخامتين الأساسيتين اللتين يصنع منهما الإلهام ، أو تصنع منها الخلفية
المناسبة للإلهام . ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نقول إن كل شخص على
مستوى عال من الذكاء يكون ملهما . فثمة في الواقع قفزات أو طفرات
تبلو في حياة الملمه الذهنية . وهذا هو ما نسميه بالإلهام . فالإلهام ليس
تدرجا مستمرا عن طريق الاستمرار في إقامة علاقات أكثر دقة وتعمداً
بين المقومات المتباينة – سواء كانت بالموقف أو خارجه ، بل إن الإلهام
هو قفز من أقصى ما توصل إليه المرء إلى مستوى جديد يترك وراءه
فجوات يغطيها المرء بتلك القفزات الناجمة عن الإلهام .

ومعنى هذا أننا لا نجعل الذكاء هو العامل المؤثر الوحيد في الإلهام ،
بل وأكثر من هذا فإننا لا نجعل للذكاء سوى مكانة ثانوية أو قل إن عمل
الذكاء هو المساعدة فحسب على تلقي الإلهامات .

ونحن نستطيع في الواقع أن نقف على أنواع متباينة من الذكاء .
فهناك إلى جانب الذكاء العقلي المنطقي ذكاء وجداني يتعلق بإقامة صلات

وعلاقات بين الانفعالات والوجدانات والعواطف المتباينة . فكل منا يفعل وكل منا تعمل في دخيلته وجدانات متباينة . وكل منا لديه عواطف متباينة تلدور حول محاور أو موضوعات متميزة . ولكن لست جميعاً بنفس القدرة على إقامة علاقات دقيقة مناسبة للمواقف المتباينة بين تلك الانفعالات والوجدانات والعواطف . فثمة تباين من شخص لآخر فيما يتعلق بالقدرة على إقامة تلك العلاقات . ولنا أن نقول إن هناك مواقف الهامة بالنسبة لترتيب أو توظيف تلك الانفعالات والوجدانات والعواطف . ولعلنا نقول إن هناك عباقرة ملهمين يستحدثون علاقات بينها لا يمكن أن تتوافر للأشخاص العاديين ، أو حتى لأولئك الذين أوتوا ذكاء وجدانياً مرتفعاً . فمثل تلك المواقف الإلهامية فيما يتعلق بالحياة الوجدانية وما تتضمنه من علاقات دقيقة إنما تكون بمثابة قفزات إلهامية تواتى أولئك العباقرة الملهمين . ويتبدى الإلهام الوجداني بما يؤثر به أولئك العباقرة فيمن حولهم من أشخاص بشكل مذهل لا يمكن أن يتأتى لسواهم . ولعلنا نلمس هذا الذى نقصده فى الأنبياء الذين يؤثرون بموقف واحد أو بكلمات قليلة معينة فى نفوس المحيطين بهم فيأسرونهم فى نطاق الدين الذى يدعون إليه . ولعلنا نلمسه أيضاً فيما يمكن أن يتحملوه برضا وجور وسعادة فائقة من تعذيب أو امتهان أو جوع أو عطش . ولكنهم يحطلون من البؤس سعادة ومن الجوع شبعاً ومن العطش رياً ومن الآلام لذائذ لا توصف .

وإلى جانب الذكاء الوجداني ، فإننا نجد نوعاً ثالثاً من الذكاء هو الذكاء التعبيري الذى يضم الحركات والإشارات والإيماءات والكلمات والعبارات وموسيقى الكلام . على أننا نميز بين التعبير المعتمد على التقليد وبين التعبير المعتمد على إقامة علاقات جديدة بين ما يمكن استخدامه من حركات أو عبارات . فالمقلد شخص قد يكون خلواً من الذكاء الخارق . أما المبدع فإنه شخص أوتى قلدراً معيناً من الذكاء حسبما يتسنى له من إبداع . فالشخص الذى يستحدث إشارات جديدة فى إيصال

ما يقصده إلى من يتحدث إليهم ، وكذا الشخص الذى يتحدث استخدامات جديدة للغة الكلام أو لغة الكتابة لم تكن قائمة أو موجودة أو مستخدمة من قبل ، إنما يكون على جانب كبير من الذكاء . ولكن هناك إلى جانب التفسير بالذكاء التفسير بالإلهام ، وذلك فى الحالات التى يصل فيها التعبير إلى درجة الإعجاز . فلقد تقول إن أحد الشعراء بينما يكون ذكياً فى بعض قصائده « فإنه يكون قد ألهم فى بعض قصائده النادرة . فعلى الرغم من أن الشاعر هو لم يتغير ، وعلى الرغم من أنه لم يستزد فى تحصيله الثقافى أو اللغوى » فإن عبقريته الإلهامية تبدو فى تلك القصائد النادرة التى تعتبر قلعة أو قفزة إلهامية تخالف عما نألفه فى مستوى ذلك الشاعر الشعرى . فالإلهام الأدبى هنا لا يكون نتيجة ذكاء تعبرى ، بل يكون نتيجة إلهام أدبى .

أما النوع الرابع من الذكاء فهو الذكاء الموسيقى . وهذا النوع من الذكاء ينصب على إقامة علاقات دقيقة بين النغمات المتباينة . ولعلنا نقول إنه عند نقطة معينة فإننا نلاحظ أن الموسيقى قد قفزت بطفرة شامخة أعلى بكثير مما يقضى له عادة فى التلحين . ولعلنا نلاحظ هذا فى إبداع بعض الملحنين من موسيقيينا . وفى رأينا أن أغنية الربيع لقريد الأطراش تعد مثالا لما ألهم به ذلك الموسيقى . إنك عندما تستمع إليها تحس بالقفزة أو بالطفرة التى قفزها فريدل بحيث ارتفع عن مستوى ذكائه الموسيقى ارتفاعاً شامخاً . وقل نفس الشيء بالنسبة لكل ملحن من الملحنين العرب وغيرهم من ملحنين بالشرق والغرب ، وفى الماضى والحاضر . والواقع أن الموسيقى الملهم لا يكون بعقله الواعى وهو يبدع إبداعاً إلهامياً ، بل يكون فى أثناء التلحين غائصاً إلى عمق أعماقه . فهو لا يكون مجرد شخص يركز ذهنه فى المقومات اللحنية المطروحة أمامه ، بل يكون فى مرتبة أعلى من هذه المرتبة الذكائية . إنه يكون قد بلغ المرتبة الإلهامية ■

أما النوع الخامس من الذكاء فهو الذكاء الأدبى . وفى هذا النوع من الذكاء فإن الشخص يقيم علاقات دقيقة بين أشياء أو أجزاء أو أجهزة

أو أدوات أو خامات لكي يستحدث تركيبات جديدة أو أجهزة مستحدثة أو نحو ذلك من ابتكارات مفيدة يقوم الآخرون من بعده بنشرها وإذاعتها واستخدامها على نطاق واسع . ولنا أن نقول على نفس النحو أن هناك مرتبة ترتفع وتعلو عن مستوى الذكاء العادى لكي تبلغ مرتبة الإلهام . ولعل المخترع أو المكتشف يرتفع فى بعض الحالات الإختراعية أو الاكتشافية إلى مستوى أبعد شأوا بكثير من تدرته العادية التى يمكن استشفافها أو الوقوف عليها فى مخترعاته أو مكشفاتة السابقة . إنه فى إختراع معين يقفز قفزة هائلة أو يطفر طفرة شاسعة لا قبل له بها فى الأوقات العادية . إنه قد يقول لك إنه لم يكن له أن يصل إلى إختراعه أو إلى إكتشافه بذلك . بل هو توفيق وانه فى لحظات إلهامية عجيبة .

ولنا أن نقول إن العلاقة بين الذكاء بأنواعه المتباينة وبين الإلهام ليست مجرد علاقة كمية حيث يزداد الإلهام كما عن الذكاء بل هناك أيضا مفارقة كيفية بين الذكاء والإلهام . فالزيادة الكمية فى الموقف الإلهامى ليست زيادة تدرجية بل هى زيادة طفوية مفاجئة . إنها تشبه الفيضان المفاجيء الذى يدفع بكل شئ أمامه . ولقد نقول أكثر من هذا إن تلك الانهيارات الذهنية تغمر الشخص الملهم وتواتيه عن غير وعى من من جانبه . فهو يكون مسوقا مسوقا أمام تيار الإلهام للدرجة أنه يكون عاجزاً عن وقف ذلك التيار الإلهامى أو الحد من شدته أو سرعة تدفقه . فاللهم يكون كالنشة فى مهب الريح . وبعبارة أخرى فإن الملهم لا يكون مسيطراً على إلهامه ، بل يكون الإلهام هو المسيطر عليه وقد أخذ بكل مقاليد وأسرته أسراً تحت سلطانه . ولعلنا نكشف فى نفس الوقت أن التلقينات الإلهامية تحمل فى طياتها نوعية جديدة لا يمكن تفسيرها بالذكاء فحسب . ذلك إن الشخص الذكى يكون واقعاً على المضامين الكلية والجزئية بالموقف . أما الملهم فإنه قد لا يستبين المقومات التى ألهم بها استبانة تامة . فهو كما قلنا يكون مدفوعاً به فى التيار الإلهامى بحيث لا يستطيع استبانة ما يقدمه إليه الإلهام استبانة تامة : فهو يعمل أو يخترع

أو يقول الشعر أو يلحن بغير أن يدرك إدراكا واعيا ما يعمل به . وهذا في حد ذاته مناف للدراك الذهني لما يعتل في الذهن من أفكار أو علاقات . فكونك في وقت الإلهام لا تترك ما تفكر فيه ، فيأتي ما تفكر فيه شيئا معجزاً وياها را إنما يكون بالتأكيد من نوعية أخرى غير الفكر والاستدلال المنطقي والاستنتاج العقلي . إنه يكون إلهاما من نوع جديد ومن نسيج ذهني آخر غير النسيج العقلي المعروف . ومعنى هذا كله إذن أن علاقة الذكاء بالإلهام ليست علاقة تدرجية ، بل هي علاقة طفوية بالدرجة الأولى ويشكل جوهرى .

الجنس والإلهام :

سبق أن قلنا إن هناك علاقة قوية بين المقومات البيولوجية وبين الإلهام ، وقد ألمعنا في سياق كلامنا عن هذه العلاقة إلى ما للهورمونات من تأثير ذى بال في تهيئة المناخ النفسى للإلهام . وطالما نتحدث عن الهورمونات ، فإننا لا بد أن نشير إلى ما للهورمونات الجنسية أو الهورمونات التى لها علاقة بالجنس .

لعل من أبسط البسائط أن نقول إن المرء بعد أن يجتاز مرحلة الطفولة وينخرط في مرحلة المراهقة ، فإنه يكون متأثرا بالجانب النفسى في حياته العقلية والوجدانية والاجتماعية ، فتصطبغ حياته بصبغة جديدة ، وتثور لديه ميول جديدة لم تكن ظاهرة بنفس القدر في طفولته . ومن الطبيعى أن تستمر هذه الميول الجديدة في حياة المرء في اطراد متزايد إلى أن تصل إلى أوجها خلال الشباب في حوالى الخامسة والعشرين .

والواقع أن الجنس يلعب دورا مهما في حياة المرء الذهنية بوجه عام . فهناك أولا - تقدير الذات . فالإنسان بعد خروجه من إطار الطفولة ثم إنخراطه في إطار المراهقة وما بعدها يحس بأنه قد صار متدقق النمو والتفتق من الداخل . فبعد أن كان خلال الطفولة فيما يشبه الكمون أو بتعبير أدق بعد أن كان الغمر خلال الطفولة وثيدا ، فإنه في المراهقة

والشباب قد صار يتدفق تدفقاً « بل إن تفتحه من الداخل يعمل حثيثاً وبشدة . فالإنسان ينسلخ من واقع ضيق النطاق لكي يندرج في واقع واسع فسيح . فلماذا لا يحس المراهق والشاب والمراهقة والشابة بأنهم صاروا إلى وضع مرموق ؟ لقد استطلال الجسم ونضج وظهرت علامات الرجولة على المراهق والشاب « وعلامات الأنوثة على المراهقة والشابة وما يبيع ذلك من تغير في مواقف الآخرين منهم . إن الناس من حولهم صاروا يعملون لقوتهم وتأثيرهم وآرائهم الحساب كل الحساب . ولقد صار المراهقون والشباب من الجنسين يحسون برجحان العقل ، بل إنهم صاروا يحسون بأن في مقدورهم تحدى أفكار الكبار ومعتقداتهم وما درجوا عليه من عرف وتقاليد وممارسات . فالمنأخ النفسى إذن يكون قد تهيأ تماماً أمام المراهقين والشباب من الجنسين لتلقى الإلهام .

هناك ثانياً تقدير الجنس الآخر تقديراً قد يصل إلى حد التقديس . فبالنسبة للمراهق والشاب يكون للملامح والقدر والحركات والإيماءات والصوت العذب، بل وكل ما يتعلق بالمرأة حتى ملابسها وما تستعين به من أشياء للزينة التأثير الكبير والعميق في مشاعرهما . وكذا الحال بالنسبة للمراهقة والشابة من حيث ما تستشعرانه من تقدير عميق لمن اكتملت رجولته من المراهقين والشباب . ولستنا نغالى إذا قلنا إن المراهقة والشباب هما الفترة من الحياة التى يلهم خلالها اللسان بالشعر كما تعتمل في الذهن أحاسيس نشوانة بالجمال والانسجام والشوق والحنين . وفي هذه الفترة يكون المراهقون والشباب خلالها منكبين على القصص والأفلام التى تدور حول العلاقة الغرامية بين الجنسين وما تلعبه الظروف الاقتصادية من فرقة وحرمان .

هناك ثالثاً الإعلاء أو التسامى . فالطاقة الجنسية لدى المراهقين والشباب من الجنسين يمكن أن ترتفع من المستوى البيولوجى إلى المستوى العاطفى وما يلتف حول هذا المستوى العاطفى من وسائل تعبير فنية وأدبية كالرسم والنحت والشعر الرائع والنثر الجميل . والواقع أن التسامى أو

الإعلاء في حياة المراهقين والشباب يلعب دوراً بعيد المدى في تهيئة الجو النفسي لهم لتلقي الإلهام . ولنا نزع أن مجرد حدوث الإعلاء أو التسامي الوصول إلى مرحلة الإلهام . ذلك أن الإلهام يعنى التفرد وبلوغ مرتبة خاصة لا يستطيع الجميع بلوغها ، بل تستطيع القلة فقط بلوغها . فنحن إذا قلنا إن جميع المراهقين والشباب يحصلون على قدر من الإلهام ، فانا في نفس الوقت نقرر أن ذلك القليل يمكن ألا يؤخذ في الاعتبار . والأمر في هذه الحالة كالأمم بالنسبة لسقوط المطر . فاذا قلنا إن جميع أقطار العالم تسقط بها أمطار، فانا نستطيع في نفس الوقت أن نصرف النظر عن الصحراوات التي يعتبر سقوط الأمطار بها نادرا ، بحيث يمكن التجاوز عن تلك الندرة من المطر التي تسقط عليها ، فنقرر بغير خطأ أن الأمطار لا تسقط على الأراضي الصحراوية . فالإلهام على نفس النحو لا يواى إلا قلة قليلة من المراهقين والشباب . فالتسامى أو الإعلاء هو مجرد أرض خصبة لوقوع الإلهام ، ولكنه لا يشكل وحده الشرط الوحيد أو اللازم للحدوث .

هناك رابعا - الإبدال . والابدال هو إحلال نوع جديد من النشاط لاصلة له اطلاقا بالجنس محل الطاقة الجنسية . فبينما نجد أن الإعلاء أو التسامي هو استحالة من حالة إلى حالة أخرى مع استمرار الارتباط بالجنس كأن يحل الشعر العزلى محل النشاط الجنسي الفسيولوجي، فإننا نجد أن الإبدال خلو من أى ارتباط بالنشاط الجنسي . من ذلك مثلا أن يستبدل المراهق أو الشاب بالنشاط الجنسي نشاطا رياضيا أو نوعا معينا من الهوايات كجمع طوابع البريد أو إصلاح أجهزة التلفزيون . فلاستحالة هنا هي استحالة من كيف ما إلى كيف آخر مابين للكيف الأول تمام التباين . والواقع أن الإبدال يلعب دورا كبيرا في تهيئة المرء لتلقى الإلهام : بيد أن مثل هذا الاعداد لا يعنى تلقي الإلهام بالفعل . فلقد سبق أن قررنا أن التهيئة للإلهام تعتبر المرحلة الأولى التي تسبق المرحلة الثانية المتمثلة في الإلهام . فليس الإبدال وحده بكاف لوقوع الإلهام للمرء .

هناك خامسا وأخيرا — الكبت والقمع الجنسيان . ومعنى هذين اللفظين الحيلولة بين المرء وبين الممارسة الجنسية الصريحة كما هو الحال لدى الحيوانات بعامة . بيد أن الكبت يختلف عن القمع في زاوية الإرادة والقصء من جهة . وفي زاوية التذكر من جهة أخرى . فالكبت يقع رغما عن المرء كأن تصد امرأة المراهق أو الشاب أو تزجره لدى مغالته لها . وتم دورة الكبت عندما ينسى ذلك المراهق أو ذلك الشاب ما أصابه من اهانة . والنسيان هنا ليس نسيانا عقليا ، بل هو نسيان وجداني انفعالي . صحيح أنه إسقاط لموضوع من الذاكرة ولكنه إسقاط إلى الداخل وليس إسقاطاً إلى الخارج ، بمعنى أنه إخفاء للحادثة المهيبة وإبعادها عن بؤرة التذكر ، ولكنه ليس إخماء لها . أما القمع فإنه عملية إرادية . فالمراهق أو الشاب يحول بين نفسه وبين المعاشرة الجنسية وهو المسيطر على نفسه ومجبر ذاته على عدم الاتيان بالنشاط الجنسي . ومن جهة أخرى فإن نسيانه أو إغفاله لما قام به من قمع جنسي ليس نسيانا وجدانيا انفعاليا كما هو الحال في الكبت بل هو نسيان ذهني كنسيان أى موضوع آخر . فسواء ظل القمع عالقا بالذاكرة أم اختفى وتلاشى ، فإن فعل القمع لا يظل معتملا في دخيلة القامع وفي ذهنه أو وجدانه . والواقع أن المكبوتات تظل تعمل في نفسية المرء بحيث قد تظل من وقت لآخر في صور متباعدة بضمنها الاحتدام الذهني الوجداني فيكون المراهق أو الشاب مستعدا لتلقى الإلهامات .

ولعلك تلاحظ في دراسة الشخصيات التي حظيت بالإلهام أن الغالية العظمى منها كانت مفعمة بالمكبوتات الجنسية . ذلك أن تلك المكبوتات يمكن أن تدفع بالشخصية إلى أسفل سافلين فترى بها إلى أحضان الجنون أو إلى ارتكاب الجرائم المختلفة ، أو يمكن أن تدفع بها إلى أعلى عليين فتصير جاهزة لتلقى الإلهامات المتباعدة . بيد أن بلوغ المستوى الرفيع من الاستعداد لتلقى الإلهام ليس بكاف لبأوغ المرحلة الإلهامية . فما يفعله الكبت في بعض الأحيان مع مثل تلك الشخصيات بالدفع بها إلى أعلى عليين ليس

سوى تهيئة المناخ النفسى لتقبل الإلهام . وسوف نعرض فى الموضوع التالى والأخير من هذا الفصل لما أسميناه بالاستغراق الإلهامى . أعنى الحالة التى يبلغها البعض ممن توافرت لهم فرص تقبل الإلهام فصاروا مستعدين بعد ذلك لبلوغ مرحلة الإلهام بعد أن تهيأت نفوسهم لتلقى الإلهام .

والواقع أننا إذا كنا قد ركزنا القول على المراهقة والشباب ، فليس معنى هذا أننا نجرد مراحل العمر التالية حتى الشيخوخة من تأثير الجنس . وأكثر من هذا فإننا لا نجرد الطفولة من تأثير الجنس فى أفرادها . فواقع الأمر أن الجنس يلعب دورا بالغ الأهمية فى تهيئة المرء للإلهام فى جميع مراحل الحياة . ولكن مما لا شك فيه أن الجنس فى المراهقة والشباب يتبوأ مكان الصدارة ويصل إلى الأوج بغير منازع فى هاتين المرحلتين من حياة المرء . وهناك قصص عن أطفال وشيوخ تؤكد ما نزرعه هنا من أن الجنس يلعب دورا بالغ الأهمية فى الحياة الإلهامية . ولا غرو فقد قيل إن العبرى هو شخص تحل لديه المسائل الجنسية مكانة هامة للغاية ، وأنه شخص يظل فى طور المراهقة حتى الشيخوخة . فهو شخص تعتمل لديه ثورتان داليتان بغير خفوت أو هلع : ثورة عقلية وثورة جنسية . وحتى فى الحالات التى ييلو فيها العبرى منصرفا عن الجنس ، فإن انصرافه لا يكون إلا انصرافا ظاهريا يخفى تحته ثورة جنسية عارمة .

الاستغراق الإلهامى :

قلنا أن هناك عوامل تهيئ المرء لتلقى أو تقبل الإلهام كالذكاء والحدس والجنس والمقومات البيولوجية ، ولكننا لم نجعل لأى من تلك العوامل الكلمة الفاصلة فى الإلهام ، ولم نجعل لأى منها اليد الطولى فيه ، أو لم نجعل أياً منها السبب المباشر أو الوحيد للإلهام . فلقد ميزنا بين المؤثر الذى يهيئ الشخصية للإلهام وبين ما أسميناه بالاستغراق الإلهامى ، أعنى الحالة التى يخرج فيها المرء من حالة الاستعداد لتقبل الإلهام إلى الحالة التى يكون فيها ملهما بالفعل .

وعاينا بادىء ذى بدء أن نحدد معنى الاستغراق الإلهامى حتى يتسنى لنا تبين طبيعته والكيفية التى يصل بها المرء إلى تحقيقه فى ذاته . فنحن نعى بالاستغراق الإلهامى ما يأتى :

أولاً - الارتفاع عن مستوى الذات فيما يمكن أن يقوم به المرء عادة .
 ففي الاستغراق الإلهامى يحظى المرء بأفكار تحويلية خطيرة فى حياته أو فى الواقع من حوله . وهذا معناه أن ثمة انخراطا فى حالة نفسية جديدة ليست هى الحالة التى دأب على الانخراط فيها أو الاحساس بها بدخلته . والواقع أن بيننا وبين الحقائق الإلهامية ما يشبه الحجاب للدرجة أننا نستطيع القول بأن هناك ما يشبه التباين فيما بين الاستدلال المنطقى القائم على استقراء الوقائع وبين الإلهام . فطالما أننا نقيّد أنفسنا بالمنطق الذهنى ووبربط المسببات بأسبابها ، فإننا نظل قاصرين عن بلوغ المرحلة الإلهامية . ومعنى هذا أن الاستغراق الإلهامى يتطلب الانخلاع أو الانفكاك من قيود التفكير العلى أو السببى حتى يتسنى الوقوف أمام الحقيقة وجهاً لوجه . ونستطيع أن نشبه التفكير المنطقى بالجاذبية الأرضية . فكما أن تلك الجاذبية تحول بيننا وبين الطيران إلى الكواكب الأخرى فإن التفكير المنطقى المعتمد على السبب والمسبب يحول بيننا أيضاً وبين الاستغراق الإلهامى . ولكن من جهة أخرى فإن التغلب على الجاذبية الأرضية يسمح للإنسان بأن يسبر أغوار الفضاء . وعلى نفس النحو فإن تغلب الإنسان على التفكير المنطقى السببى هو التمكن بأن يرتفع به عن المستوى العادى من القدرة الذهنية إلى المستوى الإلهامى .

ثانياً - الانخراط فى حالة لاشعورية وحالة استقبالية فى نفس الوقت .
 ذلك أن اللاشعور كما يصوره فرويد وأصحاب التحليل النفسى عادة لا يستقبل شيئاً ، بل يصلد ما ترسب فيه من خبرات على هيئة رموز تشير إلى المكبوتات المعتملة به . أما اللاشعور الإلهامى الذى نشير إليه هنا فإنه نوع آخر من اللاشعور يتصف بصفة أخرى غير الصفة التى يتسم بها اللاشعور

المرضى . فاللاشعور الإلهامى يتصف أساسا بالصفة الاستقبالية الإلهامية .
 فثمة إذن نوعان من الغطس إلى دخيلة المرء : غوص إنسحابى إنسحابية
 تامة حيث يكون الشخص منقطعاً تمام الانقطاع ومنسلخاً تمام الانسلاخ
 عن العالم المحيط به ، وغوص إلى الداخل حيث يكون المرء على جانب أكبر
 من القدرة على مشاهدة الحقائق جلية واضحة . ولعلنا نشبه المرء فى حالة
 الغوص الثانى بالشخص الذى يشاهد المنطقة التى يسكن فيها على نحو أفضل
 وبطريقة كلية وشاملة إذا ما استقل طائرة وشاهدها من بعد معقول . فهو
 يشاهد تلك المنطقة بطريقة موضوعية وقد طرحت أمامه طرحاً . فنحن
 فى أثناء انغماسنا فى الواقع لا نستطيع تمييزه . ولكن إذا ما بعدنا عنه
 بالانسحاب إلى دخالنا مع استمرار التطلع إلى ذلك الواقع ، فإن الفرصة
 تسنح لنا عندئذ لإدراكه والوقوف على كنهه وتبين ملامحه بطريقة جيدة
 وعلى نحو أكثر من الوضوح والجلء .

ثالثاً – إننا نستطيع أن نقف على ثلاث مراحل معرفية يمر بها المرء ،
 على الرغم من أن معظم الناس لا يستطيعون سوى بلوغ المرحلتين الأوليين
 من تلك المراحل الثلاث . المرحلة الأولى هى المرحلة المعرفية الواقعية ،
 والمرحلة الثانية هى المرحلة المعرفية الحدسية ، والمرحلة الثالثة هى المرحلة
 المعرفية الإلهامية . والحديث عن المرحلة المعرفية الموضوعية يعتبر تحصيل
 حاصل لأن جميع الناس يعرفون الواقع من حولهم بطريق الحواس من
 جهة وبطريق الربط بين المحسوسات بإقامة علاقات ووشائج فيما بينها من
 جهة ثانية ، ثم بالاستدلال من جهة ثالثة ، سواء بالاستقراء بدءاً بالوقائع
 الجزئية وانتهاء إلى القوانين أو الأحكام العامة ، أم بالقياس وذلك بتقديم
 قاعدة أو قانون عام والحكم على جزئية من الجزئيات فى ضوء تلك القاعدة
 أو ذلك القانون . أما المرحلة المعرفية الثانية – وهى المرحلة الحدسية –
 فإنها وإن كانت توائى جميع الناس ، فإن طغيان المرحلة الأولى – أو
 النوعية الأولى من المعرفة وهى المعرفة الواقعية – يحمل البعض على إنكار
 وجودها أصلاً والتشبث فقط بتلك المعرفة الواقعية واعتبارها النوع الوحيد

من المعرفة . ونحن نستطيع القول إن المعرفة الحلمية لا تقل صلابة وتماسكاً ورسوخاً عن المعرفة الواقعية . ولعل الانسان في تطوره الذهني عبر ملايين السنين كان في بادئ الأمر يعتمد على المعرفة الحلمية قبل أن يتسنى له إعمال عقله والربط بين الأسباب وما يتأتى عنها من نتائج « أو بتعبير آخر قبل توصله إلى طريقة التفكير العلى أو السببي . لقد كان الانسان البدائي يقفز إلى الحقائق مباشرة بغير ما حاجة إلى المرور بالأسباب والوقوف على سلسلة العلل والمعلولات . فالحدس هو كشف الحقائق مباشرة بغير تسلك الدرجات الذهنية التي توصل إلى تلك الحقائق . ولقد يصعب على الانسان الحديث تفهم إمكان ذلك لأنه بكل بساطة قد فقد تلك القدرة الذهنية لشدة انغماسه في التفكير السببي . فالانسان الحديث قد فقد أكاد أن يفقد هذه النوعية من التفكير كما سبق أن فقد القدرة على الرسم والقدرة على الحفظ وذلك لعدم الحاجة إلى الرسم وعدم الحاجة إلى الحفظ . ولقد يصح لنا أن نتنبأ أيضاً بأن إنسان المستقبل سوف يفقد القدرة على الكتابة أيضاً وذلك بعد أن تتوافر آلات الكتابة التي تحمل في اليد والتي سوف يحل تعلم استخدامها محل تعلم الكتابة بالقلم . فآلة الكتابة واليسر في استعمالها سوف تفقد إنسان المستقبل مهارة يدوية طالما افتن الناس في تعليمها لأبنائهم عبر العصور . ولعلنا نلمح إهمال تعليم الخط وأيضاً إهمال التمسك بالخط السليم والضرب عرض الحائط بقواعده مما يشير إلى بدء فقدان الانسان الحديث لتلك المهارة اليدوية . وسوف تكون الحركة الفاصلة للقضاء على الكتابة بالقلم نهائياً بعد أن تنتشر الآلات الكاتبة أو آلات الكتابة التي سوف يحملها الناس أينما يذهبون كما بدأوا اليوم يحملون في جيوبهم الآلات الحاسبة ، وهي الآلات التي أفقدتهم القدرة على إجراء العمليات الحسابية البسيطة بأذهانهم . وسوف تظهر آثارها في الأجيال القادمة عندما يعم استخدام تلك الآلات الحاسبة على نطاق واسع بدءاً بالصفوف الأولى بالمرحلة الابتدائية .

وإذا نحن شاهدنا عالم النمل والنحل والطيور وبعض الحيوانات لوجدنا إذن أن المعرفة لديها تعتمد أساساً على هذا النوع من المعرفة الحلمية :

وكلما انضمت الحيوانات إلى عالم الانسان وتم استئناسها ، فإنها تبدأ في نفس الوقت في فقد القدرة على المعرفة الحسية . على أن بعض الناس ما يزالون يعتمدون على المعرفة الحسية في تسير شؤون حياتهم بما في ذلك الأمور الاقتصادية . وهناك أمثلة على ذلك حيث يكون الشخص أمياً وعلى السليقة ولكنه ينجح في ترتيب أموره وتسيير تجارته أو صناعته . وهو لا يعتمد في ذلك على العقل بل يعتمد على الحدس . ولقد يفسر الناس من حوله ذلك النجاح بالخط المشرق الباسم ، ولكن الحقيقة أن سر النجاح الذي يقيض لمثل ذلك الشخص ليس الخط ، بل اتباع طرائق التفكير الحسنى .

أما المرحلة المعرفية الثالثة - وهي المرحلة الإلهامية - فإنها وإن كانت تشترك مع المعرفة الحسية في قطاع مشترك بينها - وهو عدم الاعتماد على التفكير الموضوعي المنطقي - فإنها تختلف وتتميز بأنها معرفة استنباطية وليست معرفة تفسيرية . فبينما يقتصر الحدس على الإدراك واستشفاف الواقع ، فإن الإلهام يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك بالوقوف على المستقبل وإدراك ما سوف يقع وكأنه مكتوب على لوح جعل أمام عيني المرء . ولكأن الملهم يخرج ذلك المستقبل المرئي إلى حيز الواقع . ومن هنا فإن المعرفة الإلهامية تنصف بالإيمان المطلق بما يقدم عليه المرء في ضوء بصر ذهني وإدراك مسبق . على أن الملهم لا يدرك فحسب ، أو قل إنه لا يصل بلهذه إلى المعرفة ، بل إن المعرفة هي التي تهبط عليه . فهو كالرادار الذي يستقبل بدقة الطائرات القادمة من بعد بعيد . فالطائرة التي تظهر على الرادار هي التي تفرض عليه مشاهدتها وقد جهز فقط بتلك القدرة على التقاط صورتها ، أو ما يرمز لها . فالإنسان إذا ما تهيأ نفسياً لاستقبال المعرفة الإلهامية ، فإنه يكون قادراً على الاستقبال الإلهامي ولكن ليس بطريقة ميكانيكية . ذلك أن الملهم لا يستقبل إلهاماته بالضرورة وباستمرار ، بل هو ينتظر إلى أن تواتيه بطريقة عفوية بغير تخطيط أو تدبير .

الفصل الثالث

اكتشاف القارة المجهولة

لا حدودية الإلهام :

لقد سبق أن أوضحنا أن الإلهام ليس نشاطا إنسانياً يضطلع به المرء كما يتناول التجار لوحا من الخشب ويصنعه بأن يكسبه شكلا معينا ، وليس عملا إراديا يضطلع به المرء أو يحجم عن الاضطلاع به ، بل هو تأثير من خارج الإنسان في عقله أو وجدانه أو إرادته أو في كل ذلك دفعة واحدة . ومعنى هنا أن الإلهام يتحدد بتوافر عاملين أو شرطين أو حالتين : فثمة استعداد المرء لتلقي الإلهام ، وثمة من جهة أخرى تقديم الإلهام إلى ذاك المرء . ولا يكفي توافر الشرط الأول وحده حتى يصيب المرء حظا من الإلهام . فلقد تعد نفسك الإعداد الكامل للإلهام ولكن الإلهام لا يواتيك بالقليل الذي أعددت نفسك له : فالإلهام كمعطية من الخارج شيء « وإعداد نفسك لتلقي تلك العطية شيء آخر . ونحن نعرف شخصيات كثيرة عبر تاريخ الفكر أو الفن تمكنت من الفلسفة أو الأدب أو الفن وقد أعدت نفسها إعدادا طيبا بل وممتازا لتلقي الإلهام في المجالات التي برزت فيها وسبرت أغوارها . ولكنها مع ذلك لم تكن محظوظة بتلقي الإلهام ، بل وصلت إلى الإجابة فحسب ، دون أن يسعدها الحظ بتلقي الإلهامات من الخارج . وعلى العكس من ذلك فإن بعض العباقرة لم يكن حظهم من الدراسة أو من سبر أغوار المجالات التي عشقوها سبرا بعيد المدى ، ولكن حظهم من الإلهام كان كبيرا فاستطاعوا تلقي تلك الإلهامات مما قفز بهم إلى أعلى عِلين ، وكان حظهم نادرا بين أقرانهم بفضل تلقيهم الإلهامات من الخارج .

ولقد دأب العرب منذ القديم يقولون بشيطان الشعر يلهم الشاعر بالقصائد التي ينظمها بحيث تأتي على نحو يعجز نفس الشاعر عن مضاهاته أو بلوغ

مرتبه عندما يتركه ذلك الشيطان : ولقد ننظر نحن المعاصرين إلى مسألة شيطان الشعر أو شيطان الفن أو شيطان الموسيقى بكثير من التهمك والسخرية أو لعلنا نتناول تلك المفاهيم تناولا مجازيا « حيث نطن أن المقصود بالشيطان هنا هو الحالة المزاجية التي كان عليها الشاعر أو الفنان أو الموسيقار أو نحوهم . وليس هذا النحو من التفسير المعاصر بالشئ المستغرب . ذلك أننا نتناول جميع الأمور الغيبية بنظرة واقعية مادية ، ويكاد أحدنا لا يجرؤ على الكشف عن إيمانه بالغيبات اللهم إلا فيما يتعلق بالأمور الدينية . فيكاد الإنسان المعاصر ينكر القوى الروحانية في عملها في حياة الإنسان ويعتقد أن العلم الوضعي هو الكفيل الوحيد لتفسير كل شئ في مناسط الإنسان وحالاته المتباينة .

ولكن إذا نحن نظرنا بنظرة غيبية إلى الإلهام واعترفنا بوجود كائنات روحانية تستطيع أن تمديد المساعدة إلى المرء في المجال الذي أعد نفسه له وقد تمكن منه ، فإننا بالتالي نستطيع أن نقرر حقيقة هامة هي لا حدودية الإلهام . ذلك أن اعترافنا بالعالم الروحاني يحملنا بالتالي على النظر إلى إنتاج الشخص الملهم من زاويتين : الزاوية الشخصية التي تتحدد بحدود ما أوتي به من قدرة ، والزاوية الروحانية التي نعتقد أنها لا نهائية وغير محدودة : بيد أن الفرد الواحد من الملهمين لا يتلقى إلا قبسا مما يمكن أن تهبه تلك الكائنات الروحانية له . فشيطان الشعر يمنح أو يمنح ، وقد يمنح كثيرا وقد يمنح قليلا ، بل إنه قد يمنح كثيرا من العطاء الإلهامي في أحد المواقف الإلهامية الشعرية ، بينما قد يمنح قليلا أو قدرا متوسطا في موقف إلهامي شعري آخر . وما يقال عن شيطان الشعر ينسحب بنفس الصديق بازاء الشياطين الأخرى في المجالات الإبداعية المتباينة .

ولسنا نقول بدعا أو نلحق نظرية بغير أساس . فلسوف تتضح حقيقة ما نزعها هنا عندما نعرض لحياة العباقرة وكيف أن الإلهامات الروحانية قد لعبت في حياة كل منهم دورا كبيرا يعترف هو به في مذكراته أو فيما قاله لمن حوله أو فيما كتبه وسجله أصدقاء له باخلاص وموضوعية . ونحن

في الواقع نعرف جيدا أن الكثير ممن يقرأون كلامنا هذا سوف يستخفون به ، أو سوف يسارعون إلى تأكيد بهتانته . على أننا نؤكد بنفس المنطق الذي يضربون في أثره أن علم نفس الحوار قد أخذ بخطو جديدا إلى البحوث والمراجع بل وإلى معامل علم النفس . ذلك أن علماء النفس المحديثين يحاولون جاهدين التحقق من الظواهر الخارقة بمنطق علم النفس الموضوعي الواقعي .

ونحن نعتقد أنه في ظل المناخ الحضاري الذي نعيش في ظله — وهو واقع متسم بالمادية والواقعية وإنكار تفسير العبقريه بغير ما جبل عليه العبرى من إمكانيات واستعدادات نفسية — فاننا سوف نلاحظ ظهور فجر جديد يشير بالروحانيات في الحياة الإنسانية بحيث تحتل تلك الروحانيات مكانة هامة في تفسير العبقريه والإلهام وغيرها من حالات إنسانية . وليس هذا بالأمر المستبعد . ذلك أن مادية القرن التاسع عشر كانت تنكر ما لا يقع عليه الحس مباشرة أو بالواسطة . أما الواقعية الحديثة في قرننا هذا فإنها لم تعد مادية كمثل المادية المتدثرة ، بل صارت تفسر الوجود بالقوة وليس بالامتداد . فالطاقة هي الأساس في التفسير الحديث وليس الامتداد كما كان يعتقد الماديون القدماء . والواقع أن القول بالقوة أو بالطاقة إنما هو اقتراب لا شك فيمن القول بالروحانيات . فطالما أنك تنكر وجود الامتداد وتعترف بوجود الطاقة ، فإنك تكون بذلك قد حطمت المادية وأحلت محلها شيئا آخر هو ذلك الشيء القريب جدا من مفهوم الروحاني أي غير المادي . ذلك أنك إذا تساءلت عن معنى الروحاني فإنك سوف لا تبعد كثيرا عن مفهوم الطاقة أو القوة . ولعل الخلاف في مصدر تلك الطاقة أو القوة هو الخلاف الوحيد بين النظريتين : النظرة الأرضية والنظرة العلوية . فبينما تكون القوة أو الطاقة نابعة من العالم المحيط بنا ، فإنها تكون في حالة النظرة الغيبية نابعة من جهة غيبية غير الجهة الواقعية المحيطة بنا .

وأيا ما يكون الأمر ، فإن الإلهام لا شك حقيقة واقعة لا ريب فيها . ولعل الاختلاف يبدو بين من يتعرضون لتفسيره لا على وجوده أو عدم

وجوده ، بل يبدو في التفسير بالخارج أو بالداخل . فأولئك الذين يفسرون الإلهام بالداخل يزعمون أن الإنسان هو ملهم نفسه ، بمعنى أنه يثير في نفسه الإلهامات بما يجعله أمام ناظره من أشياء جميلة أو مثيرة تعمل على تقديم إلهامات معينة إليه . فالمنظر الجميل أو المرأة الجميلة أو قراءة شعر أحد الشعراء أو تأمل حقيقة علمية ما يمكن أن تثير لدى المرء إلهاما يحمله على تقديم شيء عبقرى جديد كل الجدة . أما التفسير بالخارج فإن أصحابه يقولون أن الإنسان الملهم يكون كالرادار الذي يستقبل الإلهامات التي تقدمها إليه كائنات روحانية معينة بارادتها لا بارادته . والعبقرى الملهم يستطيع أن يتمتع عن استقبال الإلهام ، ولكنه لا يستطيع إجبار تلك الكائنات الروحانية على تقديم إلهاماتها إليه . فأنت تستطيع أن تدبر جهاز التلفزيون لتستقبل ما ترسله محطة الإرسال التلفزيوني على شاشة جهاز استقبالك . ولكن إذا أدركت جهازك التلفزيوني في غير مواعيد الإرسال فإنه لا يعرض أمام ناظريك أي شيء . وأكثر من هذا فقدى جودة جهازك لا دخل له في جودة ما تستقبله من برامج . أما إذا كان الجهاز غير جيد فإنه لا يقدم إليك الصور على نحو جيد مما يفسد قيمة ومستوى البرنامج المتلفز . . وعلى نفس النحو فإن الملهم يستقبل ما يقدم إليه من تلك الكائنات الروحانية بغير أن تكون لديه القدرة على تحسين ما تلقاه إليه . فهي صاحبة الكلمة العليا حيث تستطيع أن تعطي ، بينما يكون في مقدور الملهم أن يصد عن استقبال ما تلقاه به الكائنات الروحانية كما تستطيع أنت إغلاق جهاز إرسالك التلفزيوني .

والواقع أن لا حدودية الإلهام تبدى في ناحيتين أساسيتين : الناحية الأولى - نوع الإلهام ، والناحية الثانية - هي الكيف والمستوى . ولقد نزع أن المصادر الإلهامية الروحانية تتباين فيما يمكن أن تقدمه من إلهام . فبالنسبة لواحد مثل بليك ، فإننا نجد أن الأشباح التي كانت تبدى أمام ناظره لم تكن على نفس المستوى من الروعة . وسوف نشاهد في حياته الفنية التي سوف نعرض لها في فصل قادم كيف أن شبح البرغوث كان ضمن الأشباح التي تبدت أمامه . ومن الطبيعي أن الشبح المتعلق بتاج الملك

شاوول كان أكثر روعة بكثير من شبح البرغوث . وواضح أيضا أن الإلهامات التي كانت تبدى ليليك كانت أشباحاً منظورة لأنه كان رساما . ولم تكن الإلهامات التي تقدم إليه إلهامات موسيقية أو علمية مثلا . ولكن عباقرة آخرين في مجالات أخرى كانت تبدى لهم إلهامات تناسب إمكانياتهم ومواهبهم . ذلك أن الكائنات الروحانية لا تقدم الإلهامات جزافا ، بل تنحري الدقة فيما تقدمه إلى العباقرة والملمهين .

السعى وراء المجهول :

إننا وإن كنا قد قلنا إن الإلهام يعتمد على ما تقدمه الكائنات الروحانية بشكل أو بآخر إلى المرء الملمه ، وأن كل ما يفعله ذلك الشخص الملمه حتى يتسنى له تلقي الإلهام هو إعداد ذاته نفسيا ، فإننا لا نستطيع أن نفرض عن الجهد الذي يبذله الشخص حتى يكون قد أعد نفسه لتقبل الإلهام من خارجيته . فواقع الشخص الملمه ليس واقعا سليبا تماما . ولعلنا نعود فنعدل من تشبيها للملمه بالرادار على أساس أن الرادار سلبى الموقف ، بل إنه آلى العمل ، ولا ينبعث في إعداد ذاته من دخيلته ، بل يعمل الملمهون المختصون إلى إعدادده ، فلا يكون عليه سوى التقبل حسب الحالة التي أعد عليها . ولعل النقطة التي نريد تعديلها في تشبيها للملمه بالرادار هي أن هناك دورا إيجابيا أساسيا يقوم به الشخص في سبيل إعداد نفسه لتلقي الإلهام . وهذا الدور الذي نشير إليه ليس دورا منتهيا بل هو دور مستمر أبدا طالما اعتزم المرء على تقبل الإلهام والتشبث به . ويتمثل هذا الدور بصفة رئيسية في السعى وراء المجهول . ولعلنا نلخص هذا الدور المتمثل في السعى وراء المجهول فيما يلي :

أولا : الانفكاك من أسر المألوف والمطروق . ذلك أن الأعمال المرسومة والمخطط المعتادة في التفكير والمضمون الحضارى الذى يستظل به المرء يمكن أن تستحوذ على فكر المرء ووجدانه وإرادته ، فيكون تابعا لما يضغط عليه من الخارج بالمجتمع الذى يحيا في نطاقه . والواقع أن الشخص الملمه هو

أيضا شخص يتعشق الحرية ويهرب من الضغوط التي تكبل فكره ووجدانه وإرادته . ولسنا ننكر أن التخفف أو التخلص من المألوف ليس من المسائل السهلة وأن ذلك بحاجة إلى جهد جهيد وإلى نوع من الثورة الذاتية والتدريب المستمر على الضرب عرض الحائط بتلك الضغوط الاجتماعية والثقافية .

ثانياً : التحرر من النمطية . ذلك أن الإنسان باعتباره كائناً حيوانياً بالإضافة إلى كونه كائناً روحانياً يميل إلى تكرار ما سبق له الاتيان به من أعمال بنفس الطريقة التي مارسها قبلاً . فثمة مجموعة من العادات الذهنية تسيطر على الإنسان فيصعب عليه التحرر من وطأتها أو التخفف من ضغوطها . بيد أن الخضوع للعادات الذهنية والتشكل وفق نمطية معينة ، إنما يتعارض تعارضاً جوهرياً مع التحرر الروحي الذي يطالب به الجانب الروحاني بالشخصية . ومعنى هذا في الواقع أن المرء جانباً حيوانياً ينحو إلى النمطية ، وجانباً روحانياً ينحو إلى التحررية . وليس من شك في أن الملهم يحاول دائماً التخفف من ضغوط النمطية واستشراف الحرية الروحية .

ثالثاً : الإحساس بالسأم والنبو عن المألوف لدى الآخرين . فالملهم شخص قليل الاعتزاز أو التمسك بما درج عليه العامة من تقاليد وأوضاع اجتماعية . ذلك أنه كلما كان المرء باذلاً الجهد للتكيف الاجتماعي والانسجام مع ما تواضع عليه الناس من حوله ؛ فإنه يكون بالتالي قليل التشوف لاستطلاع الجديد والوقوف عليه . من هنا فإن الملهم لا يقيم الاعتبار للكثير من التقاليد التي تعمل على تقييد حركته الذهنية أو التي تعمل على استهلاك طاقاته النفسية . إنه يرى أن الجهد المبذول في تحقيق التوافق الاجتماعي حرقى بأن يبذل في الكشف عن المجهول أو الاستعداد لتقبل الإلهامات . ولذا فإنك تجد الملهمين بمستوياتهم المتباينة لم يكونوا يخلون بما دأب الناس من حولهم على الاحتفال به وإقامة الاعتبار له . من ذلك عدم اهتمامهم بالزخرف الخارجي كالملبس الفاخر أو جميع المظاهر الخارجية الأخرى التي تشير إلى الأبهة والعظمة والجاه والثروة :

رابعاً : عدم السماح للضغوط الثقافية بأن تسيطر على ذهن المرء . ذلك أن الكثير من المتعلمين والدارسين المتفهمين في التراث العلمي والفلسفي والأدبي لا يستطيعون التخفف من ضغوط ما استوعبوه من معلومات . فهم يقضون حياتهم الثقافية في امتيعاب ما سبق لغيرهم الكشف عنه وقد أخذوا في استدلال عقولهم لما قرره غيرهم من قبل . فعابذوا أفكار غيرهم لا يمكن أن يلقوا إلهاماً من الخارج . فهم يحصرون طاقهم الذهنية في نطاق ما تم اكتشافه أو قوله « أو قل إنهم يظنون لاهثين وراء ما سبق لغيرهم أن ألهم به دون أن يكون لهم حظ السبق والجرى في الصفوف الأولى . فن يسبق ويحتل الصفوف الأولى في الجرى وراء المجهول يكون له قصب السبق وسبق الغور . أما أولئك اللاهثون في الصفوف الخلفية ، فما عليهم إلا أن يلقوا عن المكتشفين الأوائل الذين احتلوا الصف الأول وكان لهم حظ الرؤية الأولى للمجهول . ولعلك تلاحظ أن الفلاسفة والعلماء القداماء كانوا أكثر حظاً في الكشف عن المجهول من الفلاسفة والعلماء المحلثين . وشاهد ذلك ما ينخرط فيه العلماء حالياً من عمل في فريق . فلا يعزى الاكتشاف العلمي إلى واحد بالذات ، بل يعزى إلى مجموعة من العلماء بغير تحديد لأسمائهم . فيقال « اكتشف فريق من العلماء كيت وكيت » . وأكثر من هذا فإن الضغوط العلمية الحديثة قد وجدت أداة حديثة تضغط من خلالها هي الكمبيوتر أي الحاسبات الإلكترونية الحديثة التي لا تركز جهودها على الأرقام وحدها ، بل يتسع عملها لكل ما يتعلق بالنشاط الذهني . ومعنى هذا أن التوافق والتبادل التي تضطلع بها تلك الأجهزة الإلكترونية قد حلت حالياً محل الإلهام في الحياة الذهنية للإنسان الحديث .

خامساً : التمسك بالطابع الشخصي والتشبث بالعقوية . ولعلنا نميز بين العقوية وبين الارتجالية . فالعقوية هي التعبير بغير تكلف عما يدور بخلد المرء . أما الارتجالية فإنها تحمل معنى التخطئ أو عدم العناية بما يقال أو يعمل . والواقع أن العقوية هي الصيغة الوحيدة التي يستطيع المرء أن يقدم ذاته من خلالها . فالطابع الشخصي لا يمكن أن يظهر في القول أو العمل

إلا إذا كان التعبير صادراً عن صميم الشخصية بغير تكلف أو افتعال .
وانك لتلاحظ أن الشاعر الواحد قد يكون متكلفاً أشد التكلف في بعض
الآيات في القصيدة الواحدة ، بينما يكون إنسانياً وصادراً عن صميم
شخصيته في آيات أخرى . ويقال عن بعض الأدباء المجيدين أنهم لم يكونوا
يصححون ما يقومون بكتابته باستثناء وضع بعض اللمسات الخفيفة التي
لا تشوه ما ألهموا به . فهم يتلقون الإلهام ويتركون أقلامهم تكتب بغير
رقيب أو كابت أو منقح . إنهم كمن يمشي برشاقة بغير أن يكون ملتفتاً
إلى طريقة مشيته . فإذا ما التفت الرشيق إلى مشيته ، فإنه يفقد الرشاقة
ويبدو التكلف في حركاته . ومن الواضح أن تلقى الإلهام في الفكر أو الأداء
لا يتأتى مع التكلف ، بل شرطه الأسامي العفوية كما حددنا معناها قبلاً .

ونستطيع أن نقرر في ضوء ما سبق أن الشخص الملهم هو شخص
يتعشق المجهل التي لم يسبق لغيره الوصول إليها في الفكر والعمل . ولعلنا
نحاول أن نوضح الفرق بين تعشق المجهول والسعي في إثراء وبين تلقى
الإلهام . إننا نستطيع القول بأن الإلهام بالجديد المتكر لا يتأتى للمرء إلا
بعد أن يكون قد بلغ نقطة معينة من التخلي عن المألوف والتشوف إلى
الجديد الغامض ، أو قل إلى ما لم يسبق لقلم إنسان أن وطأته . ولقد نذكر
هذه المناسبة النبي موسى وكيف أنه لم يتلق رسالة السماء في إحدى المدن
أو حتى بين شعبه ، بل تلقى الوحي في المجهل وبعيداً عن الناس جميعاً ،
أو قل بعيداً حتى عن رواسب التأثير الاجتماعي التي تضغط غالباً على ذهن
المرء فلا تسمح له بتلقى الإلهام . فالإلهام يشترط على الملهم شرطاً أساسياً
هو « اترك كل شيء واتبعني » . فما لم يترك المرء حتى همومه واهتماماته ،
وما لم يتخلص ويلق عنه الضغوط الاجتماعية بل والضغوط الثقافية ، فإنه
لا يستطيع أن يتلقى إلهاماً من أى نوع . فنحن نستطيع أن نقرر بصدق
أن المتعلمين كثيرون ولكن الملهمين نادرون . وأنه ليصعب على المثقف
الإنغلاق عن ثقافته . فمن الصعب عليه أن يحيل الثقافة من سيد مسيطر
ومهيمن عليه إلى عبد طائع وخاضع للجديد الملهم به .

فالسعى وراء المجهول ليس إذن من المسائل السهلة أو الميسورة . **فلك**
أن قواعد الفكر من جهة وقواعد التعبير عن الفكر من جهة أخرى تشكل
أصفاً تعوق المرء عن التحرر والسعى بدأب نحو المجهول ، وبالتالي إعداد
الذات لتلقى الإلهامات . فتمة معادلة صعبة للغاية بين تلقى الثقافة المعاصرة
وبين تلقى الإلهام . فلكي تكون متقفاً بثقافة عصرك ، فإن عليك أن
تخضع لتلك الثقافة . ولكن لكي تصبح ملهماً وساعياً وراء المجهول فإن
عليك أن تثور على ثقافة عصرك وتضرب بها عرض الحائط أو ما يشبه
ذلك . فأنت كالأبناء الذي لا يتسع إلا لسائل من سائلين : الأول –
سائل الثقافة المعاصرة ، والثاني – سائل الإلهام . ولكن عليك في نفس
الوقت أن تصوغ ما تلهم به في صياغة مناسبة لثقافة عصرك وبفس
وسائل تعبيره . وبعبارة أخرى فإن عليك أن تقدم الكائنات الحية التي تلهم
بها على هيئة جثث ثقافية .

التسكع الإلهامي :

لقد سبق أن قلنا أن الإلهام مناف للبرجة والتخطيط . ذلك أن الإلهام
لا يتأتى للمرء إلا عن طريق العفوية . ونحن نميز بين معنى العفوية وبين
معنى الارتجالية . ومعنى هذا أن الشخص الذي يرسم خطوط حياته ويضع
نفسه تحت رحمة الضغوط الثقافية لا يستطيع بالتالي أن يتلقى الإلهام .
فالشخص الملهم شأنه شأن النائم الذي يتلقى الأحلام بغير أن يحاول استجلابها .
ولعل النائم إذا استيقظ أو صار في حالة بين اليقظة والنوم لا يستطيع
الاستمرار في تلقى الحلم ، ولقد نقول إن حال اليقظة يتعارض تعارضاً
جوهرياً مع حال تلقى الأحلام . فنحن لانستطيع حياكة الأحلام بوعينا ،
بل هي تحاك وحدها ونحن نغط في نعاس عميق . وكلما كان نومنا أعمق ،
كانت أيضاً أحلامنا أكثر تماسكا ووضوحا . وكلما خالطت اليقظة أو الوعي
نعاسنا ، فإن أحلامنا تصبح باهتة غير متعينة وغير محددة المعالم .

والواقع أن الملهم يكون في حالة أشبه ما تكون بحالة النعاس . وكذا
أن النعسان يتلقى أحلامه تلقائياً وعفويا وهو يغط في نومه العميق وقد استسلم

يجلج مشاعره لسلطان النحاس ، كذا فان الملهم يتلقى إلهاماته تلقائيا وعفويا وهو في حالة نعدم انتباه بل وعدم وعى كامل للواقع من حوله . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة ما كان يتتاب سقراط من حالات لا واعية كانت تدفع به إلى الوقوف بغير حراك في أى مكان يوجد به ، بحيث لم يكن ليدرك ما كان يلور حوله أو ما كان الناس من حوله يلوكون به من أحاديث . ولقد كان سكان آثينا يعرفون عن سقراط ذلك ، فكانوا يجتمعون حوله ويتطلعون إليه من بعيد ليشاهدوه وهو واقف بغير حراك شارد الذهن .

وليس من شك أن سقراط وأمثاله من مفكرين ملهمين لم يكن ليجيل فكره إيجابيا في المسائل التي تعرض أمام ذهنه ، بل كان في الواقع يحيا ما يفكر فيه . ولقد نقول أكثر من هذا إن سقراط ومن على شاكلته يتلقون ويأخضون كما يتلقى النحاس ويأخذ عن عالم الأحلام . وهذا الموقف المتلقى هو الذى نسميه بالتسكع الإلهامى . ففي هذه الحالة التسكعية نجد أن الملهم لا يفكر في شيء بعينه ، ولا يضع تخطيطا لما يفكر فيه ، ولا يلزم نفسه ببحث شيء بالذات . إنه كمن يخرج إلى الخلاء لاستكشاف أى شيء بغير تحديد ، أو كمن يتوجه إلى السوق وفي جيبه النقود ولكنه لم يضع في برنامجه أشياء بعينها يرغب في شرائها أو يعتزم ذلك . إنه فقط يتسكع في السوق ليشتري ما يروق له بغير تحديد مسبق .

ونعمة في الواقع مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوافر لدى الشخص الملهم حتى يتسنى أن يتوافر لديه التسكع الإلهامى . والشروط كما نراها تخلص فيما إلى :

أولا - إعداد الشخص لنفسه إعدادا عاما سواء من حيث المضمون أم من حيث وسيلة التعبير . ولكن الإعداد المنشود لا يعنى الانجاس في إطار معرفي محدود ، ولا يعنى أيضا الوقوع في أمر مجموعة محدودة من أساليب التعبير الشفوية أو الكتابية أو الصورية أو النحتية أو النغمية ، بل إن الإعداد المنشود يعنى الاتساع والمرونة في نفس الوقت . فالجال المعرفي

يجب أن يكون واسعاً ، كما أن وسائل التعبير يجب أن تكون مرنة ومطوعة وخاضعة لإرادة المرء وطوع بنانه . فلكي تنهياً لك حالة التسكع الإلهامي فلا بد أن تكون معرفتك متنوعة من جهة ، وخصبة من جهة ثانية ، ومتجلدة من جهة ثالثة ، ومهضومة من جهة رابعة ، ومتفاعلة مع المواقف المتباينة من جهة خامسة ، أما وسائل التعبير التي تتلرع بها فيجب أن تكون متباينة من جهة ، ومناسبة لما يلور بخلك من جهة ثانية ، واقتصادية من حيث الوقت والجهد من جهة ثالثة ، ودقيقة من جهة رابعة ، وبسيطة غير معقدة من جهة خامسة .

ثانياً - التمتع بالراحة الثقافية . فلقد وجد أن الملهمين لا يكونون في الغالب مجتهدين ومتعبين ثقافياً . ونخشى أن نقول إن الشخصية الموسوعية وكذا الشخصية النحوية المعجمية لانتحطيان غالباً بتلقى الإلهامات . ذلك أن المعلومات المكثفة تشكل نوعاً من الضغط الثقافي الذي يحول بين المرء وبين الاستعداد لتلقى الإلهام : وكذا يقال عن الكلف الشديد بالنحو والصرف وعلوم البلاغة والنقد : إن مثل ذلك الكلف يصرف جهد المرء وطاقاته إلى صورية التعبير وفنونه مع الحرمان في نفس الوقت من العفوية التعبيرية أو قل الحرمان من التسكع الإلهامي . ذلك أن الشخص الذي يركز جل اهتمامه في التراث التعبيري ، وقد أخضع لسانه أو قلمه أو آله أو أداة تعبيره لتلك الأصول التي تلقاها عن العصور السابقة ، لا يستطيع في نفس الوقت أن يطوع وسائل تعبيره التطويح الذي يستلزمه تلقي الإلهام . وهذا يذكرنا في الواقع بما قرره أحد نقادنا المصريين في مجال الأدب من أنه بدأ حياته الثقافية في الشباب كشاعر له إحساسه المرفه وحسه الصادق وتلقائيته غير المتكلفة في التعبير الشعري . ولكنه وقد انغمس حتى أذنيه في النقد ، فإنه وجد نفسه بالتلريج عاجزاً عن الإبداع الفني . وهو يعزو ذلك التزاييل للقدرة الشعرية لديه إلى دراسته للنقد . فلقد اختلفت الزاوية التي صار ينظر منها . فبعد أن كان ينظر من زاوية التعبير العفوي عن دخليته بغير تحفظ وبغير خشية ، صار ينظر من زاوية أخرى هي زاوية

التقد . لقد يحسب الحساب كل الحساب نكل كلمة ينطق بها ، فيأخذ في تمحيصها . لقد نصب محكمة نقدية للشعراء . فمن الطبيعي أن ينصب محكمة نقدية لنفسه . ولكن هل يتسنى للمرء أن يحاكم نفسه ويتلقى الإلهام الشعري في نفس الوقت ؟ إننا نستطيع أن نقرر هذه الحقيقة بطريقة أخرى ، فنقول إن ذلك الناقد أو من لقوا له قد فقد موهبة التمسك الإلهامي وقد أخضع نفسه لحظة في التفكير والتعبير .

ثالثا - التمتع بالشجاعة وعدم التردد في التعبير عما يلهم به المرء . فالواقع أن الشخص المتسكع الإلهامي يكون كمن حمل بندقيته وخرج إلى الغابة لمطاردة الغزلان واقتناصها . إن أي تردد في إطلاق الرصاص وقت ظهور الغزال يعنى ضياعه منه إلى الأبد . فسرعة رد الفعل شرط أساسي يجب توافره لدى القناص . وكلنا الحال بالنسبة للمتسكع الإلهامي . إنه برغم تسكعه فإن عليه أن يكون على أهبة الاستعداد لاقتناص فرائس الإلهام التي تبرز فجأة وتختفي فجأة أيضا أمام ناظره . ذلك أن الإلهام يتأق المرء على هيئة ومضات سريعة في ظهورها وسريعة أيضا في اختفائها . فما لم يتسلح الملهم بسلاح الشجاعة وما لم يعمل فوراً وبسرعة وبغير تردد، فإن ما يلهم به يتبخر بسرعة فائقة ولا يعود ثانية إلى الأبد . ونستطيع أن نقرر أن الغالبية العظمى من الإلهامات التي تلوح في أذهان الملهمين تهرب منهم وتزوغ قبل أن يتسنى لهم اقتناصها . ولو أن الملهمين كانوا جميعاً شجعاناً وكانت لديهم الجرأة التي تساعدهم على سرعة الاقتناص ، لكانوا إذن جميعاً قد استطاعوا أن يقدموا إلينا روائع وبدائع أكثر بكثير وأروع بكثير مما استطاع القليلون منهم اقتناصه وتقديمه إلى البشرية . فالقلة القليلة من الملهمين ينجحون في عملية الاقتناص الإلهامي . فكثير من أولئك الذين يتمتعون بالتسكع الإلهامي لا تواتيهم في نفس الوقت الشجاعة وسرعة رد الفعل لاقتناص الإلهامات التي تبدى لهم . وبذا فإن تسكعهم الإلهامي يكون بغير جلوى على الإطلاق . ولعلنا نذكر من تلك القلة القليلة من الملهمين الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي استطاع أن يقتنص بسرعة ومضاء

وشجاعة ما ألهم به . ولا غرو فإن ديكارت كان يتمتع بالشجاعة كما
يقرر مؤرخو فكره . ولسوف نعرض لقصة إلهامه في فصل قادم بهذا
الكتاب .

رابعا - التخلص من نقد الذات في التسكع الإلهامى . ذلك أن نقد
الذات ووضع رقيب ذاتى على أداة التعبير كثيراً ما يكون السبب الرئيسى
في فقدان ذلك التسكع الإلهامى ذاته . فطالما أنك تنقد ذاتك وتسأل نفسك
مما سوف يقوله الناس عنك ، فانك لا تستطيع بالتالى أن تتلقى أى إلهام .
ولعلنا نقرر أن نقد الذات والرقابة على القلم أو على أداة التعبير الفنى أو
الأدبى أو العلمى أيا كانت ، يتعارض جلياً مع طبيعة تلقى الإلهام :
وأكثر من هذا فالتنا نستطيع أن نقرر أن الإحساس بضرورة نقد الذات
إنما يعبر في نفس الوقت عن الخوف وارتعاد الفرائص . من هنا فإن
شرط التسكع الإلهامى التخفيف من الإحساس بالذات وبالنقد والتربص
لما يضطلع به المرء . ولذا فالتنا نستطيع أن نقرر أن المدارس والمعاهد
والجامعات كثيراً ما تكون مسئولة عن إصابة طلابها بالخوف وقد نصبت
من كل واحد منهم وصياً على قلمه ولسانه ، ففقدوا بالتالى القدرة على
الاسترخاء وبالتالى فانهم فقدوا القدرة عن التسكع الإلهامى .

خامسا - الانخراط في البيئة التى تسمح للمرء بالفعل أن يسترخى
ويتسكع إلهامياً . ونستطيع في الواقع أن نقرر أن صخب المدينة والعلاقات
الاجتماعية المستمرة طوال النهار وخلال جزء من الليل والواجبات المنوطة
بالمرء ومايجب عليه أداؤه في عمله أو في نطاق أسرته لا يسمح له بالاسترخاء
وتحقيق التسكع الإلهامى في حياته . من هنا فالتنا نجد أن قلة أو ندرة نادرة
من الموظفين يتمتعون بمثل ذلك التسكع الإلهامى . لذا فالتنا نقرر أن الدعة
والخلو من الارتباطات الاجتماعية الملزمة بمثابة شرط جوهري لتحقيق حالة
التسكع الإلهامى . وأنه لمن الصعب جداً توفير هذا الشرط في ظل
حضارتنا الانسانية المعاصرة .

ترك ماتم اكتشافه وراء الظهر :

ليس من شك في أن الملهم يفرح ويسر ويستبشر بما يلهم به . ذلك أن الإلهام بمثابة عطية فردية لا تتسنى إلا لقلة نادرة من الناس كما أسلفنا . فبينما نجد أن العلم ميسور للجميع أو لغالبية الناس ، فإن الإلهام لا يوهب إلا لأفراد بالذات دون باقي الناس . بيد أن فرح الملهم بما يلهم به « قد يدفع به إلى التوقف والقناعة بما أسدى إليه . وأكثر من هذا فقد يصيبه الغرور وتأخذ به العزة كل مأخذ .

من هنا فإن الجدير بالمرء الذي ينبغي استمرار تدفق الإلهام عليه أن يترك ماتم له الكشف عنه بواسطة الإلهام وراء الظهر وأن يبدأ دائماً من صفحة جديدة ومن نقطة انطلاق آتية . ذلك أن الشخص عندما يحس بأنه قد تشبع وامتلأ ، فإنه يمتنع عن استمرار التلقى . فالواقع أن شعور المرء بأنه أخذ كفايته من الشيء يدفع به بالتالي إلى التوقف عن الاستمرار في الأخذ والتقبل . ولعلنا نجد أن هذا الموقف يشكل قانوناً عاماً لوجود بما في ذلك عالم الجوامد ذاته . فالكوب لا يتقبل سائلاً جديداً بعد أن يمتلئ « والنبات لا يمتص من الماء والعناصر الغذائية بالتربة بعد أن يأخذ كفايته منها . وكذا فإن الحيوان لا يقبل على تناول الطعام أو على ممارسة الجنس بعد أن يأخذ كفايته منها .

على أن حاجات الانسان تتسع لأكثر بكثير من حاجات النبات والحيوان . فثمة الحاجات البيولوجية والحاجات الوجدانية والحاجات العقلية والحاجات الاجتماعية . وما يقال عن التوقف عن الاستمرار في التقبل يلزم الحاجات البيولوجية ، ينسحب أيضاً يلزم الحاجات الثلاث الباقية . فحتى بالنسبة للشيء أو الشخص المحبوب ، فإن المرء عندما يشبع من تلقى الحب ، فإنه يجد نفسه وقد توقف عن استمرار التلقى . فالحب كالطعام تماماً بتمام . فنحن نأخذ منه القدر الذي يكفيننا ثم نتوقف أنفسنا عن استمرار التلقى والأخذ . فكما أننا نأخذ من الطعام ما يكفي لسد الجوع وتوفير

الشعب لنا ، كذا فإننا نأخذ من الحب القدر الذى يشبع قلوبنا » ثم نكون بعد هذا فى غير حاجة إلى استمرار تقبل الحب عن الآخرين .

وكذا الحال بالنسبة للشعب العقلى . فأكثر الناس نهما للمعرفة وحبا للعلم يجلبون أنفسهم بعد وقت يقصر أو يطول وهم منكبون على القراءة وقد شعبوا من المعرفة ، فلا يجلبون فى أنفسهم رغبة عند نقطة معينة لمواصلة القراءة أو مواصلة الاستماع أو مواصلة البحث . وبهذه المناسبة نذكر ما قاله توفيق الحكيم للمؤلف ذات مرة من أنه يصوم عن القراءة فترة معينة كل عام حتى لا يصاب بالتخمة الثقافية » وأنه فى قراءاته اليومية لا يقرأ إلا بالقدر الذى يتمكن من هضمه واستيعاب عصارته . فهو لا يهتم فى القراءة بالكم بل بالكيف . وأخال أن معظم الملهمين — أو قل جميع الملهمين — يفعلون نفس الشيء وإلا فإنهم يكونون متعلمين ومثقفين فحسب وليسوا من الإلهام فى شيء .

ونفس الشيء يقال عن الحاجات الاجتماعية . فنحن نجوع إلى إقامة العلاقات بالآخرين ، وبعد أن تقوم العلاقات الاجتماعية بيننا وبينهم » وبعد أن نتصل بالناس ونخالطهم ونتحدث معهم فى موضوعات متباينة ونتطرق إلى اهتمامات متباينة ، فإننا نجد أنفسنا عند لحظة معينة وقد شعبنا بحيث لم تعد بنا حاجة إلى الاتصال بالآخرين ، بل نجد أنفسنا فى حاجة إلى الركون إلى العزلة وقطع العلاقات أو قل بتعبير أدق إلى الصوم عن تلك العلاقات مؤقتا إلى حين شعورنا بالجوع الاجتماعى من جديد .

والواقع أن الملهم شخص يحس بالجوع والشبع بازاء الحاجات الوجدانية والحاجات العقلية والحاجات الاجتماعية . ولكن الخطر الذى يمكن أن يصيب الشخص الملهم هو خطر إصابته بما يمكن أن نسميه بالتخمة الالهامية . ذلك أن الشخص الملهم كثيرا ما يحس بضخامة ما ألهم به » فيظل نايبا عن تلقى إلهامات جديدة بعد أن تلقى ذلك القدر الذى يحسبه هائلا من الإلهام . فهو يظل دائرا فى دخيلته حول ما ألهم به بغير أن يتسنى له هضمه واستيعابه

وامتصاص عصاراته والخلوص بخلصاته . ذلك أن ما يلهم به المرء يشكل في الغالب جمعا غريبا عن ذاتيته ، فيظل شاعرا بأن حالة من الشبع أو حتى من التخمّة - قد أصابته بحيث لا يستطيع الاستمرار في تقبل إلهامات جديدة .

ولا شك أن حالة كهذه تعد خطرا على الحالة الإلهامية التي يمكن أن يحظى بها المرء والتي يمكن أن يتمتع بتلقيها بصفة دائمة بغير وقف . فما عسى أن يفعل الملهم إذن حتى يتخلص من الشعور بالشبع الدائم أو بالتخمّة الإلهامية ؟ السبيل الوحيد لذلك هو ترك ما تم اكتشافه وراء الظهر . ولكن كيف يتسنى للملهم ذلك ؟ إننا نستطيع أن نقترح بضع خطوات لتحقيق ذلك على النحو التالي :

أولا : التعبير بسرعة واستفاضة عن الإلهام المسد . ذلك أن التعبير على الإلهام بالطريقة المناسبة يحقق الغاية منه ولا يظل معتملا ونحيما على عقل وقلب المرء . ولعل ما يجعل الشخص الملهم شاعرا بالشبع الإلهامي أو بالتخمّة الإلهامية كونه لا يعبر عما ألهم به بالكامل ، أو لأنه لا يعبر عن إلهامه على الإطلاق ، فيظل في حالة توقف عن تلقي إلهامات جديدة . إنه يكون كن يأخذ ولكن معدته لا تتخذ أى خطوة نحو هضم ما تلقت من طعام . والواقع أن بعض الناس يعتقدون أن استمرار الملهم في حالة من التردد في التعبير عن إلهاماته التي تلقاها أفضل من التعبير السريع عنها . ونحن لا نرى هذا الرأي . ذلك أن التعبير المباشر والسريع والمستفيض عما يلهم به المرء هو الضامن الوحيد لتقديم الإلهام في صورته الناصعة الواضحة والأمانة . أما التردد فترة من الزمن قبل التعبير الإلهامي ، فإنه يفقد المرء الملهم الجانب الأكبر من الإلهام ، وربما الجانب الأهم مما ألهم به . ولعلنا نقرر أن الشخص الملهم المعبر تعبيرا فوريا عما يلهم به ، هو القمين باستمرار السيوالة الإلهامية لديه . أما المتردد في التعبير أو ذلك الذي يأخذ في التفكير والتدبر فانه كثيرا ما يظل على هذه الحال بغير إقدام على التعبير عما ألهم به إلى أن يفسد الإلهام كما يفسد الطعام في المعدة الكسلانة .

ثانياً : الاعتقاد على عدم الانبهار بما يلهم به المرء وتناوله تناولا عاديا
 بغير أن يؤدي ذلك الموقف إلى الاستخفاف بالإلهام . فتمتد فرق جوهرى
 بين عدم الانبهار وبين الاستخفاف وعدم الاحتفال أو عدم الاقبال على التعبير
 وصياغة الإلهام بالصياغة اللاتقة به . ولعل الفرق بين هذين الموقفين يشبه
 إلى حد بعيد الفرق بين العفوية والارتجالية كما سبق أن ألمعنا . فالعفوية لاتعنى
 الاهمال ولا تعنى أيضا عدم إعداد الذات بأسلحة التعبير المتقنة . فالعفوية
 تعنى الصدق وتقديم الذات بغير تزيف وبغير تكلف ، بينما يعنى الارتجال
 عدم العناية بالوسيلة المستخلصة في التعبير وتقديم التشوش لا الجوهر من الأشياء
 أو الأفكار أو الانفعالات . فالارتجال يوصف دائما بالسطحية وعدم سبر
 الغور ، بينما توصف العفوية بتقديم لب الشخصية أو إبداء الصدق خالصا
 من أى زيف أو تزويق أو تصنع . والواقع أن الاعتقاد على تقبل الإلهام
 بغير انبهار يعنى في نفس الوقت القدرة على تناول عناصر الإلهام تناولا
 موضوعيا . والشأن هنا كشأن الممثل الذى يقدم العمل الدرامى بهدوء نفس
 بغير أن يترك لنفسه العنان في الانفعال فيفقد بذلك القدرة تماما على تقديم
 النص المسرحى بسبب انغماسه في الانفعال فيبكي متحبا وهو يقدم المشهد
 التراجيلى أو يضحك متفجرا وهو يقدم المشهد الكوميدي . فالانفعال الذى
 على الممثل التفرغ به يجب أن يكون خاضعا لإمرته لا أن يكون هو خاضعا
 لإمرة الانفعال . ولعلنا نزع أن الانبهار الشديد بما يلهم به المرء قد يعوقه
 عن مواصلة تلقى باقى الإلهام أو الجانب العظيم منه . فاذا عدنا إلى حياة
 ولیم بليك الذى سبق أن أشرنا إليه وقلنا إنه كان يرسم الأشباح التى كان
 يراها إذن لتأكلنا من أنه لم يكن ينهر بانفعال أمام مشهد تلك الأشباح
 وإلا لما كان في استطاعه تناول القلم الرصاص والقيام برسمها . فلا بد أنه
 كان هادئا بحيث كان يستطيع أن ينظر إلى تلك الأشباح بنظرة موضوعية
 بغير انبهار أو خوف أو انفعال .

ثالثاً : إبعاد نتائج التسجيل الإلهامى عن مركز اهتمام المرء . ذلك أنك
 بعد أن تعبر عما ألهمت به ، فإن عليك أن تبعده عن مجال اهتمامك . وهذا

في الواقع دأب معظم الشعراء والموسيقين وغيرهم من مبدعين . فهم لا يكادون يتذكرون ما سبق أن ألهموا به تاركين إنتاجهم وراء ظهورهم لكي يتفرغوا للجلد الذي يتوقع أن يلهموا به . ونحن نعرف من المؤلفين من لا يتسنى لهم تذكر جميع عناوين كتبهم التي قضوا الليالي والأيام بل الأشهر والسنوات في تأليفها . ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو أنهم يرغبون دائماً في التخفيف من أفعال ما قاموا بإنجازه . وثمة من الملهمين المبدعين أديبا من يجتنبون عن أنظارهم الفصول التي قاموا بتأليفها من الكتاب الذي يشتغلون فيه حتى يهتوا أنفسهم لتقبل إلهامات جديدة . ذلك أنهم يعتقدون أن بقاء ما تم لهم تأليفه أمام أعينهم يجعلهم في حالة شبع أو نعمة إلهامية حيث يظل احتفالهم بما سبق أن ألهموا به قائماً بغير تقدم خطوات إلهامية جديدة إلى الأمام .

التخلص من العننة والبدء من الصفر :

للعننة معنيان : معنى لفظي ويقصد به أن تقول « قال فلان عن فلان عن فلان ... إلخ » ، ومعنى معنوي أو مجازي ويقصد به أن تقول ما قاله غيرك ، وذلك بأن تنقل أفكار الغير سواء بالترجمة أم بالتلخيص أم بالانتباس ، أو تنقل أفكار الغير عن طريق البحث والاستناد فيما تزعم إلى ما سبق أن انتهى إليه غيرك في بحوث معملية أو فلسفية أو وثائقية . والواقع أنه لا حضارة أو تقدم إذا ما تخلص الناس المثقفون من العننة المعنوية أو المجازية وبدأ كل مفكر من الصفر . ولكن من الخطر أيضاً على الفكر بعامة والفكر الإلهامي بخاصة أن يقتصر المفكرون على التفكير المعنوي في كل ما يقومون بقوله أو كتابته . فحضارتنا بحاجة إلى العننة من جهة وإلى التفكير الذاتي البحث من جهة أخرى .

ونستطيع أن نقرر في الواقع أن التفكير الإلهامي لا يستقيم مع العننة المجازية بأي حال من الأحوال . فاللهم شخص يتلقى فكراً جديداً يلهم به من الخارج كما قلنا بعد أن يكون قد هياً نفسه لاستقبال الإلهامات . فإذا

كان الشخص الذى لديه استعداد لتقبل الإلهام ملجأ بالعننة ، ومقيدا بما سبق أن قرره غيره فى المجال الذى يلهم فيه ، فانه لا يستطيع بالتأكيد أن يتلقى الإلهام الجديد . فشرط أن تتلقى الإلهام الجديد الذى لم يسبق لغيرك أن تلقاه ، أن تكون كصفحة بيضاء خالية من أى كتابة عليها . وحتى إذا كنت مفعما بالمعرفة العننية ، فان عليك أن تهب نفسك إجازة ذهنية حتى يتسنى لك استقبال الإلهامات الجديدة . فلقد قررنا قبلا أن الضغوط الثقافية كثيرا ما تشكل شكائم وأصفادا تعوق الحركة الإلهامية التى يمكن أن تتم لولا وجود تلك الشكائم والأصفاذ .

وإذا نحن تصفحنا حياة الأدباء والفنانين الملهمين ، فاننا نجد أن تلك الحياة تحتط نفس الخطوة بالنسبة لهم جميعا . فهى تنقسم إلى ثلاث مراحل أساسية : المرحلة الأولى — مرحلة تعلم الوسائل المعرفية كالقراءة والكتابة والحساب وغير ذلك مما يتلوع به الإنسان لتحصيل المضامين المعرفية . والمرحلة الثانية هى مرحلة تحصيل المضامين المعرفية للوقوف على ما سبق للآخرين من علماء أو أدباء أو فنانين إنتاجه . والمرحلة الثانية — وهى المرحلة التى لا تقيض إلا للملهمين — فهى مرحلة تتلقى الإلهامات الجديدة والقيام على إلباسها أثوابا تعبيرية مناسبة . على أننا يجب أن نقرر هنا أن الوسيلة المعرفية والمضمون المعرفى نسيان . فلقد ننظر إلى الشيء من زاوية معينة فنجدته وسيلة معرفية ، بينما إذا نظرنا إليه هو ذاته من زاوية أخرى فاننا نجده مضمونا معرفيا . فالقطعة الموسيقية أو العمل الفنى التشكيلي ينطبق عليه ما نقرره هنا . فلقد يكون الموسيقى الملهمة قد وضع القطعة الموسيقية الرائعة باعتبار أنها وسيلة يروح بها عن نفسه ، وقد تكون القصيدة الملهمة وسيلة لاستمالة الحبيب إذا كانت قصيدة غزلية . ولكن القطعة الموسيقية قد تكون مضمونا عندما يقوم المستمع أو المتلوق بتناولها بنظرة نقدية تقويمية . وكلما يقال عن القصيدة الغزلية . فالدارس للأدب لا يتناولها باعتبارها وسيلة لاستمالة قلب الحبيب ، بل باعتبارها مضمونا أدبيا يوضع موضع الدرس والتقويم .

ولا شك أن الكثير من المثقفين ينكرون على أنفسهم ، وبالتالي على غيرهم التخلي عن العنقة والبدء من الصفر فيما يتناولونه من موضوعات . فاذا ما تناول الواحد منهم كتابا آمن مؤلفه بالمبدأ الإلهامي وبدأ فيه من أول كلمة وانتهى منه حتى آخر كلمة فيه وهو يعبر عن ذاتيته وعمما يمكن أن يلهم به من أفكار أو مشاعر ، فانهم ينظرون إليه باستخفاف لأنه لم يتضمن في نهايته قائمة بالمراجع العربية والأجنبية . ولأن المؤلف لم يعرض لآراء السابقين فيما يتعرض له من موضوعات . ولعلمهم يهتمون المؤلف بالكل أو بالعجز عن تناول الكتب والمراجع الأجنبية والعربية ، ولم يقض الوقت الطويل في حفظ وتلخيص واقتباس الفقرات من هنا وهناك يدبج بها كلامه ، ويسند آراءه لأن القارئ لا يقتنع ولا يؤمن بقيمة العمل الذي لا يستند إلى مساند يقوم عليها . فالكتاب القيم في رأيهم كالبناء الشاهق الذي لا يقوم إلا إذا كان مستندا إلى أساس قوى ومكين وعميق . والأساس في زعمهم هو المراجع التي ذكرها ودعم بها آراءه .

وتخشى أن نفصح ما يعتل في عقول وقلوب كثير من النقاد والمثقفين الذين ينكرون على كتاب العربية التبرؤ من العنقة المحاذية فيقدمون كتابات تناول موضوعات نفسية أو اجتماعية بغير أن تدبج بالمراجع : الواقع أنهم يستكثرون على المؤلف المصري أو السوري أو العراقي أو غير ذلك من مؤلفين عرب أن يعبروا عن ذواتهم فيما يكتبون . ولكن لعلهم يميزون عدم التلوع بالعنقة في مجالات معينة ومحدودة هي الشعر والقصة والكتب الأدبية التي يعبر فيها أصحابها عن المشاعر لا عن الأفكار . ولكن إذا تناول الواحد من أولئك النقاد أو المثقفين كتابا إنجليزيا أو أمريكيا أو فرنسيا أو غير ذلك من كتب أجنبية قام المؤلف فيها بالتعبير عن نفسه بداءة ، فانهم لا ينكرون عليه ذلك ، بل يقدرونه كل التقدير وينوطونه بالعبقرية ويعترفون له بأنه شخص ملهم . ولعلنا نسألهم : هل العبقرية والإلهام لا يتوافران إلا لمن يكتبون بغير اللغة العربية ؟ ولماذا نصادر كل فكر ينبع من عميق الفكر ويصلد عن صميم الذات إذا ما شمر بعض العرب عن سواعدهم وتناولوا القلم والورق

وقد تخلصوا من أثقال الضغوط الثقافية وذهبوا يعبرون بغير عننة عما
يخالجهم من فكر وعما يواتهم من إلهامات ؟

إننا نعتقد أن ثمة تعارضا جنريا بين العننة المجازية وبين تلقي الإلهام
أو حتى كل ما يمكن أن نسميه بالإبداع الأدبي أو الفني أو العلمي . فالعقوبة
لا تواتى من يقيد نفسه بشكائهم الفكر أو شكائهم الفن أو شكائهم العلم . ولا بد
لمن يريد أن يتلقى الإلهام من التخفف من تلك الأثقال التراثية بالمعنى العام
للكلمة . ذلك أن كل ما تم الكشف عنه يدخل ضمن التراث حتى ولو كان
المكتشف معاصرا . وحتى إذا كان الاكتشاف حديثا جدا .

بيد أن هذا لا يعنى أن يقطع الملهم صلته الثقافية بالتراث والعلم .
بل يعنى فقط أن الشخص الملهم يجب أن يباعد بينه وبين الوقوع تحت الضغوط
الثقافية التى تحيط به . والواقع أن بعض الأصلاء فى التفكير والتعبير قد
اخطوا لأنفسهم خطة تضمن لهم عدم الوقوع أسرى التراث والكشوف التى
يضطلع بها الآخرون . وتتلخص تلك الخطة فى عدم اقتران ما يعكفون
على كتابته أو التعبير عنه بما يقومون بقراءته . فتجد الواحد من الشعراء
المبدعين الملهمين وقد أخذ فى أثناء تأليف أحد دواوينه وهو أخذ فى قراءة
أحد الكتب التاريخية أو العلمية . فلا تكون هناك أية صلة أو أى ضغط ينوء
به كلكله وهو يبدع فى الشعر . ولكن إذا كان ذلك الشاعر عاكفا على قراءة
دواوين أحد الشعراء من أمثال شوقي أو العقاد أو مطران ، فالأغلب أن
يقع تحت تأثير قراءاته الشعرية فتصطبغ قصائده بما يقوم بقراءته آنيا . وبهذا
فانه يحرم إنتاجه من الأصالة .

ولعل هناك قانونا سيكولوجيا عاما تسير وفقه عقولنا . وربما يتلخص
هذا القانون فى أن هناك فترة ليست بالقصيرة تحتاج إليها أبحاثنا حتى تكون
قد هضمت ما سبق لنا قراءته . فما نقرأه اليوم لا نستفيد من عصارته فى الغد
التهريب ، بل فى الغد البعيد . من هنا فان خبرات طفولتنا أقوى تأثيرا فيما
نكتبه أو فيما نقوه به من خبراتنا فى المراهقة أو الشباب أو الكهولة . وحتى

ما ننساه مما نقوم بقراءته أو مشاهدته ليس سوى القشور التي تستبعدنا عقولنا لأنها غير قابلة للهضم والاستيعاب . ولكن ما يترسب في أذهاننا هو في الواقع المهم والقيم بالبقاء واستمرار التفاعل مع شخصياتنا . والواقع أن أولئك الأشخاص الذين يحسدكم من حولكم لأن ذاكرتهم تملأ التفاصيل والجزئيات ، إنما هم شخصيات لم تحظ بالقدرة الإبداعية، بل إنهم يستبعدون من دائرة الملهمين تماماً . ذلك أن الذاكرة التفصيلية تتعارض مع القدرة على تلقي الإلهامات . ولعل لنا في تاريخ حياة التباقة والملهمين ما يؤكد ما نذهب إليه هنا . فأديسون مثلاً نسي حتى اسمه في أحد المواقف ، ولكنه كان مبدعاً وعبقرياً وملهماً . والحفاظ والتثنية قلحروا في الواقع من الإبداع لأن شغلهم الشاغل هو حفظ ما قاله غيرهم ونقله إلى الآخرين . فإحسدكم البعض على ما أوتوا به من ذاكرة تفصيلية ونصية ، إنما هو على حساب موهبة أخرى أجل وأعظم هي موهبة الإبداع والتلقي الإلهامي . ونذكر بما سبق أن قلناه من أن انبهار الشاعر بما سبق أن ألهم به من شعر إنما يعد عائقاً يحول بينه وبين تلقي إلهامات جديدة .

الفصل الرابع

مجالات الإلهام

المجال الأدبي :

قلنا أن أشد الناس حرصاً على العنقة المجازية وتحمسا لها يعترفون للأدباء بالحرية من القيود العنقية ولا يطالبونهم بإيراد المراجع يلجئون بها قصائدهم أو نثرهم الأدبي أو قصصهم . ومعنى هذا أن المجال الأدبي من أكثر المجالات حظاً في الاستقلال عن القيود والشكائم التي توضع في طريق الممسكين بالأقلام أو المتعرضين للقضايا الإنسانية المتباينة . ولقد قلنا أيضاً أن هناك تناسباً عسكياً بين العنقة وبين الإلهام ، وبالتالي فإن هناك تناسباً مطرد الزيادة بين التحرر من قيود العنقة وبين الاستعداد لتقبل الإلهام .

ونستطيع أن نعرض لمناحي المجال الأدبي موضحين كيف أن الأديب يمكن أن يحظى بالإلهام في كل منحي منها . على أننا يجب أن تنبه إلى ما تنسم به جميع المناحي الأدبية من تكامل فيما بينها . ذلك أن كل منحي من تلك المناحي لا يستغنى عن باقي المناحي الأخرى ، بل يتفاعل ويشترك في قطاع معين معها . والمناحي الأدبية هي :

أولاً : الشعر : وتمرماه الأساسية خمسة على النحو التالي : الموسيقى اللفظية ، والمناخي المشبعة بالوجدان ، وترويح تلك المعاني للموسيقى العقلية المناسبة ، وتعبير الخبرة الشخصية الفردية عن خبرة جماعية هم أناسا كثيرين ، وأخيراً المعاصرة ، بمعنى أن يكون الشاعر ابن عصره وابن بيئته وليس ابن عصر سابق أو ابن بيئة مغايرة للبيئة التي يقول فيها الشعر وينشره على الناس من حوله بها .

وبالنسبة للموسيقى اللفظية فإنها ضرورية للشعر مع الاعتراف بإمكان التجديد في القوالب الموسيقية اللفظية . على أن الموسيقى الشعرية يمكن أن تكون خطراً على الشعر نفسه إذا ما داخلها الافتعال والتصنع ، وإذا ما تغلبت على العناصر أو المقومات الأربعة الأخرى التي ذكرناها . ونستطيع في الواقع أن نقرر أن الشاعر الملهم يسير في المراحل الثلاث التي سبق أن عرضنا لها في الموضوع السابق ، أعني مرحلة تعلم الوسائل ثم مرحلة تعلم المضمون ثم مرحلة الإبداع الإلهامي . فبالنسبة لمرحلة تعلم الوسائل ، فإن على الشخص الذي يريد تعلم الشعر أن يقف على أصوله الموسيقية وأن يتدرب عليها بالدراسة والفهم والتدرب اليومي . والأمور شبيهة هنا بمن يتعلم الآلة الكاتبة . فطالب الآلة الكاتبة يأخذ في التدرب على جزئياتها ثم على العلاقات القائمة بين تلك الجزئيات حتى ولو كان ما يتدرب عليه ويواسطه كلاماً بلا معنى . المهم أن أصابع يديه تتمكن من الكتابة بتمكن تام بغض النظر عن المضمون الذي يقوم الكاتب على الآلة الكاتبة بكتابته .

وهكذا يقال عن طالب الشعر . إنه يجب أن يمر بتلك المرحلة التدريبية التي يجب أن ينصب فيها الاهتمام على الصيغ الموسيقية . وبعد أن يتمكن طالب الشعر من المرحلة الأولى التي يكرسها لتعلم الوسائل ، فإن عليه أن يمر إلى المرحلة الثانية ، ألا وهي مرحلة المضمون . وهنا يكون على طالب الشعر أن يقرأ لشعراء كثيرين وبخاصة الفطاحل منهم . ولا ننسى أن نذكر أيضاً بما يجب على طالب الشعر الوقوف عليه من المضامين المعرفية غير الشعرية كالعلم الطبيعي وعلوم النفس والاجتماع وغيرها .

وبعد أن ينتهي ويستوعب الشاعر هاتين المرحلتين الأساسيتين ، وبعد أن يخضعهما لإمرته لا أن يخضع هو لأتقاهما ، فإنه يستطيع أن يزعم لنفسه أنه قد تهيأ للمرحلة الثالثة - أعني المرحلة الإلهامية - ولكن علينا أن نذكر أيضاً أن هذه المرحلة الإبداعية لا تقيض لجميع الناس ، بل تقيض لقلة قليلة النادرة . ولكنتا في نفس الوقت نزعم أن أي شاعر

يمكن بعد اجتيازه للمرحلتين الأوليين أن يحظى ولو بشفرات قليلة من الإبداع والإلهام . فالإلهام وإن كان عطية علوية فيها عناصر غير واقعية ، أعنى عناصر روحية ، فإن الطريق إليه محدود وهو اجتياز مرحلتى التدريب على الوسائل والإطلاع على المضامين المعرفية . وما على طالب الشعر إلا أن يسعى وليكن ما يكون بعد ذلك . ولكن عليه ألا يقدر المرحلتين الأوليين ويقع فى مطلقها بغير إلحاح على الحرية والإمساك بتلابيبها ، ولعلنا نلاحظ مطلب التحرر من قيود ما تعلمناه واقعاً واضحاً وعملياً يلزم غالبية المهارات التى نجتاز من مرحلتها إلى ما عداها . من ذلك ببساطة المشى وركوب الدراجة والرقص والكتابة بالقلم والكتابة على الآلة الكاتبة والعزف على إحدى الآلات الموسيقية . فنحن نكلف تمام الكلف ونركز ذهننا تمام التركيز فى الفنيات المتعلقة بكل من هذه المهارات بحيث نكون على بينة من كل جزئية من جزئياتها ، ونكون على بصيرة بما نمارسه ويكون أداؤنا لما مصحوباً بشعور واع تمام الوعى بما نقوم به فى أثناء تعلمنا لها ، ولكن بعد أن نتمكن من الممارسة ينسحب الشعور لكى يحل محله هامش الشعور ، ولا نكون على بينة تماماً بما نضطلع به . فنحن نمشى الآن على أقدامنا بغير أن نلقى بالا إلى كيف نسير على الأرض متصبين وبلا خشية من أن تقع كما كان حالنا عندما كنا نتدرب على المشى فى طفولتنا الباكرة . وكذا يقال عن ركوبنا للدراجة أو قيامنا بالرقص أو الكتابة بالقلم أو الكتابة على الآلة الكاتبة أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية . فى جميع هذه الممارسات وغيرها نصير مقطوعين عن الانتباه إلى ما نقوم به ، وقد صرنا نمارسه بطريقة آلية تماماً ، أو قل إننا نصير مسيطرين ومستعبدين لتلك الفنون بعد أن كنا خاضعين لكل جزئياتها وبعد أن كنا نتحسس طريقنا فى أثناء تعلمنا أو تمكنا منها .

ونستطيع أن نقرر فى الواقع أن الشاعر الأصيل والملم لا يصدر فى شعره وقد وضع نصب عينيه المقومات الشعرية الخمسة التى ذكرناها فى

صدر كلامنا عن الشعر « بل إنه يصدر عن نفسه في تلقائية عفوية تامتين . ونستطيع أن نقول أن هناك ما يسمى بالمركب الشعري . والمركب مغاير تمام المغايرة للمزيج . فالمزيج يحتفظ بخصائص مقوماته بينما تصير للمركب خصائص فريدة وكأنه عنصر واحد . فالماء له خصائصه الممايزة التي لا يتمتع بها الغازان المكونان له ، أعنى الأوكسجين والهيدروجين . وقل نفس الشيء بالنسبة للشاعر فيما يقدمه من شعر أصيل ملهم . إنه يقدم مشاعره مجسمة ومركبة في هيئة كلام منطوق أو مكتوب . فالقصيدة الشعرية بمثابة كائن حي يولد على لسان الشاعر أو قلمه بعد أن يتم الحمل بها في قلبه وعقله ، وبعد أن تمر بمراحل نمو في دخيلته . وعندما يتم لها النضج لكي تولد فإنها تنبعث عفويا إلى الخارج عن طريق اللسان أو القلم . وبعبارة أخرى فإن القصيدة الملهمة الأصلية ليست مجرد أبيات شعر متناثرة يقوم الشاعر بالربط فيما بينها ، وبالأولى فإنها ليست كلمات متناثرة ينظمها الشاعر في بيت أو بيت شعري بل هي في الواقع كل متكامل لا يمكن تجزئته أو الاجتزاء بجانب منه دون باقي الجوانب .

ثانياً : النثر الفني والقصص : والنثر أو القصص يمران بنفس ما يمر به الشاعر . فهما يتعلمان أولاً فنيات الكتابة ، ثم يقفان على المضامين الخاصة بهما في أعمالهما الفنية والفطاحل والجهابذة من أصحاب النثر الفني أو القصص . ولكن المرحلة الثالثة - وهي المرحلة الإلهامية - لا تتأتى إلا للقلة النادرة ممن تنشر لهم المطبعة نثراً أو قصصاً . ولعلك تلاحظ أن ما يخلد من النثر الفني ومن القصص ليس كثيراً بقدر كثرة المنشور منها . فالغالبية العظمى مما يتم نشره ما يفتأ يزوى في ركن بعيد عن الضوء . أما الملهم من الشعر النثر الفني ومن القصص فإنه يزداد تقديراً من جانب الناس « بل إن الأعمال النثرية والقصصية الممتازة تجد طلباً عليها من خارج اللغة التي كتبت فيها ، فتترجم إلى أكثر من لغة أجنبية واحدة . وحتى إذا لم يلفت العمل النثري الجيد والقصص الجيدة الانتباه

من جانب المعاصرين ، فإن الأجيال التالية تهتم بها وتأخذ في إلقاء الضوء عليها والاعتراز بها وتقديرها .

والواقع أن الإلهام لا يتأتى لأولئك الناثرين أو القصاصيين الذين يميلون بطبعهم للتقليد أو التقمص . ذلك أن بعض الناثرين والقصاصيين يتقمصون أقلام غيرهم ، فيأتى إنتاجهم متكررا أو زائفاً أو مشوها وقد ارتسمت علامات التقليد والزيف على ملامحه . وعلى العكس من هؤلاء فإنك تجد أن من الناثرين والقصاصيين من ينبون عن السير وراء غيرهم . فهم عصاة ناثرون ومارقون عن الطرق التي سبقهم غيرهم إليها . لأنهم يبحثون عن المجهل ليدلفوا إليها . وأكثر من هذا فإن الواحد من هؤلاء المارقين عن الخطوط المطروحة ينبو أيضاً عن أن يسلك طريقا سبق له الضرب في إثره . فهو يريد الجديد دائماً « ولا يقنع بما سبق له تناوله أو التفكير فيه . إنه يبحث دائماً عن الجديد ومن ثم فإنه يكون مستعدا لتلقى الإلهامات الجديدة من أى مصدر كانت . ولا يكون كلفه بالمضمون الجديد فحسب « بل يكون أيضاً بالصيغ الجديدة وبالأسلوب الرشيق المستحدث . فأنت تجده دائماً على تقليب الكلمة الواحدة على أوجهها ، بل وتجده أسلوبه خالياً من اللوازم اللغوية بسبب عشقه وتشوقه للجديد المبتكر .

المجال الفنى :

نستطيع فى الواقع أن نقرر أن الدعائم التى يقوم عليها المجال الفنى هى نفسها الدعائم التى يقوم عليها المجال الأدبى . ذلك أن الفنان والأديب يشتركان فى محور واحد هو التعبير الوجدانى عن الذات . فليس هناك أدب وليس هناك فن خلوان من الإحساس الوجدانى يعتمل فى قلب الأديب وقلب الفنان . وبتعبير آخر فإن التمييز بينهما لا يقوم إلا على أساس التعبير الخارجى ووسائله . فالفنان يرسم بريشته أو ينحت بإزميله أو يعزف على الآلة الموسيقية بأصبعه ، ولكنه فى جميع هذه الفنون لا يختلف اختلافاً جذرياً عن الشاعر وهو يقرض الشعر أو الناثر

وهو يكتب النثر الفنى أو القصص وهو يؤلف القصة . فلكأن الأديب فى خلقه الأدبى يرسم لوحة فنية فى كلمات أو ينحت بكلماته تمثالا مسطرا على الورق أو كأنه يعزف على قيثارة أدبه كلاما منطوقا بلسانه أو مدونا بقلمه . ومن جهة أخرى فلكأن المصور يقدم الشعر من خلال ما يرسمه من لوحات ، ولكأن النحات ينطق الجهاد معانى شعرية رائعة ، أو لكأن الموسيقار ينطق من خلال موسيقاه شعرا ونثرا وعبارات أدبية رائعة .

وعلى هذا فإن ما قلناه فى الموضوع السالف يلزأ الإلهام يمكن أن ينسحب بنفس القدر من الصدق على هذا الموضوع . ذلك أن الأديب والفنان يشتركان سويا فى قطاع مشترك كبير فيما يتعلق بالقاعدة التى ينطلقان منها ، وليس الاختلاف فيما بينهما إلا يلزأ الوسائل التى يستعينان بها للتعبير عما يحالجهما من أحاسيس . ولكن مع هذا فإن علينا أن نركز الانتباه إلى ما يمتاز به الفنان فى تعبيره الفنى . ولعلنا نبدا بطرح سؤال هام هو : هل يتمتع الفنان بخرية أكثر فى التعبير عما يتمتع به الأديب ؟ وبتعبير آخر نسأل : هل الوسائل التى يستعين بها الفنان : الريشة فى يد المصور أو الأرميل فى يد النحات أو الأوتار فى يد الموسيقار – أكثر مرونة وأوسع نطاقا فى الإبانة عن الكلمات والعبارات ينطق بها باللسان أو تسطر بالقلم على الورق ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال صعبة ومحيرة . ذلك أن الفنون المتباينة بمثابة لغة عالمية أو حتى لقد تكون لغة تشترك فى فهمها أنواع حيوانية أخرى قريية من عالم البشر . فلهذا التناضح والجمال لغة عامة ، أو قل لأنها غريزة جبل عليها الإنسان وغيره من بعض الحيوانات بحيث تعمل عملها وتوفى ثمارها بغير ما حاجة إلى تعليم أو تلقين . وعلى نقيض هذا نجد أن الشعر والنثر الفنى والقصة وغير ذلك من فنون أدبية بحاجة إلى إعداد بالتعليم حتى يتسنى للمرء أن يتلوقها ويشارك فى الاستمتاع بها . بيد أنه فى مقابل هذه الحاجة التى تقف إلى جانب الفنون وترجح كفتها

على كفة البيان الأدبي . فإننا نجد أن المنافحين عن الأدب يقولون بحجة أخرى لصالح الأديب ضد الفنان . فهم يؤكدون أن اللغة الأدبية تجمع بين الإحساس الوجداني وبين المعنى المفهوم . وهذا ما يتقص العمل الفني الذي لا يعتمد إلا على شيء واحد أو على فرع واحد من هذين الفرعين ألا وهو الشعور الوجداني . فبينما نجد أن لغة الأدب تخاطب القلب والعقل جميعاً ، فإن لغة الفن لا تستطيع أن تخاطب العقل ، بل هي تخاطب الوجدان فحسب . وحتى عندما تستحيل المشاعر لدى المتذوق الفني إلى معان في ذهنه ، فإنها تكون في الواقع معاني غامضة غير مقننة . فالمعنى الذي يترسب في ذهنك بعد تأثرك بالقطعة الموسيقية مثلاً يختلف كثيراً أو قليلاً عن المعنى الذي يخلص إليه غيرك ممن يتأثرون بالاستماع إلى نفس القطعة الموسيقية . ومعنى هذا بالتالي أن الأدب أقوى بياناً وأسلم قياداً من الفن ، وقد تحدت معانيه في الأذهان خلافاً لما يتركه الفن في العقول من معان مشوشة أو مهوشة أو غامضة إن كان له أن يترك أي معنى بالذهن على الإطلاق .

على أننا نستطيع أن نقرر في الواقع أن لدى الفنان فرصاً للتعبير الفني الإلهامي أكثر مما يتاح للأديب ، ذلك أننا نعتقد أن لغة الفنان الأدائية أكثر مرونة وأكثر قابلية للتطويع من لغة الأديب المنطوقة . فالواقع أن قلة من الأدباء يتسنى لهم القبض على الومضات الوجدانية التي تبرز فجأة ثم تختفي ، بينما يعتمد الكثير منهم إلى القبض على الأثر أو على الصورة وليس الأصل . فعندما يكون الأديب في غمرة التلقي الإلهامي ، فإنه لا يستطيع أن يحيل المقومات الذاتية إلى مقومات موضوعية يطرحتها على الورق . وهذه المناسبة نذكر ما قاله أحد الأدباء الكبار من أن ما يتسنى له تركه على الورق من شعر ، إنما هو في الواقع جثث لكائنات حية وجدانية كانت حية ومفعمة بالحياة ونايضة بالحياة في قلبه . ولكنه ما يكاد يحاول أسرها ونقلها من كيانه الوجداني إلى كيان آخر وفي صورة أخرى - أو قل حبسها في قوالب هي القوالب اللفظية - حتى تفقد حيويتها

وحياتها وتستحيل إلى جثث تم عما كانت عليه فحصب « ولكنها فاقدة
المضمون الوجداني الملهب الذي كانت تبلو عليه لحظة توهجها في قلبه
واعمالها بل وسيطرتها على مشاعره .

ولنا أن نضيف إلى هذا أيضا أن سرعة بزوغ الأحاسيس ليست هي
أيضا سرعة التعبير الأدبي « بمعنى أن الأفكار والمشاعر في تفاعلها واتحادها
في ذهن الأديب تكون سريعة ولكأن شريط تسجيل ناطق وسريع
الإلقاء يلور في ذهن الأديب . فكيف يتسنى له والحال هذه أن يتلقت
ما ينطق به ذلك الشريط في ذهنه ويلقى به إلى الورق ؟ إن تفاوت سرعة
الشريط الذهني عن سرعة التعبير القلمي يشكل عائقا أمام الأديب في
تعبيره الأدبي . ناهيك عن وجود ذلك الرقيب الثقافي المتربص بما يقوم
الأديب بكتابته « أعني ذلك الرقيب الذي يحاسبه على صحة اللغة وصحة
الإملاء . فبينما يكون الأديب في غمرة التعبير الكتابي الأدبي « فإنه يلقي
بجانب من اهتمامه إلى ما يكتبه خوف أن يزل قلمه فيخطيء في النحو
أو الصرف أو الإملاء « فيصير عرضة لنقد النقاد وسخرية القراء .

والواقع أن الفنان معنى من بعض تلك القيود والسلود والعوائق .
صحيح أن عليه أن يراعى أصول عمله الفني . ولكن فرصة الثورة على
المألوف والمتعارف عليه في المجال الفني أكثر إتاحة بكثير للفنان عنها
لدى الأديب . فالتيود الفنية أو ما يسمى بالتنوع الفنية يمكن أن يتم
التجاوز عنها ، بل إن أمام الفنان الفرصة الكاملة للالتيان بقواعد شخصية
ذاتية إذا كان في مقدوره أن يأتي بمثل تلك القواعد . ولكن الأديب
المسكين إذا ما جرؤ وخرج عن الخطوط المرسومة فالويل له والثبور
وعظائم الأدور . وقصة الشعر الحديث ليست بعيدة . فالثورة ضد
الخارجين على أصول الشعر التقليدي قد غطت على الثورة التي نادى بها
أصحاب هذا الشعر الحديث . ناهيك عما يمكن أن يوجه إلى دعاة تبسيط
اللغة العربية أو إلى من جزعوا بالفعل ونادوا بتطوير الخط العربي أو إلى
الداعين إلى الاستعانة بالحروف اللاتينية أو حتى بالأرقام الأفرنجية التي

هى فى أصلها أرقام عربية أخذها الغربيون عن العرب ، بينما أخذنا نحن الأرقام الهندية . . . نقول ناهيك عما يمكن أن يوجه - وقد وجه بالفعل - من نقد لاذع وهجوم إليهم وصل إلى حد اتهامهم فى وطنيتهم فحذروا بأن يكفوا عن هذا السفه والرعونة والتمزق النفسى إلى غير ذلك من أوصاف أنيطت بهم .

كل هذا لا يكاد يواجه الفنان . وحتى عندما ينعى الناعون على الخارجين على التقاليد الفنية ، فإن الفنان يستطيع أن يصم أذنيه عن النقد وأن يسلك طريقه وقد أخذ الناس من حوله يصفقون له ويشجعونه على تقديم الجديد والمبتكر وعدم الإنصات إلى ما يوجهه النقد من نقد إليه . ومن هنا فإن فرصة الاستغراق الفنى والتعبير الفنى المباشر متاحة أمام الفنان . وواضح أن الفنان يستطيع أن ينقل مشاعره خلال وسيلة التعبير التى اختارها لنفسه بغير خرف من خطأ لغوى يقع فيه أو من زلة إملائية يتردى فيها قلمه . إنه سلطان الموقف يجرى فى المادة أو على الأوتار ما يعن له من مشاعر . وهل هناك ما هو أروع من تعامل الفنان مع فنه مباشرة يضرب من خلاله على أوتار القلوب بغير قيود من لفظ أو معنى . إنه كمن خرج من نطاق الجاذبية الأرضية وانطلق بصاروخ يستكشف المجهول بواسطة بغير أى قيد : والجاذبية المعوقة هى تلك الجاذبية التى يظل الأديب مقيلا بها بواسطة لغة الكلام أو لغة الكتابة يحاول جاهلا مقاومتها والتخلص من جذبها له . فالفنان هو الإنسان الوحيد الذى يستطيع أن يجعل التقاطه الإلهامات الوجدانية مطروحة حية ومفعمة بالحياة من خلال وسائل تعبيره الفنى . ومن حسن الحظ أن الفنانين المحليين قد حطموا قيود الواقع ، فانتحوا إلى الرمزية التى تتسم بالسرعة والتخلص فى نفس الوقت من التفاصيل وقيود الواقع . فصار الفنان رمزيا فى تعبيره ، والرمزية هى فى الواقع اللغة الشفوية التى تحاول إيصال الإحساس الوجدانى طفريا وعفويا وتلقائيا إلى مجال التعبير الفنى . فالكثير من المشاعر يمكن أن يجد له مجالا تجسيدا يتجسد

فيه عند الفنان الأصل الملهم الذى يلتقط إلهاماته فوراً وينقلها بطريقة خاطفة إلى نطاق التعبير الفنى ، وهو الذى يعيش فى عالمه الذاتى متحرراً من قيود الواقع .

المجال العلمى :

دأب الإنسان منذ أن أحس بوجوده على استكشاف العالم من حوله للوقوف على أسراره ، وكان حافزه الأسامى فى ذلك سبر أغوار المجهول وإشباع غزيرة الاستطلاع لديه . فالمعرفة لذاتها كانت مطلب الإنسان منذ القدم . ولعل أن تكون المعرفة للذات المعرفة قد سبقت أو تواكبت مع المعرفة للنفع . والواقع أنه لو أن المعرفة كانت للنفع فحسب لدى الإنسان ، لما ظهر العلم فى حياة الإنسانية ولما بذل العلماء الجهود للكشف عن نظريات لا نفع وراءها ولا ضرر . ولا غرو فإن العلم كان غائبا فى أعماق الفلسفة ولم يكن له أن يستقل عنها . فكان الفيلسوف والعالم مرادفين لمعنى واحد هو الشخص المحب للحكمة . فكانت الحكمة — أعنى المعرفة المجردة عن الهوى أو المعرفة التى ترفع بالإنسان إلى مستوى الآلهة أو المعرفة التى تهب المرء بصيرة تجعله نافذ الفكر فينظم حياته ويعرف حقائق الوجود وحقيقة نفسه — هى الهدف الذى كان يصبو إليه الفيلسوف أو العالم . فواحد مثل فيثاغورس كان يعتقد أن تفكيره الهندسى الرياضى سبيل من السبل التى تنقى النفس وتطهرها وتجعلها قريبة من الآلهة فكان اختراعه للإلهة ، لا كما كان قدماء المصريين يستخلمونها فى تشييد الأهرامات والمعابد ، بل باعتبارها نظريات ذهنية يتم معرفتها لذاتها بغض النظر عن التطبيقات التى يمكن أن تنأت عن مثل تلك المعرفة :

ومن الملاحظ أن التفكير العلمى فى العصور الحديثة قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالتطبيقات العلمية . ولكن هذا لا يحول دون القول إن الروح العلمية فى أصلها وجوهرها ليست مرتبطة بالتطبيق بل ترتبط بالتفكير

المجرد . فالنظرية أو القاعدة هي الخلاصة التي يخلص بها العالم : ولعله بعد استكشافه للنظريات والقواعد يترك لغيره من تكنولوجيين تطبيق تلك النظريات أو القواعد العلمية في المجالات المتباينة . ذلك أن ربط التفكير العلمي بالتطبيق - وجعل التطبيق هو المطلب الأساسي يقيد التفكير العلمي . ناهيك عن أن الكثير من العلوم لا ترتبط بالتطبيق ارتباطاً مباشراً . فعالم الرياضة البحتة لا يفكر في تطبيق ما يعرفه أو ما يكتشفه من نظريات . ولكن قد يستفيد المهندس مما يدرسه من نظريات رياضية في مشاريعه الهندسية .

والواقع أن العلماء الأقدمين حتى مشارف العصور الحديثة كانوا أكبر حظاً في تلقى الإلهامات من العلماء المحدثين . ذلك أن العلماء القدامى كانوا فردين مستقلين في تفكيرهم ولم يكونوا خاضعين لإشراف غيرهم أو لتوجيههم كما هو حال علماء اليوم . فعالم اليوم لا يعمل وحده غالباً ، بل يعمل في فريق ، كما أنه لا يعمل بحرية ، بل هو يخضع لتوجيه غيره ولضغوط متباينة كذلك الضغوط التي تفرضها المؤسسة العلمية التي تقدم إليه مرتبه وتوفر له المساعدات . لقد كان العالم قديماً كالراهب بالفعل يجرى تجاربه العلمية في أوقات الفراغ ، وقد كانت أوقاتاً طويلة . لقد كانت الشواغل الدنيوية نادرة في حياة العالم . فلم تكن الحضارة تشغل ذهنه ، كما أنه في الغالب لم يكن مكبلاً بمواعيد يلتقي فيها المحاضرات بالجامعة كما هو حال عالم اليوم . ولعل أسوأ ما حاق بعلماء اليوم ارتباطهم بالمواعيد واقتحام المجال الفكري عليهم وهم قد بدأوا في الاستغراق في التفكير والتأمل . ذلك أن الفراغ والدعة صنوان للإلهام العلمي . أما طاحونة الحياة اليومية الحالية في ظل المدنية الحديثة فإنها لا تسمح للعالم بالتأمل وتهيئة الذات لتلقى الإلهامات .

لقد كان زلزال العالم قديماً يجرى وراء ما يجذب انتباهه ويشغل باله من فكر أيا كان . إنه كان كالصياد الذي يطوف بالهر أو البحر إلى أن يعثر على سمكة كبيرة ظهر طرف ذيلها على سطح الماء فينشر شبكته

فوقها ويقتنصها : ولكن العالم اليوم مقيد بجداول زمني يسير وفقه ،
وعليه أن يبحث النقطة أو المشكلة التي يوزعها عليه رئيسه من
العلماء أو تطلب إليه المؤسسة التي ترعاه تناول مشكلة بعينها وتقديم تقرير
عنها . ولكم من عبقریات علمية قد أهدرت وتبخرت على أيدي
المؤسسات العلمية ذاتها . ناهيك عن التطلعات المادية ومستوى المعيشة
المرتفع الذي يتوق عالم اليوم إلى تحقيقه . إنه من أجل ذلك يسعى في
الغالب لتوسيع مجال عمله بدلا من تضيقه . لقد نجد الأستاذ الجامعي
يلقي محاضرتين اليوم في إحدى جامعات القاهرة ، وفي الغد يلقي محاضرتين
في أسبوط وبعد غد في سوهاج . ناهيك عن رسائل الماجستير والدكتوراه
التي يشرف عليها والتدوات والمؤتمرات التي يدعى لحضورها . فكيف
يعكف على ذاته ؟ وكيف له أن يهيء ذهنه لتلقي الإلهامات العلمية ؟

وعلى الرغم من أن العالم يصب اهتمامه بالدرجة الأولى على الجانب
العقلاني من شخصيته ، فإنه لا يستطيع أن يغفل الجانب الوجداني . فهو
لا يفكر بعقله دون وجدانه ، بل هو يفكر بعقله ووجدانه جميعا .
ذلك أن العالم لكي يفكر بعمق ، فلا بد له أن يحب التفكير وأن
يتعشقه ويصب نفسه صبا فيه . فإيبدو في سلوك العالم هو القشرة
العقلية المنطقية الحالية من الوجدان . ولكن ما يدعم تلك القشرة الظاهرة
وما يسندها هو ذلك الجزء المظلم ، أعني الجزء الوجداني . فلا غناء
للعالم إذن عن الوجدان يعمل عمله في ذهنه حتى يتسنى له تقديم التفكير
العلمي المتبلور .

من هنا فإننا نستطيع أن نقرر أن الإلهام الذي يمكن أن يتأتى للعالم إنما
يتأتى له عن طريق تلك الدعامة الوجدانية التي لا تكاد تظهر في سلوكه
العلمي . فأرشميدس عندما اكتشف قانون الطفو لم يكتشفه عن طريق
عقله المنطقي ، بل عن طريق ذهنه الوجداني . ولعلنا نبلور هذه
النقطة بالقول بأن ما يروق لنا من فكر إنما يغلف آليا بالوجدان
ويحتفظ به في اللا شعور . واللا شعور في رأينا ليس مخزنا للخرات غير المواتية

فحسب بل هو أيضا مخزن للخبرات الذهنية التي تعتمل في دخائلنا . ولعل الإلهام الذي يتلقاه العالم يواتيه بطريق اللاشعور ثم يتبلور ويطوف على سطح شعوره . فالكثير من الحلول للمعضلات التي تواجه العالم والتي تستعصى على الحل وهو في وعيه وشعوره ويقظته ، كثيرا ما يجد لها الحل المفاجيء وهو غارق في النوم فيرى ذلك الحل المرتقب في منامه أو وهو في حالة وسط بين النوم واليقظة . ومعنى هذا أن الإلهام لا يخاطب العقل الواعي ، بل يخاطب العقل غير الواعي أو اللاشعور .

وهناك في الواقع مجموعة من العقبات التي تقف حائلا بين العالم وبين الإلهام العلمي نلخصها فيما يلي :

أولا : الضغوط الثقافية : فلقد قلنا قبلا أن كثرة التحصيل والحرص على حشد الكثير من المعلومات وبخاصة التفاصيل العلمية كثيرا ما تقف حائلا بين العالم وبين الإلهام . ويتضح هذا حتى في الحياة اليومية بالنسبة لكثير من الطلاب الذين تستغرقهم التفاصيل دون أن يتمكنوا من الوقوف على الكليات . فلقد تعوق عمليات الجمع والطرح والضرب والقسمة دون مشاهدة العلاقات الأساسية في التمرين الرياضي ، أو قد تعوق التفاصيل العلمية دون الوقوف على المقومات الأساسية في النظرية العلمية . وهكذا يقال عن العالم الذي تعزف به التفاصيل عن الوقوف على الكليات . وحتى إذا قضى العالم معظم الوقت في تحصيل ما تم اكتشافه على أيدي العلماء الآخرين في نفس المجال الذي يشتغل فيه فإن هذا قد يشكل عائقاً بينه وبين الإلهام العلمي . ولذا فإننا نقول أن التعب الثقافي مضاد لتلقي الإلهام . ومن ثم فمن الضروري أن يتمتع العالم بالراحة الثقافية التي لا تصل إلى حد الكسل الثقافي .

ثانيا : الضغوط الاجتماعية والسياسية . فإذا ما تحكمت المؤسسات أو الأحزاب السياسية أو الجهات التنفيذية في عقلية العلماء وفي اهتمامهم ورسمت لهم الخطوط التي عاينهم السير وفقها ، فإن هذا يحول دون تلقي

الإلهامات العلمية ، وذلك لأن الإلهام العلمى يتعلق بالجهول ولا يتعلق بالمعلوم الذى سبق تحديد نطاقه أو رسم حدوده : وهكذا نجد أن الحرية والديموقراطية صنوان أساسيان للاستعداد لتلقى الإلهامات العلمية .

ثالثا : ضيق الوقت وعدم توفير الفرص الكافية للتأمل . ذلك أن المشاغل اليومية والمهموم والطموح والرغبة فى الكسب أو الشهرة أو الصبو إلى احتلال المناصب الهامة أو التنافس مع الآخرين من الزملاء أو غير ذلك من اهتمامات يمكن أن تثير القلق ، إنما تعمل جميعاً على طرد الإلهامات . فالإلهامات تشبه السمك . فأنت لا تستطيع صيد السمك بينما تضرب الماء بالطوب أو تحركه بعصا . والطوب أو العصا هما المهموم أو أسباب القلق ، وهما أيضا العوامل التى تجعل وقت التأمل ضيقاً أو غير متوافر على الإطلاق .

ولا شك أن نظامنا المدرسية والامتحانات والتنافس بين التلاميذ والطلاب لما ينشئ الأجيال الجديدة وهى عاجزة عن التأمل أو عن تهيئة الذات لتقبل الإلهامات . ولذا فإن معظم المتعلمين اليوم لا يعرفون معنى الإلهام وقد يندهبون عندما يقرأون هذا الكلام لأنهم لم يجربوا الإلهام ولم يعرفوا بلحظاته السعيدة .

الحال الفلسفى :

علينا بادئ ذي بدء أن نحدد معنى الفلسفة . ذلك أنه على الرغم من أن كلمة فلسفة تلاك حتى على ألسنة العامة ، وعلى الرغم من كثرة ما نشر من كتب فى الفلسفة ، فإن مضمون الفلسفة ما يزال غامضاً فى أذهان كثير من الناس ، بل إنك إذا ما سألت المختصين أنفسهم عن مفهوم الفلسفة ، فانك ستجد التباين أو الكثير من التباين فيما يذهب كل منهم إليه ، وقد تباينت المفاهيم حتى وإن كانت تشترك فيما بينها فى قطاعات مشتركة .

ويعجبنا تعريف برتراند رسل للفلسفة بأنها تناول موضوعات الدين بمنهج العلم . على أن الكبير مما كان يدخل ذات يوم فى نطاق الدين قد

انسليخ عنه مندرجا في نطاق العلم . فالقمر كان كائنا مقدسا أو إلها في أنظار الإغريق القدماء . وعندما خرج أنكساغوراس على الناس يقول إن القمر كوكب شبيه بكوكب الأرض ، وأن ما ييلو منه من ضوء إنما هو انعكاس لأشعة الشمس على سطحه ، وأنه مكون من جبال وسهول كالجبال والسهول الموجودة على الأرض . فان أصبح الإتهام بالإلحاد قد وجه إليه . بيد أن كلام هذا الفيلسوف عن القمر إلى جانب كونه لم يكن من الدين في شيء ، فانه لم يكن أيضا من العلم في شيء . ذلك أن هذا الرجل لم يكن يستند في مزاعمه إلى براهين عقلية أو إلى مشاهدات موضوعية . ففى أى نطاق معرفى يتدرج إذن كلام أنكساغوراس ؟ يجيب رسل بأنه يتدرج في نطاق الفلسفة .

على أن هذا ينسحب بازاء تاريخ الفلسفة ، ولا ينسحب في رأينا بازاء الفلسفة المعاصرة والمستقبلية . ومن ثم فلا بد من تقديم تعريف جديد للفلسفة كما تبرز في عصرنا وفي العصور القادمة . واعتقادنا هو أن فلسفة الحاضر والمستقبل سوف تظل تسبق العلم كما كان حالها عبر العصور الماضية . ولكنها سوف لا تظل تستمد موضوعها من الدين ، بل من قوانين العلوم . فبينما يتناول كل علم جزئياته ويخلص منها بقوانين عامة في نطاقه ، فإن الفلسفة تجعل من تلك القوانين الخاصة بالعلوم المتباينة مجرد جزئيات لها ، ثم تعتمد إلى الخلوص منها بقوانين أعم هي الفلسفة . وبذا تكون الفلسفة هي قوانين القوانين ، أو هي القوانين الشاملة والمستنتجة من جميع المعارف الإنسانية . ومن أمثلة ذلك فلسفة التطور . فيفسوف التطور يفيد بما انتهى إليه عالم الأحياء وعالم الجيولوجيا وعالم الفلك وعالم النفس وعالم الاجتماع وغيرهم من قوانين خاصة بعلومهم .

وطالما أننا نركز على ما ليس بمحسوس بالدرجة الأولى ، وطالما أن الفيلسوف هو الشخص الذى يطالب نفسه بالتجرد من مجال المحسوسات لكي يتفرغ للمجردات ، فانه يكون بذلك قد أتاح لنفسه فرصة تلقى الإلهامات المتباينة . ولقد نجد من الفلاسفة من يستملون الإلهام من عالم

غيبى علوى كما فعل فيثاغوراس وأفلاطون « بل والقديس توما الأكوينى والقديس أوغسطين فى المسيحية » والغزالي وابن رشد فى الإسلام ، كما أننا قد نجد فلاسفة آخرين يستمدون إلهاماتهم من عالم عقلى نستطيع أن نطلق عليه عالم العلاقات العلوى ، وهو ذلك العالم الذى يشتمل على علاقات بين المجردات ذاتها . فهنا نجد أن الأفكار المجردة ذاتها تشكل عالماً قائماً بذاته ، وهو عالم خصب تمام الخصوبة ولا نهائى تمام اللانهاية بحيث لا يتسنى لأى من البشر الإلمام بجميع أنحائه . وكل ما يمكن أن يطمع أحد الفلاسفة فى إحرازه هو الحصول على قبس بسيط من ذلك العالم العقلانى اللانهائى . وليس من الضرورى أن يكون الفيلسوف الذى يستلهم هذا العالم العقلانى من الملحنين للذين لا يؤمنون بالعالم الروحانى النبوى « بل إنه قد يكون مؤمناً عميق الإيمان بالروحانيات » ولكنه لا يجعل العالم الروحانى مصدراً للإلهاماته « بل يجعل العالم العقلانى الذى تقوم الأفكار المجردة فيه مقام الروحانيات مصدراً للإلهاماته . فمثل ذلك الفيلسوف العقلانى يعيش فى إطار عالٍ : عالم روحانى يختص به نفسه الروحية للتعبد والاعتقاد فى الروحانيات ، وعالم عقلانى يستلهمه فى فكره وفى حياته العقلية . ولقد نقول إن هذا النوع من الفلاسفة يكون لأفراده حياتان : حياة روحية لاصلة لها بعالم التفكير لديه « وحياة عقلية يعيشها وتنصب إلهاماته فيها من عالم عقلانى هو عالم العلاقات المجردة بين المفاهيم المجردة .

ومن جهة ثالثة « فأننا نستطيع أن نجد من الفلاسفة من يجعلون الحياة الانسانية ذاتها وما ينشأ فيها من علاقات اجتماعية وعواطف متباينة وصراعات وانتعاعات موضوعاً للإلهاماتهم . فهم يجعلون المجتمع نفسه مصدراً للإلهاماتهم . بيد أنهم لا يجعلون المحسوس المباشر مصدراً للإلهاماتهم ، بل يجعلون المجتمع أو العلاقات الاجتماعية المجردة مصدراً لتلك الإلهامات . فالمجتمع لديهم ليس هؤلاء الناس المجتمعين بعينهم فى مكان وزمان معينين ، بل إن المجتمع لديهم هو تلك الصورة الذهنية المجردة ، أو قل إنه هو ذلك التصور الذهنى المجرد أو المطلق المتحرر من قيود المكان والزمان . فهم لا يستلهمون

مجتمعاً متعیناً بذاته « بل يستلهمون مجتمعاً مجرداً ومطلقاً يتصف بالأزلية والأبدية في نفس الوقت . فالمجتمع في أذهانهم كائن مطلق له عقله ووجدانه وإرادته ، وهو كائن سابق في وجوده على وجود الأفراد المكونين له « بل هو سابق على جميع المجتمعات المتعينة التي نشاهدها وتقع تحت أبصارنا هنا أو هناك في بلادنا أو بلاد غيرنا . فالمجتمع لديهم كائن عاقل أو هو مصدر العقل والعاطفة والإرادة .

ولعلنا نعزو الإلهام في المجال الفلسفي إلى ما يختص به الفيلسوف من قدرة فائقة على إقامة العلاقات الدقيقة والمتشابهة وغير المحدودة فيما بين الأفكار والصور الذهنية المتباينة . على أن تلك القدرة العقلية التي يتمتع بها الفيلسوف تكون على مستويين شعوريين : مستوى شعورى أو تحت شعورى « ومستوى لا شعورى حيث تنشأ العلاقات بين الصور الذهنية في منأى عن وعى وإدراك الفيلسوف . ذلك أن الصور الذهنية التي تعمل في عقل الفيلسوف لا تتركه أو تكمن أو تتوقف عن النشاط وقت أن يكون الفيلسوف نائماً أو في حفلة عن واقعه الخارجى ، بل إنها تكون نشيطة ، أكثر ما يكون النشاط في تلك الحالات التي يكون الفيلسوف في أثناءها غائصاً في أعماق لا شعوره . ولقد نقول أكثر من هذا إن الفيلسوف — شأنه شأن أى إنسان آخر — يكون في وعيه ملجأ إلى حد ما بما يقيد حركة فكره في أثناء يقظته وانتباهه . فمن المعروف أن الإنسان وهو يقظان يكون خاضعاً لما يسمى بالقوة الضابطة أو الكفية بالمخ ، وهي وظيفة يضطلع بها المخ بنشاط في حالة اليقظة ، ولا يضطلع بها بنفس القدر من القوة في أثناء النوم أو الغفلة أو عند الوقوع تحت تأثير مخدر .

ونستطيع أن نقرر في الواقع أن المخ البشرى يشكل بيئة صالحة لتفريخ الأفكار عندما يكون المرء في حالة من اللاشعور . ففي أثناء النوم تتلحح الأفكار فيما بينها وتتجذب أجيالاً جديدة من الأفكار النشيطة التي تتلحح بدورها مع أترابها . فالأفكار في عقل الإنسان — وفي عقل الفيلسوف بصفة خاصة — أشبه ما تكون بالكائنات الحية التي تتناسل جيلاً بعد جيل .

ومن هنا فانا لا نستطيع القول بأن الوارد إلى مخ الفيلسوف من أفكار أو
ملوكات مساو لما يصدر عنه . وواقع الأمر أن ما يصدر عن الفيلسوف
لا يكون سوى تلك الأجيال الجديدة التي تم تفرغها بلخيطة عنه وهنا نجد تفسيراً
لابتكارية الفيلسوف العقلية. فلو كان الفيلسوف يصدر ما يتلقاه لما كان مبتكراً على
الإطلاق ، بل لكان ما يقلمه إلى الناس من حوله لا يعلم أن يكون
تحصيل حاصل ، ولا يعلم نطاق ما سبق له أن تلقاه من ملوكات
أو أفكار .

على أن الفيلسوف لا يلعب على أى أرض من مجالات التفكير ، بل
يلعب على أرض فلسفية فحسب . فهو يقدم إلينا فكراً فلسفياً لا فكراً
علمياً أو أدبياً أو قصصياً . إنه يلتزم في تفكيره بالتنوع الفلسفية من
الفكر الإنساني . وأكثر من هذا فإنه يلتزم بتقديم الجديد الذي لم يسبق
لغيره أن لاهه وقدمه إلى الناس . فثمة إذن مجموعة من الشروط يلزم
الفيلسوف نفسه بها في تقديم ما يلهم به إلى الناس . ولعلنا نوجز تلك
الشروط فيما يلي : أولاً – الجدة في التفكير أو الامتداد على الأقل بما سبق
لغيره أن قلّمه خطوات إلى الأمام ، أو نقد ما سبق لغيره تقديمه من فلاسفة
آخرين . ثانياً – الموضوعية . فالفيلسوف وإن كان يقدم إلهاماً توصّل
ليه بنفسه ومن أعماقه ، فإنه يلتزم بالتجرد عن العاطفة وبتقديم أفكار غير
مصبوغة بالصبغة الانفعالية . ولعل هذا الشرط هو ما يفصل فيما بين
الفكر الفلسفي والفكر الأدبي . ثالثاً – الاتساق وعدم التناقض .
فالفيلسوف يتحرى أن تكون فلسفته منسجمة بحيث لا يوجد تناقض
و تنافر فيما بين أفكاره المتبادلة ولكن هذا لا يحول بين الفيلسوف وبين النمو
التطور فيما يعرض له من قضايا فلسفية .

١ المصنوع الروحي :

الواقع نه عندما نذكر كلمة إلهام ، فان تفكير المرء يذهب توا إلى
الناحية الروحية من شخصية الإنسان : ذلك أن الإلهام بدأ في تاريخ

الحضارة الإنسانية مرتبطين أشد ارتباط وأوثق بالدين . ولعلنا نزع بحق أن الحضارة الإنسانية برمتها قد بدأت أول الأمر في ارتباط شديد بالدين والفكر الدينى . ولعل الفلسفة قد بزغت عن الدين ، كما بزغ العلم الطبيعى عن الفلسفة . ولا شك أيضا أن الفنون الإنسانية برمتها قد نشأت أول ما نشأت فى أحضان الدين . وأكثر من هذا فأننا عندما نتحدث عن الإلهام فى المجالات المتباينة التى سبق أن عرضنا لها ، فأننا نقرر فى نفس الوقت أن المجال الروحى فى حياة الإنسان له نصيب الأسد من الإلهام ، بل إنه هو المجال الرئيسى الذى انبثقت عنه جميع المجالات الإلهامية الأخرى .

ولنا أن نقول إن جميع الأفراد — سواء كانوا متدينين أم غير متدينين — إنما يعمرون بلحظات إلهامية أساسية فى حياتهم ، أو قل إن تلك اللحظات الإلهامية تفرض نفسها فرضا عليهم . ولعلك تلاحظ فى اعترافات الفلاسفة والأدباء والفنانين وما قاموا بالتعبير عنه فيما يتعلق بالتحويلات الفكرية أو الفنية أو الأدبية التى مرت بهم ، أنهم يؤكدون أن ثمة لحظات فى تاريخهم صاروا خلالها فى حالة غير عادية فاستطاعوا أن يقتربوا من الحقيقة اقترابا وثيقا . وتلك الحقيقة التى اكتشفوها فجأة هى حقيقة ذواتهم وما يجب عليهم أن يهجموا وفقه فى المستقبل القريب أو المستقبل البعيد . ولسنا نجعل من العلماء والفلاسفة والأدباء والفنانين شخصيات منفردة بهذه الميزات ، بل إننا نعتقد أن فى حياة كل الناس بغير استثناء تقريبا لحظات كشف روحى سواء استغلوا تلك اللحظات استغلالا عمليا تطبيقيا فى حياتهم أم لم يستغلوها . ولا شك أن القديسين والمتصوفة وأهل التأمل الروحى والنسك على اختلاف معتقداتهم وأديانهم يتخفون من تلك اللحظات الإلهامية التى يشترك فيها جميع الناس بغير استثناء تقريبا نقط بداية للايقال فى مجال الحياة للروحانية التى تتصف بالعمق والخصوبة : فهم لا يقتصرون على ما يلهمون به عفويا وتلقائيا بغير جهد أو اجتهاد ، بل إنهم ينصرون فى أعماق الجاهل الروحية علمهم أن يحظوا بالهامات الجديدة.

وليس من شك في أن أهم ما يمكن أن يفعله المتأمل هو توفير المناخ النفسى المناسب لتلقى الإلهامات . ذلك أن الحقائق الإلهامية تحيط بنا من كل جانب ، ولكن شواغل الحياة وهمومها وملذاتها وإغراءاتها وما يعتمل في نفوسنا من مطامع وآمال مستقبلية دنيوية ، إنما تعمل على عمائتنا عن مشاهدة أو إدراك ما يصل إلينا بالفعل من حقائق إلهامية .

وحرى بنا أن نحدد المجال الروحى للإلهام حتى لا يتداخل أو أن يلتبس بمضامين المجالات الأخرى التى سبق أن عرضنا لها . فنحن نحصر مضمون المجال الروحى فيما يتعلق بالشخص نفسه وليس بالأشياء الموضوعية أو بالأشياء التى تخرج عن نطاقه الدائى . وبتعبير آخر، فإن المجال الروحى للإلهام يهتم بالإجابة عن هذا التساؤل ؟ : كيف أحيا ؟ أو ما الخط الذى ينبغى أن أضرب فى إثره فى الحاضر والمستقبل ؟ فالاهتمام ينصب هنا على الكيفيات وليس على المآذات ، إذا صح التعبير . فليس من المهم بالنسبة للبحث فى هذا المجال الإجابة عن السؤال : ماذا أحصل ؟ أو ماذا أفتنى ؟ أو كم أربح ؟ أو ما النتائج المترتبة على انتهاج هذا الطريق أو ذاك ؟ إن الاهتمام هنا ينصب أولاً وقبل كل شئ على المبادئ وليس على النتائج .

وليس المهم فى الواقع أن يكتشف الملهم شيئاً جديداً لا يعرفه الناس من المبادئ الأخلاقية أو السلوكية ، بل المهم أن يقع على الشحنة الروحية المتلبسة بالمبدأ السلوكى أو الأخلاقى . فلقد يكون المبدأ الذى يلهم به الشخص معروفاً لجميع الناس مثل هذا المبدأ : فلأجعل من نفسى أداة لخدمة المحتاج أو المظلوم . ولكن الشحنة الإلهامية التى تقترن بهذا المبدأ تكون لها كل السيطرة على عقل ووجدان الشخص الملهم بحيث تبلور حياته كلها حول هذا المبدأ ، فيقضى معظم وقته أو ينفق معظم ماله فيأخذ فى البحث عن المظلومين ليدرأ عنهم الظلم بحيث لا يتوقع من سلوكه هذا سوى تحقيق هذا المبدأ الذى أخذ بزمامه كل مأخذ فى سلوكه الشخصى . وثمة

فى قصص عطاء القديسين والنسك والرهبان والمتصوفة فى الأديان المتباينة شواهد ونماذج تشير إلى هذا . وليس من المستغرب أن يتهم الشخص الملهم من هذا القليل بالجنون . فمن وجهة نظر كثير من الناس « بل ومن وجهة نظر الغالبية العظمى من الناس فإن الشخص الذى يهجر المال والجاه لكى يقضى وقته وينفق جل ماله على الفقراء والمظلومين إنما يعد مجنوناً أصابته لوثة ذهب بعقله وأنت على ما كان يتمتع به من صحة نفسية قبل أن يصاب بما أصيب به من جنون .

ولاشك أن اللحظات الإلهامية التى ينتج عنها سيطرة مبدأ إلهامى نفسى سلوكى على زمام الشخصية إنما تترك أثرها أيضاً على علاقات الشخص بغيره من أشخاص كان يتعامل معهم بشكل عادى . بيد أن ما سيطر عليه من إلهام روحى يجعله مغتربا بين أصدقائه بل وبين أفراد أسرته . فمثل هذا الشخص يصير إلى حالة من عدم الاهتمام بما ومن حوله . لقد تجده مثلاً وقد صار غير مهتم بمظهره الخارجى أو بما كان يكلف به من أناقة أو حنطام . وقد لا يلتقى بالا إلى أصول التعامل التى دأب الناس على مراعاتها من حيث إجلال الكبار وأصحاب النفوذ والسلطان . ومن ثم فإنه يتهم بالانخراط فى الخبل والجنون . وواقع الأمر أن مثل ذلك الشخص الملهم روحياً لا يكون سوى شخص انتقل مجال اهتمامه من عدة مبادئ كان يقيم لها كبير وزن إلى مبدأ روحى واحد هو خدمة الفقير والدفاع عن المظلوم . فما كان يحتل الأولوية فى نظره صار لا يحتل أى مكانة فى حياته ، وما كان لا يستحق الاهتمام فى نظره قبل مروره باللحظة الإلهامية ، وقد صار فى أول قائمة اهتماماته الروحية والسلوكية .

وليس من الضرورى فى الواقع أن يكون الإلهام الروحى إلهاماً نسكياً ، بل قد يكون إلهاماً روحياً تأملياً . وهنا نستطيع أن نكتشف الارتباط الوثيق بين المجال الأدبى وبين المجال الروحى . فإذا نحن تأملنا كتابات القديسين والمتصوفة « فإننا نجد أنها تجمع بين الأدب

والروحانية في نفس الوقت . خذ مثالا لذلك مزامير داود النبي (الزبور) أو سفر نشيد الإنشاد لسليمان الحكيم ، فانك ستجد قطاعا مشتركا بين الأدب والروحانية متمثلا فيها . فاذا كنت مهتما بالأدب ، فإنك ستجد فيها أدبا ، وإذا كنت مهتما بالروحانيات فانك ستجد فيها ما يشبع نهمك الروحي . وينسحب هذا بازاء الكثير من الكتابات التي تركها الملهمون الروحانيون في شتى لغات العالم . وما يقال عن مشاركة الأدب في التعبير الروحي ، ينسحب بنفس الصديق بازاء مشاركة الفن من رسم ونحت وموسيقى في التعبير الروحي . ونستطيع القول بأن هناك لحظات إلهامية روحية أنتجت لدى أصحابها روائع فنية متباينة .

ولقد نجد الإلهام الروحي وقد تمثل في قضايا اجتماعية . فلقد هتز وجدان شخص ما بما يجب أن نحظى به الشيخوخة من اهتمام ، فيوطن النفس على إنشاء دور لرعاية الشيوخ . ولا يكون حماس مثل ذلك الشخص بقصد نفع يحصل عليه أو شهرة تجعل الناس يشيرون إليه بالبنان ، بل يكون إيمانه العميق بالفكرة إيمانا روحيا مسيطرا على جماع عقله وقلبه . فالإيمان بالقضية يكون محورا لإلهامه فلا يكون مجرد شخص اقتنع بفكرة ، بل يكون صاحب اكتشاف روحي يدفع به دفعا نحو التلرع بجميع الوسائل التي تعمل على تحقيق رعاية الشيخوخة . لقد يقوم بتأليف كتاب أو أكثر يحض الناس فيه على رعاية الشيخوخة ، وقد ينشئ الجمعيات لهذا الغرض . وقد يسعى إلى المسؤولين والقادرين للأخذ بيده في تحقيق مشروعاته إلى آخر ما يمكن أن يضطلع به من أعمال أو مناشط لتحقيق ما ألهم به .

ولعلنا نعود نفكر أن الإلهام الروحي يجعل محور اهتمام الشخصية بمثابة موقد بدخيلة الشخص بحيث تكون جميع تصرفاته وعلاقاته الخارجية مستضيئة بصفة أساسية بما يأمر به الإلهام ويحدده . فالحظة الإلهامية الروحية لا تكون كباقي لحظات عمر الشخص الملهم ، بل تكون لحظة متميزة ، بل إنها تشكل نقطة تحول في حياته ، أو قل إنها تشكل خطا جديدا جلة تامة يشقه ويصب جل نشاطه فيه .

الفصل الخامس

معوقات الإلهام

المعوقات البيولوجية :

سبق أن عرضنا لعلاقة الإلهام بالمقومات البيولوجية . وفي هذا المقام سوف نعرض للمعوقات البيولوجية التي تقف حائلا بين المرء وبين تلقي الإلهامات المتباينة . ونستطيع في الواقع أن نلخص تلك المعوقات البيولوجية فيما يلي :

أولا - معوقات وراثية : فثمة في تصنيف الناس إلى فئات نجد بعضاً منها أكثر قابلية للحدس ومن ثم للإلهام أكثر من بعضها الآخر . وعلى الرغم من أن ثمة محاولات من جانب الإنسان الحديث للتدخل في المقومات الوراثية بما يعرف بالهندسة الوراثية ، فإن البون ما زال واسعاً بين ما يمكن الاستفادة منه حالياً ، وبين ما يمكن الاستفادة منه في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد .

ثانيا - معوقات تتعلق بالانزنان الهورموني : فثمة في الواقع نسب معينة بين الهورمونات التي تفرزها الغدد الصم إذا ما توافرت كانت الفرصة للإلهام متوافرة . وعلى العكس من ذلك إذا ما لم تتوافر تلك النسب بين إفراز الهورمونات المتباينة . ولسنا نزعم أن النسب المواتية معروفة حالياً ولكن الآمال معقودة على المستقبل عندما يهتم العلماء بالوقوف على تلك النسب لدى الشخصيات الملهمة وتحديد علمياً بحيث يمكن استحداثها أو العمل على توفيرها لدى من يرغب في أن يصير شخصية ملهمة .

ثالثا - معوقات تتعلق بالجهاز العصبي المركزي : فالمنح كما قلنا مايزال بمثابة قارة مجهولة برغم الكثير جدامن الدراسات التي أجريت حوله . ولعل الزاوية الجديدة التي ما تزال مفتقرة إلى كثير بحث ودراسة هي تلك الزاوية التي يعتبر المنح بمقتضاها جهاز استقبال وإرسال لا يعترف بالمسافات أو التوصيلات . ولعل السؤال المحير حتى اليوم هو ما إذا كانت هناك تركيبة أو نتاج فوق يتأتى عن المنح في نشاطه منذ الميلاد حتى لحظة مفارقة الحياة . بحيث يظل ذلك المركب غير الجسمي يعمل في مفارقة عن الكيان الخي البيولوجي . فنحن لا نستبعد أن يخرج علينا العلماء بكشوف جديدة مؤداها أن المنح يفرز ما يشبه العصارات غير المحسومة يصير لها كيان مستقل عنه وتظل تعمل أو تفكر . ولقد يكتشف العلماء وسائل لتقوية مثل ذلك الإفراز بحيث يتمتع به صاحبه في حياته وهو في الجسد ، ثم في وجوده بعد الموت ، أعني باعتباره كائناً روحانيا مفارقاً للجسد .

رابعا - معوقات تتعلق بالجهاز الهضمي : ذلك أن إلتقال الجهاز الهضمي بالطعام وتناول بعض أنواع الأطعمة الدسمة يمكن أن يشكل عائقا أمام الإلهام . ولقد اكتشف الملهمون منذ عصور بعيدة العلاقة الوثيقة بين نوع الطعام الذي يتناوله المرء وبين ما يمكن أن يلهم به . فنجد أن فيثاغورس في اليونان قديما قد وضع قائمة تتضمن الأطعمة المحرمة عليه وعلى تلاميذه لأنها تعوق نشاط الروح . ومن بين تلك الأطعمة البقول . ومن المعروف أن بعض الطوائف المسيحية تحرم أكل اللحم والبيض وشرب اللبن أو استخدام السمن في الطهي في فترات الصوم . وهناك أيضا النباتيون الذين يحرمون على أنفسهم تناول اللحوم بأنواعها المتباينة ويقتصرون على أكل البيض وشرب اللبن .

خامسا - معوقات تتعلق بالنوم : فهناك من يزعمون أن كثرة النوم تؤدي إلى التحول الإلهامي . وعلى نقيض ذلك يؤكدون أن السهر مجلبة للإلهام . ولقد نجد في تاريخ الكثير من الفلاسفة والمفكرين شواهد على ذلك

تؤكد أن عقولهم كانت تفور بالإلهام بعد السهر حتى الفجر . ويقال إن فولتير كان يلعب شرب القهوة بحيث كان خادمه يملأ له فنجانته قهوة كلما انتهى من شربه . وكان بذلك لا يكاد يجد إلى التعاس سيلا . ومن الأدباء والمفكرين عندنا في مصر من لا يبدأون في الكتابة إلا بعد منتصف الليل ويظلون عاكفين على الكتابة حتى الفجر . وحتى إذا ثبتت العلاقة بين قلة النوم وبين الإلهام فإن من المؤكد والمقطع به أن تقليل النوم يجب أن يكون تدريجيا لمن يريد أن يلرب نفسه على التقليل منه ولا يكون انتقالا فجائيا من كثرة النوم إلى قلته .

سادساً — معوقات تتعلق باستخدام الحواس الخمس : فالواقع أن كثرة استخدام الحواس الخمس يشكل عائقا قويا أمام استخدام القدرات الإلهامية لدى المرء . ذلك أن كثرة استخدام الحواس يعني في نفس الوقت شدة ارتباط المرء بالعالم المحسوس من حوله . ومن المعلوم أن الإلهام يتعلق بصفة رئيسية بما ليس بمحسوس . فالحسيون — أعني أولئك الذين يعتمد وجودهم على ما يحسونه من حولهم — لا يتمتعون بالقدرة على تلقي الإلهامات ذات الطبيعة غير الحسية . والواقع أن الشخصيات الملهمة تكون مفضومة إلى حد بعيد عن المحسوسات . فالملهم شخص مقصود في استخدام حواسه الخمس . إنه شخص يعتمد أكثر ما يعتمد على مصادر معرفية غير حسية . وليس معنى كلامنا هذا استغناء الملهم عن حواسه ، بل معناه اقتصاده في استخدام حواسه مع ترجيحه للتأمل وللغوص في دخليته ، حيث يقف على أمرار الوجود من باطنه وليس من خارجه ، أو قل إنه يتلقى الإلهامات بعد أن يكون قد تمكن من تهية جوه النفس الداخلي للتقبل الإلهامي .

سابعاً — الأمراض الجسمية : فالكثير من الأمراض يعمل على إعاقة قدرة المرء أو استعداده لتقبل الإلهام . ولكن مع هذا فأننا نجد أن بعض الأمراض توفر فرصة للإلهام أو قل تهية المناخ النفسي لدى المرء لتقبل الإلهام . فلقد تعمل بعض الأمراض المزمنة التي تقعد بالمرء بعيدا عن الشواغل اليومية والهموم الدنيوية والتي تعمل على التقليل من العلاقات الاجتماعية

على تهيئة الجو المناسب للإلهام . ومن الفلاسفة من وجلوا الفرصة مواتية أمامهم لتلقى إلهامات فلسفية رائعة في أثناء رقادهم في سرير المرض . فعكفوا على الكتابة وتسجيل ما ألهموا به بعيدا عن صخب الدنيا وبعيدا عن عوامل تشتيت الذهن أو التكالب على اجتلاب الرزق ، وبعيدا أيضا عن الخلافات والمصادمات والمجادلات ومع التحرر في نفس الوقت من القيود والشكائم التي يعوق بها الآخرون الحركة الذهنية لدى المفكر .

ثامنا — الاصابات والعاهات : فالواقع أن ما قد يصاب به البعض من إصابات أو ما يفتلوا به من عاهات يمكن أن يشكل عائقا أمام الإلهام . على أن بعض الناس الملهمين لا يعأون بما يصيبهم من آلام جسمية أو من تشوهات أو عاهات . فهم قد يجلبون من نفور الناس منهم وابتعادهم عنهم فرصة مناسبة لتلقى الإلهامات المتباينة . المهم ألا تكون الإصابة أو العاهة مما يحول دون القدرة على إثبات أو تسجيل الإلهام . ذلك أن من الممكن أن يلهم المرء ولكن الإصابة أو العاهة تحولان بينه وبين القدرة على تسجيل ما يلهم به . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة عبقرية مثل طه حسين الذي لم تحل عاهة العمى بينه وبين تسجيل ما كان يلهم به من إلهامات أدبية رائعة ، وكذا يقال عن أبي العلاء المعري في مجال الشعر ، أو عن بيتهوفن الذي أصيب بالصمم ولكن عاهته السمعية لم تكن لتحول بينه وبين تلقي الإلهامات الفنية الموسيقية .

تاسعا — النقص في النمو أو توقفه : فتمة حالات القزامة أو الحالة الكريتينية حيث يعجز المرء عن بلوغ مراحل النمو المتعاقبة التي يمر بها الأسوياء من الأفراد . فتتل هذه الحالات تكون مصحوبة في نفس الوقت بالعجز عن تلقي الإلهامات . على أنه ينبغي أن نميز بين حالات نقص النمو أو توقفه وبين حالات الوراثية التي يكون فيها الشخص صغير الحجم أو قصيرا أو نحيفا . فتمة حالات وراثية تتصف بالقزامة أو بصغر الحجم ولكنها تكون قزامة عادية وغير مرضية في نفس الوقت . فقصور القامة يختلف فسيولوجيا عن المصاب بالقزامة المرضية أو بالحالة الكريتينية التي يكون المصاب بها صغيرا

وسمينا ودقيق الملامح وبالتالي يكون مخ صغيرا وضئيلا لا من حيث الحجم فحسب ، بل ومن حيث قدرته على الاضطلاع بوظائفه المتباينة أيضا .

عاشرا - بالشيخوخة : ففي حالات الشيخوخة تذبل القدرة على تلقي الإلهامات . بيد أن الشيخوخة نسبية . فلقد تجد شخصا في الأربعين أو حتى في الصبا يكون أكثر شيخوخة من شخص آخر في الستين أو حتى في السبعين . ولكن برغم هذا فإن كبر السن بوجه عام لا يكون مصحوبا بالإلهام ، كما أن الطفولة الباكرة لا تكون بدورها مواتية لتلقي الإلهامات . ولعل أن تكون مرحلة الشباب هي أفضل مرحلة يتلقى المرء خلالها ما يمكن أن يتلقاه من إلهامات .

المعوقات النفسية :

لا شك أن الإنسان بمثابة جهاز استقبال لما يصدر إليه من مثيرات . ولكن الناس يختلفون الواحد منهم عن الآخر في مدى القدرة على استقبال حقائق الوجود . فكما أن هناك أشخاصا يستطيعون مشاهدة أشياء أو سماع أصوات تدق على أعين وأذان غيرهم من أشخاص يوجدون بنفس المكان . كذا فإن هناك أشخاصا لديهم قدرة باهرة على التقاط ما يدق على غيرهم من إلهامات .

ويبدو أن هناك شروطا فسيولوجية بالملخ يتسنى للمرء إذا ما توافرت لديه أن يتلقى الإلهامات وأن يسير أغوار الحقائق الخبيثة على الناس العاديين . ولقد حدث أن أحد الشبان سقط من فوق دراجته مرتطما برأسه على الأرض . وبعد أن أفاق من غشيان ألم به بسبب السقوط والارتطام ، وجد نفسه في حالة نفسية جديدة . لقد أخذ يتذكر أشخاصا لم تكن له صلة بهم من قبل ، كما أنه أخذ يردد أحداثا على سمع والديه لم يكن يعرفها سواهما ، وقد وقعت لهم قبل ميلاده ، بل إن بعضها كان قد وقع لأحدهما قبل الزواج وقبل أن يعرف الواحد منهما الآخر .

ولم يقتصر الأمر على وقوف ذلك الشاب على أحداث ماضية لم تمر بخبرته المباشرة ، أو لم تقع حتى في حياته بل إنه صار يمتد ببصيرته الإلهامية إلى بعدين آخرين هما الكشف عن خبايا وأمرار من يقابلهم من أشخاص دون سابق معرفة بهم ، والتنبؤ بأحداث مستقبلية لم يكن لأحد أن يتنبأ بها أو يتوقعها ، إذ لم تكن هناك شواهد تدل عليها من قريب أو من بعيد .

وعلى الرغم من أن علم النفس الحديث ما يزال يحبو بازاء الظواهر النفسية الخارقة أو غير المألوفة ، فإن هناك دراسات أكاديمية ليست قليلة تجرى تجريبيا لتتبع تلك الظواهر والكشف عن خباياها وعن أسبابها ومجالاتها وأبعادها . ولكن ما تزال الطريق طويلة والشقة بعيدة وما يزال هذا الحال بحاجة إلى كثير جهد وإلى غزير عناية حتى يتم الاعتراف به . ذلك أن الغالبية العظمى من المتحفظين ، ينكرون وجود الظواهر الخارقة أصلا ، ولا يعترفون إلا بما يحس مباشرة أو بطريق غير مباشرة ، وبما يمكن إخضاعه للنقد والبصرة العقلية المنطقية .

ولعل من الأخطار التي تحيق بالمعرفة الإنسانية عامة وبالمعرفة الكشفية - الإلهامية خاصة الاصرار على عدم طرق أى سبيل معرفى سوى السبيل الذى تنهجه العلوم الوضعية أو عدم الأخذ إلا بمنهج واحد في المعرفة هو ذلك المنهج المسمى بالمنهج العلمى . فالواقع أن الظواهر الروحانية وعلى رأسها الظواهر الإلهامية بحاجة إلى منهج للدراسة مبين تباينا جفريا عن المنهج المتبع في دراسة الظواهر الطبيعية . ومن هنا فإن على علماء النفس أن يضربوا في طريقين : الأول - جمع الحقائق أو الوقائع الروحانية الإلهامية مع ما يثبت حقيقتها وعدم زيفها أو اختلاقها . والثانى - وضع أو اكتشاف منهج جديد يصلح للدراسة تلك الظواهر الإلهامية ولتتبعها والتقدم بها وتثبيت دعائمها ، بل واستحداثها عن طريق الوقوف على شروط وجودها فيولوجيا ووجدانيا وعقليا واجتماعيا .

ومن المعوقات النفسية عدم خضوع المرء للتدريبات الروحية التي تصل به إلى التمكن من تلقي الإلهامات المتباينة . ذلك أن الجهاز الروحي بالشخصية

— شأنه شأن جميع الأجهزة الأخرى التي توجد بالشخصية سواء كانت أجهزة جسمية أم أجهزة عقلية — بحاجة إلى تدريب مستمر وإلى رعاية منتظمة حتى يتسنى قيامها بالعمل على خير وجه . ولعلنا نشبه القدرة على تلقي الإلهامات بالكتابة على الآلة الكاتبة : فالشخص العادي حتى إذا لم يقيض له أى تمرن على الكتابة على الآلة الكاتبة يستطيع أن يكتب ولو بعض الحروف التي يريد كتابتها عليها . ولكن من المؤكد أننا لا نصف ذلك الشخص الذي يكتب على الآلة الكاتبة عن طريق المحاولة والخطأ بأنه صار ماهرا في هذا الفن . ولكن إذا ما خضع الشخص العادي لتدريب منظم ووفقا لقواعد علمية سليمة في الكتابة ، فإن استخدامه لتلك الآلة يكون بمقدارة وسرعة ودقة .

وكذا يقال عن جهاز الإلهام . فهو بحاجة إلى تدريب مستمر وإلى تغذية دائمة . فغير مثل ذلك التدريب وهذه التغذية فإنه لا يستطيع أن ينضج . والواقع أن الإلهام قد يواتى المرء عفويا . ولكن مثل هذه المواتاة لا تكون إلا لاما ولا تكون بمثابة ملكة ذاتية للمرء . ولكن على العكس من هذا فإن الشخص الذي يخضع نفسه لمجموعة من التدريبات الروحية الخاصة بتنمية الإلهام والمواهب الروحية يحظى بالتأكيد بتلك الموهبة الروحية وقد صارت خاضعة لمشيئته ، أو قل إن موهبة استقبال الإلهامات تكون لديه موظفة ومستظمة كأحسن ما يكون التوظيف والاستخدام .

ولعل التدريبات الروحية على تلقي الإلهامات تنقسم إلى قسمين أساسيين هما : أولا — القسم السلبي ، ونقصد به القسم المتعلق بما ينبغي على المرء أن يتخلص منه . ثانيا — القسم الإيجابي ، وهو يتضمن ما ينبغي على المرء التحلي به . وحيث أننا نعرض هنا للمعوقات النفسية التي تحول بين المرء وبين الإلهام ، فإن علينا أن نركز الذهن في القسم الأول وما يتضمنه من أشياء على المرء أن يتخلص منها . وهي تتلخص فيما يلي :

أولا — التوتر النفسى : فالشخص المتوتر نفسيا لا يستطيع أن يكون شخصا ملهما . صحيح أن القصص التي تقال عن توتر الفنانين أو الأدباء

أو القلاصفة الملهمين صحيحة . ولكننا نزعّم أن ما يبدو من توتر لدى الفنان أو الأديب أو الفيلسوف الملهم ، إنما هو توتر وقى يبدو في علاقة الواحد منهم بالناس إذا ما خرج أو أخرج من إطاره التأملى الإلهامى . ذلك أن الشخص الملهم يحيا في إطار تقسى خاص به لا يجب أن يقتحمه عليه متحتم أو أن ينغص عليه متطفل حياته الفكرية ، أو أن يعكر صفو مزاجه معكر . فطالما يكون الشخص الملهم وحده بعيدا عن تدخل الآخرين في شؤنه الذهنية وطالما يكون بعيدا عما يشتت انتباهه أو يقلق ذهنه أو يسجبه من الإطار الفكرى الذى ارتضاه لنفسه واختاره بارادته ، فانه لا يكون منوتراً . بل على العكس من ذلك يكون مسترخيا كالألف ما يكون الاسترخاء . ولعل الشخص الملهم يجد صعوبة في إحراز الاسترخاء التام بعد أن يكون قد توتر أو حتى انفعّل بسبب صدامه بالآخرين . ذلك أن الشخص الملهم يحس بالاغتراب بين ذويه . فأقرب الناس إليه يكون في نفس الوقت غريبا عنه وقليل التوافق معه ، ومن ثم فإنه يكون سريع الصدام مع من يتعامل معه أو يختلط به . ولذا فإن الناس من حول الشخص الملهم يعتقدون أن التوتر النفسى خصيصة من خصائصه وأنه لابد دائم التوتر . ولقد يذهب البعض منهم إلى القول بأن الترتب النفسى شرط أساسى لتقبل الإلهام .

ثانياً — التشتت الذهنى : فشة في الواقع حالتان ذهنيان أساسيتان ينخرط المرء في إحداها : الحالة الأولى هى حالة التركيز الذهنى ، أو قل حالة الهدوء النفسى . أما الحالة الثانية فهى حالة التشتت الذهنى . ولعلنا نلاحظ أن إنسان الحضارة قد صار مشدودا إلى الخارج بوسائل تشتيت متباينة . ولعل من شواهد مثل هذا التشتت ما يعرف بالالتزامات المتعلقة بالوقت . أعنى المواعيد التى على المرء أن يراعها في حياته اليومية وفي علاقاته الاجتماعية المتباينة . ولعلنا نؤكد أن إنسان ما قبل الحضارة ، أو قل الإنسان غير الملتزم بالالتزامات الاجتماعية متباينة ومن ضمنها الالتزام بمواعيد المواعيد في الحياة يكون أكثر تركيزا وعدم تشتت في ذهنه . فالاهتمام لدى الملهم يكون بدخيلته وليس بما يدور حوله من أحداث وأشياء وعلاقات ونظم عملية .

انه يكون مستقر النفس وهادىء الوجدان وقد أتاحت له جميع فرص التركيز على الذات والاستقرار النفسى والتأمل الداخلى .

ثالثا - الارهاق الذهني بالمعلومات : فانسان اليوم مثقل بالمعارف المتباينة . إنه يتكالب على تكديس المعلومات فى ذهنه . والواقع أن الناس اليوم والمتقنين بصفة خاصة يعتمدون فى ثقافتهم على المعرفة الموضوعية الخارجية وذلك بالانسحاب إلى العالم الخارجى بعيدا عن الذات . والواقع أن الملهمين يعتمدون على التأمل أكثر بكثير من اعتمادهم على التحصيل المعرفى . والتأمل عملية ذاتية بالدرجة الأولى . وحتى عندما يكون التأمل متعلقا بأشياء خارجية . فانه يسمح بهضم ما تم للمرء كسبه من معرفة . ولا ننسى أن التأمل ذو طبيعة وجدانية ذاتية . فبالتأمل ترتب وجداناتنا ونضع كل وجدان فى محله السليم . وبتعبير آخر فان التأمل يرتب نفسية المرء من الداخل ويجعله مستعدا لاستقبال ما يمكن أن يوجه إليه من إلهامات أو ما يمكن أن يدور حوله من أحداث أو وقائع ذات طبيعة روحية . ولقد نقول إن التخفف من تكديس المعلومات يعطى فرصة للمرء لى يفتق ما جبل عليه من حدس وإلهام .

المعرفات الأخلاقية :

نستطيع القول أن الواحد من الناس هو بالدرجة الأولى مجموعة من العادات التى نجد لها تبريراً ذهنياً أو تفسيراً علياً ، إذ يعتمد المرء إلى رد تصرفاته إلى أسباب واقعية خارجية أو موضوعية ، مع أن الواقع أن تلك الأسباب أو العلل الخارجية لا تعلق أن تكون مجرد أسباب ثانوية أو قل إنها تشكل فرصاً مواتية لحدوث أو لظهور العادة . وعلينا ألا ننسى أن العادات التى يمكن أن يتلبس بها سلوك المرء تنقسم إلى خمسة أنواع رئيسية هى العادات الحركية والعادات الوجدانية الانفعالية والعادات العقلية المنطقية والعادات الكلامية ، سواء كان الكلام منظوماً باللسان أم مكتوباً بالقلم أم معبراً عنه بالرسم أو النحت . وأخيراً العادات الاجتماعية التى تبدى فى العلاقات

الاجتماعية بين فرد وآخر أو بين مجموعة ومجموعة أخرى ، وهى العلاقات التى يلعب الفرد من كل مجموعة دورا معينا فيها .

فاذا نحن نظرنا إلى مفهوم العادة من هذا المنظور الواسع ، فإننا نستطيع القول إن تصرفات المرء لا تعلق هذه المجالات الخمسة ، أعنى المجال الحركى والمجال الوجدانى الانفعالى والمجال العقلى والمجال الكلامى التعبيرى وأخيرا المجال الاجتماعى . وسواء رددنا جميع تصرفات المرء إلى العادات أم إلى غير ذلك من مقومات تتضمنها الشخصية ، فاننا فى جميع الحالات لا نستطيع أن نسقط العادات التى تأخذ بناصية الشخصية من حسابنا .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن الشخصية الملهمة هى الشخصية التى اعتادت عادات معينة تساعدنا على استقبال الإلهامات المتباعدة . ومن هنا فاننا لا نستطيع القول بأن الإلهام متاح لجميع الناس . ذلك أنه ليس متاحا إلا لأولئك الذين اكتسبوا عادات معينة فى المجالات الخمسة التى ذكرناها . فالعادات الخمس هى الركن الركين لأخلاق المرء . فبعد أن تكون قد اكتسبت مجموعة من العادات الأساسية فى تلك المجالات المتباعدة ، فان كل ما يمكن أن تكتسبه بعد ذلك لا يعدو أن يكون رتوشا للشخصية ، ولا يكون اكتسابا أساسيا يغير من ملامحها الأخلاقية الجوهرية .

ولقد يصح لنا أن نزعّم أن هناك عادات حركية إذا ما اكتسبها المرء فانها تشكل عندئذ عائقا بينه وبين تلقى الإلهامات . من ذلك مثلا ما يعرف باللوازم الحركية . واللازمة الحركية هى مركب حركى تصاب به الشخصية ويسيطر على حركاتها بحيث يحول بينها وبين أداء حركات أخرى مناسبة للموقف . بيد أن هذا الكلام يجب ألا نطلقه إطلاقا فنقول إن جميع اللوازم الحركية تشكل عائقا أمام الإلهام . فثمة لوازم حركية خفيفة وغير معوقة لنشاط المرء الذهنى ، وهى تلك اللوازم الحركية التى لا تضايق الشخص ولا يكاد يحس بها فى أثناء إتيانه بها . أما إذا ضايقت اللازمة الحركية الشخص وصار بينه وبين نفسه صراع بسبب محاولته التغلب عليها والتخلص منها ، فانها

عندئذ تكون حائلا بينه وبين تقبل الإلهامات . وأكثر من هذا فانتا نستطيع أن نقول إن بعض الملهمين كانوا متلبسين بلوازم حركية ولكنهم لم يكونوا متضايقين من إتيانها ، بل إنها كانت مستلحة في أنظار المشاهدين لهم والمتبعين لحركاتهم . وقد كان بعض العباقرة الملهمين يعرفون بتلك اللوازم الحركية للدرجة أنها كانت مثار الدعابة أو حتى مثار الدهشة . من ذلك مثلا ما كان يقال عن أرسطو من أنه لم يكن ليستغرق في التفكير الإلهامي إلا إذا أخذ يجوب في المكان الذي يوجد فيه ، بل إنه كان يسير وخلقه تلاميذه في حقول آثينا ، وكان المشي بالنسبة له ملازماً للتفكير الإلهامي . وقد عرف أرسطو وتلاميذه وأتباعه بالمشائين لهذا السبب .

وعلى نفس النحو نستطيع أن نقول إن اللوازم التي تضايق المفكر الملهم ، سواء كانت لوازم وجدانية لانفعالية أم لوازم عقلية أم لوازم كلامية تعبيرية أم لوازم اجتماعية إنما تشكل عائقا بينه وبين تلقي الإلهامات . أما تلك اللوازم التي يجد المفكر الإلهامي لذة أو استمتعا في أدائها ، فإنها تساعد على تلقي الإلهامات . ومن أمثلة اللوازم الضارة التي يصاب به بعض الكتاب أو الخطباء تلك اللوازم الوجدانية التي تفقدهم قدرتهم على التحكم في انفعالاتهم ، فيفقد منهم الموقف ، أو قل يفقد منهم الإلهام . فالسرعة في إخراج ما يعتل في القلب من انفعالات تحول بين المرء وبين تلقي الإلهامات . وثمة في الواقع حالة بينية يد الانخراط في الانفعال وبين البرود الانفعالي . ولعلنا نزع أن الشخص الملهم هو ذلك الشخص الذي تقع حالته الانفعالية في نطاق هذه المرحلة البينية . ولكنه إذا خرج عنها إلى الطرفين المتباعدين ، أعنى الطرف المتسم بالتفجر الانفعالي ، والطرف المتسم بالبرود الانفعالي ، فإنه يكون عندئذ قد باعد بينه وبين القدرة على التلقي الإلهامي . والواقع أن هناك لوازم انفعالية يكون الشخص بمقتضاها مندفعاً نحو التفجر الانفعالي ، ومن ثم فإنه لا يستطيع أن يكون شخصا ملهما .

وبالنسبة للعادات العقلية ، فإننا نجد أن بعض المفكرين يخضعون لمجموعة من اللوازم العقلية التي تسمى بالأفكار الثابتة . فمثل تلك الأفكار الثابتة تأخذ بناصية المفكر بحيث لا يتيح لنفسه الخروج من إطارها والتحرر من قيودها لكي يتلقى الالهامات . الأخرى . ولعلنا نذكر هذه المناسبة ما يعرف بالضغوط الثقافية التي يبتلى بها كثير من المثقفين الذين يدمنون القراءة ويعكفون على شحن أذهانهم بالمعلومات بحيث لا يتيحون لأنفسهم فرصة التفكير المستقل ، وبالتالي فإنهم لا يتيحون لأنفسهم فرصة تلقي الالهامات التي كان يمكن أن تواتبهم لولا ذلك الزاحم الثقافي الذي لا يترك في أذهانهم أي حيز يحتله الالهام في حياتهم الذهنية .

وقل نفس الشيء بالنسبة للعادات اللغوية أو بالأحرى بالنسبة لعادات الابانة بجميع أشكالها . فإذا ما سيطرت بعض القوالب أو بعض اللوازم على المرء في الابانة ، فإنه لا يجد أمامه فرصة لتلقي الالهامات . ولعلنا نذكر هذه المناسبة ما يتصف به الملهمون في البيان من قدرة على استدلال اللغة لأغراضهم . فهم لا يظنون مقيدين بالقوالب اللغوية ، بل إنهم يعملون إلى التخلص من تلك القيود . فهم يحسون بقصور أداة التعبير أو أداة الابانة عن التعبير عما يحتاجهم من إلهامات ، ولذا فإنهم كثيرا ما يعملون إلى الرمزية في التعبير وإلى اختلاق وسائل مستحدثة في التعبير ، وبالتالي فإنهم يتيحون لأنفسهم فرصة التعبير عما يلهمون به من أفكار ومشاعر . ولعلك تجد الشخصيات الملهمة وهي تضيء بالشكوى من قصور اللغة عن الوفاء بما يريدون التعبير عنه . وثمة أيضا ما يعرف ببطء التعبير سواء كان تعبيرا كلاميا أم تعبيرا مكتوبا ، ذلك أن الالهام يأتي أو يواتي المرء في سرعة أسرع بكثير من سرعة التعبير الشفوي أو التحريري . وبذا فإن الكثير مما يلهم به المرء يفلت من قبضته ولا يستطيع الإمساك به لسرعة تلفقه من جهة ولبطء التعبير اللغوي وقصوره من جهة أخرى عن الإمساك بما يوحى به للملهم . ولذا فإن الكلمات

يعبر بها المرء عن الالهامات التي تواتيه لا تعلق أن تكون جثا للكائنات التي حية عاشت بداخله . أو قل إنها لا تعلق أن تكون صورا لتلك الكائنات الحية وليست هي ذات الكائنات الحية التي عاشت اللحظات بداخله .

؛ وإذا كان هذا هو حال العادات الأربع السابق ذكرها ، فإنه ينسحب بنفس القدر من الصديق بإزاء العادات الاجتماعية المتباينة التي كثيرا ما يتجه إليها الذهن عندما تذكر الأخلاق . فيعتقد كثير من الناس أن الأخلاق تنحصر في نطاق العادات الاجتماعية . والواقع أن هذا مفهوم قاصر . ذلك أن العادات الاجتماعية ليست سوى خمس ما يجب أن نفهمه من لفظ أخلاق . على أن العادات الاجتماعية وما يتلبس به المرء من صيغ يسير وفقها في علاقاته بالناس من حوله وما يقيمه من علاقات بالآخرين وما ينبذه من تلك العلاقات وما يتلبس به من مشاعر وما يصرف فيه وقته من اهتمامات . إنما يشكل جانباً هاماً من جوانب الشخصية . ولعلنا نتول إن المشاغل الاجتماعية وارتباط المرء بالآخرين وخضوعه المباشر أو غير المباشر لتأثير الآخرين إنما يشكل عائقاً أساسياً من العوائق الأخلاقية أمام الإلهام . بالشخص المرتبط بالآخرين والمتأثر بهم كل التأثر ، أو قل الخاضع لما يرغبون في تسييره وقته من قوالب سلوكية ، إنما هو شخص لا يستطيع تلقي الالهامات . فشرط الملهم أن يكون شخصية متحررة من قيود المجتمع ومن القوالب والصيغ الاجتماعية التي يريد الآخرون صبه فيها . فالإلهام لا يوافق من يكتفون أنفسهم للمجتمع ، بل يوافق أولئك الذين يحملون المجتمع على التكيف لهم والتوافق مع إلهاماتهم . وبعبارة أخرى فلننا نستطيع القول بأن الشخصية الملهمة هي الشخصية التي ينشأ صراع بينها وبين الوضع القائم في مجال ما من المجالات بحيث ترفض الواقع وتقرض الجديد الملهم به . وهذا ينطبق على الفنان والأديب وغيرهما من أشخاص ملهمين ■ ولعلنا نقول إن قيود الواقع الاجتماعي تحول بين المرء وبين الإلهام ، وأن التحرر من تلك القيود والطفو فوقها ضروري لتلقي الإلهام .

المعوقات الثقافية :

سبق أن قلنا أن التهمة الثقافية وحشد المعلومات بالذهن وعدم السلاح بهضم ماتم استيعابه أو حفظه من المعلومات يمكن أن يشكل عائقا خطيرا أمام القدرة على تلقي الالهامات . وقد نهنا إلى ضرورة توفير فسحة أو حيز بالذهن يمكن أن يتسع للالهامات التي توافي المرء . ولعلنا فيما يلي نعرض لباقي المعوقات الثقافية التي تحول بين المرء وبين تلقي الالهامات .

وحرى بنا أن نبدأ باخضاع الناشئة لطرائق معينة للتفكير . والواقع أن العبودية الذهنية لطريقة معينة للتفكير تنافي منافاة أكيدة الحرية الذهنية « ومن ثم فإنها تنافي إمكانية تلقي الإلهامات . صحيح أن الناشئة بحاجة إلى التمسك بطرائق تفكير معينة ، ولكن مثل ذلك التمسك يجب ألا يكون عائقا بازاء السيطرة على الوسيلة . فالوسيلة يجب ألا تصبح غاية ويصير المرء عبدا لها ويترك المضمون . ولئن اهتم واحد مثل الفيلسوف الفرنسي ديكارت بالمنهج - أعنى منهج التفكير - فان ديكارات نفسه كان حرا في فكره ، وكان قد رفض مناهج التفكير التي وضعها غيره له وعلى رأسهم أرسطو . فحرية ديكارات الفكرية تبدى في أنه صاغ منهج التفكير لنفسه متحررا من قيود الآخرين يكلونه بها ويرغمونه على إنتاجها ومراعاتها .

ولعل من أفضل المبادئ الذهنية التي يجدر بالمرء التمسك بها هو مبدأ التحرر المستمر من قيود الطريقة . وحتى إذا كان هذا متعذرا من الناحية العملية التطبيقية ، فانه ممكن من حيث الوجدان والرغبة والاجتهاد . فأنت تجد نفسك رغم أنفك تنهج منهجا معينا في تفكيرك ، ولكن ثورتك ضد فكرة الخضوع لمنهج ذهني بالذات شرط لازب لإمكان التحرر الفكري وإمكان تلقي الالهامات . فأنت تحاول أن تتحرر حتى وإن استحال عليك أن تنبذ منهجية التفكير تماما . ولا شك أن أضعف

الابحان هو أن تكون أنت واضح منهج التفكير لنفسك وألا تكون عبدا لما يصوغه غيرك لك .

والمؤسف حقا أن الناس من حول المرء - طفلا كان أم مراهقا أم شابا أم راشدا أم شيخا - يفسرونه على انتهاج طريقة معينة في التفكير وفي تناول الأمور ، بحيث لا يتيحون له أية فسحة أو حيز في تفكيره لتخير طريقة خاصة به يفكر بها « أو يسمحون له بأن يخطط لنفسه كيف يفكر وكيف يتناول المسائل والقضايا أو كيف يفسر الأشياء .

ويساعد على انتشار العبودية الفكرية والقضاء على حرية الفكر تعدد الثقافة وتشعب العلوم إلى تخصصات دقيقة . فالمعرفة لم تعد تنسم بالكلية كما كان حالها قديما حيث كان الشخص المثقف يلم بأطراف المعرفة جميعا « ولا يكون فيلسوفا إلا إذا استوعب جميع المعارف الأساسية لعصره . أما اليوم فإن المثقف جدا لا يكون عالما حتى في أحد فروع العلم الذي تخصص فيه . فالعلم الواحد قد انشعب إلى فروع عديدة « ولم يعد من الممكن بالنسبة للعالم الواحد أن يلم بأطراف تلك الفروع الدقيقة التي انشعب إليها العلم الذي تخصص وتمكن من فرع دقيق من فروع . ومن الطبيعي أن يكون لكل فرع من تلك الفروع الدقيقة للعلم الواحد عمداء أو قل أوصياء يمسون بناصيته ، ولا يسمحون لأحد أن يتلاعب فيما سبق أن حُدوده من طرائق أو مناهج للدراسة ذلك الفرع أو ذلك التخصص الدقيق . ولقد يكون لسان حال المهيمنين على كل فرع من فروع العلم الواحد يقول لك إنك إذا أردت أن تتخصص فيما تخصصوا فيه « فعليك أولا أن تخضع لما رسم لهذا الفرع من مناهج وطرائق في تناول موضوعاته .

وإذا كان هذا هو حال منهج التفكير في ظل الثقافة المعقدة والفروع العديدة التي انشعب إليها كل علم من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية «

فانه نفس الحال بازاء مضمون جميع المعارف الإنسانية الى يصبو المرء للمشاركة في إحداها . فعندما ترغب في التخصص في فرع ما من فروع المعرفة الإنسانية ، فانك تجد أمامك كميات مهولة من المادة التي عليك تناولها أو استيعابها أو دراستها أو قلدتها . ولعلك تقول لنفسك في بعض الأحيان « إن الموجود أسمى يستحيل الانتهاء من تحصيله ، فما الذي يحفزني أو يشجعني على أن أضيف جديدا إلى ذلك الكم الهائل الموجود بالفعل ؟ . وحتى إذا أضفت فلا يكون بوسعي سوى أن أضيف نغمة معرفية لا تكاد تظهر . فشأنى عندما أضيف كشأن من يضيف قطرة ماء إلى محيط عجاج زاخر بمياه لا تقف تحت حصر . فاقيمة تلك القطرة التي تضاف إلى المحيط ؟ وعلى هذا فان الرغبة في إضافة الجديد إلى الموجود فعلا من المعرفة في الفرع الذي تخصصت فيه سرعان ما تفتقر فلا تجد لديك أي حافز لتقبل أي إلهام يمكن أن يصل إليك فيما يتعلق بتلك المعرفة التي تشغل بالك وتمطى باهتمامك .

وثمة عقيدة ثقافية مسيطرة على أذهان الغالبية العظمى من المثقفين مؤداها أن المعرفة الممكنة هي تلك المعرفة المستقاة من الواقع المحسوس من جهة ، أو من المخزون الخبري لدى المرء من جهة أخرى ثانية ، أو بالفكر الرياضي من جهة ثالثة . فهذه المصادر المعرفية الثلاثة هي المصادر الوحيدة التي يمكن أن تنشأ عنها المعرفة الإنسانية . أضف إلى هذا أن العقيدة الثقافية الشائعة تقول إن ما يصل إلى ذهن المرء هو نفسه الذي يصلر عنه . بمعنى أن الخبرات التي يكتسبها المرء تشكل النهاية العظمى أو الحد الأعلى الذي يمكن أن يقوم المرء بتقديم جانب منه إلى الآخرين من حوله . وبتعبير آخر فان المخ البشرى في رأيهم بمثابة مخزن لا يمكن أن نخرج منه شيئا لم يسبق تخزينه فيه . وهذا بالطبع مخالف تمام المخالفة لما يقول به المؤمنون بالإلهام . فالعقيدة الإلهامية تقول أن المخ – إذا صح تشبيهه بالمخزن – يمكن أن تستخرج منه أشياء لم يسبق أن خزناها به . وبتعبير آخر فان ثمة قفزات أو طفرات

ثقافية إلهامية ، يمكن أن تواتى المرء فيقدم أشياء أو مكتشفات لم تكن مخزونة بمخه . ذلك أنها مكتشفات أو إسهامات مخلوقة خلقا . صحيح أن عناصرها الأولية تكون موجودة ولكن صياغتها من جديد قد خلق منها مركبات ذهنية مركبة بحيث تصير ذات خصائص جوهريّة جديدة . وقد سبق أن شبهنا تلك المركبات الذهنية بالماء . وقد صارت لخصائص مبيّنة تماما لخصائص الغازين اللذين يتكون منهما فحسب .

ولكن أتى للمثقفين أن يقتنعوا بهذا الكلام ؟ إن النظرة الحسية إلى المعرفة . وحصر نطاق المعرفة الإنسانية في نطاق الواقع الحسى ردحا كبيرا من الزمن قد جعل هناك ما يمكن أن نسميه بالإلحاد الثقافى . فالواحد من العلماء يقول لك « إني أؤمن بالدين بعيداً عن مجال العلم ، ولكن إذا أنا تدارست العلم فلا شأن لى عندئذ بالعقائد الدينية ، وبتعبير آخر فإن العالم أوحى طالب العلم العادى يكون عائشا بعقيدتين : عقيدة دينية غيبية ، وعقيدة علمية إلحادية لا تعرف بالالهام العلمى المعرفى بحال من الأحوال . ولا شك أن مثل تلك الازدواجية المعرفية إنما هى في نفس الوقت تمثل لازدواج في الشخصية غير معلى على الملأ » .

وثمة مارد حديث من مردة الثقافة هو الإعلام . فالراديو من جهة والتلفزيون من جهة أخرى يشكلان وسيلة حضارية ثقافية تضغط على عقول الناس وتلهم وقهم واهتمامهم وتشغل الجانب الأكبر من تأملاتهم وأحلامهم . ولعل ما يتلوع به الاعلامى هو الاستهواء والجلب الوجدانى والضرب على أوتار قلوب المستمعين . فما يتم تقديمه للمستمع أو المشاهد لابد أن يكون جذابا يستهويه ويأخذ بلبه ويستولى على مشاعره بحيث لا يجد شيئا أهم منه في حياته . فكيف والحال هذه أن يجد الانسان الحديث وقتا يخلو فيه إلى نفسه ويتأمل في هلوء وراحة بال ، ويترك العنان لأفكاره أو يستعد نفسيا لتقبل ما يمكن أن يلهم به مادة للتفكير أو مادة للأداء والتطبيق ؟

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن وسائل الإعلام من جهة ومعاهد التعليم من جهة أخرى قد أسرت قلوب وعقول الناس في سجن ثقافى لا يمكن

تخطى حواجزه أو تحطيم قضبانته . وعليك بتصفح حياة معارفك وأصدقائك لتأكد من أن الإعلام والتعليم لا يتركان فرصة للإلهام . ولعلنا نقول إن الانسان المتحف خير ألف مرة في نظر المجتمع من الانسان الملهم . فالتقنين والتوصيف ووضع مقاييس موضوعية للشخصية المتحفة قد استبعد الالهام من نطاق الثقافة أو قل إنه لا يعترف أصلا بالالهام كحقيقة واقعية . ولعل أغلب المتقنين يستخلصون كلمة إلهام بطريقة فجأة فلا تحمل في أذهانهم مضمونا واقعياً دقيقاً . وحتى بالنسبة للعباقرة الملهمين فإن النظرة الشائعة إليهم ، حتى من جانب المتقنين مشوبة بالتوجس والانهام بالجنون . والواقع أن العبقرى الملهم شخص لا يتم الاعتراف به عادة إلا بعد أن يقدم ثمار إلهامه . أما الالهام نفسه وما يسبق الثمار ، فانه لا يحظى من جانب الناس من حوله إلا بالهزاء والسخرية والتشكك في القوى العقلية أو بالانهام بالاستهتار والنزق . وليس من سبيل في الواقع لاقناع المتقنين بضرورة إفراح حيز من حياة كل ناشئ لتفهم نسيم الالهام والاستمتاع بما يضيفه على الشخصية من قدرة على الخلق والابداع .

المعوقات الحضارية :

سبق أن قلنا أن هناك مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوافر للمرء لكي يتسنى له أن يتلقى ما يلهم به ، أو بتعبير أدق ما يوجه إليه من إلهامات . وقد شبهنا الانسان بجهاز الاستقبال اللاسلكي الذي يختلف من حيث شدة دقته باختلاف تركيبه وباختلاف الظروف التي يعمل في نطاقها . ولعلنا نقول إن الانسان فيما قبل المدنية كان في بيئة موثبة لتلقى الالهامات . ولعلنا نقول إن البيئة الحضارية التي يعيش في نطاقها إنسان الحضارة قد زيفت طبيعته وجعلت حياته كلها مغلقة بما ليس من الطبيعة في شيء ، والواقع أن الحياة من حولنا بعيدة كل البعد عن الطبيعة . وحتى ما نظن أحيانا أنه طبيعة لا يكون من الطبيعة من قريب أو بعيد . خذ مثالا لذلك الريف . فعندما يترك

المراء المدينة ويقضى بضعة أيام بالريف في إحدى القرى . فانه يحسب أنه قد ترك البيئة المصنوعة وارتقى في أحضان الطبيعة . والحقبة أن الريف مشابه للطبيعة ولكنه ليس من الطبيعة النجبة في شيء . فالزراعة ذاتها صناعة حضارية . ذلك أن الانسان قد اقتلع منذ آماد بعيدة النباتات الطبيعية وصار يصطنع الزراعة مخضعا الحياة النباتية لكثير جدا من التكيف ، بل إنه صار يحيط البنور والنباتات التي تنبت من تلك البنور بيئة جديدة مصطنعة . وصارت الحياة النباتية وما يحيط بها من وسائل رى وصرف وعزق وحصد وشحن . . . إلخ ، حياة مصنوعة وليست حياة طبيعية كما وجدت بادي ذى بدء .

وعلى أية حال فانه كلما بعدنا عن التعقد واقترينا من البساطة . فاننا نكون بذلك أقرب إلى حال الطبيعة وكنا بالتالى أكثر قابلية لتلقى الالهامات . ولعلنا نحاول فيما يلى أن نحدد المعوقات الحضارية التي تحول بين المراء وبين تلقي الالهامات . وأول هذه المعوقات تشتيت الانتباه . فالمدينة لا تسمح غالبا لسكانها بالهلو وبتركيز الذهن ، أو قل إنها لا تسمح لهم بممارسة عادة التأمل الدائق . ومن المعلوم أن ساكن المدينة مرهق بالأصوات العالية ، كما أن الأشياء المتحركة حوله والمتحركة به وقد احتل مكانه فيها لما يوتر أعصابه من جهة ، ويشتت انتباهه وتركيز ذهنه من جهة أخرى .

أما العائق الثانى فهو عائق اجتماعى . فكما أن الأشياء تتحرك بسرعة وتشتت الانتباه وترهق الأعصاب في المدينة ، كذا فان العلاقات الاجتماعية من حول ساكن المدينة تلهو في ثناياها كما تفعل اللوامة بالشخص الذى يسقط في أحضانها فلا يجد له مقرا من إيتلاعهها له وجذبه إلى هاويتها . والعجيب في العلاقات الاجتماعية بالمدينة أنها على كثرتها واستمرارها في بعض الأحيان مع نفس الأشخاص ، فانها تتصف بأنها علاقات سطحية ووقتية . فإيكاد الموقف الاجتماعى ينتهى حتى تأخذ العلاقات الاجتماعية التي كان يتضمنها في الذبول والخفوت . والواقع أن

ساكن المدينة لا يستطيع أن يفكر في حدود علاقات اجتماعية ثابتة . فالأشخاص المحيطون به لا يخرجون في تقديره عن كونهم أحداثا كذلك الأحداث التي تقع من حوله في الأشياء . ويسير جنباً لجنب مع هذا التشبث الاجتماعي ومع الضحالة في العلاقات الاجتماعية ضعف في المشاعر وبالتالي ضعف في القيم الاجتماعية . فساكن المدينة لا يكاد يؤمن بشيء مما يقال له أو مما تحاول وسائل الإعلام ومعاهد التعليم بثها فيه . ذلك أن المتناقضات الاجتماعية كثيرة متعددة . فبينما يصادف ساكن المدينة شخصية مؤمنة ومؤثرة في وجداته ، فانه يصادف بعد لحظات شخصية أخرى تعمل بتأثيرها المضاد على محوما سبق أن رتبته الشخصية الأولى في الذهن . وحتى بالنسبة للمعلم أو للاعلامي فان الوقت المتاح له للتأثير في الناس لا يمكن أن يقسم بالطول أو التواتر . وحتى إذا أتيح الوقت الطويل لهما ، وحتى إذا استمر التواتر ، فثمة من الجهة المقابلة شخصيات أخرى مؤثرة بتأثير مضاد تتمتع بالتأثير خلال وقت طويل وتواتر مستمر .

ولا يعزب عن البال أن الحضارة الحديثة قد قربت المسافات من جهة ، كما أنها قربت الأزمان والقرون من جهة أخرى . فتحن تقع تحت تأثير الأحداث التي تقع في إيران والهند وأمريكا ، بل قل إننا واقعون تحت ضغوط إعلامية من جهات متباينة . فالحدث الذي يقع في أي بقعة بالعالم سرعان ما ينتقل إلينا مباشرة أو بالواسطة . وهذا لا يقتصر على الأحداث السياسية ، بل ينسحب أيضا بازاء المعتقدات والقيم . ومن حيث ضغط الأزمان ، فاننا نجد أننا متأثرون بالتراث العالمي من جهة أخرى . فليس من السهل أن نتخلص من الضغوط الثقافية التراثية التي نرزح تحتها حتى ولو لم نكن نستشعر ذلك . فكما أننا لا نحس بضغط الغلاف الجوي على رؤوسنا ، كما فاننا لا نحس أو لا نكاد نحس بضغط التراث القوي والتراث العالمي ، وهو التراكب الثقافي عبر آلاف السنين . ولقد يدهش البعض إذا قلنا إن خبرات القبائل البدائية التي اكتسبها منذ ملايين السنين ما تزال مغروسة في

لا شعورنا وقد تلاحت وتفاعلت مع خبرات الأجيال المتعاقبة . وأكثر من هذا فان المجتمعات البشرية في تلاحمها بالتعاون أو بالتعارك قد قد اكتسبت خبرات ما تزال تعيش في وجداننا بالاشعور .

كل هذا يعمل عمله ولا يسمح لنا بالخلو إلى ذاتنا الحقيقية . فنحن لا نكاد نقف على أنفسنا خلواً من الركامات الثقافية والحضارية التي مرت بنا . ولعل ما يملأ جوانب الإنسان الحديث الموسوم بالحضارة من قلق إنما ينم على مخاوف غائصة في أعماق الشخصية الإنسانية التي ورثت في أنحائها ما مر من مواقف مرعبة بالإنسانية منذ نشأتها على هذه البسيطة . ولقد نقول بصراحة أن الإنسان في عصوره الغابرة كان متخففاً مما يزرع تحته إنسان الحضارة . لقد كانت الموم الحضارية بعيدة عن آفاقه النفسية ، ولنا فقد كان قريباً من طبيعته الروحانية . ولقد كان روسو على حق عندما أخذ يعني على المجتمع الذي أخذ يشوه الشخصية الإنسانية . ولكننا نوسع الزاوية التي كان روسو ينظر منها . فبينما كان روسو يركز النظر إلى المجتمع الراهن من حول الطفل ، فأننا نوسع أفق تلك النظرة وذلك باعتبار المجتمعات المتلاحقة وما عانت منه وما اكتسبته من هموم ومخاوف وإحباطات بمثابة مجتمع واحد ضخم هو المجتمع الانساني المتشابك والمتلاحم والمتفاعل بعضه مع بعض . إنه المجتمع الشامل عبر حدود المكان والزمان وقد ظل مجتمعا حيا فينا يعمل بنشاط وضغط كبيرين .

ولقد نزعنا أن الخبرات المكبوتة — وهي خبرات غير موافقة تمتد إلى ملايين السنين قبل الزمن الراهن — أشد وطأة علينا من الخبرات الحديثة المباشرة التي نعيشها . ذلك أن تلك الخبرات القديمة المكبوتة قد صارت من سداننا وقد استحال ضمن غرائزنا . فما الغرائز التي يتصف بها الانسان وبعض الحيوانات الفقيرة بل والحيوانات على اختلاف مراتبها سوى خبرات مرت بها الأسلاف للبشرية وللحيوانات على تباين أجناسها . فما مر على أجدادنا القريين والبعيدين من خبرات لا يجد طريقه إلى الأحياء ، بل يظل حيا بشكل أو بآخر في أعماقنا .

وليس من شك في أن السيل إلى الإلهام والتلقى الروحي من الخارج ليس بالقضاء على تلك الركامات بل يكون بعدم إثارها فينا . فليس من الممكن القضاء على ما رزحنا تحت وطأته ملايين السنين ، وليس من المستطاع تغيير غرائزنا التي قلنا إنها هي بلداتها خبرات نفسية ومكبوتة في لا شعورنا الجمعي وقد تمكنت من طبيعتنا . والممكن الوحيد هو عدم إثارة تلك الغرائز وعقد معاهدة صلح وتعايش بين أنفسنا وبينها . ويتعبير آخر لا سبيل إلى الخلو إلى أنفسنا إلا إذا استطعنا أن نفلت من قبضة تلك المهيجات لما ترسب فينا وصار طبيعة لنا . ولكن هل من الممكن بسهولة عقد مثل تلك المصالحة أو ذلك التراضي بين حقيقة وجودنا وبين ما صارت إليه طبيعتنا بعد أن استدلها الخبرات المتراكمة عن أسلاف قريبين وبعيدين عنا ؟

لا شك أن الحضارة الحديثة تسارع بمتواليه هندسية في تكييل الشخصية الانسانية بقيودها . فنحن خرجنا بالفعل من دائرة طبيعتنا الأصلية وقد انخرطنا في طبيعة مزيفة تمام الزيف لا تكاد تمت إلينا بصلة . لقد صرنا نروما صغيرة في آلة كبيرة بعد أن كنا أحياء نعيش حياتنا في عصر أو في عصور ما قبل الحضارة . ولقد وصلت بنا الحال إلى حد أننا صرنا لا نرى أى وجهة في المقومات الروحية . إننا صرنا لا نعترف بالروحانيات إلا بالألسنة والأقلام ، ولا يكاد المرء يحس بطبيعته الروحية : والسبب الرئيسى في هذا هو ذلك المسخ الانسانى الذى استولى على كيانتنا . فصلى الحضارة وصلى الآلات قد انطبع على طبيعتنا وترك فينا ما يشبه تلك الآلات . وهل للآلات أن تصير ملهمة وذات طبيعة روحانية ؟

فالحضارة إذن قد غلفت الانسانية بعازل يحول بينها وبين استشفاف الحقائق الروحية ، بل قل إن الحضارة قد ربطت طبيعتنا الذهنية بالأسباب الحضارية العلية التي لا تعتمد على البصر الروحي المباشر أو الحدس غير المعتمد على الشواهد .

الفصل السادس

الحضارة والالهام

الجنور الإلهامية للحضارة :

لسنا نشك في أن الحضارة قبل أن تنمو وتتعدد كانت بمثابة نبت صغير غرض يعتمد بالدرجة الأولى على المبادرات الفردية وما يسهم به الفرد الرائد من الناس بالفكر بادية ذى بدء . ثم بتطبيق ذلك الفكر في المجالات المناسبة للتطبيق والإفادة منه . ولسنا نشك أيضا أنه كلما تعمقت الحضارة « وكلما ذهبت شوطا بعيدا في النمو والتوسع ، فإن الفكر الانساني الفردى ينزاح بعيدا » أو قل إنه ينوب في ذلك المركب الحضارى المعقد والمائل بحيث لا يصير ما يسهم به الفرد سوى تدعيم وتنقيح وتصحيح لما سبق أن أرمى من دعائم أساسية ، ولما تم تشييده بالفعل والانتهاء من تحديد ملامحه الرئيسية .

ولعلنا نقول إن الخطوط العريضة التي انتحت إليها مسارات الحضارة الإنسانية منذ فجر التاريخ كانت في الواقع إلهامات حصل عليها أفراد بعينهم دون سائر الناس المحيطين بهم . والواقع أن القليل منا يمكنهم أن يتخيلوا تلك اللحظات الإلهامية التي استمتع بها أفراد بدائيون كانت ثمارها تلك الركائز الحضارية الرئيسية . ولقد يذهب البعض منا وهم يتحدثون عن نشأة الزراعة أو عن استخدام الإنسان البدائي للنار وتطويعها لإرادته بعد أن كانت ظواهر طبيعية تنشأ تلقائيا إلى أن الصدفة وحدها هي التي قادت ذلك الانسان إلى استنبات النبات وإلى إشعال النار بارادته . ولكن الواقع أن الصدفة ليست بكافية للتفسير ، بل إنها لا تصلح للتفسير على الإطلاق . وما يصلح للتفسير هو الإلهام فحسب . فالإنسان الفرد الذي

قام بزراعة أول نبتة ، وكنا حال الانسان الفرد الأول الذى أشعل باراداته أول شعلة من النار، إنما انتحى إلى ما انتحى إليه نتيجة ما ألهم به فجأة بعد أن توافرت لديه شروط ذهنية معينة لتلقى الإلهام .

ولسنا نزعم في الواقع أن الانسان الحضارى اليوم غير قابل لأن يلهم بأشياء جديدة كل الجدة تماما ، ولكن ما نزرعه فحسب هو أن إنسان الحضارة ليس محظوظا بالدرجة التى كان عليها إنسان ما قبل الحضارة أو إنسان الحضارة في مراحلها التطورية الأولى . فالكثير جدا من المجالات الحضارية قد اكتملت بالفعل « بل إن الكثير من أبناء الحضارة اليوم لا يجنون أمامهم سوى طريق واحد هو طريق التقليد والضرب في أثر ما سبق أن استنه لهم غيرهم من أشخاص . وأكثر من هذا فإن أجهزة حضارية كثيرة أو قل مؤسسات حضارية كثيرة قد تبلورت وقد شيدت على أساس من تراث مترابط ومعقد أشد التعقد ، بحيث صار لتلك الأجهزة أو المؤسسات كيانات عضوية أو كينونات ذاتية أو قوامات جوهرية أو قوة دافعة مستقلة تمتص بواسطتها جهود الأفراد . فلا يكون أمام الانسان الحديث سوى الخضوع لتلك الأجهزة أو المؤسسات يقوم على خدمتها والخضوع لمشيئتها والتشيع باتجاهاتها وقد سدت أمامه منافذ التفكير الذاتى أو الإلهامات المؤثرة . فما يمكن أن يلهم به لا يجد طريقه إلى الحياة أو التنفيذ فيخفق كوليـد لا يجد إلى نور الدنيا سبيلا فيموت لحظة ميلاده .

ومعنى هذا في الواقع أن الشرط اللازم لتلقى الإلهامات هو الحرية وعدم فرض قيود على الفكر أو العاطفة أو الأداء . وواضح أن الحضارة بعد أن تعقدت وتراكت ، فإنها فرضت قيودا وشكائـم متعددة على الفكر والوجدان والأداء . فصار الانسان الحديث يفكر وينعطف ويعمل في حلود مرسومة له لا سبيل إلى الانفكاك منها أو التخلص من إعاقها لحركاته أو انتعاشاته . ولسنا نشك في أن الانسان القديم كان أكثر حظا من الحرية برغم ما يمكن أن يتوهمه الكثيرون من قيود وشكائـم وعبودية

واستدلال كان يقصر عليها . صحيح أن الانسان القديم كان معرضا للضغوط بل وللأخطار العديدة التي كانت تصيبه في جسمه وفي أملاكه وأبنائه وذويه ، ولكن مما لا شك فيه أن الانسان القديم كان حرا في الفكر والعاطفة والعمل . وبتعبير آخر فان ذلك الانسان القديم لم يكن مجبرا على أن يفكر أو أن يتعطف أو أن يعمل أشياء بعينها . لقد كان مجال الاختيار متسعا أمامه كل الاتساع . ولكن بالنسبة لإنسان الحضارة اليوم ، فانه برغم ما ينجذ به نفسه من حرية يتمتع بها في التفكير والعاطفة والأداء ، فانه في الواقع ملزم بأن يفكر بطريقة معينة وأن يفرح ويحزن لأشياء بعينها وأن يبدي سروره وحزنه بالطريقة الحضارية التي صارت معقدة . فهناك قيود مفروضة على الانسان الحديث بازاء مظاهر تعبيره الوجدانية . وكذا الحال بالنسبة لما يمكن أن يضطلع به من أعمال أو بالنسبة لما يمكن أن يهجه في حياته من تصرفات .

ولنا أن نقول إن الحضارة الانسانية لا تعلم أن تكون ثمارا من إلهامات تلقاها الانسان عبر عصور متباعدة . ولنا أن نضيف إلى هذا الزعم القول بأن الإلهامات الحضارية تقل شيئا فشيئا مع استمرار الحضارة في التثقف . فكلما بعدنا إلى الوراء في التسلسل الحضارى ، فالتنا نجد أن الكمية التي أتاحت للإنسان القديم من الإلهام كانت أكبر بكثير ، بل إن نوعياتها كانت أكثر جوهرية وأثمن قيمة . ومع اعترافنا بأن الانسان الحديث ما يزال يتلقى الإلهامات ، فان الكمية والنوعية التي تتصف بها إلهامات الانسان الحديث أقل وأخفض من إلهامات الانسان القديم .

ومن المؤكد أن الانسان القديم كان قريبا من ذات نفسه خلافا للإنسان الحديث الذي صار فكره مركزا في الخارج وبالكاد يستطيع أن يلتفت إلى قوامه الداخلي . ولقد نقول إن دعوة سقراط أو شعاعه « اعرف نفسك » إنما كان بمثابة صيحة احتجاج ضد الحضارة التي أدخلت تسحب اهتمام الانسان اليوناني وقتئذ من دخليته إلى الخارج حيث الواقع الخارجى .

والواقع أن الانسان اليوم يبدأ من الخارج إلى الداخل . إنه يبدأ بالاهتمام بما يلور حوله ، ولا يجعل من نفسه سوى صورة باهتة لذلك الخارج الدائر حوله . أما الانسان القديم ، فانه كان يجعل الخارج صورة من ذاته . ولعلنا نضرب مثالا بأول شخص استنبت النبات . إن عملية الاستنبات ذاتها قد ارتسمت في ذهنه قبل أن تكون واقعا بالفعل بالخارج . إنه خلق الاستنبات في ذهنه قبل أن يخلقه في الواقع الخارجى . وإذا قال قائل إن فكرة الاستنبات مستشفة مما شاهده الانسان القديم حوله من نبات ينمو أمامه في التربة ، فاننا نقول له إن هذا واضح بالنسبة لك ، ولكن إذا تخيلت أن الزراعة لم تكن موجودة على الإطلاق وأن ذلك الشخص هو أول شخص استنبت النبات ، فانك تستطيع أن تشبه الاستنبات إذن بتخليق الانسان في الأنبوبة . فعملية التخليق في الأنبوبة تعد لإلهاماً اعتمل في ذهن ذلك الشخص الذى سأل نفسه أو تخيل في ذات نفسه إمكان مثل ذلك التخليق . فالنشاط الذهني ذاته ليس مستمداً من الخارج وإن كانت العناصر التي تخضع لذلك التصور الذهني موجودة بالفعل بالواقع الخارجى . فنحن لا نزعم أن الإلهام الحضارى يخلق أشياء من العدم ، بل إننا نزعم فقط أن التفكير الجديد كل الجدة أو أن الوجود المراد تحقيقه بادية ذى بدء بالواقع الخارجى بتشكيل جديد للعناصر الموجودة بالفعل ، إنما يخلق خلقاً بواسطة الإلهام في ذهن المرء . وهذا ما حدث بالنسبة لأول شخص استنبت أول نبتة في الواقع الخارجى . فعملية الاستنبات هذه نتيجة لإلهام أكيد . فهي لم تكن موجودة من قبل . وبتعبير آخر فان أول من استنبت النبات قد ألهم بالفكرة . وقل نفس الشيء بالنسبة لأول من ألهم لهياً وأخضع النار للاشتعال والانطفاء ، وقل أيضاً نفس الشيء بالنسبة لأول إنسان فكر في استئناس حيوان مثل البقرة والحصان والكلب والاستعانة به لحملته أو لحراسته . وهكذا دواليك بالنسبة لجميع المجالات أو الأسس أو الركائز التي قامت الحضارة على أكفافها .

ولسنا من أنصار الرأى القائل بأن الجبلية البشرية قد تضعضعت أو ضعفت فصارت غير قابلة لتلقى الإلهامات الهائية ، بل إننا من أنصار

الرأى القائل إن البنية الحضارية ذاتها وقد لقت الانسان فى لفائفها صارت تكبله وتقيّد حركته الفكرية . ونخشى أن يؤدى مثل هذا التكييل إلى قهّدان الانسان فى المستقبل البعيد القهرة على تلقى الإلهامات أو إلى عجزه عن توفير الفرصة لنفسه ولأبنائه لتلقى الإلهامات . ولكن مما يشيع بعض الطمأنينة بازاء مستقبل الإنسانية ذلك الاحتجاج الصاحب الذى يعلنه بعض المفكرين باصرار ضد التعقّد الحضارى وضد إحالة الانسان الحديث إلى مجرد ترس صغير فى آلة الحضارة الكبيرة . فمثل هذا الاحتجاج سوف يأتى بثّماره العظيمة التى سوف تتمثل فى مجموعة من الناس يتشبّثون بالطبيعة الإنسانية الأصلية المتسمة بالإلهام « وهى الطبيعة المهددة بفقدان القهرة على تلقى الإلهامات إذا ما استمر الحال على ما هو عليه اليوم وظل الانسان مترسماً لما سبق أن ترسمه غيره له ، وظل ضارباً فى إثر ما سبق أن ضرب فيه غير » من ممارسات . فالمشاركة إذن فى الحضارة مشاركتان : مشاركة إيجابية اضطلع بها الانسان القديم صانع الحضارة وما تزال قلة من الناس يشاركون بها ، ومشاركة سلبية استهلاكية يضطلع بها معظم الناس المتحضرين فى الوقت الحاضر .

الآكلون من فئات الحضارة :

قلنا فى سياق الموضوع السابق إن الغالبية العظمى من الناس المستظّلين بظل الحضارة الإنسانية حالياً قد خضعوا لما يقدم إليهم من أفكار وعواطف وممارسات حضارية مسبقة بغير أن يكون لهم دور إيجابى أصيل يستشفونه من إلهامات تساق إليهم وقد أعلوا أنفسهم لاستقبالها . وبتعبير آخر نقول إن الانسان الحديث قد صار منصهراً فى بوتقة الحضارة لا يستبين ذاتيته ولا يعتد بفرديته أو قل بفردانيته، فالتجعية الكاملة للقوالب الفكرية والوجدانية والأدائية المعدة من قبل للمرء قد أوشكت أن تكون القاعدة السلوكية العامة . فالحرية الداخلية إذن غير متوافرة أو تكاد أن تكون غير متوافرة للانسان الحديث .

ولعلنا نجد أن التربية منذ نعومة الأظفار قد أخذت تصادر كل ما هو فرداني لدى المرء ، ولكأن لسان حال المربين - بما في ذلك والدان ذاتهما - يقول « ليكن الطفل الذي نربيه كسائر الأطفال الآخرين . أودعنا نجعل من هذا الطفل صورة مكررة وطبق الأصل من جميع الأطفال الآخرين » . فالتطابقية أو الأحادية هي الاتجاه السائد على عقول المربين والكبار بعامة . وحتى بعد أن ينتلج المرء في ركب الكبار ويصير واحداً من فئة المنتجين أو المشتغلين بأى عمل من أعمال الكسب الحضارى ، فإن معيار النجاح في الإنتاج أو العمل يكون بالمطابقة وعدم الخروج عن الخط المرسوم للعمل ، ولكأن الأعمال قد صارت هي الكائنات الحية ، ولكأن البشر صاروا بمثابة الخامة التي يجب العكوف على تصنيعها وصياغتها وفق المواصفات المطلوبة . ولقد سمعت بأذى ذات يوم أحد المربين يقول « إن علينا أن نصنع الخلمات البشرية في مصنع هو المدرسة . ذلك أن هذا المصنع - أعنى المدرسة - يرسم مواصفات معينة يفبغى أن تتحقق في أشخاص التلاميذ » .

ومعنى هذا بطبيعة الحال مسخ الشخصية الإنسانية والخروج بالطبيعة البشرية عن الخط الذي جعلت له بداءة والذي خلقت وفقه : ولست في الواقع ضد التربية وما يمكن أن تؤثر به على طول الخط ، وإلا فانتا قد هلمنا مؤسسة نعتز بها ونشجع استمرارها . ولكن ما نعرض عليه ونقوم ضده هو محو الشخصية الإنسانية وعلم السماح لها بالتعبير عما تتضمنه من مواهب وقدرات مدفونة في أغوارها . فالضغط الاجتماعي أو التربوي عندما يشتد على الشخصية الإنسانية ، فإنها تصير عندئذ بمثابة نسخة مكررة من بين نسخ عديدة ، كما أنها لا تستطيع الإفادة مما جبلت عليه من إمكانيات كان يمكن أن تخرج إلى حيز الواقع لو أنها وجدت الجو المناسب لخروجها وتبلورها في الواقع .

والواقع أن النظرة الميكانيكية إلى الانسان ، أو بتعبير آخر النظرة إلى الانسان باعتبار أنه كائن يتأثر ويطبغ بالمؤثرات التي توجه إليه ، وأن الخبرات البشرية في جماعها لا تملو أن تكون جماع الضغوط والتأثيرات

التي وجهت إلى الشخصيات الانسانية عبر العصور المتعاقبة . . نقول إن هذه النظرة إلى الخبرات البشرية التي تجعل المصادر عن الشخصية — أيا كانت — مساويا من حيث الكم والكيف لما ورد إليها ، إنما هي نظرة قاصرة وبعيدة عن الصواب . والصحيح أن نقول إن الشخصية الانسانية المتكررة أو الملهمة تقدم إلى الخارج أكثر مما تستقبل إلى الداخل . ولستأ نشك أن الكثير جدا من أولئك المتخمين بالمعلومات لم يستطيعوا أن يقدموا جديدا فكانوا بمثابة مخازن ثقافية فحسب . فما استطاعوا تقديمه لم يكن أكثر من جانب مما سبق لهم اختراجه . وعلى العكس من ذلك فاننا نلاحظ في تاريخ الفكر البشري والابداع الفني أن المفكر الأصيل والمبدع القل لم يكن قد استقبل نفس المقومات التي قدمها إبداعا في الفكر أو الفن أو الأداء . ولعلنا في هذا المقام نستشهد بما أورده الأستاذ الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه « الفنان والانسان » حول هذه النقطة . يقول سيادته :

« لقد بين لنا بروس كيف أن « العبقريّة » بل حتى « الموهبة » العظيمة لا تصدر عن عناصر عقلية ممتازة ، أو عواطف رقيقة تفوق عواطف السواد الأعظم من الناس ، بل هي تصدر عن ملكة خاصة تستطيع تحويل تلك العناصر العقلية والميول العاطفية بحيث تخلق منها شيئا . والواقع أن الفنانين الذين ينتجون أعمالا فنية رائعة ليسوا أولئك الذين يتمتعون بأكبر قسط من الثقافة ، ويعيشون في أكثر الأوساط رقة وامتيازاً ، ويظهرون في أحاديثهم أكبر قدر من الاثارة والبراعة ، بل هم أولئك الذين يملكون القدرة على تحويل شخصياتهم إلى « مرآة » حية « تنعكس عليها حياتهم ، وليست العبرة بنوع « الحياة » التي يعيشها الفنان ، بل العبرة بما لديه من « مقلدة عاكسة » لا بالكيفية الخاصة المميزة للمنظر « المنعكس » .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن المرآة أو القوة العاكسة لدى المبتكر أو الموهوب أو العبقري هي مرآة أو قلرة على تقديم الالهامات التي تصل إلى شخصيته من خارج ذاته . ذلك أن ما يقلمه المبتكر لا يعبر عن الكم أو الكيف الحاصل عليه ، بل يعبر عن شيء آخر . فكل ما يناظر بالمبتكر

هو ما يكون قد أعد له نفسه من قدرة على استقبال ما يوحى به إليه من خارج ذاته .

وإذا نحن استعرضنا ما يضرب في إثره جميع الناس المستظليين بظل الحضارة بما في ذلك الصفوة المثقفة منهم ، فأننا نجد أن أبناء الحضارة قد اكتفوا بالفتات دون الغذاء الأصيل ، وأنهم صاروا عالة ومتسولين لما عسى أن يقدم إليهم من فضلة تساقط من مائدة الحضارة .

ونستطيع أن نقول بغير إجحاف أن الانسان الحديث هو كائن استهلاكي لما ورثه من ثقافات . ونحن هنا نستخدم كلمة « ثقافة » بالمعنى العام للكلمة لكي تشمل جميع ما تحمله الحضارة من مقومات ذهنية أو وجدانية أو أدائية أو قيم أو عادات وعرف وقانون وعلاقات اجتماعية ونحوها . ولعل ما يدفع بالانسان الحديث إلى اتخاذ هذا الموقف الاستهلاكي الثقافي هو ضخامة وتكسب الثقافة الانسانية . ولكأن الانسان الحديث يقول لنفسه « لماذا أسعى لأستقبل إلهامات جديدة وما هو ذا أمامي الكثير جدا مما لا أستطيع أن آخذ سوى قشرة أو شريحة صغيرة منه ؟ » ولعل هذا الموقف الاستهلاكي هو ذاته ما يدفع بالكثير من المثقفين إلى الإحجام عن المشاركة بتقديم إسهامات جديدة في مجالاتهم التي بزوا فيها أقرانهم . فأنتم تجد الواحد منهم يقول « ولماذا أضيف جديدا وما هي المكبات قد امتلأت وتكسبت بالمؤلفات » أو ما هي المعارض وقد تكسبت بالانتاج الفني ؟ ولقد زعم البعض أن كل ما كان يمكن أن يعرف قد عرف ، وأن كل ما كان يمكن أن يقرض من شعر أو يصاغ من نثر فني قد كتب بالفعل ، وأن الانسان قد بلغ الشأو الأبعد في الاختراع بحيث لم يعد مجال للجهد ، وأن الحضارة الانسانية قد بلغت النبوة التي لا تلوها ذروة ، وأنه لم يبق أمام الانسان الحديث ، بل ولم يبق أمام أبناء الأجيال القادمة سوى استهلاك ما تكسب وامتلات به أرفف المكبات من علم ودور العرض من فنون .

والواقع أن هذه النظرة التشاؤمية إلى مستقبل الحضارة وجعلها مجرد كومة من المتجزات لا يمكن أن يضاف جديد إليها إنما هي نظرة خاطئة . ولكن مع خطئها فإنها تشجع كبدية في أذهان كثير من الناس . وهكذا نجد أن الناس قد استحالوا إلى مستهلكين لثمار الحضارة ولم يعد الواحد منهم غارسا لبنت جديد أو مضيفا لالهام يتلقاه من خارج ذاته . ولسنا نهم الحضارة فيما حققته أو أنجزته ، ولا نذهب إلى القول بأن ما تحقق هو زيف أو هو ضياع من الضياع ، بل نكتفى بالقول بأن الثمار الحضارية لا تغنى وحدها عن شجرة الحضارة ذاتها التي تغتنى بالالهامات التي تقيض للمفكرين الملهمين من بنى الانسان .

فكل ما يشغل بال إنسان اليوم هو المشاركة في الاغتناء بما جنى من ثمار حضارية ، ولا يشغله ما يمكن أن يضيفه من زرع جديد يثمر بعد وقت يقصر أو يطول . ولنا أن نذكر بالمعاني المتباينة التي سقناها عن الالهام . فأنت تستطيع أن تكون ملها من جوانب متباينة ، ولكنك في أى جانب أو اهتمام من الجوانب أو الاهتمامات تكون متقبلا رسالة من خارج ذاتيتك تكون بمثابة مخاطبة خاصة بك أنت وحلك . أما أن تسير مع ركب السائرين في موكب الآكلين من ثمار الحضارة ، فانك تفقد بذلك ركتنا جوهرية من أركان شخصيتك ، وتصبح مجرد مقتات من فئات الحضارة .

ونأسف إذ نقرر أن الحضارة الانسانية الراهنة تشجع بغير قصد منها على إزاحة المشاركين إيجابيا في الحضارة وعلى جعلهم مجرد متفرجين على شاشة التلفزيون أو بالملاعب . وبدل أن يمثل أو يرقص أو يغنى ، فإنه يشاهد غيره يمثلون ويرقصون ويغنون . وبدل أن يؤلف أو يتحرع أو يجرب ، فإنه يقرأ ما ألفه غيره ويطلع على ما اخترعه غيره ويقرأ ويقف على مقام غيره بتجريبه . والأمر هنا شبيه بما يحدث في مجال السياسة . فالآخرون ينوبون عنا في المجالس النيابية ، ويقررون نيابة عنا ما نريد تقريره من أمور .

روح الحضارة وجسمها :

بدأت الحضارة الانسانية أول ما بدأت فكرا وشعورا ووجدانا وإرادة ثم تلبست بعد ذلك بما ترجم إليه الفكر والشعور والوجدان والارادة . وهكذا وجدنا الحضارة بعد أن كانت كيانا معنويا وقد استحوطت إلى كيان حسي ، بل استحوطت إلى قوام له ذاتيته يسيطر على الفكر والشعور والوجدان والارادة . ولكأن الحضارة بدأت بالمعنوى ثم اتخذت لنفسها الجانب الحسي الذي ما فقه أن قوى وازدهر بحيث صار أقوى من المعنوى . ولقد نقول إن الحضارة بدأت بالاحساس بتعشق الطبيعة والتلف على الغامض من الأمور لاستجلائه والوقوف على كنهه . فالحضارة بدأت مشاعر ورغبات في قلوب الناس قبل أن تصل إلى عقولهم الواعي . وحتى عندما سيطرت على العقل الواعي ، فإنها ظلت بمثابة قوة دافعة دافقة تستهدف التعبير عن ذاتها . ولم يكن الانسان في بواكير حضارته يرغب أو يدرك أن الحضارة التي يقوم بصنعها بيديه سوف تسيطر عليه بحيث تلجم ذاتيته بما فيها من فكر وشعور ووجدان وإرادة . إنه ظل يعتقد وقتئذ أنه سيظل المسيطر على مقاليد المسائل المادية المحسوسة ، وأنه سوف يظل مستغرقا في أحلام اليقظة الممتعة ، وأنه سوف يجد مادة أكثر لاستمتاعه والارتقاء في أحضان تلك الأحلام .

ولقد ينسى بعض المتناولين للحضارة بالمدارسه هذه الحقيقة فيعتقدون أو يتوهمون أن الحضارة الإنسانية بدأت أول ما بدأت مادية في أساسها . وأن أولئك الذين تعلقوا بالمعنويات من أمثال فيثاغورس وأفلاطون وسقراط كانوا منحرفين عن الخط المستقيم الحسي الذي سبق لغيرهم أن رسموه لكي إتضرب الحضارة في إثره . والواقع أن الحضارة لم تبدأ مادة محسوسة ، أو لم تبدأ في عقول الناس مرتبطة بالمفيد يجتلبونه وللضار يتأون عنه ، بل بدأت بالكشف عن الحقائق أيا كانت وفي أي مجال مهما كان . ولعلنا نزع أنه لو أن الانسان كان يبحث عن الفائدة ويتأى عن الضرر ، لما كان له إذن أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام في

عالم المخترعات والعلوم والفلسفات والأدب والفن . ونحن نستطيع أن نقول من الجهة الأخرى أن الفوائد التي ترتبت على المكتشفات الانسانية لم تكن سوى ثمار لتلك الحقائق المكتشفة . أما البواعث الانسانية التي كانت تتعمل وراء الرغبة في الكشف عن تلك الحقائق فإنها كانت بواعث أقرب ما تكون إلى روح اللعب أو التمرس بالهوايات أو الرغبة في استجلاء الغامض والكشف عن المستور في الأشياء ■

ولنا أن نقول إن روح الحضارة الانسانية — إن جاز لنا أن نجتمع الحضارات الانسانية جميعا في حضارة واحدة كبيرة — كانت بالدرجة الأولى مغروسة ومعملة ومتأججة في عقول وقلوب صفوة من بعض الشعوب أو القبائل البشرية . ونحن لا نزعج أن جميع الناس — أو حتى جميع الشعوب — كان لهم حظ الاشتغال على جانب من روح الحضارة الانسانية . فثمة بعض الشعوب من جهة ، وثمة قلة قليلة من الأفراد في الشعوب الحضارية من جهة أخرى كان لهم حظ الاستحواذ على روح الحضارة الانسانية . أما المستهلكون أو المستفيدون من ثمار الحضارة ، وهي الثمار المتمثلة في جسم الحضارة ، فإنهم بمثابة التابعين والعيال على الحضارة الانسانية . فراكب القطار أو الطائرة أو الباخرة ، ومستخدم التليفون أو التليفزيون أو الراديو والدارس لأي فرع من فروع المعرفة أو المشارك في الحياة السياسية التي تقوم وفق خطوط مرسومة . وباختصار الغالبية العظمى من أبناء الشعوب المتباعدة المتحضرة منها وغير المتحضرة ، إنما يقعون في إطار المستهلكين أو المستفيدين من الحضارة الانسانية . وطبيعي أن يتباين هؤلاء المستهلكون لثمار الحضارة عن غارسي أشجار الحضارة الذين يرسمون الخطط الجديدة لغيرهم ويأمرونهم بالسير فيها وقد اختطوها لهم لأول مرة .

وليس من شك في أن الواحد من منشئ الحضارات الانسانية لا يكون شخصية عادية ، بل لابد له أن يكون ذا مواصفات عقلية ووجدانية معينة تجعله بمثابة عملة نادرة لا تتوافر بين أترابه من البشر .

فقل ذلك الشخص المساهم في إرساء أسس جديدة للحضارة الانسانية تضاف إلى الأسس التي سبق إرساؤها لا يكون في الواقع شخصية عادية » بل يكون واحدا من العباقرة الملهمين الذين أوتوا قدرات فائقة يتميز بها ولا يشاركه فيها غيره من أبناء جلدته . إنه يكون شخصية ذات قدرة استقبالية إلهامية فنة . ذلك أنه لا يعيد سر ما سبق أن قيل « ولا يفكر في نفس الأشياء التي سبق لغيره أن فكر فيها » ولا يخترع أشياء سبق لغيره أن قام باختراعها .

ولعلنا نعود فتساءل : هل روح الحضارة الانسانية قد أصابها الخفوت والذبول والتضاؤل ؟ نقول نعم ولا في نفس الوقت . نقول نعم إن روح الحضارة قد أخلت في الضعف إذا ما نظرنا إلى النسبة المثوية من أفراد بني الانسان الذين ما يزالون يشاركون في إرساء لبنات جديدة في أساس الحضارة . فنحن اليوم لا نكاد نشاهد سوى أشخاص يستهلكون أو يشاركون في أكل ثمار الحضارة الانسانية القائمة « بينما لا نكاد نعر على أشخاص يشقون خطوطا أو طرقا حضارية جديدة . ولعلنا نجسر فتقول إن الحضارة الانسانية القائمة اليوم بثارها الكثيرة قد عملت على تشجيع الغالبية العظمى من الناس على الانخراط في صفوف المستهلكين لثمار الحضارة دون المشاركة في غرس بنور حضارية جديدة . ولعلنا نقول أكثر من هذا أن الثمار الحضارية الجاهزة توفر للمتفعين بها مالا وشهرة بين الناس أكثر بكثير مما يمكن أن يتوافر لمن يقوم بغرس بنور حضارية جديدة . ولنأخذ مثلا بجراح يقوم بأجراء عمليات دقيقة فيحظى بالمال والشهرة ، ولنأخذ مثلا آخر بأحد الدارسين أو العلماء الذين يعكفون على اكتشاف قطاع أو جزء ضامض بالمخ . إن الشخص الأول ينعم بالثمار الحضارية في مجال الطب ويكون عليه أن يستغل تلك الثمار في التطبيق بازاء العمليات الجراحية التي يضطلع بأجرائها . أما الشخص الثاني فان عليه أن يسر غور المجهول ولعله يصل إلى نتائج ذات قيمة علمية أو لا يصل . وحتى إذا ما توصل

إلى نتيجة باهرة ، فان الأوساط العلمية المتخصصة جدا هي التي تسمع عنه وحدها ، أو قل إن ما يتوصل إليه من نتائج ينحصر لامرّة المطبقين من الجراحين وغيرهم من الأطباء الممارسين للطب « بينا يفلت من يدى صاحب الاكتشاف ، ولا يحصل إلا على ذكر خافت بين سطور أحد المراجع الطبية .

وقل نفس الشيء بإزاء جميع المجالات الحضارية . فنحن بالكاد نذكر اسم مخترع المصعد الكهربى « ولقد نحمد للشركة التى تقوم بتركيب المصعد فى عمارتنا إنجازها للعمل . فن بذل البذرة الأولى وقام بوضع الفكرة العلمية أو مبدأ اختراع المصعد لا يكاد يذكر . ولكن الذى يستولى على الثمار هو المحمود المشكور . وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع المجالات الحضارية المتباينة .

يبدأنا نقول من الجهة الأخرى لا لإجابة عن السؤال الذى أثارناه حول قوة روح الحضارة . فثمة فى الواقع ما يدل على أن الحضارة الانسانية ما تزال تتمتع بقوة دافعة « وأن السيل إلى الملهمين الحضاريين والمخططين لاتجاهات حضارية جديدة ما يزال مفتوحا على مصراعيه وإن كان عدد المؤمنين بالتجديد الحضارى قلة قليلة فى بعض الشعوب الانسانية. ولعل ما يجعل عدد أولئك المبدعين الملهمين الحضاريين قليلا هو وعورة الطريق أمامهم . ناهيك عن الضغوط الاجتماعية من حول المرء ، حيث يقيس معظم الناس قيمة الشخصية بما يمكن أن تحرزه من مال ومجد فى أقرب وقت وبأقل جهد وعلى أوسع نطاق ممكن . ولستأ تنمى ما أصيبت به الشعوب النامية من تلهف على ثمار الحضارة دون روحها ، فاستوردت الحضارات الغربية والشرقية كجثة بلا روح . وهكذا نجد المشاركين فى إرساء لبنات أو أسس الحضارات المستقبلية ليسوا غالبا من بين الشعوب النامية ، بل من بين الشعوب التى ما تزال تعرف الفرق بين ثمار الحضارة وبين البذور الحضارية الجديدة التى تنبت فى المستقبل حضارات جديدة أو جوانب من الحضارات المرجوة .

وليس يخاف أن المشاركة في ثمار الحضارة قد يندخ المشارك فيها بأنه صاحب تلك الحضارة . فن حاز سيارة يعتقد أنه قد صار صاحب حضارة مع أنه مجرد مستهلك فقط لثمرة واحدة من ثمار الحضارة . وأكثر من هذا فتنة ما أسميناه في مجال آخر بالنعنة الثقافية . ونقصد بالنعنة تكرار ما سبق قوله في البحوث الجامعية التي يحصل أصحابها على درجات علمية راقية بفضلها ، مع أنهم لم يفعلوا أكثر من جميع المعلومات من هنا وهناك ورصها في مجلد يقدم إلى الهيئة العلمية للحصول على درجة علمية . ولنا أن نزعج أن الكثير جدا من البحوث العلمية والكتب الدائنة لا تملأ أن تكون ضرباً من ضروب النعنة الثقافية . وكان الحرى بالمفكرين أن يسهموا بشيء جديد وأن يقدموا إضافات علمية جنسية ذات قيمة في المجالات التي يعرضون لها . ولكن الواقع أن المشاركة في ثمار الحضارة أيسر من المشاركة في بلر بنور حضارية جديدة ، ونحن مع اعترافنا بأن المشاركة في أسس الحضارة وشق طرق جديدة ليس من السهولة بمكان ، فإننا نزعج في نفس الوقت أن الكثير من المفكرين المهتمين يدفنون إلهامهم خوف النقد ويتخلون لأنفسهم الطريق السهل وهو المشاركة في ثمار الثقافة الجاهزة وقد أراحوا أنفسهم من بذل بنور قد تبت أو قد تضيع بغير جلوى .

هل سيعيد الانسان اكتشاف ذاته ؟

قلنا إن المؤسسات الإجتماعية التي قام الانسان المتحضر بإنشائها قد صارت ذات قوام ذاتي بحيث صارت المتحركة في عقل الإنسان وشعوره ووجدانه وإرادته . ولكن الواقع أن الانسان كائن نائر بطبعه ، وهو في نفس الوقت كائن طلعة نحو الحرية ونحو تحرير ذاته من كل قيد يكبل حركته ومن كل شكيمة تلجم تفتيق ذاتيته وذلك حتى يتخلص من العوائق التي تحول بينه وبين تحقيق ذاتيته .

وعلى الرغم من أن الانسان الحديث قد غاص حتى أذنيه في لفائف التناجات الحضارية ، فانه يحس بأن تلك التناجات الحضارية تبعد به في

الواقع عن ذاتيته . فالحضارة قد اطرحت عن الانسان الإحساس بالإنية ، فصار مجرد إنعكاس أو مرآة عاكسة لما يشيع بالحضارة من قوامات أو من نتائج . وأمر الحضارة الحديثة أشبه ما يكون بالجنى الذى أطلقه شخص كان حرا طليفا من ققم كان ذلك الجنى قد سجن بداخله . فما أن قام ذلك الشخص باطلاقه من سجنه حتى أخذ يستعبده ويستبد به حتى ولو انحنى أمامه وصار تحت إمرته يقدم إليه ما تشبه نفسه من أشياء . لقد حرم ذلك المسكين من حريته وقد صار ذليلا ومطيعا لذلك الجنى الذى أطلقه من سجنه بيديه . فالحضارة أشبه ما تكون بذلك الجنى . فبعد أن أطلقتها الانسان بيديه من عقاقها وأخرجها من ققمها ، فإنها صارت مستعبدة له وآخذة بناصيته فلا تترك له أى بصيص من الحرية يتنفس من خلالها أو يعبر عن ذاتيته من نافذتها .

ولعل الاحتجاج الذى يستشعره إنسان اليوم والتبرم الذى يأخذ به كل مأخذ هو أول بشائر التحرير من ربة عبودية الحضارة . ولكن لعل المشكلة التى تعترض طريق التحرير تبدى فى شدة إمساك الحضارة الإنسانية بختناق إنسان اليوم ، كما تبدى فى الكثير من الفوائد التى تجلبها له ، بل إن تحرر الانسان من ربة وعبودية الحضارة معناه فى الواقع التنازل عن الكثير جدا من المكاسب التى حصل عليها ، بل والتخلص من الكثير جدا من العادات الذهبية والوجدانية التى اكتسبها عبر ملايين السنين . وهل بمقدور الانسان أن يتخلص من شكائهم الحضارة التى تلذه وترعاه وتحذب عليه كما فعل ذلك الجنى الذى أطلقه ذلك الشخص من ققمه ؟

هناك فى الواقع طريقان أمام الإنسان للتخلص من ذلك الجنى الحضارى : الطريق الأول هو الطريق التجنبى أو الاجتنابى وبمقتضاه يعزف المرء عن الحضارة ، أو بتعبير أصح عن نتائج الحضارة ويعود من جديد إلى التشبث بروح الحضارة التى ترتبط بالكيان النفسى الدائى للإنسان وليس بالتأججات التى احتلت مكان الأصل وقد انقلبت من كونها وسيلة إلى

كونها غاية ليس بعدها غاية . أما الطريق الثاني — فهو طريق قسرى إجبارى حيث تحدث كارثة كبرى بفعل الانسان أو خارج نطاقه تقضى على التناجات الحضارية وتعود بالإنسانية إلى عصور ما قبل التاريخ أو قلا عصور ما قبل الحضارة . فتبدأ الإنسانية من الصفر كما فعلت بادىء ذى بدء مع أول إحساس أو أول تفكير حضارى خامر الانسان الأول أو الانسان القديم .

ولسنا نرى بالضرورة أن تتلاشى التناجات الحضارية بكارثة كبرى بحيث يجد الانسان نفسه وقد قضى على ذلك الجنى المتشبت به ، ولكن على العكس من ذلك فانا نرى أن الطريق الأول ممكن جدا . ولسنا نطمع فى الواقع فى أن نجعل جميع الناس ملهمين ، ولكن كل ما نطمع فيه هو أن ننشر الوعي الإلهامى إلى أقصى حد ممكن بحيث لا يضيع على من لديه استعداد إلهامى الاستفادة من مواهبه التى جيل عليها ولا يضيع فى خضم المستهلكين لثمار الحضارة الإنسانية .

المهم هنا هو التأكيد على الإيمان بوجود ما يسمى بالإلهام ، والتأكيد فى نفس الوقت على أن الانسان ليس مجرد آلة تسجيل للخبرات وآلة مرد لنفس الخبرات التى سبق استقبالها . المهم أن يشيع الإيمان بأن الانسان كائن متميز بالقدرة على خلق الأفكار والأشياء الجديدة . وهذا الخلق أو هذه القدرة على الخلق ليست من ذات نفسه ، بل هى مستمدة من خارج إطاره . ومعنى هذا بتعبير آخر أن الانسان كائن ملهم . إنه كائن فيه نفحة إلهية تسمح له بأخذ قبس من القدرة على الخلق . ولكن ما نؤكد أنه هو أن هذه القدرة الإبداعية لدى الانسان هى قدرة ليست فى مكتبة الانسان ولا فى قبضته . إنها عطية توهب له خلال لحظات إلهامية معينة . فكل ما يستطيع الشخص القابل لتلقى الإلهامات عمله هو تهيئة ذاته لكي تكون قابلة للاستقبال الإلهامى . وقد سبق أن قلنا إن الإنسان الملهم كمحطة الاستقبال اللاسلكية التى يجب أن تتوافر بها شروط معينة حتى

يتسنى لها التقاط الإشارات اللاسكية التي ترسلها محطة إرسال لاسلكية قريبة أو بعيدة عنها . والانسان الملهم بمثابة محطة إرسال حساسة تستطيع التقاط الرسائل الإلهامية التي توجه إليه .

فاذا ما تمكن هذا الإيمان من قلوب الناشئة ، وإذا ما آمن المثقفون بهذه الحقيقة ، فإنهم عندئذ لا يتركون أنفسهم يرزحون تحت وطأة التلقى التقافى ، ولا يجعلون من أنفسهم مجرد أوراق يكتب عليها الآخرون ما يشامون ، بل تكون لهم ذاتيتهم الخاصة بهم ، وبحيث لا يرضون عن جعل أنفسهم مجرد نقلة لما سبق لغيرهم تقريره ، أو مجرد مستخمين لثمار الحضارة الجاهزة التي تقلم إليهم ، بينما تكون عقول أخرى قد فكرت وقاوب أخرى قد شعرت وشعوب أخرى قد استحوذت واستأثرت بالفكر الإلهامى الأصيل .

والواقع أن الأديرة منذ نشأتها وحتى اليوم تضطلع بهذه الرسالة الإلهامية . ولعل مراكز البحوث العلمية هي بمثابة تطوير أو استشفاف لتلك المؤسسات الدينية ولكن بغير أن تكون مرتدية الزى الدينى . والمهم فى الأديرة - وهو ما يجب توافره فى المراكز العلمية - توفير مناخ مناسب للتأمل وتلقى الإلهام . ولعل من المشكلات الخطيرة التي تجابه معظم المفكرين فى عصرنا هذا هو التشتيت الحضارى . فإ أن ينبغ المرء بعض النبوغ حتى يجد نفسه وقد بدأ يستقطب بتشتيتات متباعدة - فكلم من أستاذ جامعى ذو شباب متدفق قد استهلك عبقريته المحاضرات والمذكرات التي يعدها للطلاب ؟ ناهيك عن الاجتماعات التي عليه حضورها ، والتليفون بالبيت والكلية الذي يلاحقه بلا هوادة . إنه لا يكاد يجد وقتا يعكف فيه على ذاته يتأمل . ونحن هنا نقول « يتأمل » ولا نقول « يقرأ » . فالقراءة وإن كانت ضرورية وسابقة على التأمل ، فإنها كثيرا ما تحول بين المرء وبين التأمل ، أو قل إن كثيرا من الدارسين يكتفون بالتحصيل دون التأمل . ولا شك أن التأمل هو الإعداد الذهني الذي لا مناص منه لتلقى الإلهامات فى الموضوع الذى يتأمل فيه المرء . وهل كان يتسنى

لديكارت أن يكتشف منهجه في التفكير إلا بفضل لحظات تأمل خلالها وانصرف فيها عن الناس منزويا بعيدا عن الضوضاء وعن العلاقات الاجتماعية وعن تشتتات الحضارة ؟ وهل كان لديكارت أن يسمى بأبي الفلسفة لو أنه كان قد اقتصر على تحصيل ما بين طيات الكتب لوقته ؟

المطلوب إذن حتى يعيد الانسان اكتشاف ذاته أن يتخلص من الارتباطات المشتتة الكثيرة التي تحيط به ، وأن يوفر لنفسه بعض الوقت أو قل كثيرا من الوقت للتأمل الذاتي ولاستشفاف ما يمكن استشفافه من أمور في مجال اهتمامه . ولعلنا بغنى عن تكرار ما سبق أن قلناه من أن العطاء لم يقموا على ما وقعوا عليه من مكتشفات أو أفكار أصيلة وهم في لجب الحياة وصحبا . فالفراغ ضروري للإنسان حتى يتبها لتلقى الإلهامات الجديدة . وبغير أن يتوافر الفراغ - ونعني هنا الفراغ حتى من اللهو ومن التسلية ومن جميع الضغوط الحضارية المتباينة ومن بينها الاذاعة والتلفزيون - حتى يتسنى تهيئة الذهن تهيئة مناسبة لتقبل الإلهامات .

على أن الفراغ الذي نبتغيه ليس من السهولة بمكان . ذلك أن معظم الناس إذا ما فرغوا إلى أنفسهم ، فإنهم يكونون في خلواتهم أكثر ارتباطا بالناس وبمشاغل الحياة مما لو كانوا بين الناس وفي ضجيج وصخب الحياة . فالفراغ الذي نبتغيه ليس فراغ المهوم والمشغول بما حدث ، وليس فراغ من يأخذ في اجترار الأحداث التي وقعت له أو للآخرين ، بل هو فراغ البال الكامل والحصول على نوع من الصفاء النفسي والخلو من الكثر والاستحواذ على حالة نفسية تتسم بالهدوء وراحة البال . إنه فراغ بمعنى اطراح الواقع من حولنا اطراحا تاما وبلوغ حالة نفسية معينة يصعب وصفها . فهذا النوع من الفراغ هو الأرض الخصبة للتأمل والانكباب على الأفكار . والواقع أن المتمتع بمثل هذا الفراغ الخالي من التوترات النفسية يجد نفسه في غمرة أفكار ومشاعر ووجدانات وإرادات جديدة تسوقه سواقا وتستولى عليه استيلاء . إنه يصير في تلك اللحظات بمثابة

أداة خاضعة لما يفرض عليها . ولكأن كائننا روحانيا قد تلبس بالملهم في تلك اللحظات وقد أخذ يلقنه الأشياء التي ينبغي تلقينها له .

ولعل أقصى ما نطمح فيه هو أن تتوافر بين ظهرائنا مجموعة من المفكرين الملهمين الذين لا يطمعون في شهرة أو جاه ، وقد نقلوا مركز الثقل إلى دخالهم لا يشغلهم شاغل ولا تأخذ برقابهم هموم .

الزيفان الحضارى :

سبق أن قلنا إن الحضارة نشأت أول ما نشأت فكرا وشعورا ووجدانا وإرادة في دخيلة الانسان ثم استحوالت إلى ثمار خارجية واقعية تبدى في المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي صارت بدورها ذات قوام مستقل عن الانسان ، ومن ثم فإنها أخذت بمخاذه واستولت على تحركاته ، بل إنها علمت على إلبام عقله وشعوره ووجدانه وإرادته . ونحن نعتقد أن إيمان الانسان الحديث الحضارى بأن الثمار الحضارية هي الخليفة بالاعتبار وأن واجب الإنسان أن يسلم مقاليد تلك الثمار، إنما هو بمثابة زيفان وانحراف عن روح الحضارة التي خلقت الحضارة نفسها . وأكثر من هذا فأننا نعتقد أن ثمة خيانة قد وقعت من جانب الإنسان ضد نفسه وضد جوهر وجوده عندما أعطى الأولوية لثمار الحضارة بينما جعل الثانوية لروح الحضارة . ومن ثم فإن جسم الحضارة يكون قد سيطر على روحها ، بل إن ذلك الجسم يكون قد جرد الحضارة من جوهرها المجدد لأنسجتها ، والموجه نديتها .

ولقد نتج عن هذا الزيفان الحضارى نتائج وخيمة على الإنسانية . فنحن اليوم لانجد هدفا أو فلسفة لحياة الإنسان الحديث الحضارى . وأكثر من هذا فإن الأهداف الحضارية صارت غير محددة . فإذا قيل إن الحضارة تعرف طريقها وهو استئثار الإمكانيات المتاحة إلى أقصى درجة ممكنة ، فأننا نرد بأن مثل ذلك الاستغلال الحضارى للإمكانيات المتاحة قد أقصى إلى ما يشبه حافة الهلاك . ذلك أن الانسان في استغلاله للطبيعة وسيطرته

عليها قد آذاها وأفقرها ولوثها « وصار بمثابة من يهلك نفسه بشهد سام مييد للحياة أو مميت لها ببطء . ولعل الانسان برغم ما يزعمه لنفسه من حكمة وحصافة يكون هو الكائن الوحيد الذى لم يستطع الحفاظ على الجنة التى خلقت له . ونحن لا نعى الجنة التى كان بها ثم سقط منها بعد الخطيئة ، بل نعى الجنة الأرضية التى ترمز الجنة الأصلية لها . فالأرض عندما كانت بكرا قبل استنزاف الانسان لها كانت تقدم إليه الخير طواعية . ولكن طموح الانسان فى السيطرة والتحكم والاستغلال قد دفع به إلى التفكير فى استئلال الأرض التى يعيش عليها . فأخذ فى إرهاتها بكثرة الزرع وبكثرة التفكير فى تطويرها . فأخذ يغير نظام الطبيعة . فصار يتحكم فى الأنهار بل وفى التربة وذلك عن طريق الكيمياء وغيرها من وسائل ضارة فى حقيقة الأمر .

وبانقراض الانسان على الطبيعة وتحكمه فيها لم يكن فى وسعه سوى تدمير الأرض وإصابتها بالتلوث ، ناهيك عما أخذ الانسان فى الإقدام عليه من استخدام للسموم يهلك بها خصومه ، وعلى رأس تلك السموم تلك الأسلحة النووية التى صارت وبالا على الإنسان والحىوان « بل وصارت وبالا على المناخ نفسه وعلى مستقبل الطبيعة والحياة على الأرض . ولعل طموح الانسان التدينى قد خرج به من حيز الكرة الأرضية لكى يصل إلى الكواكب الأخرى ، فأخذ فى تدمير الفضاء الخارجى . ولقد نقول إن نزول أول إنسان على القمر وعلى سطح الكواكب الأخرى كان إيلذانا بتدمير القمر وتلك الكواكب ، وذلك بما يحمله إليها من أسباب التلوث الذى يفاخر الانسان بأنه اكتشفه .

وحتى عندما يعمد الانسان إلى مقاومة الأمراض والحفاظ على أكبر نسبة من المواليد لينظموا أناسا يعيشون إلى أكبر سن ممكنة ، فانه نسى أنه يمثل ذلك الحفاظ قد عمد بغير إدراك من جانبه إلى تشجيع الضعفاء والواهين والاستمرار بهم على سطح الأرض لكى ينجبوا أجيالا أضعف منهم وأوهن . ناهيك عن أن الانسان قد صار بمساعدة الطب والرقاية الطبية مقاوما لمبرد

الطبيعة على حد تعبير مالثوس ، ومن ثم فإن التفجر السكاني قد حدث .
فاختلت الموازنة الطبيعية بين موارد الأرض الغذائية وبين سكان الأرض .
وها هي إحدى الدولتين العظيمين - أعنى روسيا - تشكو اليوم نقصا
شديدا في المحاصيل الزراعية . ناهيك عن المجاعات التي تهدد بقاعا كثيرة
بالعالم بسبب فقدان التوازن بين عدد السكان وبين ما يمكن أن تجود به
الأرض من محاصيل زراعية .

ومن الزيفان الحضارى - أو قل أول خطوة من خطوات الزيفان
الحضارى التى خطاها الانسان - الإيمان المطلق بالمدرك الحسى ، والاعتماد
على المدركات الحسية وحدها كأساس وحيد وضرورى للمعرفة دون غيره
من وسائل معرفية . ولقد ترتب على الإيمان بالمدرك الحسى إيمان آخر
بالعقل المنطقى أو المنطق العلى . فأطلق شعار خطير هو شعار السبب
والمسبب ، أو العلة والمعلول ، بمعنى ضرورة إنحصار المعرفة الانسانية فى
نطاق الواقع المحسوس . وبذا حرمت الانسانية نفسها من مصادر معرفية
أخرى كانت تتمتع بها قبل أن تستولى الثمار الحضارية أو جسم الحضارة
على روح الحضارة المنتهية أو المتأججة فى قلب الانسان .

ونستطيع القول إن الروح الأصيلة للحضارة الانسانية قبل زيفانها لم
تكن تنحوى إلى التجرد العتلى ، ولم يكن الانسان الحكيم هو الانسان الذى يفكر
بعقله المنطقى ضاربا صفحا بالوجدان ، بل كان الحكيم هو ذلك الشخص
الذى يحيا حياة روحية حقيقية . لم يكن يفكر بعقله دون وجدانه ، ولم
يكن تفكيره الوجدانى أو وجدانه المستنير بنور العقل منفصلا عن حياته .
لقد كان الانسان الحكيم يحيا فكره ووجدانه وإرادته بغير فصل للواحد
منها عن العناصر الباقية من قوامه . ويتعبّر آخر فان الانسان الحكيم كان
يحيا بشكل كلى لا بشكل مجزأ أو مبعض كما يعيش اليوم . ولعل المثل
الأعلى فى هذا الصدد هو فيثاغورس الذى كان لا يرى انفصالا بين الرياضيات
وبين الدين . لقد كانت الأرقام ترمز لديه أو كانت هى بذاتها كيانات
وجودية حقيقية . كان العدد واحد مثلا هو الإله . وكانت القمرينات

الرياضية وسيلة لديه . لدى تلاميذه لتتقى الروح . وكانت الصلة لديه واضحة بين ما يتناوله الإنسان من طعام وبين تأثير تلك الأطعمة في القوام الروحي للمرء . ومن ثم فانه كان يحرم تناول بعض أنواع الأطعمة لما لها من أثر سيئ في أخلاق الإنسان . ومهما يكن حكمنا على أفكار فيثاغوراس ، فاننا لا نستطيع أن ننكر حقيقة هامة واحدة هي الأخذ بمبدأ الكليانية أو التكاملية في الحياة . فلم يكن ليجتزئ بجانب دون باقي الجوانب من قوام المرء ، بل إن الحياة ذاتها والوجود من حوله لم يكن سوى كائن حي كبير يجب الحفاظ عليه ويجب التعامل معه بما يجب له من الاحترام والتعديس .

وها نحن في حال الزيفان الحضارى نجد أن الإنسان قد تفسخ وتجزأ ، وصار العقل مابيناً للعاطفة ، بل إن البعض يعتبرون الوجدان قطاعاً حقيراً بالشخصية يجب القضاء عليه . وأكثر من هذا فثمة فصل بين الواقع المعاش وبين الحياة الفكرية . وبهذا حدث انقسام في حياة الانسان الحضارى بين دخليته وبين خارجيته . فصار يحيا حياتين وقد فقد ذلك التكامل الذى كان يتمتع به إنسان ما قبل طغيان الحضارة بين جوانب وجوده المتباينة . ومن جهة أخرى فان الإنسان الحضارى في ظل الزيفان الحضارى قد صار علواً للوجود من حوله وليس صديقا لتلك الوجود . والواقع أن المفارقة بإزاء هذه النقطة مفارقة خطيرة . فانسان ما قبل الطغيان الحضارى كان يعتبر نفسه ابناً للوجود . والابن البار يجب أن يلتقى بنفسه في أحضان أمه الطيبة ويجب عليه أن يقوم على خدمتها ، بل يجب أن يفنى فيها وأن يشاهد وجوده في وجودها . أما الإنسان الحضارى في ظل الزيفان الحضارى فانه يعتبر نفسه سيداً على الأرض وليس ابناً لها ، بل إنه يحاول قهر الأرض وامتصاص آخر نقطة من دماها . فمثل ذلك الشعور الصوفى الذى كان يتمتع به إنسان ما قبل انسلط الحضارى كان يظل الإنسان بثوب من الختان ، بل إنه كان يكفل له السعادة . ولعل أول خطيئة اقترفها الإنسان واستحق عليها الطرد من الجنة هي إحساسه بأنه متسلط على الأرض وليس ابناً لها .

ولقد نتول إن أول جريمة اقترفها الإنسان ضد أمه الأرض تتمثل في قطعه لأول شجرة من الغابة أو ضربه للأرض بأول ضربة فأس .

ويمكن القول بأن الإنسان الحضارى قد فقد بسبب الزيفان الحضارى ما يمكن أن نصفه بفقدان التوازن البيئى والتوازن الإنسانى . فالزيفان الحضارى أفقد البيئة اتزانها وصارت الأرض مزعزة تحت أقدام الإنسان، بل إن ثمة حدود فعل أو ثورة سلبية تضطلع بها الطبيعة ضد الإنسان متمثلة في تمردها عليه بعدم تقديم التاجات الخصبية التى دأبت على تقديمها إليه عبر ملايين السنين . أما عن فقدان التوازن الإنسانى فانه يتمثل في الشقاء والاعتراب اللذين يستشعرهما الإنسان الحديث . لقد صارت شخصية الإنسان الحديث مفككة بل وثائرة بعضها على بعض . وأكثر من هذا فان الانسان الحديث قد فقد الشعور بقيمة الحياة . وهل هناك أخطر من فقدان الانسان الحديث لمعنى الجمال بعد أن مزق الطبيعة وفكك أوصالها ؟ لقد غلف الانسان الحضارى نفسه بيئة صناعية زائفة فحرم بذلك من حضن أمه الطبيعة الدافئ ، وقد زاعغ عن الطريق الخلقى بالاتباع . وكيف يتسنى له استلهاهم تلك الأم التى تمرد عليها ومسحها وأزال ما فيها من جمال ؟

الفصل السابع

التربية والضغط الثقافي

الأصل الحضارى للتربية :

هناك تفسيران أساسيان حول منشأ التربية بالمجتمعات الإنسانية: التفسير الأول يقول إن التربية نشأت أول ما نشأت من أجل ضمان استمرار الحياة وذلك عن طريق توريث الخبرات النافعة التي تجلب فائدة أو تبعد ضررا . فالكبار يعلمون الصغار الحرف والصناعات ووسائل الدفاع عن النفس والقنص واستخدام الأسلحة أيا كانت في الحروب أو المعارك أو للأخذ بالثأر بين القبائل أو العشائر المتباينة . أما التفسير الثانى لمنشأ التربية فانه يذهب إلى أن التربية نشأت لاجتلاب فائدة أو لدرء ضرر ، وإنما نشأت من أجل دعم شخصيات الناشئة بالخبرات الروحية والعمل على إعداد الذات للنمو النفسى ولتفتيق المواهب الروحية بدخيلة الشخصية ، أعنى تلك المواهب الذهنية التي جبلت عليها .

وهكذا نلاحظ أن التربية قد وجدت تفسيرين متباينين لنشأتها : تفسير مادى نفعى ، وتفسير آخر روحى مطلق لا يرتبط بالمادة ولا بالمنفعة القريبة أو البعيدة . ونستطيع القول أيضا بأن التفسير الأول هو فى الواقع تفسير اجتماعى لمنشأ التربية ، بينما يتصف التفسير الثانى بالفردية ، أو قل إنه يقول إن التربية لا تعتمد - وفق هذا التفسير - على ما يشيع بين أفراد الجماعة من وسائل تفكير أو عمل ، بل هى تنحصر إلى الفردية أو قل إلى التفرد . ذلك أن التربية الروحية تختص بحل فرد بحسب المواهب التي جبل عليها . وقل أيضا إنه وفقا للتفسير الأول فان التربية تصدر من الخارج - أى من الواقع الاجتماعى والمادى - حول المرء - إلى دخيلته حيث يتلرب على كيفية

الارتباط بذلك الواقع الخارجى وكيف يتعامل معه بنجاح . أما التربية بالمعنى الثانى - أو وفق التفسير الثانى لنشأتها - فهى تربية تصدر من الداخل إلى الخارج « أعنى من صميم الشخصية إلى تصرفاتها الخارجية . فالمرء - وفقا لهذا التفسير الثانى للنشأ التربية - لا يتعلم شيئا من الخارج ، بل يتعلم من باطن نفسه « أو قل إن كل ما يعمل المرء هو إعداد ذاته لما يمكن أن يستقبله من إلهامات لدية .

ونحن نستطيع القول بأن منشأ التربية بهذا المعنى الثانى - هو الخلق بالذكر فى هذا المقام ، وهو المنشأ الحقيقى للتربية بالمجتمعات الإنسانية . والواقع أن ثمة ظروفًا متباينة كثيرة قد ساعدت على نشوء التربية الروحية فى أول عهود الإنسانية من تطورها . ولعلنا نقول إن التربية النفعية - أعنى التربية وفق المعنى الأول الذى ذهبنا إليه آنفا - قد أتت فى سلسلة تطور الحضارة بعد أن سارت التربية الروحية شوطا بعيد المدى . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن التربية المادية النفعية كانت بمثابة الوحش الذى أخذيئش فى جسد التربية الروحية الإلهامية . وعلينا أن نبدأ باستعراض الظروف التى ساعدت على نشأة التربية الروحية الإلهامية فى المراحل الأولى من تطور البشرية .

هناك أولا الوفرة الاقتصادية . فلقد كانت الأرض فسيحة لا يشغل الإنسان بمجتمعاته القبلية سوى رقعة صغيرة منها . وكانت المادة الغذائية النباتية وفيرة ، كما كان القنص أيضا سهلا وميسورا بما كان متوافرا للإنسان من رشاقة فى الحركة وسرعة فى الانقضاض . على أننا نعتقد أن الإنسان ظل لفترة طويلة من تطوره كائنا نباتيا لا يأكل اللحم . ولقد يكون أكله للحم فى بادئ الأمر قد نشأ نتيجة الغضب أو الانتقام . فأخذ يعتدى على الأناس الآخرين وعلى الحيوانات التى تؤذيه فيهاجم أعداءه وينقض عليهم بأسنانه وأظافره ويأكل من كل فريسة ما يأكل حتى يأتى عليها بقتلها . وبمرور الزمن انفصل أكل اللحم عن الفسوة أو الانتقام ، وصار الإنسان يجمع بين أكل النبات وبين أكل اللحم . والواقع أن وفرة الغذاء من حول

الانسان قد سمحت له بالبحث عن مجالات أخرى يفرغ فيها طاقته . فأخذ يمارس التأثير في الآخرين كما أخذ يبحث عن وسائل ذات فاعلية في التأثير فانتهى إلى إمكان استشفاف وسائل نفسية غير مادية يمكن أن يؤثر بها . وبدأ في نقل ما اكتسبه من تلك الوسائل النفسية إلى بعض أفراد أسرته وبخاصة أولاده ضمانا لنفوذهم وقلوبهم على التأثير وإخضاع الآخرين لهم .

ثانيا - اتساع الرقعة وتنوع الأماكن التي يمكن أن يخلو فيها المرء مع نفسه كيفما يشاء وخلال المدة التي يريد لها . لقد يقال إن الانسان فيما قبل الحضارة كان قضيبي السلوك . وهذا صحيح من غير صحيح من ناحية ناحية أخرى . فهو صحيح بالنسبة للمراحل الأولى من مراحل التجمعات البشرية . ولكن ما أن استقرت الحياة وبدأ شعور الانسان بذاتيته حتى بدأ يفكر في ذاته بعيدا عن الضغوط الاجتماعية من حوله . ولقد اكتشف لأول مرة في تاريخ الانسانية أنه يستطيع أن يكون قويا بوسائل أخرى غير الوسائل القسرية المباشرة . وأكثر من هذا فإنه يستطيع أن يستلهم قوى خارجية ذات طبيعة روحانية تمدّه بالقوة والجبروت .

ثالثا - وهذا يسوقنا إلى المناخ أو الظرف الثالث الذي سمح للإنسان بأن يكون ذا كينونة روحانية ، ألا وهو الاعتقاد بأنه كائن غريب عن الأرض ، وأنه ينتهى إلى عالم آخر غير العالم الذي يعيش به . إنه اعتقد تلقائيا بأن ثمة كائنات روحانية تحيط به وتؤثر فيه ويؤثر فيها ، وتتعاون معه أو تناهضه وتربص به اللوثر . وأكثر من هذا فقلما د عند الانسان القديم الاعتقاد بالحياة animism ، أعنى أن لكل شيء روحا حتى ولو كان ذلك الشيء جبلا أو شجرة أو نجما . فالكون بمثابة كائن حي كبير . ولذا انتشرت عبادة الكواكب والجبال والبحار والأشجار والكثير من الكائنات الحية الأخرى . ناهيك عن الاعتقاد في استمرار تأثير الموتى من الأسلاف في الحياة الراهنة ، والاعتقاد في التأثير الروحاني بالسحر أو بالدين . فتقصى مصالح وتتعلل مصالح أخرى . فكان بمسطاع البدائي أن يجلب

الخير لنفسه وذويه وأن يحرم خصومه من الخير بالتأثير الروحاني عن طريق السحر وغيره من وسائل روحانية.

ونحن نعتقد أن التربية ظلت ردحا كبيراً من الزمن وهي مرتبطة بالروحانيات . ولكن النهج الذي سلكته الحضارة كان نهجاً واقعياً مادياً . ومساعد على هذا النهج ما ظهر من نجاح وفائدة ظاهريين نتيجة الضرب في إثر المنهج العلمي، أو قل تسخير قوى الطبيعة قسراً لصالح الإنسان. ولقد سبق أن أظهرنا كيف أن ما حققه الإنسان من نجاح وما اجتناه من فائدة إنما كان مرتبطاً بالظاهر فحسب . أما الحقيقة فإن الإنسان قد ضرب تقدمه وازدهاره في الصميم بعد أن أخذ في استنزاف الأرض وبعد أن فقد مقومات حياته الروحية التي هي قوامه الأساسي في وجوده على الأرض .

وللبرهنة على ما نزعمه هنا من أن التربية قد بدأت بالروحانيات ما نلاحظه من ذبوع التفكير الروحي والاعتماد على العقائد الدينية في المجتمعات البعيدة عنا في سلسلة تطور التاريخ « بل إننا نلاحظ حتى اليوم أن المجتمعات البدائية والمجتمعات الأقل حضارة – بالمعنى المادى للكلمة – هي مجتمعات أكثر انكباباً على الروحانيات وأكثر استمساكاً بالفكر والوجدان والتصرف المتسم بالمسحة الدينية أو السحرية .

وينصف الأنثروبولوجيون غير المتحيزين عندما يقررون بعد دراستهم للقبائل البدائية وبعض الشعوب غير المتأثرة بالحضارة الغربية الحديثة، عندما يقررون أن الظواهر الروحانية والأساليب السحرية موجودة بالفعل، وأن تأثير تلك الأساليب تأثير حقيقى ، وأن تلك الشعوب لا تقتصر على مجرد التسليم بوجود السحر والدين ، بل إنها تحيا حياة روحية حقيقية وأنها لا تقف موقف المتفرج من تلك الظواهر الروحية التي يشاهدها معتملة في أواسل شخصيات الناس من حوله .

والواقع أن من يقولون إن التربية بدأت من أجل الحصول على منافع ودرء مضار فحسب ، إنما يتأثرون فيما يذهبون إليه بما يؤمنون به في حاضرهم .

فهم يعتقدون أن التربية الراهنة تسعى لتوفير الرخاء للإنسان وذلك بتعليمه حرفة أو مهنة ، كما توفر له الحماية والأمن وذلك بتجهيزه بفنون الحرب والدفاع عن النفس . فتفسيرهم لمنشأ التربية بالنسبة إنما هو في الواقع بمثابة إسقاط لما يشيع لديهم من اتجاهات راهنة . فهم يقيسون الماضي في ضوء الحاضر متناسين الاختلافات والتباينات التي أصابت التربية واتجهت بها وجهة جديدة مבינה للوجهة التي بلأتها .

رستطيع أن نخلص إلى القول بأن الإنسان ظل منذ مراحل تطوره الأولى وهو متشبث بالروحانيات وقد ظلت معتملة في حياته ، بل إنه كان يحيا وفقها . ولكن الحضارة قد زاعجت عن طريق بدأت بالضرب فيه وقد أدخلت تفضل المحسوس على الروحاني ، كما فضلت التفسير المباشر الواقعي بدلا من غير المباشر الروحاني وانتهت إلى ما انتهت إليه من إنكار لما هو روحاني وجعلت العقل مجرد وظيفة انعكاسية لما يصل إلى المخ من مؤثرات حسية . فالتربية بدأت روحانية وانتهت مادية عمسوسة تتشبث بالمقومات المادية .

الشكل والمضمون في التربية :

قلنا إن منشأ التربية بالمجتمعات البشرية لم يكن مرتبطا بجلب المنافع ودرء المضار كما يعتقد الكثيرون ، بل كان مرتبطا بالشخصية الإنسانية من حيث هي كيان ذو طبيعة خاصة تتسم بالروحانية ، ومن حيث هي قوام ذاتي يشعر بأنه مابين ما حوله ، وأن يقدور ذلك القوام الذاتي أن يسيطر ويؤثر بطرائق أخرى غير الطرائق المباشرة . فالتربية في نشأتها كانت تستهدف تفتيق الشخصية من الداخل . وبتعبير آخر فإن التربية صارت تستهدف القدرات الروحية للذات كهدف نهائي تسعى لإخراجه من حيز الكون إلى حيز الواقع الحي .

والتربية في أي عصر من العصور ومنذ نشأتها الأولى جانبان أساسيان : الشكل والمضمون . أما الشكل فإنه يتعلق بالأساليب المستخدمة في تربية الناشئة . أما المضمون فإنه يتعلق بما تتضمنه تلك الأساليب من عناصر أو محتوى أو أنه يتعلق بما يراد التوصل إليه من نتائج .

ولنضرب أمثلة توضيح الفرق بين الشكل والمضمون في التربية . لنقل مثلا إن القبائل البدائية كانت تمرن أطفالها على استخدام الحراب في القنص أو في الحروب أو في الدفاع عن النفس . فطريقة استخدام الحراب تتعلق بالشكل . أما المهارة أو التمكن من ذلك الاستخدام ينبوع فانه يتعلق بالمضمون . ولقد نقول إن الشكل هنا هو الظاهر من العملية التي تمارس ، أما المضمون فانه ما يترسب من خبرات في دخيلة الناشئ أو المتعلم .

وقل نفس الشيء بالنسبة لجميع الأشياء التي يمكن أن تدخل في باب التعلم . فكل شيء يمكن أن يتعلمه المرء في أي مكان وفي أي زمان يتميز بهذين الجانبين الأساسيين « أعني الشكل والمضمون . وإذا نحن نظرنا إلى التربية من حيث نوعياتها ، فأننا نجد أن هناك خمسة أنواع أساسية تنقسم التربية إليها . النوع الأول - يتعلق بصنع الأشياء ، وذلك باعطاء اللحافات صيغا أو أشكالا جديدة . والنوع الثاني - يتعلق باستخدام الأشياء بطرق معينة ووفق أساليب محددة . والنوع الثالث - خاص بالتأثير في علاقات معينة بين كائن حي ما وبين بيئته بقصد الحصول على نتائج معينة . ومن ذلك استنبات النبات وتربية الحيوان وتربية الانسان . والنوع الرابع - خاص باستبعاد بعض العناصر المؤثرة بقصد استبعاد النتائج المترتبة على وجودها واعتمادها . من ذلك اقتلاع الحشائش الضارة من حول بيئة النبات أو قتل الديدان التي تأكل أوراقه أو قتل الحيوانات المفترسة التي تهدد حياة الانسان . خامساً - إعداد المرء وفق شروط معينة يكون قابلا بعدها لاستقبال اللطامات التي يمكن أن يستشفيها من أشياء حوله أو التي يمكن أن توجه إليه من أشخاص آخرين أو من كائنات روحية مجردة .

وللنا نجد في جميع هذه الأنواع الخمسة الجانبين الأساسيين للتربية « أعني الشكل والمضمون . ونعود فنؤكد أن الشكل هو الظاهر البادى للعيان من الوسائل المستخدمة . أما المضمون فانه يتمثل فيما يترسب بالشخصية من عناصر أو مقومات تصير من لحم الشخصية وكيانها الأصيل . وبهنا

في هذا المقام أن نركز كلامنا على النوع الأخير من التربية ألا وهو النوع الالهامي .

والواقع أن الشكل في النوع الالهامي من أنواع التربية الخمسة يقف عند حدود إعداد الذات لتلقى الالهام أما المضمون في هذا النوع من التربية فإنه يتمثل في النتائج المترتبة على إعداد الذات لتلقى الالهامات . ونحن لانعتقد أن تلقى الالهامات يشكل نتيجة حتمية لإعداد الذات . ذلك أن تلقى الالهام لا يخضع لقانون العلة والمعلول كما هو الحال في تعلم قيادة السيارة مثلا . ففي هذا النوع الأخير من التعلم أو التدرّب ، فإننا نجد أن مجرد توافر الشروط العصبية في الجهاز العصبي للمرء عن طريق تكرار عمليات بعينها إنما يضمن إتقان القيادة . فن المعروف أن اكتساب المهارات المتباينة يفسر في ضوء اكتساب مواصفات عصبية معينة بالجهاز العصبي . بيد أن الفرق بين العلة والمعلول في المهارات — كهارة قيادة السيارة مثلا — وبين العلة والمعلول في الظواهر الطبيعية يلبو في الفرق بين الامكان وبين الحتم . فغليان الماء في درجة مائة مئوية تحت الضغط الجوي العادي (أى تحت ضغط ٧٦ سم من الزئبق) هو ظاهرة حتمية بمعنى أن وجود الماء معرضا للنار وفي ظل الضغط الجوي العادي يتم غليانه بغير تحلف في درجة مائة مئوية . أما قيادتك للسيارة بعد تعلمك لقيادتها فإنه يكون شيئا ممكنا وليس شيئا محتوما عليك . فليس مجرد جلوسك في سيارتك أمام عجلة القيادة وقد تعلمت فن القيادة يعني حتمية قيادتك لها . ولكن هذا يعني إمكان قيادتك لها فحسب .

ولعلنا نبدأ بمداولة الشكل في التربية الالهامية . إننا نجد أن هذا الشكل يتبدى أكثر ما يتبدى في القلعة على تجميع شتات النفس والتخلص من عوامل التشبث وإبعادها من حول المرء . ذلك أن من ألد أعداء القابلية لتلقى الالهامات الوقوع تحت تأثير عوامل التشبث . ونحن لا نقصد هنا عوامل تشبث الإدراك ، بل نقصد عوامل تشبث انسجام العقل والوجدان بدخيلة المرء . فثمة علاقات متباينة يمكن أن تقوم بين عقل المرء ووجدانه لقد يسيطر الوجدان على العقل . أو قد يسيطر العقل على الوجدان . ومن

جهة ثالثة قد يتواكب العقل والوجدان أو يتحدثان فى سياق واحد فلا :
 يكون بينهما تباين « بل ولا يكون أحدهما مسيطراً على الآخر أو مستبدّاً
 بحقوقه . وما يهمننا توافره هنا لكى يتسنى أن يكون المرء قابلاً لتلقى الالهامات
 أن يتمتع بهذه الحالة الأخيرة . فانسجام العقل والوجدان لا يتحقق بأى حال
 لشخص لا يحاول تحقيق الهدوء الداخلى لديه « وقد دُذب عن نفسه عوامل
 التشبث وفقدان الاستقرار والتوافق النفسى بين الفكر والوجدان .

ولسنا نشك فى أن مثل هذه المصالحة الداخلية بين العقل والوجدان
 لا يمكن أن تتأتى للمرء إلا إذا هو دأب على البعد عن عوامل الاقلاق
 وتشبث الذهن . ولعل من أعدى أعداء الانسجام الداخلى المخاوف والهموم
 والشكوك والوساوس والترقبات وجميع أنواع التعلق بالأشياء والأشخاص .
 وباختصار فإن من يريد إعداد نفسه لتلقى الالهامات لابد له أن يوفر لنفسه
 مناخاً داخلياً معيناً . ومن الطبيعى أن نعرفت بأن هناك تأثيراً ذا بال للبيئة
 الخارجية المحيطة بالمرء فى بيئته الداخلية . وأكثر من هذا فتمت تأثير بعيد
 المدى للخبرات السابقة التى اكتسبها المرء منذ نعومة أظفاره ، بل وأكثر
 من هذا فإن العوامل الوراثية لها أيضاً تأثيرها فى مسار الشخصية ، وفى مدى
 استعدادها لتهيئة نفسها لتلقى الالهامات .

ومن المؤسف أن إنسان الحضارة لا يكاد يعترف بأهمية التأمل فى حياته .
 فهو يجعل من نفسه مجرد جهاز استقبال لما يصل إليه من الخارج من مؤثرات .
 فما على المرء فى ظل الحضارة إلا أن يتأثر بما يدور حوله وبما يوجه إليه ،
 وأن يضطلع بما يطلب إليه أدائه . وبتعبير موجز فإن الإنسان الحديث
 لا يجعل من نفسه عاملاً مؤثراً بل يجعل منها قطباً متأثراً . والواقع أن
 الإنسان القديم الذى كان يتلقى الالهامات كان دائماً مواظباً على تأمل دحيته
 لقد كان يجعل الداخلى مسيطراً على الخارج ، بل إنه كان يستمد خبراته
 من الخارج لا لكى يخضع لها ، بل لكى يخضعها لإمرته « ولكى يستوعبها
 ويمتصها ويحيلها نسيجاً من نسيجه ولحمها من لحمه .

وعلى هذا نستطيع القول بأن التربية الالهامية من حيث الشكل الذي تتلبس به هي تربية وادعة هادئة تحرص على عدم إلحاق تغييرات بجوهر المرء والبعد به عن الزيف الحضارى . والواقع أن ما ابتليت به الشخصية الحضارية هو ما تتلبس به من صيغ وأشكال وما تضعه على وجهها من أقنعة . وليس غريبا أن تستمد كلمة شخصية في اللغات ذات الأصول اللاتينية مثل الإنجليزية « أعنى كلمة Personality من كلمة لاتينية هي Persona ومعناها القناع الذي كان يرتديه الممثلون على خشبة المسرح لتغيير شخصياتهم الحقيقية وإحلال شخصيات أخرى محلها . وهذا في الواقع شاهد على أن الشخصية الحضارية في حياتها اليومية وفي علاقاتها الاجتماعية إنما تنسم بالزيف والبعد عن إنية الشخصية وعن جوهرها .

ولعل التربية الالهامية أن تبدأ بخلع الأقنعة الزائفة عنها وأن ترجع إلى حقيقة وجودها وإلى جوهرها الحقيقي . ولكن هل هذا من السهولة بمكان ؟ الواقع أن لا . ذلك أن الحضارة تبدأ في تزييف شخصية المرء منذ نعومة أظفاره . فما أن يولد الطفل حتى يتسلمه المربون بدءا بالوالدين بالزيف وذلك بما يلقنونه من قيم تبعد به كثيرا أو قليلا عن الطبيعة الحقيقية للإنسانية . ولعل الكثير جدا مما يتلرج تحت الأعراف والتقاليد والأخلاق لا يعلم أن يكون بالتالى كرقعة في ثوب مبيانة لنسيجه الأصلي . من هنا فان التربية الالهامية تسعى جاهدة لتفتيق الشخصية من دجيلها بحيث لا يكون همها الأول والأخير هو صياغة الشخصية وفق مواصفات معينة مسبقة « بل يكون همها الأكبر والأول هو إحالة الكامن في مقوماتها إلى واقع سلوكي . صحيح أن هذه التربية لا تنكر للخبرات المكتسبة ، ولكنها تحذر من أن تصبح الخبرة المكتسبة بمثابة طوفان يغمر الشخصية ويغرقها في لجة بلا قرار . فاذا ما تحققت للشخصية ذاتيتها ، فإنها تكون بعدئذ مستعدة لاحتراز مضمون التربية الإلهامية ، أعنى أنها تكون مستعدة بعد ذلك لتلقى الإلهامات المتبانية .

التعليم يقذف بالتربية بعيداً :

ثم خلط في الواقع كثير في استخدام كلمتي تعميم وتربية . فلقد يظن البعض أن تعليمك لابنك هو تربية له في نفس الوقت . والواقع أن التعليم يشكل دائرة أو نطاقاً ، بينما تشكل التربية دائرة أو نطاقاً آخر . صحيح أن هاتين الدائرتين أو القطعتين قد يتداخلان أو حتى يتطابقان ، ولكنهما من الجهة الأخرى قد يتباعدان ويتأيان بعضهما عن بعض تمام التباعد والتناهي . ولكي تتضح الصورة أمامنا لابد أن نحدد مفهوم التعليم من جهة ومفهوم التربية من جهة أخرى . نقول إن التعليم يتعلق بالوقوف على ما يقع خارج المرء لمعرفته أو للترب عليه . وبهذا التعريف الموجز السريع نقول إن جميع العلوم والمعارف والمهارات تقع في مجال التعليم . فنقول إننا نعلم أبناءنا الكيمياء أو أننا ندرّبهم على تعلم مهارة الكتابة على الآلة الكاتبة . أما التربية فإنها تفتيق الشخصية من الداخل ، أو بتعبير آخر هي إحالة الممكن من المواهب والقدرات والاستعدادات إلى واقع ، أو هي إخراج أو تنمية بنور الشخصية بحيث تصل إلى أقصى حد ممكن أو متاح لها من النمو . وبتعبير أرسطو فإن التربية هي إحالة ما هو موجود بالقوة إلى ما هو موجود بالفعل . فكما أن البكرة تستحيل إلى شجرة عن طريق تربيتها بإحاطتها بالمؤثرات المناسبة ، كذا فإن تربية الشخصية في جوانبها المختلفة أعني الجانب الجسمي والجانب العقلي والجانب الوجداني والجانب التعبيري والجانب الاجتماعي — إنما تتحقق بإحاطة الشخصية بالمؤثرات المناسبة لكل جانب من هذه الجوانب الخمسة .

ولقد يعترض معترض على كلامنا هذا بأن تعلم الموسيقى مثلاً — والموسيقى من الجوانب الثقافية الموضوعية — إنما هو تربية للوجدان في نفس الوقت . ومعنى هذا أن تعلم الموسيقى هو تربية وجدانية في نفس الوقت . والواقع غير هذا . ذلك أنك ربما تعلم بعض الناس الموسيقى ولكنك لا تكون بذلك قد ربيت فيهم الناحية الفنية الوجدانية . وقد تعلم بعض الناشئة الحساب والجبر وباقي العلوم الرياضية ولكنك مع ذلك لا تكون قد ربيتهم

تربية ذهنية منطقية . ولقد تعتمد إلى تدريس الأدب بفروعه المتباينة للتلاميذ والطلاب ولكنك لا تكون بذلك قد أعددت منهم شخصيات مؤيدة ومصقولة أدبيا . وكذا قد يعلم الطلاب الكثير من العلوم الطبيعية ، ولكنك مع ذلك تكون قد افتقدت تربيتهم تربية واقعية تجريبية .

ومعنى هذا أن تعليم العلم للناس ■ أو لتربيتهم على المهارات المتباينة لا يضمن بأي حال تربيتهم أو تفتيق مواهبهم وجلو الخبيء أو المظمور في أغوار شخصياتهم من استعدادات مستخفية .

. ومعنى هذا في الواقع أن تعلم العلوم والتدرب على المهارات قد يصل بالمرء إلى تفتيق مواهبه وإبرازها من حيز الكمون إلى حيز الواقع ، وقد لا يصل به إلى ذلك . وأكثر من هذا فإن التعليم بهذا المعنى الذي سقناه أو تعلم العلوم والتدرب على الفنون العملية قد يعزف بالمرء وينبوه عن تفتيق ما بدخلته من استعدادات . فكم من شخص لديه استعدادات ومواهب أدبية فذة ولكن التعليم ووسائله المدرسية قد أعاقته عن اكتشاف مواهبه المظمورة ، وقد أعماه عما يعتمل بداخله من عبقرية . ويحضرنا هنا ما حدث للعالم أينشتين الذي لم يبد عبقرية ملحوظة في سنى حياته الأولى . فهو لم يبدأ في الكلام إلى أن بلغ الثالثة من عمره . وفي المدرسة الثانوية وجد صعوبة شديدة في التواؤم مع التعليم الذي كان يعتمد على الاستظهار والتدريبات الحسابية وقد كان يتخذ موقفاً ثائراً مما جعل واحداً من مدرسيه ينلره بأنه فاشل في دراسته لا محالة وأن مستقبله سيكون وخيماً وعنلما قرر بعد فترة أن يسجل اسمه بالمعهد الفدرالى السويسرى الشهير بزيورخ ، فانه رسب في امتحان القبول بسبب ضعفه في علم النبات وعلم الحيوان ، وبسبب ضعفه أيضاً في اللغات الأجنبية .

ولدينا في الواقع قصص عديدة تشير إلى أن التعليم بمعنى تثقيف أو تشريب الخبرات الموضوعية للناشئ لا يضمن بالضرورة تربيته وإحالة الكامن لديه من مواهب إلى واقع حي في حياته . وهذا أكبر

شاهد على ما نزرعه هنا من أن التعليم مباين ماما للتربية وإن كان التعليم والتربية يتداخلان أحيانا ويتطابقان أحيانا أخرى . ولقد نخلص إلى ثلاث حالات بازاء هذه النقطة . الحالة الأولى — أن التعليم والتربية يمكن أن يتطابقا تمام التطابق . وفي هذه الحالة فإن تعليمك لطفلك يكون في نفس الوقت تربية له . أما الحالة الثانية « فهي أن جانباً من التعليم يكون في نفس الوقت داخلاً في نطاق التربية . أما الحالة الثالثة فإنها انفصال الدائرتين بعضهما عن بعض وعدم تداخلهما بعضهما في بعض . وهذه الحالة تشير إلى عدم حدوث أى تفاعل بين ما يتم تعليمه للمرء وبين ما يوجد بدخلته من استعدادات ومواهب وإمكانات لم يقبض لها التحقق في الواقع الخارجي .

ونستطيع أن نزرع في الواقع أن الحضارة الإنسانية بتعداداتها قد أشاحت تماماً أو تقريباً عن التربية وقد ركزت على التعليم أو كادت . فالأطفال في سن معينة يساقون زرافات سوقاً لكي يتم تصنيعهم فيما يسمى بالمدارس ودور التعليم وفق مواصفات معينة . ولعل تلك المواصفات تتجلى في المناهج الدراسية التي ترمم في ضوء مفاهيم عامة عن الخصائص الهادية للبيان لتلك السن . ولكن من المؤكد أن تلك المواصفات العامة لا تشير من قريب أو من بعيد إلى الخصائص الفردية التي يتسم بها فرد بعينه ولا يتسم بها أى فرد آخر من أفراد المجموعة . فاهيك عن الوسائل التي يمكن أن تصلح في التعامل مع واحد من الأطفال بينما لا تصلح لغيره . وبعبارة أخرى فإن المدارس والمعاهد والكلية تخاطب مجموعات المتعلمين ولا تخاطب أفراد المتعلمين . وأكثر من هذا فإنها تضع نصب عينيها الأشياء الموضوعية التي تسعى لتعليمها لأولئك الناشئة بغض النظر عن الميول والرغبات . فالنظرة الأحادية أو التطابقية هي السائدة بحيث إن من لا يتطابق من الدارسين مع ما يقدم إليهم — أعني المنهج — ورسب في امتحان آخر العام ، فإنه يعتبر إذن شخصاً متخلفاً لا يستحق التقدير .

وواضح أن التعليم لا يعترف بأى حال بما يسمى بالإلهام . وحتى إذا ما ألهم أحد الطلبة بشيء جديد فإن الجديد الذى يقلمه يعتبر بمثابة هرطقة أو بدعة يجدر محاربتها حيث لا يكون هناك مكان لها فى المقرر المعترف به من المسئولين . وهكذا نجد أن التعليم يحارب الإلهام ويقف له بالمرصاد حتى لا يبدؤ فى حياة الناشئة . فما هو مقرر يدرس . ولعل السؤال الذى يلور على ألسنة الأساتذة باستمرار حتى فى الجامعات هو : من أين أتيت بهذه المعلومات ؟ ذلك أن المطلوب من الطالب أن يعتاد الاستناد إلى مرجع موثوق به . فما يقوله الكبار جداً من العلماء هو الموثوق به . أما الصغار فإن مجرد اجترائهم على الخروج على المؤلف أو المعترف به يعد خطيئة لا تغتفر . ولعلنا نذكر بقصة جاليليو الذى ذاق الأمرين عندما خرج على تعاليم أرسطو بخصوص الجاذبية الأرضية . فلقد كان أرسطو يقول إن الجسم الأكبر وزناً يصل إلى الأرض قبل الجسم الأقل وزناً إذا ما ألقى بهما فى وقت واحد من ارتفاع ما . فلما تحدى جاليليو هذه النظرية وأسقط جسمين متباينى الوزن من فوق برج بيزا ، ووصلا إلى الأرض فى وقت واحد ، فإن العلماء الذين وقفوا لتسفيه فكرته لم يصلحوا أعينهم وصلحوا ما ورد بكتب أرسطو .

ولعل جان جاك روسو قد أحس بما نحس نحن به هنا ، فأراد أن يعود الإنسان إلى أمه الطبيعة يستلهمها لأنها الخليقة وحدها بالترجمة عما فى نفسه من مواهب مطمورة . وقد زعم بحق أن الحضارة والمؤسسات التعليمية ليست حقيقة بهذه المهمة . فالتعليم السائد بالمدارس والجامعات لا يضمن تربية المرء . وكل ما يمكن أن تفعله تلك المدارس والجامعات بوضعها الراهن هو تزييف شخصيات الناشئة والبعدهم عما يمكن أن يجالجه من إلهامات . ولقد سبق أن غبطنا الأولين الذين كان لهم حظ التأمل واكتشاف ذواتهم وتربيتها بغير ضغوط ثقافية وحضارية تعمل حالياً على مسخ الشخصيات والعزوف بها عما جعلت له ، وعما سجلت عليه من إمكانيات واستعدادات .

وبتعبير آخر فإن الحضارة الإنسانية بوسائلها التعلّيمية — ولا نقول وسائلها الربوية — قد حرمت المرء من الحرية في اختيار الخبرات التي تغذيه . وكيف يتسنى ذلك وقد تعقدت الحضارة وصار الإنسان الحليث غريبا على هذه الأرض ، بل وقد صار غريبا حتى عن نفسه ؟ أليس الاستمساك بالموضوعات الخارجية دون المقومات الذاتية أكبر دليل على ما يعانيه الإنسان الحليث من اغتراب ؟ إنه لا يستطيع تنوّق ما يقدم إليه لأنه لا يتجانس مع ما جبل عليه ، كما أنه أجبر على الابتعاد بل والاستنكار لذاتيته ولما يعمل بداخله ، فصار خصما للخارج والداخل جميعاً ، وصار غريبا عن خارجه وعن داخله في نفس الوقت . ومخلوق هذا شأنه يكون بالتأكيد شقيا بائسا . ومن المؤكد أنه يكون كمن عصبت عيناه حتى لا يرى الحقيقة التي تبدى أول ما تبدى في ذاته . ومتى جهل الإنسان ذاته ، فإنه لا يستطيع أن ينمّيها وينضجها بالالهامات التي تغذى ما أعد له بداءة بالفطرة .

القسر الربوي :

قمنا في الموضوع السابق بالتمييز بين التعليم والتربية . وقد أقمنا الفاصل بينهما على أساس أن التعليم يركز الاهتمام على الموضوعات الخارجية سواء كانت أشياء يتم إدراكها وفهمها أم كانت مهارات يتم التدرّب عليها وممارستها بطريقة شبه آلية . أما التربية فإنها تهتم بجانب أو أكثر من الجوانب الداخلية بالشخصية . فنحن نصف اكتساب المهارات الموسيقية بأنه تعليم . ذلك أن للموسيقى قواعدها الموضوعية والعامة التي يجب على كل من يرغب في استيعاب مهاراتها أن يكتسبها بالخضوع لمقرراتها . أما التنوّق الفني فإنه يعمل بدخيلة الشخصية ، ولا يهم إذا كان الموضوع الذي يستعان به لاكتساب التنوّق الفني الجمالي موسيقى أو رسما أو نحتا أو حتى مجرد تأمل الطبيعة والتناغم معها واستشفاف ألحانها المرئية الصامتة أو ألحانها المسموعة في شقشقة العصفير

أو صغير الرياح أو هدير الأمواج أو مواء القطط أو غير ذلك من أنعام .

ولقد سبق أن ذكرنا أيضاً أن التربية في أول نشأتها كانت مرتبطة بحاجات الإنسان الحقيقية ، وأنها بدأت من دخيلة المرء وكانت سدا لحاجاته الحقيقية . ولكن ما أن تعقدت الحضارة وتشعبت حتى ظهرت مطالب وخصائص جديدة مستحدثة يراد تحقيقها بالشخصيات الناشئة . وحيث إن الحضارة في انحرافها وبعدها عن الطبيعة الإنسانية « وقد استحالت إلى إطار بيئي غريب يحجر بني الانسان على الانخراط فيه ، وقد صارت بمثابة كائن حي عجيب يفسر الانسان على الانسجام مع متطلباته ، فان التربية التي تريدها الحضارة — أو ذلك الكائن الغريب القاسي — صارت بلورها تربية شاذة ومضطربة ، بل وصارت مفارقة وبعيدة كل البعد عن مطالب وحاجات الطبيعة الإنسانية .

وهذا مانسميه بالقسر التربوي . فالمجتمع الانساني الحضارى لا يكتفى بتشريب وتعليم الأجيال الجديدة المعارف والعلوم والمهارات الموضوعية بل إنه يعتمد إلى صياغة شخصيات الناشئة وفق مواصفات محددة . ولكأن المنشآت التربوية قد صارت مصانع تصنع بها الشخصيات ، ولكأن الطفل بمثابة خامة يراد تصنيعها « بل — استغفر الله — يراد مسخ ما جبلت عليه وتغيير خصائصها الحقيقية وكسبها لخصائص جديدة مبادنة تماماً لما جبلت عليه « ولعل المعركة الناشئة والمحتملة حالياً بين فلاسفة التربية هي معركة بين فريقين متنافرين : فريق منها يطالب بضرورة صياغة الناشئة صياغة جلدية وفق المطالب الاجتماعية التي يريدها المجتمع « وفريق آخر ينادى بالتخفيف من غلواء المجتمع ، وذلك باعطاء فرصة كافية لكل يعبر كل فرد عما جبل عليه . وبتعبير آخر فان الفريق الأول هو فريق الكليانيين أو الجمعيين « والفريق الثاني هو فريق الفردين . ولعل الدكاتورية هي المنافع عن الكليانية أو الجمعية في التربية والسياسة جميعاً ، ولعل

الديموقراطية هي المنافع عن الفردية والتعبير الفردى فى التربية والسياسة أيضاً . ولكن الواقع أن أشد الديمقراطيين 'ديموقراطية' يتقهقرون ببطء أو بسرعة أمام التقدم المذهل للحضارة بما تتلرع به من تكنولوجيا وفنون فى صياغة الأفراد والمجموعات الصغيرة والكبيرة . ولا شك أن أشد وطأة وقعت تحتها المجتمعات البشرية المتحضرة هي وطأة آلات الكومبيوتر التى بدأت بواورها فى الزحف إلى المجالات الانسانية . فوسائل التعليم الحديثة التى تعتمد على التأثير المباشر فى عقل الفرد قد أخذت فى إبعاد الفردية والفروق الفردية بين الأفراد مع ضربهم جميعاً أو ختمهم بخاتم واحد غير متغير . والخوف كل الخوف أن تتمكن الحضارة من التغلب على مشكلة الارثاات بحيث يكون فى وسع المسكين بزمam السلطة تحديد الخصائص المطلوب توافرها فى الناشئة وتحقيقها لا عن طريق الاقتناع والاستمالة ، بل عن طريق التحكم فى المقومات الليولوجية وقهر العقبات الإرثية التى ظلت الانسانية خاضعة لها منذ أن وجد الانسان وأحس بوجوده على الأرض ، شأنه فى ذلك شأن باقى الكائنات الحية الأخرى الحيوانية والنباتية .

يبد أن من الجلى أن الحضارة كلما أوغلت فى التقدم فإنها تنجح بالتالى فى تغيير طبيعة الأشياء . ولعلنا نستطيع تقسيم تاريخ الحضارة الانسانية إلى مرحلتين أساسيتين : المرحلة الأولى - كان يعمد خلالها الناس إلى محاولة تكييف أنفسهم وتكييف الكائنات الحية الحيوانية والنباتية للظروف البيئية المحيطة . أما المرحلة الثانية - وهى المرحلة التى بدأت حديثاً - فإنها تتسم بمحاولات دائبة لتغيير الطبيعة ذاتها . ويتبدى هذا أكثر مايتبدى فى المحاولات الحديثة لقهر الإرثاات وإدخال إرثاات جديدة لم تكن موجودة من قبل فى تكوين الجنين ، أو حتى لدى الطفل بعد ميلاده .

ولقد يصح لنا إن نقول إن التربية والطب فى سبيلهما إلى التعانق أو قل إلى الاتحاد فيما يتعلق بتصحيح مسار الكائنات الحية وعلى رأسها

الانسان . ولعلنا لا نغالى إذا قلنا ان عرش التربية سوف يهتز لكى يحل محله عرش الطب . فبدل أن تفسر التربية الطفل على أن يسير وفق نموذج سلوكى معد له من قبل ، فان الطب سوف يتكفل بذلك . فما يتحدد من خصائص فى الشخصية سوف يتم تحقيقه فى البنية الإنسانية عن طريق التغيرات الجوهرية فى البنية البيولوجية للإنسان . ولكن مما لا شك فيه أن المربين سوف يضطلعون بتحديد المواصفات التى يراد لها أن تتحقق فى الشخصية الإنسانية .

والواقع أنه مهما افنت الحضارة فى التغير والتعديل والقسر والضغط على شخصيات الناشئة ، ومهما تبدى لها ما تقن فيه وكأنه تقدم نحو تحسين وتطوير الشخصية الإنسانية ، فما لا شك فيه أن الحضارة بكل ثقلها تعتمد فى نهاية المطاف إلى مسخ الشخصية الإنسانية ، بل وتعمل على حرمان الشخصية الإنسانية من مقومات أساسية كانت تتمتع بها إلى ما قبل الطغيان الحضارى الذى عمل عن غير قصد على إفساد الطبيعة ومسح مكوناتها وكتائنها . ولا شك أن تغير بنية الشخصية وما يتصف به الإنسان من قدرة على الخلق والإلهام قد حرم الإنسانية من مواهب قيادية كانت تجعل من الإنسان الفرد قائداً لحياته وموجهاً أساسياً لسلوكه . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن الإنسان فى الفترات الأولى من بواكير الحضارة كان يأخذ فى يده زمام المبادرة . فصناع الحضارة أو قل أولئك الذين أرسوا لبناتها الأولى كانوا شخصيات ملهمة . أما وأن الحضارة قد استقلت بعد ذلك بكيانها ، وقد أخذت تلف الناشئة فى لفائفها وتطويعهم طياً بين أجنحتها ، فإنها قد جعلت الناس بذلك منقادين لما سبق ترسيخه وتحديد ملامحه .

فالفسر التربوى قد عمل إذن على ضياع الجوهر والإمساك بالمظهر . والجوهر هو المواهب الروحية التى كانت تخضع الواقع حول الإنسان لها . أما المظهر فهو تلك النتائج الحضارية التى يعكف الناشئة على استيعابها . فشتان ما بين عشاق الطبيعة الأولين الذين كانوا يفكرون تفكيراً علمياً

مشوبا بالعاطفة والهيام بالطبيعة « وبين الآخرين في زماننا الذين تم لهم استعباد أهمهم الأرض فصاروا يلحون في استذلالها والاتبان على إمكاناتها ومحاولة قهرها بصفة دائبة . فالعالم الحديث لا ينظر إلى الموضوعات التي يتناولها بنظرة الراهب في صومعته « بل بنظرة الجندي في معركته أو بنظرة القناص في الغابة . فبينما يستلهم الراهب المعاني المتبينة بالتأمل ، فإن العالم الحديث يقتنص الأشياء اقتناصا ويستولى على الموجودات يعمل فيها أدواته وآلاته حتى ولو أدى هذا إلى الهلاك والدمار .

ولقد نقول إن الذين بنوا الحضارة وأرسوا دعائمها الأولى كانوا ينهجون بمنهج الفن مع الطبيعة . فالفنان يعشق الطبيعة ويعبدها بقلبه وعقله وبجميع طاقاته الوجدانية ثم يستلهمها ويقدم فنه وكأنه ظل للحقيقة التي استشفها ونقل عنها . ولكن بعد أن صار للعلوم قوانينها الوضعية وقد استقلت عن التفكير الصوفي الفلسفي الذي هو في الواقع المنهج الفني والأدبي ، فإن حرارة الوجدان قد انطفأت ولم يبق في يد العالم سوى جفاف العقل وتصلب المنطق وخشونة التجريب . وكيف باقعه يستطيع المحرب أن يشم رائحة الجمال في معمله ، أو أن يفعل ذلك عالم الفيزياء في أرقامه أو عالم الكيمياء في معادلاته ؟ وكيف يستطيع أن يعثر مفكر اليوم على نبضات قلبه ، وقد صار محكوما بقوانين علمية وقوالب ذهنية لا يريم عنها ؟ لقد فقد الإنسان حرية بعد أن فقد صدر أمه الطبيعة ، وبعد أن خضع لجنى جديد هو ما يسمى بالتكنولوجيا .

وليس يخاف أن التكنولوجيا صارت ترحف على الوسائل التربوية في البيت والمدرسة على السواء . فما يطلق عليه اسم الوسائل التعليمية أو وسائل الإيضاح ، لم تعد ترتبط باسمها بل صارت تستولى على العمليات التربوية كلها « أو قل إنها صارت وسائل ومضامين في نفس الوقت . فالشعار الذي أعلنته التربية حديثا هو تربية القدرة على استخدام الوسائل لا الحصول على المضمون المعرفي أو الخبري . فالناشيء الذي تحسن تربيته

ليس الشخص الذى يعرف ، بل هو الشخص الذى يعرف كيف يعرف .
ولكن المهارات قد حلت فى التربية المعاصرة محل ما كان يسميه الأقدمون
بالحكمة . وهل ثمة ما يدعو للحصول على الحكمة أو الفهم وبين أيدينا بنوك
للمعلومات من جهة ، وكومبيوتر نسأله عن أعوص المسائل فيقدم إلينا
الحلول الناجمة من جهة أخرى ؟ وهكذا فقلبت التربية مغزاها الحقيقي
واستمسكت بالقشور الفارغة .

الضغوط الثقافية خارج المدرسة :

تعتمد الحضارة إلى ملاحقة أبنائها والضغط عليهم والتأثير فيهم واستمرار
العمل على تشكيلهم وإعادة تشكيلهم باستمرار ، وذلك حتى تضمن تكيفهم
إلى أكبر درجة ممكنة لمقتضياتها ومتطلباتها ، وحتى تضمن قدرتهم على سد
مطالبها وإشباع حاجاتها . وإذا كانت الحضارة تفعل ذلك عن طريق دور
التربية المحددة التى تتمثل فى دور الحضانة والمدارس والجامعات ، فإنها
تفعل نفس الشيء مع الكبار ، ولكن بغير أن يكون هناك إعلان بنية التأثير
أو الضغط أو التشكيل والتكييف . فالواقع أن للمجتمع البشرى وسائل
تأثيرية سياقية غير مباشرة إلى جانب إحرازه الوسائل التأثيرية المتعينة المباشرة .
فاذا كنا نقول إن المناهج الدراسية بالمدرسة مثلاً هى بمثابة صيغة محددة
للتأثير المباشر وشبه المباشر فى شخصيات التلاميذ ، فاننا نجد أن العلاقات
الأسرية ، والحياة العامة فى الشارع والسينما ووسائل المواصلات ، وأيضاً
علاقات العمل والترويح ووسائل الإعلام وغيرها ، إنما تشكل صيغاً غير
مباشرة فى تشكيل وإعادة تشكيل شخصيات أبناء المجتمع الواحد . ولسنا
نزعم أن هذا النوع من التأثير والتشكيل غير المباشرين أضعف أو أقل
دواماً من النوع الأول من التأثير والتشكيل ، بل إننا نزعم أن هذا النوع
غير المباشر من التأثير والتشكيل يمتاز بالاستمرارية والفاعلية ، بل وبالتلقائية
أيضاً . ومن هنا فإنه يفضل النوع الأول من حيث بعد المدى والنجوع .

والواقع أن المجتمعات البشرية قد عرفت الضغوط الثقافية التلقائية منذ
أن بزغت على هذه البسيطة . ولقد يزعم البعض أن تلك الضغوط كانت

أفعل وأشمل بالمجتمعات البدائية عنها في المجتمعات المتحضرة ، فيقال مثلا إن البدائيين كانوا يسلكون سلوكا قضياعيا كما تفعل قطعان الماشية ، وأن الانسان كلما تحضر فإنه يصير أكثر إحساسا بفرديته ، ومن ثم فإنه يفصل عن مجتمعه أو يجد نفسه في حالة من الضدية مع مجتمعه . ونحن في الواقع نخالف عن هذا الرأي ونعتقد أن إنسان القبيلة البدائية وإن سلك سلوكا كليا قضياعيا في بعض المواقف الجماعية كشن الغارات أو إقامة الاحتفالات حيث الرقص الجماعي ، فإنه كان في غير تلك المواقف أكثر فردية من الانسان الحديث المتحضر . ذلك أن ما كان يسعى الأناسي البدائيون إلى استحداثه من سلوك إنما كان السلوك الظاهري البادي للعيان ، بينما يسعى إنسان الحضارة إلى الغوص إلى أعماق الشخصية بالتأثير فيها والاستيلاء على زمامها من الداخل .

ولقد يقال بحق إن إنسان ما قبل الحضارة كان حراً في عقله ووجدانه وفي كثير جداً من مجالات العمل والتصرف والسلوك الظاهري ، بينما صار إنسان الحضارة ملجم الفكر والوجدان ومحدود القدرة على الاتيان بما يرى الاتيان به من سلوك ظاهري : ذلك أن المحرمات تزايد وتراكم ولا يجب بعضها بعضا ، بل تنضاف بعضها إلى بعض جيلا بعد جيل . وحتى عندما ترفع شعارات الدعوات إلى التحرر من بعض شكائهم المحرمات والفكاك من أغلالها ، فإن تلك الدعوات قلما تجدد من يستجيب لها . وحتى إذا هي وجدت المناصرين لها ، فإن نصرتهم لا تتعدى الظاهر من السلوك ولا تصل إلى بواطن الشخصية الإنسانية . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أكثر الناس تحللا وتحررا من القيود أو انحلالا وخروجاً على القيم الاجتماعية ، لا يكونون من حيث واقعهم النفسي أحرارا ، بل يكونون مكبلين بالقيود والأرساف نتيجة ما خضعوا له منذ طفولتهم البكرة من ضغوط اجتماعية وأخلاقية .

ونستطيع أن نقرر بغير مبالغة أن هناك تناسباً عكسياً بين التحرر الظاهري في السلوك الخارجي وبين التحرر الداخلي في الفكر والوجدان .

فنفص الحرية الخارجية لدى البدائيين كان متواكباً في نفس الوقت مع إحساس الإنسان البدائي بالحرية الداخلية . وعلى العكس من ذلك بالنسبة للإنسان الحضارى . فبينما نجد أن حظه من الحرية الخارجية البادية للعيان كبير ، فإن حظه من الحرية الداخلية المتعلقة بالفكر والوجدان قليل . وبتعبير آخر نقول إن الفردية الظاهرية التى تبدو فى سلوك إنسان المجتمع المتحضر غالباً تخفى تحتها نزعة أحادية بعيدة المدى تخفى عن الأعين . فإنسان الحضارة ملجئ من الداخل وقد استطاع المجتمع بامكانياته التأثيرية ولوج مخادع الشخصية كما استطاع سبر أغوارها وإمطة اللثام عن مسارح نشاطها الداخلى ، فأخذ يعرض مسرحياته على تلك المسارح الداخلية وقد أولاهما الاهتمام الأكبر . ذلك أنك إذا ما أمسكت بمقود الشخصية الداخلى ، فإنه لا تكون بك حاجة إذن إلى أن تلجأ إلى الالجام الخارجى . فن الواضح أن الفكر والوجدان هما المفتاحان الوحيدان لمغالق الشخصية . فإذا أنت سيطرت على هذين المفتاحين وامتلكتهما فى حوزتك ، فلا تكون إذن بك حاجة إلى اللجوء إلى القيود الخارجية تفرضها على تلك الشخصية .

ولعل أن من أكثر الأشياء لفتاً للانتباه لمن يتأمل ما تفعله الحضارة بأبنائها ، ما تتلرع به من براءة ودهاء فيما تنحو إليه من وسائل للتأثير . فهى لا تتلرع بالعنف أو القسر الظاهرى ، بل هى تتلرع بالاسمالة والرغيب بحيث يتقبل المتأثرون ما يوحى به المجتمع من اتجاهات تريدها . فحضارتنا الحديثة لا تفرض نفسها فرضاً ولا تقبل على المرء إقبالا مباشراً ، بل إنها تتخذ من الجذب فاسفة لها ولا تكاد تستعين بالدفع من الخارج . إنها تجعل من نفسها ما يشبه المغناطيس الذى يظل فى مكانه بينما هو يجذب إليه الدبابيس المبعثرة حوله . فالحضارة تلتمس الرغيب والرهيب فى أغلب الحالات حتى تتحكم فى عقول وقلوب الناس ، وهى تعرف جيداً أن القسر الخارجى للظاهر من السلوك لم يعد ملائماً لأبناء الأجيال الحديثة كما كان الحال بالنسبة لأبناء الأجيال البدائية فى المجتمعات القديمة الفجة التى لم تكن قد تذرعت ولا حتى عرفت المعانى والمقاصد التى تعرفها الحضارة الحديثة وتعيها جيداً

وتعمل لها الحساب كل الحساب في تعاملها مع الناشئة والكبار على السواء
بالمجتمعات المتحضرة الحديثة .

والواقع أن ظهور علم النفس مع تطور الحضارة ، والبحث في الدوافع
والبواعث والغرائز والميول والاتجاهات والانفعالات والقيم وغيرها لدى
القرود والمجتمع على السواء مع التقدم الحضارى ، هو الدليل القاطع على أن
الحضارة الإنسانية قد نأت عن وسائل التأثير الخارجى المباشرة ، وأخذت
نفسها بوسائل التأثير غير المباشرة : وحتى بالنسبة لما يبدو وكأنه تأثير مباشر
وخارج صلب الشخصية ، فانك إذا تناولته بالفحص والدراسة ،
ستجده في نهاية المطاف متلبساً بمقومات التأثير الداخلى . ولعلنا نقول إن
التأثير بالحب والكراهية ، أو بالترغيب والترهيب وبما توصل إليه علم النفس
من فنون تتعلق بالإمساك بمقود الشخصية الفردية والشخصية الجماعية بشكل
النعمة السائدة العامة والمسيطرة في قوام الحضارة الحديثة . ولعلنا نقول
أيضاً إن الحرب الباردة ووسائل الجذب المتباينة هما الوسيلتان الأساسيتان
اللتان تتلوع بهما الحضارة في السيطرة والتسييس بإزاء الأفراد والجماعات
الواقعين في نطاق المجتمع الواحد .

وليس من شك في أن وسائل الإعلام الحديثة وعلى رأسها التلفزيون
تلعب هذا الدور الترغيبى الترهيبى في عقول أبناء المجتمع الحديث . بيد أن
من الواجب أن نقرر أن للإذاعات المتباينة التى تستطيع أن تصل إلى المرء
في أبعد بقعة من بقاع العالم وهو في مخدعه التأثير الأكبر والأوسع نطاقاً من
تأثير التلفزيون ولو مؤقتاً إلى أن يقيض لهذا الأخير حظ الانتشار العالمى .
فبعد أن يلتصق للأقمار الصناعية النقل المستمر والمواظب واليومي للأحداث
على شاشات التلفزيون على مستوى العالم بأسره ، وعندما تمتد ساعات
الإرسال التلفزيونية لكى تغطى طوال ساعات النهار ومعظم ساعات اليوم ،
فإنه يكون بذلك قد انتصر على الإذاعة انتصاراً حاسماً في داخل البلاد
وخارجها . وعلى أية حال فإننا نستطيع أن نقرر أن التلفزيون يؤثر على

المستوى الداخلى أكثر من تأثيره على المستوى الخارجى ، وعلى العكس فإن الإذاعة تؤثر على المستوى الخارجى اللولى أكثر من تأثيرها على المستوى الداخلى القوى . ونستطيع القول بوجه عام أن تأثير التليفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والكتب أبعد أثرا فى حياة الانسان الحديث الذى كبل فعلا تكيلا نفسيا وصار مشلوقا ومقيلا بالقوالب والصيغ التى تفرضها تلك الوسائل الإعلامية التى تحدد نوعية الفكر والشعور وما ينتهجه المرء فى حياته من أساليب سلوكية . فالحضارة الحديثة تهتم بالكليات لا بالجزئيات . بل هى تهتم بالمبادئ والأصول ولا تلتقى كثير بال إلى الفرعيات والتفاصيل. وعلما تعتقد أن تفاصيل السلوك الخارجى ليست من الأهمية بمكان ، بل هى تهتم بالدرجة الأولى بديناميات السلوك التى تتمثل فيما يفكر فيه المرء وينحو إليه وجدانياً وما يحدد ملامح سلوكه بدءا بلخيلىته . بيد أن إنسان الحضارة يشعشع تقل الوطأة التى ينوء تحها بسبب ما يثقل المجتمع به عليه . ولقد لا نغالى إذا ما قررنا أن انتشار الجرائم الفردية والجماعية فى أرقى المجتمعات الحديثة هو الترجمة الأمانة للملك الاحتجاج الذى يوجهه الإنسان الحديث ضد الحضارة .

الفصل الثامن

الالهام فى حياة العباقرة

فى **الفصل** :

لعلنا لا نخطئ إذا ما قلنا باستشفاف ما انطوت عليه حياة واحد من الفلاسفة المبرزين أو قل حياة أبى الفلسفة الحديثة ، أعنى ديكارت ، فنعرض لما حظى به من إلهام أسماء « بنور الفطرة » وهو نفس ما نعينه نحن لدى استخدامنا للفظ إلهام . لقد أكد ديكارت أن حب الاستطلاع عند بعض الناس قد يسوقهم أحيانا إلى الوقوع فى مأزق لا نخرج منها . فكل ذلك شأن من ينكبون على الدرس من غير نظام « لن تكون ثمرة جهودهم ومتاعبهم إلا أن يفشلوا » نور الفطرة « وإلا أن يصابوا بعمى البصيرة . ذلك أن الدراسات التى تسير من غير ترتيب ونظام وأن التأملات الغامضة والخواطر المبهمة تحجب أنوار الفطرة وتطمس عيون الذهن . ومن اعتاد أن يسير هكذا فى الظلام ضعف بصره ضعفا يصبح من الصبر عليه أن يتحمل الضوء الساطع . وهذا هو ما تؤيده التجربة أيضا ، إذ نرى فى أغلب الأحيان أن من لم يشتغلوا بالدراسات قط يحكمون على ما يعرض لهم أحكاما أصوب وأمتن وأوضح بكثير من أحكام الذين أكثروا التردد على معاهد التعليم »

ويعتقد ديكارت أن المعرفة الحقيقية بالاعتبار والتعويل ليست تلك المعرفة المستمدة أو المرتككة على آراء السلطات ، وليست هى الأفكار المشهورة ، بل هى المعرفة التى تتأتى لنا عن طريقين هما الحس والاستنباط . والواقع أن من يتأمل كلام ديكارت عن الحس لا يجد مختلفا اختلافا بعيد المدى عما نعينه نحن لدى استخدامنا للفظ « إلهام » . فالحس عند ديكارت —

كما يقول الدكتور عثمان أمين (١) - هو الرؤية العقلية المباشرة التي يدرك بها الذهن بعض الحقائق التي تدعن لها النفس وتوقن بها يقينا لا سبيل إلى دفعه . فالحدس نظرة عقلية بلغت من الوضوح والتميز أن زال معها كل شك . وذلك الفعل عقلي ، كما قلنا : فهو لا يتعلق بالحواس ولا بالخيال ، وإنما يختص بالذهن ، بل الذهن الخالص الصافي . ويقول ديكارت « أقصد بالحدس ، لا شهادة الحواس - وهي متغيرة - ولا الحكم الخداع حكم الخيال ، وإنما أقصد به الفكرة المتينة التي تقوم في ذهن خالض متنبه ، وتصدر عن نور العقل وحده » (قواعد لهداية العقل قاعدة ٣) . فالحدس عند ديكارت عمل عقلي يدرك به الذهن فكرة ما ، من صور أو حكم أو استدلال « بفهمها تماما في زمن واحد ، لا على التعاقب » . ويقابل ديكارت بين الحدس وبين الاستنباط الذي لا يتم بهما في زمان واحد . ولكنه يقتضي حركة من حركات الذهن ، إذ يستتج من شيء شيئا آخر » (قواعد لهداية العقل القاعدة رقم ١١)

فالحقيقة إنما نعرفها بنوع من الغريزة العقلية التي نجدها فينا « من حيث أننا ناس » . هذه الغريزة العقلية « النور الفطري » أو « الحدس العقلي » . يقول ديكارت « الحقيقة فكرة بلغت من الوضوح الفائق مبلغا جعل من المحال أن ننفلها . . . ولكن لا استطاع لإيراد تعريف منطقي يعين على بيان كنهها . وأحسب أن ذلك هو حال أشياء أخرى هي شديدة البساطة ونعرفها دون تكلف » .

والواقع أن ديكارت كان يحيا فلسفته ، أو قل إن فلسفته لا تعدو أن تكون تعبيراً عن خبرته الذاتية . وشاهد ذلك أنه في خلال سنة ١٦١٩-١٦٢٠ حين كان يبلده « نويبرج » على نهر الدانوب ، حدثت له أزمة عقلية فحسب نفسه « وعكف على التأمل وإمعان الفكر في خواطر أدت به إلى نظريته

(١) ديكارت - تأليف دكتور عثمان أمين - مكتبة الحلبي - القاهرة .

العامّة في المنهج للبحث عن العلوم. ويقول الفيلسوف في ذلك « كنت حيثند في ألمانيا عندما استدعيت الحروب التي لم تفته فيها بعد . ولما كنت في عودتي من الاحتفال بتتويج الامبراطور « ألباني برّد الشتاء إلى قرية لم أجد فيها شيئاً من السمر . ولم يكن لدى الحسن الحظ ما يشغلني من هموم أو أهواء » فكنت أحبس نفسي طول اليوم وحدي في « حجرة دافئة » حيث كنت أفرغ الفراغ كله لحديث نفسي وخواطر فكري . »

يقول الدكتور عثمان أمين « إن هذا الحديث النفسي الذي يذكره ديكرت في الفقرة السابقة لم يكن تأملاً هادئاً فاتراً » كما يمكن أن يسبق إلى الوهم . ذلك أن إحدى القطع الأدبية التي تركها « بايه » من كراسة اسمها « أولميقا » تفيد أن حديث ديكرت واستغراقه في التأمل قد صحبه في ذلك اليوم هيجان نفسي غريب . وانا لنقرأ في إحداها « ١٠ نوفمبر ١٦١٩ : ما كان أشد ما طارت نفسي حاسة وجيشانا إذا اكتشفت أسس علم بديع » .

وفي هذه الحال من الحمى العقلية استسلم الفيلسوف الشاب للنوم ، فرأى ثلاثة أحلام فسرها في الغد من غير تردد بأنها رسالة من « روح الحقيقة » التي وعدته بأن تفتح له خزائن العلوم جميعاً (بايه : حياة مسيو ديكرت) وفي الأيام التالية صلى صلاة لله « ونلنر نلنرا أن يحج إلى نتردام دولوريت (أقدم الأماكن المقدسة وأجها لدى الكاثوليك) . »

ويواصل الدكتور عثمان أمين حديثه عن تلك الفترة الروحية التي مر فيها ديكرت بقوله « ولعل ديكرت كان يجتاز في ذلك الحين فترة تصوف وإشراق وجداني . فالي جانب هذه الأحلام ، وهذا النلر » يقال إن الفيلسوف الشاب انضم إلى جماعة « روزكروا » السرية التي كان أسسها « فلد » وكان أعضاؤها يتعمون إلى أحد المذاهب السرية العجيبة « وكانت مبادئهم تفرص عليهم ممارسة الطب مجاناً والسعى لتخفيف آلام الإنسانية من طريق العلوم . »

ويذهب بايه في تعليقاته على « أولميقا » وروايته عن الرؤى الثلاث إلى أن الحلمين الأولين يثبتان ديكرت أن الله قد اختاره واصطفاه ،

ويرى الفيلسوف في الحلم الثالث كتابين : يرى أولاً قاموساً ، ويرى ثانياً ديواناً من الشعر يفيد انضمام الفلسفة إلى الحكمة .

وهذه النصوص تفيد - فيما يظهر - ثلاثة أشياء : أولاً - أن العلوم جميعاً ليست إلا علماً واحداً ، وإن مفتاحاً واحداً يفتح جميع كنوزها . ثانياً - أن الدعوة التي تلقاها ديكارت للبحث عن ذلك المفتاح إنما وردت إليه من الله لا من شيطان ماكر . ثالثاً - أن الفيلسوف ينبغي أن يبحث عن (المفتاح) في نفسه ، لأن الحقيقة كامنة فينا ككون النار في الحجر الصوان .

وإذا كان ديكارت في غد ذلك الاكتشاف ، قد بلغت منه الحمى العقلية والميجان النفسى (أن محه كان يشتعل اشتعالاً - كما يقول بآيه صاحب سيرته) - فسبب ذلك أنه أحس أن الله قد اختاره هو لإقامة البناء الجديد .

يقول الدكتور عثمان أمين عن اعتكاف ديكارت بعيداً عن الصخب الذى يشتت الذهن ويحول دون الإلهام أن ديكارت (كان مولماً بالهدوء الذى يعينه على التفكير الفلسفى ، وكان أشد ما يخشاه هو أن يعكر عليه أحد في تفكيره . ولقد قال هو نفسه في ذلك « حملتى تلك الرغبة على الابتعاد عن جميع الأماكن التى قد ألقى فيها بعض من يعرفونى ، وساقتنى إلى أن أدخلوها ، في بلاد وطم فيها طول الحرب نظماً ثابتة) .

والواقع أن استشهادنا بحياة ديكارت وارتباط فلسفته التى توصل إليها بالإلهام لا يعنى أن قصة حياة ديكارت فريدة في نوعها وأن سواه من الفلاسفة السابقين عليه والتالين له لم يكونوا يستملون حياتهم العقلية من باعث إلهامى . إننا نستطيع أن نذهب إلى القول بأن التفكير الفلسفى لا ينمو في فراغ ، بل ينمو مع نمو الشخصية ، أعنى عقل الفيلسوف ووجدانه . ولقد نجد الكثير من الجوانب الشخصية لكثير من الفلاسفة غير معروفة ولم يتسن كشف

النقاب عنها ، فلا يعثر الدارس إلا على فلسفة الفيلسوف بغير أن تكون لديه فرصة لمعرفة حياة الفيلسوف وما تقلب عليه من حالات نفسية متباينة . واعتقادنا القاطع هو أن فلسفة أى فيلسوف لا تخلو من جانب إلهامى تستند إليه . وحتى أولئك الفلاسفة الماديين أو الملحدون فإنهم برغم إنكارهم للإلهام ، فإن مثل ذلك الإنكار لا يقوم دليلاً على عدم إلهامهم وعلى خلو حياتهم الذهنية من مقومات إلهامية .

على أننا لا نحصر الإلهام فى المصدر الدينى وحده كما اتضح من الفصول السابقة — فثمة مجالات إلهامية متباينة . المهم أن الإلهام بمثابة كشف لمجهول لا يعتمد على رصيد خبرى سابق لدى الشخص الملهم . فالاعتماد على المقومات الحسية وحدها لا يؤدى الى الكشف العظيمة أو إلى إقامة صروح فلسفية ضخمة . فلا بد للفيلسوف أن يحيا فى عالم مستقل عن هذا العالم المحيط به الزاخر بالعجيب والصخب . فالتأمل الباطنى هو السبيل الوحيد للولوج فى أسرار الوجود مع الاستعانة بالمقومات الخبرية التى تتخذ كل درجات سلم تصل بالمرء الى آفاق عليا جديدة . ولكأن المقومات الخبرية بمثابة عوامل مساعدة فحسب ، وليست عوامل أصلية فى الكشف الفلسفى .

ونحن لا نستطيع إغفال شقراط وفيثاغورس وأفلاطون ومن إليهم من فلاسفة ارتبطت حياتهم بالفكر الإلهامى بصراحة ، أو قل ارتبطت دراسة فلسفتهم بدراسة حياتهم والوقوف على أسرارها . فبئر الحقيقة تحتاج إلى من يغوص فيها لاقتناص بعض جواهرها والكشف عن بعض أسرارها . ولا يكفى أن نقف على حافة تلك البئر لكي نحصل على حقائق أسرارها . فالإلهام إذن عطية إلهية توهب للفيلسوف لوقفه على أسرار فلسفته .

فى التصوير :

يعرض هربرت ريد فى كتابه (تربية النوق الفنى) الذى قننا بترجمته الى العربية لحالة المصور ولیم بليك الذى كان يستطيع استثارة الصور الذهنية لديه مهما كانت طبيعتها بطريقة إرادية . ويحكى جلكريست أن الموهبة

البصرية كانت خاضعة إلى حد كبير لتحكمه للدرجة أنه بناء على رغبة أحد الأصدقاء ، فإنه كان يستطيع استدعاء أية أشكال وأية أوجه مألوفة تطلب منة أمام تفرسة التجريدى . وكان هذا يتم خلال ساعات الليل المواتية والملائمة ، أى فيما بين التاسعة أو العاشرة مساء حتى الواحدة أو الثانية صباحا وربما حتى الثالثة أو الرابعة صباحا . وربما كان صديقه فرلى جالسا إلى جانبه وهو « أحيانا هاجما وأحيانا مستيقظا » . كان فرلى يقول مثلا (ارسم لى النبى موسى أو داود النبى) أو ربما يطالبة برسم مشابه ليسوع المسيح أو لإحدى الشخصيات التاريخية الأخرى العظيمة . وكان من عادة بليك أن يجيب قائلا ها هوذا ثم يأخذ فى الرسم بينما تكون الورقة والقلم الرصاص بين يديه . وكان يتم ذلك بأكثر خفة ورباطة جأش ، كما لو كان هناك فى الواقع شخص جالس أمامه . وكان الموقف يتطلب من بليك فى بعض الأحيان أن ينتظر حتى يظهر الشبح . ذلك الذى لم يكن يأتى على الإطلاق فى بعض الأحيان . وفى أحيان أخرى كان بليك وهو منهمك فى رسم الوجه يكف فجأة عن الاستمرار ثم يقول فى لهجته الهادئة المعتادة ، وبنفس رباطة جأشه الحقيقية (إن السماء تمطر ولا أستطيع الاستمرار . لقد ذهب . يجب أن أنتظر حتى يعود مرة أخرى) أو يقول (قد تحرك . إن فه قد ذهب) أو يقول (إنه يعبس . إنه غير راض عن رسمى له) .

وهناك تقارير أخرى تزعم أن الرؤى التى كان يراها ولیم بليك كانت مصحوبة بهياج عقلى . فأحد أصدقائه وهو جيمس بورتر الذى تصادف أن عرج على بليك « فوجده يتأمل بعض الرسوم التخطيطية لاسير ولیم والاس والمالك إدوارد الأول . وقد قال بليك الذى كان فى حالة من النشوة بحيث كان مقطوع الأنفاس تقريبا (لقد كنت جالسا فى تأمل البطل الاسكتلندى ، كدأبت دائما بازاء الأعمال البطولية ... فرقف أمامى عندئذ شبح فى هيئة نبيل » وقد أدركت لتوى أنه السير ولیم والاس ، فرجوة أن يظل للفتاوى قليلة وأنا أعلم أنه كان طيفا روحانيا سرعان ما سوف يختفى بالسرعة التى أتى بها . فابتسم البطل وقت بوضع رسم تخطيطى له . وفى الحال اختفى

الشبح ثم حل محله شبح ادوارد الأول الذى استمر أيضا مدة كافية
لكى أرسمه .

يبد أن أكثر الشواهد عن الطبيعة الإلهامية للصور الذهنية لدى بليك
قد وردت في الملاحظة التالية لفارلى - وهى حول الرسم الشهير لشبح
برغوث . ولقد تم هذا الرسم في حضرة فارلى الذى يقول (لقد أحسست
باقتناع من طريقته في العمل بأن هناك صورة ذهنية واقعية أمامه ، وذلك
لأنه انصرف بذهته تماما ، وبدأ بالرسم على قطعة جديدة من الورق في وضع
صورة منفصلة ومفصلة لفم برغوث ، وهو ما قلصته الروح ، وقد حيل
بينه وبين الاستمرار في الرسم التخطيطي الأول حتى انتهى من رسم
البرغوث) .

ولقد يفترض أن القدرات التصويرية لدى هوجارث و بليك إنما تمثل
عمليتين عقليتين مختلفتين تماما . بيد أن الواجب ملاحظة أنه على الرغم من أن
موهبة هوجارث قد تم اكتسابها بالتدوين المستمر ، فإن موهبة بليك لم تكن
فطرية تماما ، ولم تكن مختصة به شخصيا ، إذ أنه علم زوجته أن ترى
الأشباح . وفي كلتا الحالتين كانت الصور الذهنية دقيقة . فلقد قام بليك
باستدعاء الملك شارل مرتين حتى يكمل رسم خوذة معقدة كان يرتسها .
وفي كلتا الحالتين اعتمدت الصور الذهنية على التركيز . والفارق الرئيسى
ليس كبيرا جدا من حيث طبيعة الصور الذهنية في حد ذاتها ، بل من حيث
أصلها . ولقد كانت صور هوجارث تخزن تحت سطح الشعور مباشرة
بينما كانت صور بليك تأتي من أعماق اللا شعور . ولكن هربرت ريد
لا يرى مسوغا حقيقيا للافتراض بأنه في كلتا الحالتين لم تكن الصور الذهنية
تسقط وترى بالفعل . ولذا فإنها صور إسقاطية بالمعنى الدقيق للكلمة .

ويبدو أن الأشباح كانت تستحضر أمام بليك بالصلاة . فجورج ريتشموند
يحكى أنه ذات مرة عندما عرج على فوتن كورت ، وجد بليك وقد كان
منقبض النفس وهو يشرب الشاي . قال بليك (لقد فارقتني منذ خمسة عشر

يوما قوة الابتكار » وقال بليك وقد استدار إلى زوجته « هذا ما حدث لنا بالضبط . أليس كذلك ؟ إنه منذ أسابيع تركتنا الأشباح ؟ ما الذى نعمله إذن يا كيت ؟ » أجابت كيت « فلتركع ونصلى يا مستر بليك » .

والواقع أن أمر الإلهام هو قدر مشترك بين المصورين النابيين . ولعلنا نضرب مثالا آخر بفان جوخ (١) وقد بدأ حياته العملية كبائع للصور والتحف الفنية في محل كان يملكه أحد أقربائه في لندن . ولكنه كان برما بالكثير من السلع الفنية المعروضة للبيع بذلك المحل . وكان يبدى دهشته بل وانتقاده للزبائن الذين يسيثون الاختيار فيقعون على الصور والتحف القبيحة في تقديره ويعزفون عن الصور والتحف الجميلة في تصوره وحسب ذوقه . فكان بذلك فنانا وليس تاجرا « مما اضطر مدير المحل إلى طرده في نهاية الأمر لأنه كان غليظا في نقده لأذواق الزبائن » .

وبعد ذلك أخذ فان جوخ طريقه إلى مناجم الفحم حيث عمل هناك قسيسا وواعظا « وعكف في تلك الفترة على القراءة المكثفة إلى إن وصل في النهاية إلى درجة من التشبع لم يعد بعدها يطبق مشاهدة أى كتاب . وفي أحد أيام نوفمبر الصافية جلس على عجلة حديدية صدئة يراقب عمال المناجم من البوابة فشاهد أحد العمال كانت قبعته السوداء تظلل عينيه ، وكشفاه منحنيين وقد دس يديه في جيبي سترته وركبته العظيمتان بارزتان إلى الخارج . فجذب منظر الرجل انتباهه فان جوخ وأثار فيه رغبة ملحة في رسمه ، فأخذ يفتش في جيوبه ووجد القلم الرصاص وخطابا كان قد وصله من والده وبه صفحة بيضاء . فأخذ يعبر عن انطباعه الفني بأن رسم ذلك المخلوق بسرعة . وكانت هذه نقطة البداية في قصة فان جوخ مع التصوير الفني .

(١) حياة فان جوخ — أرفنج ستون — ترجمة محمد عمود صفوت — الألف كتاب — القاهرة .

وبعد أن عاد فان جوخ إلى الدار التي كان يقطنها وجد بالمصادفة فروخا عديدة من الورق النظيف الأبيض وقلما ثقيلًا فعكف على الرسم حتى غابت الشمس وخيم الظلام على الحجرة وهو منهمكاً على الأوراق يرسم عليها .

ومنذ ذلك الحين انتقل الفنان بنشاطه ووجدانه من المجال الديني إلى رسم كل ما كان يثير خياله من شخصيات وأشياء ومواقف وعلاقات . وواصل العمل ليلاً ونهاراً . وعندما كان يجهد التعب ويعجز عن الرسم كان يلجأ إلى القراءة . وكان يحب المناظر الخلوية حبا جما ، ولكنه كان يحب الدراسات المشتقة من الحياة . .

وعاد فان جوخ إلى أسرته ودأب على الرسم . وقد قام برسم شقيقته ويليمين وهي أمام ما كينة الخياطة ورسم صورة الرجل ذي القأس خمس مرات ، وصور رجلاً يعزق الأرض في أوضاع مختلفة ، ورسم باذر الحبوب مرتين ، والفتاة ذات المكنته مرتين ثم رسم امرأة بقبعة بيضاء كانت تقشر البطاطس ، وراعى الغنم وقد كان منحنيًا على أغنامه ، وأخيراً رسم فلاحاً عجوزاً مريضاً كان يجلس على مقعد بالقرب من المدفأة ، ورأسه بين كفيه وقد استند بكوعه على ركبتيه ، ورسم الحفارين وحارثي الأرض من الجنسين . وكان ما يشعر به أنه يجب أن يرسم بلا توقف ويجب أن يلاحظ وأن يسجل كل ما يمت إلى الحياة الريفية بصلة .

ونشأت علاقة حب قوية بينه وبين ابنة عمه الأرملة واسمها كاي وقد صارت ملهمته فيما صار يقوم برسمه ، وكان تشجيعها له في صمت ، وقد كانت تنصت إلى كلامه وتشجعه على التعبير عما في نفسه من آمال وأحلام تتعلق بفنه . وكانت كاي وجان طفلها الصغير يصحبان فان جوخ كل يوم إلى الحقول حيث كان ينصب حامله بينما كان يظل جان يلعب في الرمال وكاي تقرأ في كتاب . وكان فان جوخ يعكف على الرسم في انهماك وصمت وتدفق .

وتعرف فان جوخ بعد ذلك على إحدى الساقطات اسمها كرسين
 ووجد لديها الخثالة من العطف الذي كان بحاجة إليه بعد أن صدم في
 حبه . اتخذها فان جوخ موديلًا يقوم برسمه ، وقد قامت بجلب شخصيات
 أخرى لرسمها . وبعد أن استرد الفنان بعض الثقة بنفسه صار يعمل
 كل يوم لمدة أطول مما اعتاد ، كما صار يبذل جهدًا أكثر . ولكنه أخذ
 يفقد شهيته للأكل وربما ظل طوال الليل يؤرقه السهاد ويفكر في الأشياء
 التي ينبغي أن يعملها . وبينما كانت قواه تنحور كان انفعاله يشتد . وسرعان
 ما يعيش على طاقته العصبية . وربما تقلص جسمه في هيكله العظمي
 وتغشى العينين ضبابية قائمة . وكلما استبد به التعب استمات في العمل .
 وربما اشتدت به التوبة العصبية التي كانت تملكه وكان يدرك بفكره الوقت
 الذي سوف يشترقه لينتهي من اللوحة ، وقد صمم على أن ينتهي منها
 خلال اليوم نفسه . كان كرجل تقمصه ألف شيطان وكان أمامه سنوات
 من العمل لاتمامها . ولكن شيئًا ما كان يرغمه على أن يمزق نفسه كل ساعة
 من الساعات الأربع والعشرين . وفي النهاية يصبح في أقصى انفعاله
 وهياجه العصبي . ويتبع هذا حلوث مشهد غييف لو وقف أحد في طريقه
 إذ يندفع مزججًا إلى اللوحة بكل ماله من قوة ، ولا يهمه ما تستغرقه
 من وقت حتى تنتهي . فكان لديه دائمًا العزيمة الكافية للعمل حتى آخر
 قطرة من اللون ، ولا شيء يمكن أن يوقفه قبل أن ينتهي منها تمامًا .
 والواقع أن الدافع الذي كان يحرك فان جوخ نحو الرسم كان دافعًا داخليًا
 بمعنى الكلمة . فلم يكن يرسم ليكسب ، بل كان يتحرك من دخليته
 بالهام داخلي يسيطر على جماع شخصيته .

في الموسيقى :

ونضرب لهذا المجال مثلا بسيد درويش الذي يقول عنه العقاد : إنه
 أدخل عنصر الحياة والبساطة في التلحين والغناء بعد أن كان هذا الفن مثقلا
 كجميع الفنون الأخرى بأوقار من أسجاعه وأوضاعه وتقاليدته وبديعياته

وجناساته التي لا صلة بينها وبين الحياة • فجاء هذا التابعة الملهم فتناسب بين الألفاظ والمعاني وتناسب بين المعاني والألحان وتناسب بين الألحان والحالات النفسية التي تعبر عنها ، بحيث تسمع الصوت الذي يضعه ويلحنه ويغنيه فتحسب أن كلماته ومعانيه وأنغامه وخواجه قد تراجعت منذ القدم فلم تفرق قط ولم تعرف لها صحبة غير هذه الصحبة للزام .

ولم يكن الغناء الفني كذلك منذ عرفناه وإنما كان لغوا لا محصل فيه وألحانا لا مطابقة بينها وبين ما وضعت له حتى جاء سيد درويش . يقول عباس محمود العقاد عنه أيضاً « حدثني بعض أصدقائه الذين حضروه في تلحين أدواره ومقاطيعه أنه كان إذا قصد التلحين أخذ الورقة التي كتب فيها الكلام شعرا أو نثرا فقرأها في نفسه قراءة متفهم متأمل يستشف روح معانيها وإيماءات ألفاظها ومضامين أغراضها ، ثم يتلوها جهره لتصحيح كلماتها وفواصلها » ثم يرفع الصوت مؤديا كل جملة بما يوائمها من لهجة الدهشة أو الغضب أو الحزن أو الفرح أو الزهو أو الوجوم . فإذا تم له ذلك هداه اختلاف اللهجات في تلاوة الجمل إلى اختلاف الألحان التي تناسبها . فيخلو بنفسه هنيهة ثم يعود إلى رفاقه وقد أفرغ عليها ألحانها الدائمة فلا يستأجر بعد ذلك التفهم والإنعام ملابس الإهاب المشرق الصحيح لجوارحه السليمة القويمة ، فتسمعها كأنك تسمع تفسيراً موسيقياً للدقائق المعاني وكوامن الإحساس أو ترى صوراً طبيعية تنسجها لك الموسيقى من خيوط النغم ونياط القلوب ، وطريقته في استيعاب الموسيقى طريقة العبقريين الغربيين إذ يستفتحون أبوابها بين مناظر الليل والنهار وأصداء الرياح والأمواج ولحات البروق والنجوم ، فكثيراً ما كان يبيت عند شاطئ البحر ليالي متواليات يصغي ويتوسم ويغمغم ويترنم إلى أن يسلس له النشيد كما يريد . وكثيراً ما أحيا الليل إلى الفجر يستقبل أنداءه وأنواره ويرجها شلواً بديعاً يطلع على الأسماع بمثل الفجر في حلل الانداء والأنوار . ولحنه في رواية هدى حيث تظهر أشباح الأجداد عند القناطر الخيرية في مطلع الفجر قد صيغ في ذلك المكان في تلك الساعة بعد ليلة ساهرة

لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التهيؤ (للقدر) المأمول
والوحي السعيد .

وكان الشيخ سيد يستعير بعض الأنغام القديمة ليعيدها على أغان جديدة
هي بها أشكل وعليها أكيس وأجل « ثم لا يمتحن الاستعارة ولا يدسى
ما ليس له عادة بعض الأدعياء » فإذا وضع اللحن مبتكرا أو مستعارا
حرص غاية الحرص على أن يؤديه المنشلون كاملا مضبوطا كما أوحى
إليه ونقل عنه « فلا يطبق أن يتصرف فيه متصرف أو يعث به عابث
من عشاق التزويق والترطيب . وبلغ من فرط غيرة على صناعته أنه سمع
ليلة إحدى الفرق تشد ألحانه في بعض الروايات فهاهنا ما وجد فيها من
التحريف وجن جنونه من الغيظ والهياج وجعل يصيح : أهذه موسيقاى؟
أهذه موسيقاى؟ ثم أعى عليه لتوه ، وقيل إنه ظل بقية حياته يرغبونه في
العمل مع تلك الفرقة بالأجر الغالى والتوصل الكثير وهو يأبى عليهم
أشد الإباء .

كان أبوه نجارا معنيا بتعليم أبنائه فأدخله مدرسة تسمى شمس المعارف
يتعلم فيها التلامذة تجويد القرآن وإنشاد القصائد وتمثيل الروايات الصغيرة في
ختام السنة على عادة أكثر المدارس في ذلك العهد « فظهرت هناك
موهبة الغنائية وزين له بعض إخوانه إحياء الليالات الخاصة ففعل ونجح
فيها نجاحا أغراه بالثابرة والمزيد ، ثم انتظم في مسجد أبي العباس لتلقى
الدروس الدينية فمكث فيه إلى أن توفي أبوه . فصار يحضر الليالى الساهرة
والموالد التي يدعى إليها للغناء وترتيل المولد عند أبناء حبه الأقربين . ثم
تألفت في الإسكندرية فرقة تمثيلية فاتصل بها مطربا لها وسافر معها إلى
الشام ولقي هناك الشيخ الموصلى وبعض أساتذة الموسيقى فأخذ عنهم الكثير
من أصولها ، وعاد من هناك واستمر في الاطلاع على كتب الموسيقى والتوفر
على دراسة مراجعها الميسورة لقراء العربية ، وأنشأ له فرقة للغناء في
القهوات فاستقل بنفسه في تأليف الأدوار وتلحينها ونجح في ذلك نبوغا
لفت إليه عشاق هذا الفن وأساتذته ، فأعجبوا به وشجعوه وذكروه بالثناء .

ويعرف أخصاؤه أنه وضع كل دور من أدواره في حادثة من حوادث غرامه فلم يخل من فضل للحب عليه في إذكاء قريحته وتهذيب فنهو إغرامه بصناعته وكأنه طبع على حب التجديد وسلامة النوق . فكانت نفسه تعاف لوازم المغنين التي طفقوا زمانا يرددونها في جميع الأغاني والأناشيد (كيا ليل ويا عين) وما شابه ذلك مما هو في الغناء كوصف الطلول والنياق في الشعر والأدب ، وقد عدل عنها تماما في أدواره الأخيرة ونبد التكرار الذي لا معنى له .

وهكذا نلاحظ أن الإلهام كان له الأثر الأكبر في إحراز هذا الفنان المصري الأصيل لذلك المستوى العالي من التلقو الموسيقي ومن تحديد ملامح محددة ومتطورة للموسيقى العربية .

وثمة مثال آخر نسوقه في هذا المجال لموسيقار مصري آخر هو أحمد خيرت (١) الذي شارك في استنهاض المشاعر المصرية في ثورة ١٩١٩ بما قلعه من أناشيد جنباً لجنب مع جهود سيد درويش . لقد كان أحمد خيرت في ذلك الوقت طالباً بالثانوى وعضواً في لجنة الطلبة لثورة ١٩١٩ صغير الحجم رقيق الجسد دقيق الحس عاطفياً عصياً لا يهاب ولا يخاف ، ينتقل من مكان إلى مكان ومعه سلاحه هو سلاح الكلمة . وقد غذى الثورة بأناشيد ثورية كانت كلماتها تتردد والصفوف المترابطة تتحرك بين الأزهر ونادى المدارس العليا . وفي خلال التجمعات وأشهرها .

بنى النيل هبوا وكونوا يدا وردوا عن النيل كيد العدا
ولا تحسبوا ما بذلتم سدى وصونوا جلال القدى بالقدا

وكان أحمد خيرت يلتقي أناشيده في ثوب شحاذ حتى لا يفتن رجال الاستعمار إلى حقيقة أمره ، ووصف إذ ذاك بأنه شحاذ القرن العشرين .

(١) أعلام وأصحاب أقلام - تأليف أنور الجندي - دار نهضة مصر للطباعة والنشر - القاهرة .

(م ١٢ - سيكلوجية الإلهام) ١٧٧

وكان يعمد إلى تغيير وتبديل وتطوير أزياءه الملحنة في شكل مونولوج لتساير الأحداث . وفي سبيل ذلك اعتقل مراراً ، وكان آخر عهده بالاعتقال نوفمبر ١٩٢٤ لإثراء أحداث السردار المشهور ، ومضت أناشيد خيرت تسابق الحركة الوطنية فهي تحارب الاستعمار وتحمل عليه وتقاوم الخلاف وتهاجم الأحزاب التي تخرج عن صف العمل الموحد ، وتتابع في يقظة كل تطورات الحركة الوطنية .

وفي حياة أحمد خيرت ظاهرتان واضحتان : أولاهما الطبيعة الفنية . فقد درس في الزراعة العليا وأحرز دبلوما ، وكان في الإمكان أن يعيش واحداً من رجال هذا الفن ، لولا موهبته الطبيعية التي برزت وفرضت نفسها ، واستطاعت أن تشق طريقها في ظل حدث من الأحداث الكبرى هو ثورة ١٩١٩ ثم وجدت مجالها في إدخال هذا الفن في المدارس والمعاهد المختلفة . أما الظاهرة الثانية فهي قدرته على الجمع بين النظم والتلحين . فقد كان شاعراً وموسيقاراً . وأغلب أناشيده التي أربت على الألف نشيد هي من تأليفه وتلحينه . وهو صاحب مدرسة في هذا المجال : فقد تخلص من الطريقة القديمة ، أعنى طريقة التخت واختار منهاجاً جديداً مبسطاً سهلاً يتيح للطفل والشاب أن ينشد كلماته دون عسر ، وكان لقدرته على الجمع بين النظم واللحن أثرها في انتشار ألحانه وأغانيه ، فإن معظم أناشيده تسم بالبساطة والسهولة والجرس الموسيقي .

وثمة ثبت طويل لأناشيد أحمد خيرت قام بتأليفها وتلحينها في موضوعات شتى منها الصياد والعلم ودعاء طفل ونشيد البوليس ونشيد الطيران ونشيد شكراً لله ونشيد الطيور تستقبل الصباح ونشيد العزة للشهداء ونشيد عم يا خباز ويا بايع الفطير وأنشودة القطن وأنشودة الشمس وأنشودة الحجاج ومملكة النحل والبحارة وقطار الرحمة وأفراح النيل ونشيد الهجرة وغير ذلك كثير . وكلها تدل على مشاركة روحية كاملة لكل ما تضمه مصر في مجالات الطبيعة والحياة والوطنية والزراعة والفنون ومن استهلاكات هذه الأناشيد تبدو طبيعة أحمد خيرت الهادئة والمهمة في نفس الوقت .

ولقد ساند أحمد خيرت كثيراً من النابغين والتابغات في مجال التشيد والألحان أمثال فريدة كامل ونجاة الصغيرة . ولم يقتصر على تلحين الأناشيد الوطنية بل نظم ولحن الأناشيد العاطفية وساهم في النهضة المسرحية واعتلى خشبة المسرح ممثلاً هاوياً وأبرز أعماله أوبريت (أدى يومنا) التي ألّفها ولحّنها ومثلها مع زملائه أعضاء نادي منتخب المدارس على مسرح جورج أبيض ورواية (أحمد وحنا) إيان ثورة ١٩١٩ ومثلت على مسرح الأوبرا .

وهكذا نجد أن هذا الفنان كان — بالإضافة إلى تحصيله ودأبه ومثابرته على العمل — شخصية ملهمة تستشف إلهاماتها من الأحداث المحيطة بها وما يهز وجدانها ويذكى مشاعرها .

في الشعر :

قام الدكتور مصطفى سويّف في كتابه « الأسس النفسية للإبداع الفني » بتتبع موضوع الإبداع والالهام لدى مجموعة من الشعراء من بينهم الشاعر المصري أحمد رامى وذلك من واقع تجربتهم الشخصية . وقد وجه إلى كل منهم السؤال التالي : إذا استطعت أن تتذكر عملية الإبداع كما جرت في آخر قصيدة لك ، فالمرجو أن تتبع حياتها في نفسك . هل عاشت في نفسك صورها وأحداثها كاملة قبل النظم ؟ أم هل بزغت وقت النظم فحسب ؟ وإذا كانت قد عاشت قبل النظم فهل عاشت حياة جامدة أى أنها ظهرت فجأة كاملة وظلت كما هي حتى انتهت من كتابتها أم تطورت في حياتها قبل الكتابة أو أثناءها . وجعلت تمتلئ وتتضح في بعض نواحيها وتتضاءل وتتلاشى في نواح أخرى ؟

أجاب الشاعر بقوله : أنا لا أكتب الشعر أبداً ، بل أغنيه .. أكون في حجرة مفرداً وغالباً في جو مظلم بعض الشيء « وعندئذ أغنيه في خلوتي هذه

وبذلك يظهر الشعر . وأنا لا أفهم أن القصيدة تبرز وقت النظم فحسب بل على العكس من ذلك فإن بعض القصائد تعيش معي فكرتها عدة سنوات قبل أن أنظمها . أنظر مثلاً « رق الحبيب وواعدني يوم » . إن هذه القصيدة ظلت فكرتها في نفسي سبع سنوات ، وأخيراً نظمتها عندما حانت فرصة معينة وهي أنني في لحظة من اللحظات نلت من الفرح ماجعلني أخاف أن تضيق حياتي ، أخاف أن أفقد هذه الحياة قبل أن أنال قمة هذا الفرح . هنا بالضبط أسرعرت لأنظم هذه القصيدة ولأصور فيها أنني نلت سعادة عظيمة كنت أنتظرها من زمن :

ولقيتني طائيل م الدنيا	كل الى أهواه
بس الى . كان فاضل لي	أسعد بلقاه
لما خطر دا على فكري	حير أمرى
والقرب سبب تعذبي

ومعنى هذا أن هناك لحظة معينة تكون بمثابة فرصة لبزوغ أو لظهور هذه الفكرة التي ظلت مختصرة من زمن . وفي الواقع أنه بالنسبة لهذه القصائد التي قضت فكرتها مدة طويلة وهي تختمر في نفسي ، أقول لك إن هذه اللحظة لا تتدخل في جوهر الفكرة المختمة وإنما تتدخل فيها يشبه الهامش . على كل حال يحدث أحياناً أن تبرز عندي قصيدة وأتجه إلى نظمها في لحظة سريعة دون أن تسبقها فكرة مختمة ، وفي هذه الحال تجد أن اللحظة تتحكم في جوهر القصيدة إلى حد بعيد جداً . ويحدث أحياناً أن أكون بسبيل نظم قصيدة معينة وفيما أنا أنظمها إذا بي مثلاً أسمع نعيق اليوم عندئذ لا يمكن أن أترك هذه اللحظة دون أن أدخلها في القصيدة بطريقة ما . وقد حدث هذا ذات مرة ، وأدخلت هذه اللحظة في القصيدة رغم أنني كنت أكتب في اتجاه معين يغلب عليه الفرح والشعور بالسعادة « على أن إدخال هذه اللحظة لم يحل أبداً بوحدة القصيدة .

على أنى أكون فعلا على وعى بوحدة القصيدة وأقصد ألا أحيدها .
 وأنا فى العادة أبداً القصيدة بيت أو بعدد ضئيل من الأبيات يركز كل
 تجربتي ، وبعد ذلك أقصد إلى تخريج كل ما يمكن من التخرجات من هذه
 التجربة المركزة فى البيت الأول ، أو بعبارة أخرى فى motto وقد
 يحدث أحياناً أن تبلغ البداية من التركيز درجة هائلة تمنعني من أن أكتب
 أى شيء بعدها . وبذلك يتعذر على أن أكمل القصيدة فتظل عندى بدايتها
 فحسب . وقد حدث لى هذا بالفعل ذات مرة وأظن أنه يحدث لكثير
 من الشعراء . وأنت تعرف طبعاً أن الإنسان يمكن أن يكتب كثيراً فيقول
 مثلاً إننى قضيت ليلاً ساهراً بين آلاى وأن الليل طاك جداً وأن كل
 شيء أمارى شمله الظلام وأن صحبى أحاطوا بى يواسوننى على محنتى وما إلى
 ذلك . ويستطرد فى هذا السيل ، ولكن طبعاً أنت تعرف أيضاً أن كل
 هذه المعانى جميعها تجتمع فى شطرة واحدة : « لم يطل ليلى ولكن لم أتم » .

من ذلك ترى أننى عندما قلت أن كل شاعر لابد أن يكون قدعانى
 مثل ما أعانى إنما قصدت الشاعر بالمعنى الدقيق ، أى The born poet

وأظنك تفهم أنه فى حالة الفكرة المختمة التى حدثتك عنها هى تتطور
 طبعاً ويحدث فيها بعض التغيرات . لكن مع ذلك فإن الجوهر لا يصبیه أى
 تغير . على أن هذا التطور لا يكون واضحاً بالقليل الذى يتضح به التطور
 الحادث أثناء النظم . فبالنسبة للنظم نجد أن الخاطر يجلب الخاطر والفكرة
 تجلب الفكرة وإلا لكنا نجارين أو حدادين . فأنا ليس عندى نموذج معين
 أصفف له الألفاظ تصفيفاً معيناً . ولكن قد تأتى هذه العبارة بعبارة أخرى وقد
 تأتى هذه الفكرة بفكرة أخرى . وعلى كل حال نحن أبناء خواطر وربما
 اتضح ذلك بشكل بارز جداً فى القصائد التى هى بنت لحظتها والتى لم تسبقها
 فكرة مختمة . فى هذه القصائد يكون عندى ميل إلى قول الشعر ولكن ليس
 عندى فكرة باللمات لأقول فيها ، ومن هنا يكون للخواطر الواردة دور كبيرة .

وبالنسبة للعادات التي تلازمي في الكتابة فأقول نعم لي عادات .
 فمثلا هذا القلم (وأخرج من جيبه قلما صغيرا) لا أنظم الشعر إلا وهو
 معي وبصحبه قطعة من الورق مستطيلة ، ولابد من أن أنظم في حجرة
 خاصة ، حجرة التي يشيع فيها جو حزين ، وأحسن الأوقات التي أنظم
 فيها هي وقت الغسق وحينما أشعر أنني مستيقظ والناس نيام . ولا يمكن أن
 أتصور أنني أكذب من غير واقعي . أتعرف أنني على صلة وثيقة بالطبيعة ؟
 إنني أعشقها جدا ولا أتصور مثلا أن أوجد في حجرة لا أرى من نافذتها
 جزءا من السماء . وأنا ذو إحساس شديد بالطبيعة منذ طفولتي . أذكر أنني
 في الثامنة من عمري وقد كان أبي طيبيا « للخديو عباس حلمي » ذهبت
 إلى جزر الارخبيل الموجودة قرب سواحل تركيا . تلك الجزر التي ذهب
 إليها فرجيل وهو ميروس ومن إليهما من الشعراء . وأذكر أنني أحسست
 بجمالها الطبيعي إحساسا مدهشا لا يكاد يفارقني . ولهذا أثره في شعري .
 فتجد أنني أصور حزني ببعض مشاهد الطبيعة ، أكون مثلا في موقف وداع
 فأتحلث عن أن الشمس تغرب :

لما بعلت عنه قليل حيث أشوفه قبل الرحيل
 بصيت وراى أبكى هواى
 لقيت خياله من بين ضلوعي
 عيال يغيب
 والكون مراية فيها أساية
 والشمس رايحه تبكى معاينه
 ساعة الغروب

وهناك أمثلة أخرى تملك على كيفية تأثير واقع حياتي في شعري ؛
 فمثلا أنا يغلب الحزن على شعري ، ولابد أن يكون لموت أبي وأنا صغير
 السن وابتعاد إخوتي عني لانشغالهم بالأسفار ومرضى مدة طويلة أثناء

هذه الوحدة دون أن أشعر بأن هناك من يسأل عنى ويهتم بى . لابد أن يكون لكل هذا تأثيره الذى يبدو بوضوح فى شعرى .

وبالنسبة للفكرة المختمة أكون على وعى بالاطار العام للقصيدة « وقد كان الشعراء قديماً يكتبون كثيراً ولكن كتابتهم كان يغلب عليها الاصطلاح . فنبداً مثلاً بالغزل ثم بعد ذلك بالفخر وهكذا . ولستكنى أقصد شعرنا الحديث، شعرى الحاضر . والواقع أن الشعر لا نهاية له ولكن أظن أن هذا لا يتحقق إلا فى حالة الفكرة المختمة .

وبخلص الدكتور سويف من تحليلاته لمقابلاته لهذا الشاعر وغيره من الشعراء إلى القول بأن الشاعر « لا يتقدم من بيت إلى بيت كما ينجح للكثيرين » . فهذه لحظة يزرع فيها أمام الشاعر عدة أبيات دفعة واحدة مما يدفعه إلى الاسراع فى كتابتها خشية أن يضيع أحدها ، وقد يكتب آخرها قبل أولها ... المهم أن تكتب المجموعة كلها وهى بناء متماصك منظم بمعنى أن لأجزائه دلالة حسب موضعها فى الكل « ... فالبيت مرتبط بكل منظم .. وقد أتى للشاعر مرتبطاً هكذا . كذلك نجد شافرل سيتول يشكو من أن القلم يكون أحياناً أبطأ من أن يلاحق بالتسجيل وابل الإلهام وقد ترددت أصدااء هذه الشكوى عند الكثيرين ... ويحاول الشاعر استعادة الكل عن طريق استعادة دلالة الوثبة فيه . وكان قد فقد الصلة بالكل نتيجة لوقفته عند الوثبة وسليته فى تلقيه لها . وفجأة وفى اللحظة التى يستعيد فيها الصلة بالكل يثب وثبة جديدة متكاملة . ومعنى ذلك أن قوى مجاله الابداعى قد انتظمت من جديد ... ومن ذلك نستنتج أن القصيدة من حيث هى عملية أو من حيث هى كل دينامى ، تتألف من وثبات لا من أبيات . ومن هنا كانت الوثبة هى وحدة القصيدة ، وليس البيت هو الوحدة كما هو شائع عند النقاد العرب بوجه خاص . فالوثبة هى الوحدة الدينامية المتكاملة للقصيدة التى هى كل دينامى متكامل . وكذلك كل عملية متكاملة لابد أن تتألف من عمليات صغرى متكاملة، وكل بناء متكامل لابد أن يتألف من أبنية أو أنظمة صغرى متكاملة .

في العلوم :

تقدم نموذجاً للعالم الملهم كما يقبلى لنا باستعراض حياة شارلز دارون (١) الذى ولد سنة ١٨٠٩ وظهرت عليه في صغره علامات تبشر بالعظمة التى تنتظره . ولو أنه عد من الأغبياء حين كان تلميذاً بالمدرسة « وقد بادل الدراسة نفس الشعور وتمكن من دراسة اللغة اللاتينية وحفظ الكثير من الشعر اليونانى كى يفلت من العقاب » ولكنه نسىها جميعاً . بعد يوم أو يومين . وكان يشق المعيشة في الهواء الطلق ، كما كان يحب التاريخ الطبيعى . وكان يهوى صيد السمك وصيد الحيوان « وجمع الكثير من بيض الطيور والحشرات من كل نوع والصخور . وكان يقضى أوقاتاً طويلة في مراقبة غارات الطيور . وقد أسماه زملاؤه بالمدرسة (جاس) لأنه كان هو وأخوه أراسموس يقضيان الساعات في تجارب عن الكيمياء . ولما نمت ذلك إلى ناظر مدرسة أنه علانية لاضاعته هذا الوقت . وكان دارون شديد الاهتمام بالكتب « يمضى ساعات طوالاً في قراءة أشعار شكسبير وتمثيلياته وربما أن معلميه قد ظنوا فيه الغباء والكسل ولكن من المؤكد أن ما كان يفعله هذا الغلام كان يبشر بمسقبل باهر .

ولما رأى والده أن شارلز لم يصادفه النجاح في مدرسته أرسله مع أخيه أراسموس لدراسة الطب في أدنبر . بيد أن الدكتور دارون الوالد كان يائساً من ابنه الصغير فوجه إليه العبارة التالية (إنك لا تهتم إلا بصيد الكلاب والفئران وستكون بذلك عاراً على نفسك وعلى أسرتك) . ومع ذلك لم يظهر شارلز أى نبوغ في دراسة الطب ، فقد وجد أن المحاضرات التى يحضرها في غاية العقم كما أن منظر الدماء جعله مريضاً . ولما كان معظم أصلقاته من طلبة التاريخ الطبيعى ، لذلك نراه قد أقبل على دراسة هذا النوع من العلوم أكثر من إقباله على دراسة الطب .

(١) سبعة من علماء الحياة - تأليف ن ه سافورى - الألف كتاب - ترجمة حسن على العجاوى .

كشفت دارون في ذلك الوقت عن حقائق جديدة حول دودة البحر وقدم بحثا في ذلك لجمعية التاريخ الطبيعي وعقد ذلك أول كشفه وكان ما يزال في السادسة عشرة من عمره .

وعندما فشل في دراسة الطب حزن أبوه لذلك . وإذ كان دارون يمضي وقته في الصيد أو رياضة المشي أو في مصاحبة علماء التاريخ الطبيعي ، فقد صمم والده ألا يترك ابنه ليصبح صيادا خاملا كما كان يبلو له ، فأرسله إلى كبرديج ليصير قسيسا . ويعلمضي ثلاث سنوات في كبرديج وجد دارون نفسه ما يزال قلقا على مستقبله ، واعتبر أن الوقت الذي أمضاه في كبرديج قد ضاع عليه كما أضاعه في أدنبره ، ومع ذلك فقد حصل على درجته العلمية في سهولة وما زالت هواياته منحصرة في الصيد والتجول في الريف . وقد وطلد أرواصر الصداقة بينه وبين علماء التاريخ الطبيعي البارزين في كبرديج اللذين جعلوا ينظرون بعين الاعتبار إلى ذلك الذي كانت تبدو عليه علامات الحمول وهو صغير .

كانت هواياته خليطا غريبا ، ولا بد أن قد ضحك منه أصدقاؤه عندما شاهدوه يجمع الخنافس بحلق . ولقد كانت هذه الهواية تبهجه . وفي الحق لقد كان صيادا ماهرا للخنافس . وقد جمع عددا كبيرا من أنواع الخنافس النادرة ، وقد أثلج صدره عندما قرأ في أحد الكتب التي بهامصورات للحشرات قرأ تحت بعض هذه الصور العبارة الآتية : « اقتنصت بمعرفة السيد شارلز دارون ، وقد كانت المصادفة وحدها - أو قل الإلهام وحده - هو الذي خير مجرى حياة دارون إذ انحصر عمله بعد ذلك في علم التاريخ الطبيعي بعد أن كان ملهاة له .

أعدت السفينة يبجل للقيام برحلة لمسح المحيطين الهادى والأطلسي الجنوبي ، وكانت في حاجة إلى أحد المشتغلين بالتاريخ الطبيعي ، وكان قبطنها فتزورى يرغب في أن يشاركه في حبرته أى شاب من المشتغلين بهذا العلم ، واشتاق دارون أن يكون ذلك الشاب ، ولكن والده كان يشك كثيرا

في جلوى ذلك وتساءل ما الذى يمكن أن يجعل شارلز يستقر في هذا العمل ؟
وأضاف « إذا عثرت يا بنى على أى رجل له ذرة من عقل يوافق على ذلك
فانى أيضا أوافق » فتوجه دارون لتوجهه إلى خاله جوسيا — ابن صانع الخزف —
فتوسط له عند والده فوافق في النهاية على سفره بالسفينة .

أقلعت السفينة بيجل في رحلتها من إنجلترا في أواخر سنة ١٨٣١ واتخذ
دارون من حجرة القبطان مكانا لدراسته ومقامه ومعمله . وعانى دارون
من دوار البحر طوال مدة الرحلة التي استغرقت خمس سنوات . ولم يكن
ذلك ليحول دون مواصلة عمله ودراسته . فكان يفحص كل كائن حي
بعناية سواء كان من البحر أم من البر وجمع منها الآلاف . وكان يبحث
بالطروود تلو الطروود — كلما رست السفينة على ميناء ما — من الحشرات
النادرة والنباتات والصخور غير العادية والحفريات كلها وقع على أنواع
نادرة منها . ولم يكن يتقن الرسم ولا التشريح ولكنه كان يمضى أوقاتا طويلة
في رسم الكائنات التي يعجز عن إرسالها ، ويقوم بدراسة تشريحها . وكان
يصطاد الحيوانات البحرية باستخدام كيس يمل في مؤخرة السفينة . ولقد
لقت نظره الحيوانات الدقيقة التي تغير لون الماء « وسمك الفهقة بالقرب
من شاطئ البرازيل والأسماك التي تغير لونها « وجمع أنواع المحار والشعب
المرجانية . وتندر عليه بحارة السفينة ، فكانوا يلقبونه بجامع اللباب أحيانا
وبالفيلسوف أحيانا أخرى ولكنهم جميعا أحبه .

وولت السفينة وجهها شطر الجنوب متجهة إلى رأس سانت باجو أكبر
جزيرة في جزر رأس فرد حيث أدهشه ما يحيط بالجزيرة من الصخور
البيضاء . فحصبه دارون فوجد أنه مكون من أصداف ومرجان من قاع
البحر تصلبت بفعل حمم البراكين ، ثم ارتفعت فوق سطح ماء البحر ،
وربما كان ذلك مشورا من بركان قديم . وكانت تلك ما تستحق الذكر بالنسبة
لدارون « فكتب عنها عندما تقدمت به السن وقال « تلك الصخور البركانية
التي استظلت بها والشمس ساطعة محرقة ، وتلك النباتات الصحراوية الغريبة

القليلة تنمو بالقرب منها ، والمرجان الحى فى الماء الضحل تحت قديمى . . .
ما زال هذا المنظر ماثلا أمام عيني .

ثم أقلمت السفينة صوب الغرب حين وصلت باهيا فى البرازيل فى أواخر
فبراير سنة ١٨٣٢ ودارون ما قئى ، يذكر باعجاب منظر الغابة الاستوائية ،
فذكر منها النباتات الغريبة والحيوانات غير المألوفة والطيور والحشرات
والأشجار الضخمة التى كانت تشده عجا . وكتب بعد مضى أربعين عاما
عن ذلك يقول (إن أهم ما استلفت نظرى أكثر من أى شئ آخر هو
النباتات الاستوائية) . أمضى دارون ثلاثة شهور فى البرازيل حيث قام بعدة
جولات فيها ، ثم أبحرت بيجل فى تودنة نحو الجنوب بحذاء شواطئ أمريكا
الجنوبية . وفى باتاجونيا عندما عثر دارون على حضريات لعظام الحيوانات
التي انقرضت منذ أمد طويل ، وبدأ يأخذه العجب لماذا اخضت هذه
الحيوانات من ظهر الأرض . وقام بجولات فى جميع الأماكن التي اخضت
فيها تلك العظام ولاحظ أن بعض تلك الحيوانات يشبه إلى حد بعيد الحيوانات
الموجودة حاليا ولكن لم تكن تشبهها تماما فتساءل عن سبب هذا التغير
فى النوع . وأخذ يفكر فى الاجابة عن هذا السؤال عدة سنوات قبل أن
يتحقق من الاجابة ■

وكان أن وصلت السفينة إلى منطقة صحراوية عارية جافة مغطاة بطبقة
من الملح ونباتات شائكة يسكنها هنود بدائيون ، فلاحظ دارون أن
هؤلاء الهنود قد طردتهم العناصر النشيطة المهجنة فى تلك المنطقة .

زارت البعثة بعد ذلك جزر فلاكاند وشاطئ أرض دلفيجو (أرض
النار) ولم يغب عن ذاكرة دارون منظر التلججات والأنهار المتجمدة
التي تنساب ببطء نحو البحر ، والجبال المغطاة بالغابات التي رآها فى هذه
الأرض العجيبة . وقد بدا له أن سكانها العراة الذين يطلون أجسامهم
بالألوان كأن لم يكونوا من البشر مما جعله يفكر كثيراً فى حياة الإنسان
قبل التاريخ .

وبعد المرور على رأس القرن أبحرت السفينة إلى شيلي فشاطىء بروفان ثم إلى جزر جالاباجوس حيث دهش دارون من ألفة الطيور والسلاحف الضخمة والسحالي آكلة الأعشاب البحرية ، كما لاحظ أن أنواع هذه الطيور لم تكن موجودة في أى جزيرة منها ، بل إن كل جزيرة لها أنواع تختلف ما هو موجود في غيرها ولو أن كثيرا منها ينتمى إلى نفس الفصيلة ، وظهر له أنه لا بد من وجود سبب لهذه الاختلافات .

ثم أخذت السفينة في عبور المحيط الهادى عن طريق جزر تاهيتى متجهة إلى استراليا ونيوزيلنده ، وشغف دارون بما رآه من شعب مرجانية في جزيرة كيلنج ، ووجد أن هناك شعبا مرجانية حلقيه ومنحنية وسط المحيط فتساءل عن سبب تكوينها في هذا القاع .

ولاحظ دارون أن الشعب تحيط بالجزر الاستوائية ، وتذكر بل فطن إلى أن ذلك يرجع إلى ارتفاع وانخفاض القشرة الأرضية ، ويحدث أن مثل هذه الجزر تغطس أحيانا تحت سطح الماء وربما ترمب عليها وهى في هذا الوضع الحيوانات المرجانية وقد أحدثت فيها بعد ذلك بسنين كثيرة ثقوبا عميقة . ولقد ثبت أن دارون كان مصيبا في رأيه .

ورجعت السفينة ييجل عن طريق المحيط الهندى مارة برأس الرجاء الصالح ووصلت إنجلترا في أواخر سنة ١٨٢٦ وكانت فرحة دارون عظيمة برجوعه إلى وطنه ثانية . ولما قيل إن رحلاته لم تكن بلدات فائدة قال (إنى لأستبدل بما تعلمته منها عشرين ألف عام) ، وذلك بفضل ما استلهمه من المشاهد التى وقع عليها بنفسه ، وما انتهى إليه من نتائج شكلت فاسقة تطويرية انسجبت على مجالات كثيرة متباينة بما فيها المجالات الإنسانية ■

الفصل التاسع

اعداد الذات لاستقبال الالهام

الإعداد البيولوجي :

نحن نعلم أن الانسان محكوم في عواطفه وأفكاره بما يسود تكوينه الجسمي من مقومات . ذلك أنه كائن حي أولا وقبل كل شيء . على أن ذلك الكائن الحي يقع في قبة هرم الكائنات الحية ، وذلك بفضل تعقد ودقة أجهزته الجسمية وعلى رأسها جهازه العصبي وما يؤثر فيه من مستوى صحي عام من جهة ، ومن هورمونات تفرزها الغدد الصماء من جهة أخرى . ناهيك عن الخبرات التي تظل قائمة ومحتزنة ومتفاعلة بعضها مع بعض بطريقة تراكمية ومعقدة أشد التعقد في نطاق ذلك الجهاز . والواقع أن اللغز الذي سيظل يحير العلماء هو لغز التفاعل الجبري الذي يضطلع به مخ الانسان . ولعل المخ البشري هو المخ الوحيد من بين أمخاخ جميع الحيوانات الأخرى الذي يتم فيه تفرخ الأفكار وتناسلها بعد أن تتزوج أو تتلاقح فيما بينها . ولكأن الأفكار والعواطف الإنسانية تشكل مجتمعا قائما بذاته في مملكة خاصة به هي مملكة الخبرات التي تحتل مكانا لها في غياهب وسرايب المخ .

والمهم أن الإنسان لكي يعد نفسه وجدانيا وعقليا فيصير شخصية ملهمة ، عليه أن يبدأ بإعداد نفسه لذلك بيولوجيا قبل إعداد نفسه بأي شيء آخر . ولا شك أن هذه الحقيقة قد اتضحت أمام أنظار الأنبياء والقديسين والرهبان والمتصوفة في الأديان المتباينة من يهودية ومسيحية وإسلام ، بل ومن بوذية وكونفوشية وغير ذلك من أديان سماوية وغير سماوية . فأخذ الجميع باعتقاد شبه متطابق يؤكد أن ثمة مواصفات جسمية معينة يجب أن تتحقق للمرء لكي يقترب من مستوى روحى معين يكون عنده قابلا لتلقى

الإلهام . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن الحكماء والفلاسفة والعلماء أيضا قد آمنوا في معظمهم بهذه الحقيقة فأخطوا أنفسهم بنظام معين في المأكل والمشرب والنوم والعلاقات الجنسية والملبس اعتقادا منهم أن ثمة ارتباطا وثيقا بين الحالة الجسمية التي يكون عليها المرء وبين ما يمكن أن يتأتى له من فكر صائب ومن إلهام لدنى أو استلهم لحقائق الوجود من حوله .

ولا شك أن هناك علاقة أكيدة بين نوعية الطعام الذي يتناوله المرء وبين حالته الوجدانية والذهنية . ونستطيع أن نقرر أن الشخص الأكلو التهم يقترب في وجدانه وفكره من مستوى الحيوانات . وحتى إذا وجدنا في تاريخ بعض العباقر من يقال عنه إنه كان يحب الطعام ، فيجب أن نعلم أن من بين الناس من يتناوبون على أساليب سلوكية متناقضة . فلقد تجد أن أحد الأشخاص يمتنع يوما في اتجاه ، بينما يمتنع يوما آخر في اتجاه مضاد . فتجد شخصا يقبل على الطعام بنهم وجشع في أحد الأيام ، بينما تجده زاهلا تمام الزهد فيما يأكل بحيث يتم انقطاعه عن الطعام فترة طويلة أو هو يتناول أقل الأشياء ثمنا أو قيمة بل وأقل كمية منه لا تكاد تكفي لسد رمقه ويظل على هذه الحال لعدة أيام أو أشهر . ونحن نعرف جيدا من دراستنا للشخصيات الإنسانية هذا النوع القلب الذي يشبه بنول الساعة فيما يتعلق بتغيير اتجاهه من أشد اليمين تطرفا إلى أشد اليسار تطرفا .

وما يقال عن الطعام بازاء هذه الفئة البنلوية « يقال أيضا عن الجنس . فالواحد من هذه الفئة يفرغ إلى أم رأسه في الشهوات الجنسية بضعة أيام ، ثم ما يفتأ أن يصوم صياما تاما عن الجنس فترة من الزمن تقصر أو تطول .

ولكن بغض النظر عن هذه الفئة البنلوية ، فإننا نجد الفئتين الآخرين الثابتين : أولاهما : فئة الشهوانيين ثم فئة القانعين . ناهيك عن فئة المتوسطين الذين يغلب انتماؤهم إلى كفة الفئة الأولى أو إلى كفة الفئة الثانية من هاتين الفئتين . ولذا فإننا نغني أنفسنا من الاعتراف بوجود هذه الفئة التي يطلق عليها المعترفون بها اسم فئة المعتدلين .

وعلى أية حال فإيهما في هذا الحديث هو فئة القانعين الذين نجد على رأسهم صفوة مختارة هم الملهمون . والواقع أن هؤلاء الصفوة يدربون أنفسهم تدريجياً وفي خطة دائبة على التخلص من الزيادات في حياتهم . فهم يتجنبون ما يزيد عن حاجة الجسم من النوم ، بل إن البعض منهم قد يستغنى عن ممارسة الجنس استغناء تاماً بغير أن يحس الواحد منهم بأى حرمان أو تعطش أو تحرق أو هيام أو جوع جنسى مؤرق . ذلك أن الجنس بالنسبة للإنسان وإن كان يشكل حاجة من ضمن الحاجات الأساسية كالطعام والنوم بالنسبة للإنسان العادى ، فإنه ليس كذلك بالنسبة لأولئك الذين أدخلوا أنفسهم بنوع معين من التدريب على الزهد وتميئة أجسامهم وفق نظام بيولوجى معين ٥

والواقع أن الشخص الملهم يكون قد آمن بوجود تضاد أوحى تصارع ومناهضة بين المناشط الجسمية وبين المناشط الذهنية والروحية . فبينما يجلب الجسم صاحبه إلى أسفل ، فإن العقل أو الروح تجلب المرء إلى أعلى . وبعبارة أخرى فإن ثمة نسبة عكسية بين شهوات الجسم وبين شهوات الروح . فاللهم يتحيز إلى شهوات الروح ويعمل على دعمها بالتدريبات الذهنية والروحية من جهة ، وبالتدريبات الجسمية التى تعمل على التخلص من معوقاته من جهة أخرى . وليس هذا فى الواقع بالأمر المستغرب حتى من زاوية حياتنا المعاصرة المتسمة بالمادية غالباً . فنحن نشاهد أن الغالبية العظمى من الاتجاهات الصحية التى ينادى بها الطب الحديث تذهب إلى مبدأ التخفيف من الشهوات الجسمية سواء فى الأكل أم فى الجنس أم فى النوم . ولقد أثبتت الإحصاءات والملاحظات اليومية أن الأشخاص — بل والشعوب — الأكثر تخففاً من هذه المقومات الثلاثة هم فى نفس الوقت أكثرهم تمتعاً بالصحة وأكثرهم قابلية للتعمير بغير إصابة بالأمراض التى تعرف حالياً بأمراض الحضارة .

ولعلنا نلاحظ أيضاً أن ما تذهب إليه الحضارة الإنسانية الحديثة من ترف توفره لأبنائها إنما كان فى الواقع على حساب صحتهم الجسمية والنفسية

والعقلية جميعاً . فوسائل الانتقال الحديثة قد جعلت الإنسان الحديث محروماً من المشي ومن استخدام عضلاته وبالتالي فإن شرايته تصلبت وعضلاته ضمرت وتقلصت . وكذا فإن الخبرات الجاهزة التي تقدمها المدارس ووسائل الإعلام قد أفقدت الإنسان الحديث الرغبة في البحث والتقصي عن المجهول . ولماذا يبحث وينقب والخبرات جاهزة تقدم إليه بوفرة بالكتب وبالإذاعات والبرامج التليفزيونية ؟ إننا نستطيع أن نقرر بصراحة أن الحضارة الإنسانية في تقدمها التكنولوجي قد سارت في خط مضاد لتقدم الإنسان صحياً ونفسياً وذهنياً . ولا يغرنك ما نشاهده من مساندات طبية ترقية تقي الإنسان الحديث شر الموت ، ولكنها لا توفر له المستوى الصحي السديد . فلا شك أن إنسان الحضارة كائن حي ذابل العضلات كسبح الرجلين ضعيف النراعين واليدين . وشكراً للملابس التي افنتت فيها الحضارة بحيث صارت تغطي أجساداً هزيلة معوجة وشائبة . ولا ننسى أن نقول إن إنسان الحضارة وبخاصة في المدن قد فقد الهواء النقي يستنشقه والهدوء يريح أعصابه الهاشجة بسبب الضوضاء . ناهيك عن العلاقات الاجتماعية الشكلية التي لا تنبني على أساس طبيعي ، بل تقوم على أساس وظيفي مؤقتي مما جعل الإنسان الحديث يمثل باستمرار أدواراً ليس لها رصيد من المشاعر الحقيقية . فما يأتيه الإنسان الحديث من ابتسام أو عبوس لا يكون صادراً عن قلبه ولا يكون تعبيراً عن مشاعر حقيقية تعمل في أنحائه ، بل يكون غالباً مجرد وظيفة تؤدي في المواقف المتباعدة .

كل هذا جعل فئة القانتين وبخاصة فئة راغبي الإلهام يعملون إلى التخفيف من وطأة الحضارة والعودة إلى ما يشبه أن يكون لاحتضار . فهم يعطون أنفسهم إجازة من الضغوط الحضارية وبضمنها الضغوط الغذائية ونحوها . فالتقليل من الطعام بالتدريج - وهو ما يسمى على الألسنة الشائعة بالريجيم - هو الخط الذي يقفونه . فالتقليل من الطعام أفضل من كثرة ، والتقليل من الجنس أفضل وأمتع وأدوم للمرء ، والتقليل من النوم ألد وأعمق . ناهيك عن أن التقليل في هذه المناشط الثلاثة يوفر للإنسان عمراً

أطول . ذلك أن المتخفف من الأكل والجنس والنوم يعيش بصحة جيدة ولعمر أطول في الغالب . ناهيك عن أن قلة النوم معناه إضافة ساعات يقظة تحسب لصالح المرء وتطيل مدة حياته الشعورية . فمن بلغ الأربعين من فئة الملهمين قد يناظر في عمره من بلغ السبعين مثلاً من فئة التهمين في النوم . فالملهم يحيا حياته بالطول والعرض على السواء . فاحتمال طول عمرة الزمنى قائم ، كما أن زيادة ساعات يقظته خلال كل يوم يحسب أيضاً ضمن عمره ، ناهيك عن أن الشخص الملهم هو أيضاً شخص يقضى حياته في أشياء ذات قيمة عالية . بحيث يمكن القول إن حياة الواحد من الملهمين تساوى حياة عدة أشخاص مجتمعين من غير الملهمين . ونذكر بأننا قد توسعنا في معنى الإلهام ولم تقتصر على المعنى اللبني فحسب .

ولنا أن نتوقع اكتشافات طيبة هامة في المستقبل القريب حول الطعام والجنس والنوم سوف تغير من موقف إنسان المستقبل فينحو إلى التخفف مما يزرع تحته إنسان الحضارة الحالي من أثقال جسمية ينوء بها ظهره .

الهضم الجبرى :

سبق أن قلنا إن منهج تهية الذات بيولوجيا للإلهام يقضى بضرورة التخلص من الزيادات البيولوجية ، والحيلولة دون تقبل زيادات بالجسم أو نوال قدر كبير من النوم يمكن الحد منه أو تقليصه ، وكلنا الحد من النشاط الجنسي إلى أقل قدر ممكن وإن أمكن فالاستغناء تماماً عن الممارسات الجنسية بشرط ألا يؤدي كل هذا إلى انهيار المرء أو إصابته بالشقاء أو إلى إحساسه بالحرقان أو الندم على ما فاتته من لذائذ . وقلنا أيضاً إن المنهج الإلهامى يقضى بضرورة التدريب المستأنى والمتواصل بحيث لا ينتقل المرء من حال إلى حال مناقضة فوراً وطفرة واحدة ، لأن مثل هذا الانقلاب أو هذه الفجاءة تشكل خطراً على كيان المرء من جهة ، كما أنها تجعله في نفس الوقت ومن جهة أخرى عرضة لأن يتقلب مرة ثانية إلى التقيض ، أعني إلى ما كان عليه قبلاً . وهذا التذبذب هو ما تنسم به الفئة البنلوية التي أشرنا إليها قبلاً .

والواقع أن ما يقال عن الطعام يتغذى به الجسم وما يقال عن النوم والجنس ينسحب بنفس القدر من الصديق يإزاء الخبرات المعرفية والوجدانية والأدائية . فإيتم تعلمه بالنسبة لأي إنسان يتخذ له طابقي في شخصيته أو يمكن أن يتخذ له طابقاً واحداً من هذين الطابقين . أما الطابق الأول فهو ما نسميه بالتحصيل الجبري . أما الطابق الثاني فهو ما نسميه بالمضم الجبري . فدارس الفلسفة مثلاً عليه أن يحصل المعارف الفلسفية ويتقنها . ولكن دراسته للفلسفة لا تعني بالضرورة أن يصير فيلسوفاً . ونحن نعلم أن الغالبية العظمى من دارسي الفلسفة لا يستحيلون إلى فلاسفة ، بل يظلون محصورين في نطاق التحصيل الجبري الفلسفي . ولكن ثمة قلة قليلة من دارسي الفلسفة يرتفعون إلى الطابق الثاني الأعلى فيكون لكل واحد منهم فلسفة خاصة به يستقل بها عن سواه ، بحيث يقدم بناء فلسفياً لم يسبق لأحد أن قلعه . وبهذا يحتل مكاناً خاصاً به بين الفلاسفة الذين يجدر بدارسي الفلسفة دراسة فكرهم والوقوف على مناحي فلسفتهم .

وعلى الرغم من أن دراسة الفلسفة تشكل قواماً ضرورياً بالنسبة لمن يريد أن يحتل الطابق الثاني ، أي عندما يرغب في أن تكون له فلسفة خاصة به ، فإننا مع هذا نستطيع أن نقرر أن إلتخام الدهن بالمواد الفلسفية يمكن أن يشكل عائقاً أمام المرء يحول بينه وبين الصعود إلى الطابق الثاني ، أي يحول بينه وبين تقديم فلسفة مستقلة خاصة به . وبتعبير آخر فإننا نقرر أن بعض التحصيل الفلسفي — وغير الفلسفي — يمكن أن يشكل تخمة خيرية لا تقل خطورة أو ضرراً عن التخمّة تصيب المعدة وتفسد باقي أجهزة الهضم . فكما أن تناول الطعام بكثرة ضار بالإنسان وقد يكون في زيادة الطعام ما يقتل أو ما يصيب بالمرض أو ما يعمل على تقريب الأجل ، كذا فإن الزيادة في التحصيل الجبري تعمل على الحيلولة بين ذهن المرء وبين هضم الخبرات التي تم له تحصيلها .

وكما أن هضم الطعام يحتاج إلى نشاط هضمي من جانب المعدة والكبد وغيرهما من أجهزة الهضم ، كذا فإن الخبرات التي يحصلها المرء من

الكتب وغيرها بحاجة إلى جهد ذهني ووجداني آخر مابين للجهد المبذول في التحصيل . إنه جهد هضمي وليس جهدا تحصيليا . فبعد أن يتم لك تحصيل أو حفظ العديد من القصائد الشعرية « فإنك تكون بحاجة إلى عملية تأملية أخرى مابينة لمجرد عملية الحفظ التي اضطلعت بها حتى يتسنى لك أن تقرض الشعر . وشاهد ذلك أننا نجد العديد من حفاظ الشعر الذين آتموا الحفظ على خير وجه كما وكيفا لا يتسنى لهم قرض الشعر . ولقد يذهب البعض إلى أن عدم قرض أولئك الناس للشعر إنما يعود إلى عدم إحرازهم لموهبة قرض الشعر . والواقع أن السبب قد لا يكون افتقارهم إلى الموهبة ، بل قد يكون اكتفاؤهم بالحفظ دون الهضم . فالحفظ تقبل والهضم امتيعاب وامتصاص بحيث يصير المحفوظ من لحم الكيان الذهني للمرء . ..

ولسنا بحاجة إلى التأكيد على أن الإلهام لا يتأتى لأى إنسان إلا إذا مر بمرحلة التحصيل ثم بمرحلة هضم ما سبق له تحصيله . ولعلنا ننحى على المنهج الذى يذهب إليه ويتخذه معظم الدارسين وننعتة بأنه منهج اجتزائى ، حيث يظن الواحد منهم أنه انتهى إلى أعلى مرتبة يمكن أن يصل إليها إنسان بمجرد شحن ذهنه بالمعلومات والمجرد أنه متمكن مما حصله واستوعبه كما كان فى أصله لدى تحصيله له . والواقع أن مثل هذا المنهج الذى يعتمد على التحصيل والتوقف عند هذا الحد هو منهج تقبلى ثقلى لا يكون المكتفى به بأكثر من نسخة مكررة مما قام بتحصيله .

وكما أن الإلهام لا يتأتى لأحد الكتب ، بل يظل الكتاب مشتملا على ما فيه دون تحول أو تطور ، كذا يكون الحال بالنسبة لأولئك الذين يقتصرون على التحصيل الجبرى المعرفى وغير المعرفى ولا يتخطونه إلى مستوى الطابق الثانى ، أعنى الطابق الخاص بالهضم الجبرى .

ولسنا نزع أن الإلهام يتأتى بالضرورة لمن يتسنى لهم القيام بالهضم الجبرى ، أعنى أن بعض من يتسنى لهم الهضم الجبرى لا يحظون بالإلهام ولا يتقدمون بمجدد جدة تامة أو يشقون طريقا جديدة لم يسبق لغيرهم أن قام بشقها .

فالواقع أن الإلهام — كما سبق أن قلنا — هو عطية توهب وليس عملية تؤدي . فأنت عندما تضطلع بالتأمل أو غيره مما يساعد على هضم الخبرات التي سبق لك أن حصلتها « إنما تكون بذلك قد أعددت نفسك لاستقبال الإلهام فحسب ، ولا تكون بالضرورة قد أمسكت بالإلهام . فأن تحصل على الإلهام لا يعني أنك بمجهودك وبقدرتك قد حصلت عليه « بل يعني فقط أنك اجتهدت في أن تهيب نفسك بحيث صرت بمثابة جهاز التقاط لاسلكي يستطيع التقاط الإشارات اللاسلكية التي توجد من حوله .

فالهضم الخبري إذن ضرورة لا مناص منها قبل التطلع إلى الحصول على الإلهامات المتباينة . ولعلنا نقرر أن الهضم الخبري ينشعب إلى هضم خبري معرفي « وهضم خبري وجداني « وهضم خبري أدائي . فبالنسبة للهضم الخبري المعرفي « فوسيلته التأمل المنطقي والغوص إلى العلاقات التي يضطلع الإنسان باكتشافها بنفسه . والهضم المعرفي لا يعني الاختصار على إقامة علاقات مخلوذة بمحدود الموضوع المعرفي الراهن الذي يكون المرء قد حصله ، بل تكون العلاقات المبتغاة علاقات آنية خاصة بالموضوع المدروس من جهة ، وعلاقات متشابهة وعامة حيث يربط التأمل بين ماحصله من الموضوع المدروس وبين جهازه المعرفي وحصيلته الخبرية برمتها التي سبق له إحرازها من جهة أخرى . وبتعبير آخر فإن التأمل في هضمه للخبرات الجديدة يستعين بكل ماسبق له تحصيله وهضمه في موقفه الجديد . فالأمر هنا يتضمن عمليات ديناميكية ، بل ويتضمن مركبات لا تقل تعقدا عن المركبات الكيميائية الشديدة التعقد . فالفيلسوف في تأمله للحقائق الفلسفية يترك نفسه يسبح ولكأنه يوجه ذهنه ولكن في نطاق دوائر واسعة جدا بحيث لا يسير في خط واحد مرسوم . فتلك الدوائر الواسعة جدا تتضمن ملايين الخطوط التي يمكنه الاختيار من بينها . فهو وإن كان يوجه ذهنه بحيث لا يخرج عن إطار تلك الدوائر الواسعة ، فإنه يتمتع بحرية كبيرة جدا ، لأن الدوائر التي يلتزمها هي دوائر واسعة لا تعمل على تقييد حركته ولا تقصره على انتهاز خط بالذات . ونستطيع أن نسمى هذا الموقف التأمل بالتسكع التأمل .

ذلك أن الفيلسوف عندما يفرض على نفسه التفكير في الفلسفة ، والرياضي عندما يلزم نفسه بالتفكير في نطاق الرياضيات ، ورجل الدين أو التامك عندما يلزم نفسه بالتفكير في إطار الدين ، فإنهم جميعاً يتمتعون بالحرية التأملية التي تسمح لهم بالتسكع التأمل . ونعني هنا بالتسكع عدم الالتزام بخط مرسوم من قبل ، كما سبق أن أوضحنا في موضوع التسكع الإلهامي . فهم يتركون الذهن يسبح فيما يرغب هو في التوجه إليه . وهم أيضاً لا يفرضون على أنفسهم نتائج معينة ، ولا يحددون لأنفسهم شروطاً لقيمة ما يتوصلون إليه من نتائج . فالفائدة أو القيمة لا يقعان في حسابان التسكع التأمل . إنه يترك نفسه على السجية وكل ما يترقبه هو الحصول على الهامات ربما تواتيه بين لحظة وأخرى ، وهي كما قلنا ليست مستمدة من عناصر الموقف بل يحصل عليها المرء من الخارج أو من باطن المركبات الخيرية المعقدة جداً ، وهي نتائج تقفز قفزا إلى الذهن وتومض ومضاً مفاجئاً ويكون على المرء التقاط تلك الومضات الإلهامية لحظة بزوغها إلى الذهن .

وما يقال عن الهضم المعرفي ينسحب أيضاً بإزاء الهضم الوجداني . ومثل هذا الهضم يجب أن يتأق للفنانين الأدباء . فبعد أن يمر الفنان والشاعر في مرحلة جيشان الانفعال ، فإن عليهما أن يهضما ما اعتمل في القلب من وجدان وما اشتعل في الجنبات من عواطف . فالهضم الوجداني الانفعالي ضروري لكي يتسنى لهما تجهيز النوات لتقبل الإلهامات الفنية أو الأدبية . وعلينا أن نقرر أيضاً أن الهضم الفني والأدبي بحاجة إلى التمرس بالهضم الأدبي لفنون التعبير الفني أو الأدبي .

ومعنى هذا في الواقع أن الهضم الأدبي - وهو النوع الثالث من الهضم الخبيري - يشكل قواماً أساسياً في الإبداع الفني . ولكأن اليتفكر ولكأن القلم والورق والتمرس بالكتابة تشكل مقوماً هضمياً لامناصاً فكما أن الهضم التلوقي في الفن والأدب ضروريان ، كلما فإن التمرس الأدبي المهضوم ضروري حتى يتسنى تقبل الإلهام .

التخفف من المموم :

يقول الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل إن الفلسفات الكبرى والمكتشفات العظيمة والمخترعات الرئيسية والأشعار الخالدة والقصص العالمية الواسعة الانتشار والتي تعتبر دعائم أساسية في الأدب العالمي لم تصدر إلا عن عقول أناس تمتعوا بالفراغ . وهو لا يقصد عدم الارتباط بأعمال ملزمة خارجية فحسب ، بل يعنى فراغ ذهن من المشاغل والمموم النفسية . ذلك أن الإلهام لا يهبط على عقل مشغول بأشياء متباينة ، ولا يداعب شخصية مضطربة وقد مزقتها المشاغل والارتباطات شرمزقة .

وحتى بالنسبة للشخصيات الاجتماعية التي يبدو أنها ممزقة بالمشاغل والقيود الخارجية ، فإن العبارة من تلك الشخصيات كانوا يهثون لأنفسهم الظروف والشروط اللازمة لاستقبال الإلهام . فإذا أنت تناولت حياة إحدى هذه الشخصيات من أمثال نابليون أو جورج واشنطن أو محمد علي الكبير مثلا ، فإنك سوف تجد أن الواحد منهم كان يزوى في ركن قصي ويعطى نفسه الفرصة الكافية لخلو البال من المشاغل بحيث يتسنى له إزاحة كابوس المموم عن نفسه . ولقد تقول إن السياسيين الكبار قد حظوا بتخصيص لا تكاد تتوافر للشخصيات العادية ، هي القدرة على الانسحاب خارجيا وداخليا إلى العالم الشخصي الخاص بالمرء بحيث تكون لهم خلوات شخصية بحثة وبحيث ينشغل الواحد منهم في أمور بعيدة كل البعد عن السياسة وأمر الحكم . ولقد يجد أحدهم نفسه في صيد السمك ، والآخر في مداعبة كلابه والعناية بحظائر الطيور ، أو الخروج إلى الحقول والمشاركة في الزراعة أوفى قطف بعض ثمار الفاكهة . وقد يخلع أحدهم عنه ملابسه التي اعتاد أن يقابل الناس بها ، ويرتدى ما يشاء من أزياء ويتخفى وينخرط في ركب العامة حيث لا يعرفه أحد فيكتشف بذلك نفسه من جديد كواحد من الشعب ، وقد خلع عن نفسه كل ما يربطه ويقيده بسدة الحكم وهيبة السلطان .

وبالنسبة للأشخاص العاديين الذين لا سلطان لهم كالفنانين والكتاب والشعراء والمفكرين بعامه فلأنهم يحاولون أيضا أن يتخلصوا كلما تسنى لهم ذلك من هموم ومشاكل الحياة التي تربطهم بالواقع الصاحب من حولهم بحيث يجد الواحد منهم نفسه وجها لوجه أمام ذاته بغير ارتباط واقعي أجبا . أو عقلي أو وجداني بالآخرين بما في ذلك أقرب الناس إليه . ولكن المهم ألا تكون تلك الحلول شكلية صورية ، بل تكون بالفعل تخففا من الموم وتفرغا تاما للحضور الذاتي . ذلك أن الواحد منا لا يكاد يستطيع أن يجالس ذاته الحقيقية ، بل هو في الأغلب مشلود إلى الآخرين . فهو يفكر وينعطف إلى الخارج ولا يفكر إلى الداخل ولا ينعطف إلى قوام ذاته .

ولعلنا نقول إن التفرغ من الموم ليس مجرد انسحاب من الخارج ■ بل هو يتطلب أولا التخلص بالفعل من المشكلات وحالات الرقب والتوقع . وهذا يتطلب بيع العالم والتخفف من أثقاله . والواقع أن المرء لا يستطيع أن يعبد سيدين : الأول - العالم بارتباطاته ومطامعه ومطامحه ، والثاني - الإلهام بأسراره التي لا تنكشف ولا تهبط على من يقيم روابط بالعالم ومشاغله . فأنت إذن أمام خيار من خيارين : إما السعي فيما يضطرب فيه معظم الناس من أمور الحياة ، فلا يكون لك نصيب من الإلهام يهبط عليك ، وإما أن تختار البحث عن الكنز المطمور أو عن الجوهرة الثمينة التي يجب أن تكرس كل جهدك من أجل الحصول عليها . فإذا كنت قد تخرجت في إحدى كليات الطب مثلا ، فإنك ستجد أمامك هذين الطريقين لتختار واحداً منهما . الطريق الأول - أن تخطط لفتح عيادة وأن تنشر نفسك بين أكبر عدد من المرضى لعلاجهم فتحصل بذلك على المال والشهرة ، وإما أن تواصل المسيرة الإلهامية في مجال الطب ، فتبحث عن مجال لم يسبقك أحد إليه كأن تحصر جهدك وذكاءك في أحد الأمراض النادرة التي لم يعرف أحد لها علاجا ، فتتضي السنوات دارسا ومجربا ومتقيا عما كتب وما سبق أن توصل إليه الآخرون شرقا وغربا في هذا المضمار ،

ومستلهما الحقائق التي تتجمع بين يديك علك تقع فجأة على العلاج الصائب . وطبيعي أنك قد تحظى بالإلهام المطلوب وقد لا تحظى به . وطبيعي أيضا أنك سوف لا تحظى بمال أو شهرة على المستوى الشعبي . وأكبر ما يمكن أن تحظى به هو أن يذكر أسمك (أو لا يذكر) بين السطور العديدة في أحد المراجع التي لا تتناولها إلا أيدي المتخصصين جداً في النقطة التي تكون قد انفتحت حياتك فيها .

فالنحن الذي يدفعه الملهمون ليس بالثمن الرخيص . فالمشهورون من الملهمين لا يكادون يشكلون سوى قلة نادرة من بين ملهمين عديدين عاشوا وماتوا وقد تركوا بصماتهم قوية ورائعة في المجالات التي اهتموا فيها ولكنهم ظلوا مطمورين لا يكاد يعرف عنهم أحد شيئاً . فحظ الشهرة لا يواكب إلا العدد القليل من الملهمين . وحتى تلك الشهرة التي يحظى بها الموهوب الملهم هي في الغالب شهرة بين الخاصة المتخصصين وليست شهرة بين العامة . وشاهد ذلك ما تراه من شهرة واسعة يحظى بها أحد المطربين الناشئين بينما لا يكاد اسم واحد من واضعي السيمفونيات العالمية يعرف إلا عند من يقدرون الفن الرفيع الذي لا يواقي إلا صفوة المتلوقين للموسيقى العالمية والحن الرفيع .

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقرر أن الطموح إلى المجد والشهرة والثراء يتعارض تعارضا كاملا مع الإلهام . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن إرضاء المعلمين بالمعاهد أو الجامعات وأخذ موافقة وتأيد الآخرين من حول المرء على النهج الذي يسير وفقه كثيراً ما يتعارض تعارضا جليريا مع الإلهام . ولقد ضربنا مثلا بشارلز دارون وكيف أنه كان خارجا عما رسم له من دراسة . ذلك أن الإلهام يتسم أولا وقبل كل شيء بالجلدة التامة . وبتعبير آخر فإن الضرب في إثر الآخرين أو حتى الامتداد بالخطوط التي سبق أن حددوا مسارها لا يقع في نطاق الإلهام من قريب أو من بعيد . فشرط الإلهام ما يمكن أن نسميه بالخروج عن الخط المرسوم ورسم خط جديد تماما .

ومعنى هذا فى الواقع أن الإلهام يتطلب الفردية وقطع أواصر التبعية بالآخرين . فاللهم شخص يشكل عالما قائما بذاته « أو هو كائن ذو محور مستقل يدور حوله ليس له صلة بالمحور الذى يدور حوله سائر الناس من حوله . فهو وإن كان يتأثر بالمؤثرات المحيطة به ، فإنه لا يتقبل تلك المؤثرات كما هى بل هو يعتصرها اعتصارا ويمتصها امتصاصا ، ويتفاعل معها تفاعلا بحيث يحيلها إلى قوام من قوامه وإلى عصارة من عصارته وإلى لحم من لحم جوهره .

ونستطيع القول إن الملهم هو شخص مستقل عن الآخرين « وقد صار طافيا على السطح يرى الآخرين ولكن من بعد ، ويتأمل الوجود من حوله بغير أن يكون ملاصقا لتلك الوجود . ولكأنه بمثابة إله أرسطو الذى وصفه بأنه يدرك الوجود من حوله بغير أن يتأثر أو أن يفعل بما يدور فيه . ولكأن الملهم شخص قد جمع مجموع وجداناته فيما يصب إليه جهده النفسى . ولنا فانك تجد الملهمين وقد فطموا فعلا عما حولهم ، ولم يعودوا يرتبطون وجدانيا بالأشياء والأشخاص ، ولم يعودوا يعاونون بالمظاهر الخارجية أو بما يتم لهم إحرازه بالاجتماع من شهرة أو ذىوع صيت أو بما يقرره لهم الناس من فضل أو ما يعترفون لهم به من عبقرية . يكفهم ما يلتنون به فيما يلهمون به .

ولعلنا نضيف إلى هذا أن من خصائص الملهم التفرغ لما يعمل فيه فى ذاته ، بغير نظر إلى العمليات التالية التى يمكن أن تتأقأ عما يضطلع به أنيا . نخذ مثلا لتلك بواحد مثل فان جوخ الذى كان يرسم اللوحات بكثرة متكررة إلى أن ضاق المكان بلوحاته . فكان يضع ما انتهى من رسمه تحت سريره . فهو لم يكن يرسم ليبيع لوحاته أساسا ، بل كان لإقبال الناس على شراء هذه اللوحة أو تلك شيئا عارضا . فسواء بيعت لوحاته أم لم تبع ، فإنه ظل مستمرا فى الرسم بنهم لا يقبل التوقف . وهذا واضح فيما سبق لنا ذكره عنه قبلا .

ولكن المرء قد اشتمل على طاقة حيوية معينة . وتلك الطاقة إما أن تتوزع بين الخارج والداخل بنسب متباينة ، وإما أن تتركز بالخارج ، وإما أن تتركز بالداخل . وبالنسبة للملهم فإن تلك الطاقة الحيوية تتركز تماماً أو بدرجة شبه تامة بدخيلة المرء . وبهذا فإن ارتباطاته وهمومه لا تكون سوى ارتباطات وهموم داخلية هي هموم الإنتاج الإلهامي فحسب . ولعل أهم ما يحرص عليه الشخص الملهم هو إسقاط عنصر الزمن من حسابه . فهو لا يرغب في الارتباط بمواعيد مع أحد . إنه ينكر التمييز بين نهار وليل ، أو بين شتاء وصيف . وقد ينسى موعد تناول الطعام أو حتى موعد عقد قران حتى وإن كان موعد قرانه شخصياً كما حدث لأحد العلماء وقد نسي موعد قرانه وكان الملعونون في انتظاره . فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شدة انقطاع الصلة بين الملهم وبين هموم ومشاكل العالم الخارجي . وبتعبير آخر فإن الشخصية الملهمة تتركز كل همومها في المجال الذي كرست نفسها لأجله . ومن هنا فإن حكم الناس على الملهم لا يكون لصالحه في الغالب لأن ما يتسم به من عدم اكتراث بما وبمن يحيطون به وخطوبه من الهموم والارتباطات لا يجعل منه شخصية اجتماعية ناجحة . ولعل أن تكون هذه هي ضريبة العبقرية والإلهام .

ساعات الخطوة اليومية :

قلنا إن من أهم شروط تهيئة النفس لتلقى الإلهام — سواء كان إلهاماً خارجياً من الواقع الخارجي الروحاني وغير الروحاني ، أم كان إلهاماً متفتقاً من دخيلة المرء ، أعني من قوامه الجبري المركب والمعقد أشد التعقد — هو شرط الخلو إلى النفس ، ومن ثم التحرر من الضغوط الخارجية التي تطمس معالم الشخصية وتجعل المرء كيانا آخر غير كيانه الحقيقي ، أو بتعبير آخر تلك الضغوط التي تجعله مجرد ناقل لما يصدر إليه ، أو التي تجعله مجرد مرآة عاكسة لما يوجه إليه من أضواء أو صور . ولا شك أن احتفاظ المرء بكيانه الذاتي وبجوهره بغير تزييف إنما يتطلب استرجاع الكينونة الذاتية كلما بدأت الضغوط الخارجية في طمس معالمها . ذلك أننا في خضم العالم من حولنا —

وهو العالم الزاخر بالضغط الحضارية المتباينة والمتكثرة كلما أخذت الحضارة في التقدم والتعقد — نفقد الكثير جدا من أصالتنا ومن قوامنا الحقيقي . بيد أن جوهر وجودنا يظل موجودا وإن تغطى وتغلف بتلك الركامات الحضارية وبما تفرضه علينا الشواغل والمشتتات الخارجية . ولكأننا أكثر مطمور يجب أن تراح عنه الأتربة التي تراكت عليه فخباته عن الأعين ونأت به عن الظهور للعيان . فثمة إذن حاجة ملحة لجلو شخصياتنا « وإزالة ما سبق أن علق بها من ركامات وأتربة وتعلقات خارجية تبعدها عن حقيقة وجودها .

والواقع أنه لا سبيل إلى استرجاع ذواتنا وجواهرنا الحقيقية إلا باتباع نظام معين يضمن لنا استرجاع ما فقدناه « أو بتعبير آخر إزاحة ما ترسب علينا من أثقال وهموم النهار . ونرى أن أنجح طريقه للملك تتمثل في التمتع بخطوة يومية بغير عزوف وبغير تواكل . على أن تلك الخطوة لا تتأق لنا بمجرد الركون إلى النوم والاستسلام للنعاس . فنحن نعتقد أن النوم ليس له دائما وظيفة تطهيرية « بل إن له في كثير من الأحيان وظيفة إجرائية . فنحن في أثناء نومنا قد نجتز خبرات اليقظة ، بل إننا قد نثبت دعائم ما مررنا به في يقظتنا ونؤكده في قوامنا النفسى . فبدل أن نفرغ همومنا في أثناء النوم عن طريق الأحلام ، فإننا قد نعمل على مضاعفة أثقال آلامنا وهمومنا عن طريق الانغماس في النوم والتردى في الأحلام التي نعيشها فنمتد بما بدأناه في حال اليقظة . ذلك أن حياتنا اللاشعورية ليست مجرد تفريغ أو تنفيس عما ألم بنا من ضغوط خارجية في أثناء اليقظة « بل إنها في حالات كثيرة قد تكون استمرارا ومضاعفة لما عشناه . فنحن لا نخرج المكبوتات في الأحلام بصفة دائمة ، كما يظن فرويد وأتباعه بشكل مطلق ودائم ، بل إننا في الحلم قد نخلق لأنفسنا مواقف جديدة لم تمر بنا ، بحيث تنوء بأحمال جديدة لم تكن نحملها قبل انخراطنا في النوم . بيد أن هذا لا يعنى أن جميع الأحلام تسير على هذا النحو . فثمة أحلام مفيدة كوسائل تنفيسية ، ولكن هذا لا يعنى إنكارنا للنوع الثانى من الأحلام الذى يضيف إلى همومنا هموما جديدة ، والذى يجعلنا

تمر بحبرات رديئة هي امتداد وتكملة لخبرات رديئة بدأناها قبل النوم وقبل الانخراط في الحلم .

وهذا يدفعنا في الواقع إلى التأكيد على ضرورة النظر إلى الخطوة التي نعنيها بعيدا عن مضمار الأحلام . فن الخطأ إذن اعتبار الانخراط في النوم أو الانخراط في الأحلام كافيا لامكان اعتبار ذلك خطوة إلى أنفسنا . ذلك أن الخطوة التي نقصدها هي خطوة إرادية مع الذات . إنها عملية سيكولوجية - أو قل أنها عملية قربية ذاتية أو تنقية وجدانية تضطلع بها ببذل كثير جهد ويقصد ووعي تامين . ومن هنا فأننا نستبعد أيضا ما يسمى بأحلام اليقظة باعتبار أن تلك الأحلام خطوة مفيدة . صحيح أننا لا ننكر أن بعض تلك الأحلام - أحلام اليقظة - تشكل عاملا تنفيسياً تماما كما هو الحال بالنسبة لأحلام النوم . ولكن كما أننا لا نستطيع أن نعتمد على أحلام النوم واعتبارها خطوة تكشف لنا أنفسنا ، وقد أظهرنا أنها استمرار لخبراتنا اليقظانية التي قد تكون رديئة ، ومن ثم فإن أحلام النوم قد تكون رديئة وضارة ، كلما فإن أحلام اليقظة قد تشكل عاملا مضيفا إلى أعبائنا النفسية أعباء جديدة . ولقد نقول إن أحلام اليقظة قد تكون عائقا بيننا وبين اكتشاف ذاتنا . وباعتبار آخر فإن تلك الأحلام قد تزيد من وطأة الضغوط الاجتماعية الخارجية ولا تسمح لنا بالتخلص من وطأة تلك الضغوط .

فلا بد إذن من تحديد مفهوم الخطوة اليومية التي نزرعها وندعو إليها كضرورة لاعداد الذات لتقبل الإلهام . إننا نعني بالخطوة اليومية الجلوس بعيدا عن عوامل التشنيت أيا كانت والبحث عن أول الخيط أو ما يمكن أن نسميه حسب تعبير إحدى مريضات فرويد بتنقية الملمخة . أو كما يمكن أن نسميه نحن باجلاء الصدا عن النفس . فنحن في حياتنا اليومية بحاجة إلى ترتيب البيت أو تنظيم المكتب ، أو أخذ حمام بعد يوم من التعب والعرق. وباعتبار آخر فأننا كما نحتاج إلى إعادة الأشياء إلى ما كانت عليه قبل الاستخدام وقبل إشاعة القوضى فيها بسبب ذلك الاستخدام وعلى نفس النحو فإننا أيضا في حاجة

إلى ترتيب ذواتنا عن طريق الخطوة الواعية مع النفس ، وهي كما قلنا خطوة يومية منتظمة ومستمرة .

ولعلنا نحدد الشرط الأول للخطوة اليومية التي تقصدها فنقول إنه ينبغي أولاً إعطاء أجهز الحواس وبخاصة جهازى الإبصار والسمع إجازة كاملة لبعض الوقت . ومعنى هذا بالتالى الامتناع عن استقبال مدركات من الواقع الخارجى المحيط بنا خلال تلك الخطوة . لئلا نتمكن من الخلو بأنفسنا فى مكان قصى لا تصلنا إليه مؤثرات صوتية أو ضوئية . والواقع أن هذا متعلم أو شبه مستحيل فى عالم اليوم . ولقد أحسست أنا شخصياً براحة عجيبة لدى انتظارى لبعض دقائق وحلى فى أحد استوديوهات الإذاعة لحين وصول المذيع لتسجيل حديث معى . لقد وجدت نفسى فى جو عجيب أحسست لحظتها أنى محروم منه عادة بالفعل . لقد كان المناخ مناسباً فعلاً لخطوة ممتازة مع النفس . ولكنها خطوة لم تستمر الوقت الكاف الذى كنت آتمنى قضاءه فى ذلك الجو المثالى الذى لا يصل إلينا فيه أى صوت من الخارج .

وإنى لأذكر الآن ما كان يفعله الشاعر شيلى الذى كان يسبدل برقعاً أسود اللون أمام عينيه حيث يريح عينيه وذنه وهو يقظان ، فكان عندئذ يرى أشباحاً شعرية سواء كانت أشباح أشخاص أم أشباح أنغام . ويصف هربرت ريد ما كان يفعله الشاعر شيلى على النحو التالى :

« يحكى أن هذا الشاعر كان يستطيع أن يلتقى بحجاب على عينيه وأن يجد نفسه فى حجرة مظلمة ، حيث كان بعيد تشكيل جميع ملامح أحد المناظر فى صيغة أكثر نقاء ، وأكثر اكتمالاً مما كانت مقلعة فى الأصل إلى حواسه الخارجية . ويجب أن نذكر أن شيلى كان يعانى من الملوسات ، التى كان لها فى بعض الأحيان أثر ضار على حياته . ويمكن اقتباس الشواهد من مصادر أقل رومانتيكية توضح القيمة العالية التى ينوطها الفنان بمثل تلك الصور عندما يتمكن من السيطرة عليها وقيادها . . . » (تربية النوق الفنى - ترجمة المؤلف) .

ونستطيع أن نؤكد أن إراحة الحواس ومن ثم الامتناع عن استقبال ملركات حسية جديدة شرط ضروري لاعداد النفس لتقبل الإلهامات . على أن الخطوة اليومية التي نقصدها يجب أن تمتد فترة معقولة لا تقل عن نصف ساعة يومياً . ذلك أن لم الشعث واسترجاع المفقود من الذاتية يتطلب وقتاً كافياً للراحة من الضغوط الحسية الإدراكية الخارجية . على أن ابطال الحواس والإدراك أو إعطاءها إجازة ليس بالإجراء الكافي لكسب الراحة الحقيقية . فثمة ما يعرف بالاسترخاء الإرادى حيث يقوم المرء بارخاء عضلاته ابتداء من الوجه وانتهاء إلى أخمص القدمين . وهذا يتطلب اتخاذ وضع متوسط بين الرقاد وبين الجلوس ، ثم التنبيه إلى العضلات عضلة بعد أخرى وفرض الاسترخاء عليها . وهذا يتطلب أيضاً الحصول على فكرة بسيطة عن العضلات القابلة للتوتر . والواقع أن الاسترخاء العضلى هام جداً لاعادة المرء إلى حالته الأولى التي كان عاباً تين مجابهة المواقف التي حملته على التوتر . ولا بد أيضاً من الاستمرار في حالة الاسترخاء العضلى فترة مناسبة مع التوقف عن تشغيل حاسنى البصر والسمع (١).

وطبيعى أن يسبق الخطوة توفير الجو المضمون لعدم الإقلاق والاعتناء على مجال الخطوة . من ذلك رفع سماعة التليفون أو حتى الهرب من المكان الذى اعتاد الناس على الاتصال بالمرء فيه . وطبيعى أن نتجنب اصطحاب أحد معنا فى خلوتنا حتى الزوجة والأبناء . وعلينا أن نقرر أن ثمة فروقا فردية بازاء ما ينبغي أن تكون عليه الخطوة اليومية . فمن الناس من يحبون الأماكن المغلقة ، بينما يجب غيرهم الأماكن المفتوحة . فالأمر متروك لما يميل إليه المرء ويفضله . ولكن ما نركيه نحن وننحو إليه هو الأماكن المغلقة البعيدة عن أى ضوضاء والمظلمة أو شبه المظلمة .

أما من حيث ما يجب التفكير فيه وسبر أغواره بالذهن فانتا سوف تتناوله بالتفصيل فى الموضوع التالى . على أننا نود أن نقرر هنا أن الخطوة اليومية يجب أن تكون مشمولة التخفف من أثقال الفكر المضنى . فهى مناسبة

(١) أنظر كتاب « الاسترخاء النفسى والعصبى » بدار نهضة مصر بالعجالة وكتاب « تلخص من التوتر النفسى » بمكتبة الأنجلو والكتابان للمؤلف »

للتخلص من ثقل الفكر والجهد الذهني . إنها استعداد للتفكير المضني
وليست مجالا لهذا النوع من التفكير .

التدريبات التأملية :

لقد قنا بالربط بين الخلوة وبين الراحة الذهنية ، ولكن هذا لا يعنى
أننا نغفل ما يجب أن تتضمنه الخلوة من نشاط ذهني من نوع معين . والنوع
الذي نعينه من النشاط الذهني هو التدريبات التأملية . والواقع أن معظم
المتقنين لا يولون التأمل الأهمية الكبيرة التي يجب أن تناط به . ولسنا
نغالي إذا قلنا إن التأمل عند كثير من المتقنين يترك للمصادفة ولا يخضع
لترتيب معين ، ولا يحتل في حياتهم مكانة زمنية محددة ، بل ولا
تسياً له الأجواء المناسبة التي يمكن ممارسته من خلالها . فما يواقي المرء
بالمصادفة من تأملات يكون بمثابة منحة أو عطية لا دخل لجهد المرء فيها .
ولكأن التأمل نشاط ليس في استطاع المرء ممارسته عن قصد وترتيب ، بل
هو يواتيه بالمصادفة أو بترتيب غيبي لا دخل له فيه . ولقد نغزو هذا
الاعتقاد السائد لدى كثير من المتقنين إلى وجود وانتشار وذيوع اعتقاد
آخر هو أن القراءة والتحصيل وحدهما هما اللذان يقعان في مقدور الإنسان .
أما التأمل فانه يخرج من إطار قدرة الإنسان . إنه في رأيهم أشبه ما يكون
بالإلهام ، مع أن الواقع مباين لذلك تماماً . ذلك أن التأمل عملية نشاطية
ذهنية تخضع لأمرة المرء . إنه يناظر التدريبات الرياضية بالنسبة للجسم .
فكما أننا نلرب الجسم على حركات معينة ، كذا فأننا نلرب الذهن على
اتجاهات محددة لمساره . ولعلنا نشبه القراءة والتحصيل بالغذاء والشمس
والهواء مما يصل إلى الجسم ويقوم على استمرار وجوده ونشاطه . وكما أن
تناول الطعام والتعرض للشمس والهواء التي لا يكتفى لتوفير الرشاقة في الحركة
ولا للإتيان بالحركات الجسمية الدقيقة ، كذا فان الانكباب على القراءة
والتحصيل فحسب ، لا يكفل للمرء الاتيان بالأفكار المستحدثة ولا يضمن
إحراز القدرة على الإبداع العقلي والوجداني .

وعلينا في هذا المقام تقديم مجموعة من التدريبات التأملية التي ننصح بممارستها في الخطوة اليومية على التوالي، ويمكن ممارسة تدريب واحد أو أكثر في الخطوة الواحدة من بين هذه التدريبات التي يمكن للقارئ المثقف وضع تدريبات لنفسه على مثالها أو في صيغ جديدة مبتكرة حسب ما يرغب ووفق طبيعته التأملية . على أننا نعتقد أن هذه التدريبات يجب أن تخضع للممارسة المنتظمة لأن الاقلاع عن استمرار استخدامها يضيع الفوائد التي تم تحصيلها بالفعل ويكون على المرء إذن أن يبدأ من جديد .

التدريب الأول : وهو خاص بالتركيز الذهني والتخلص من عوامل التشيت .

أولاً — بالنسبة لذاكرة الأشخاص — اطلب من نفسك في خلوتك تذكر أسماء وأوجه آخر عشرة أشخاص قابلتهم اليوم . ثم اسأل نفسك عن أسماء وأوجه عشرة أشخاص كانت تربطك بهم علاقات وماتوا . ثم تذكر أسماء وأوجه عشرة أشخاص من المعلمين (ذكورا أو إناثا) قلموا في يوم ما بتدريسك أيام كنت تلميذا صغيرا أو مراهقا أو شابا . ثم اسأل نفسك عن أقرب عشرة أشخاص إلى قلبك وأكثرهم مودة لك . ثم اسأل نفسك عن عشرة أشخاص يشبهونك في طريقة التفكير وفي الميول العامة . وحذار من التوقف عند أى شخصية من هذه الشخصيات التي تتذكرها لتمضي في التفكير في أحداث أو وقائع تتعلق بها لأن المطلوب منك هو تركيز الذهن في المطلوب فحسب ، أو تذكر الأسماء والوجوه فحسب وليس أكثر من ذلك .

ثانياً — بالنسبة لذاكرة الأرقام : وأنت في خلوتك المأظلمة عليك أن تذكر أرقام تليفون عشرة من معارفك واسم كل منهم بوضوح . ثم تذكر أرقام البيوت التي أقمت فيها مع أسرته منذ طفولتك حتى اليوم ، ثم تذكر عدد الأدوار التي تسقتها خلال نهارك، وكم أنفقت من نقود طوال هذا النهار، وتذكر أيضا عدد الكتب التي قمت بقراءتها أو عدد الكتب

التي اشتريتها أو عدد الكتب التي تضمها مكتبك . وحذار أيضا من الخضوع لتوارد الأفكار ، فتنسى المطلوب منك وتستمرسل في التفكير . إنك تريد أن تدرب نفسك على التركيز فيما تقوم بذكره ، فتخضع ما تذكره لنفسك ولا تخضع أنت لما يرد إلى ذاكرتك .

ثالثاً — بالنسبة للعلاقات في المركب الحسابي الواحد . عليك أن تأخذ أحد الأرقام المكون من ثلاثة أعداد مما يقبل القسمة على ٢ مثلا ، ثم ابحث بذهنك عن عدد الاثنيات التي يتضمنها الرقم الذي تختاره . وطبعا لا تستخدم ورقا وقلمًا ، بل ركز ذهنك وحاول تحليل الرقم الذي قمت باختياره اعتباطا . افعل نفس الشيء بالنسبة لأرقام أخرى مما يقبل القسمة على ٣ أو ٥ أو ٧ ... الخ .

التدريب الثاني : وهو خاص باستحداث الأشكال الجمالية :

خذ ورقة بيضاء وقلم رصاص واطلب من نفسك رسم أى خطوط تحس أنها تنساق جماليا مع نفسك . اترك القلم في يدك يخطط بغير إجماع أو بغير تدخل من جانبك . استمر في الرسم كيفما اتفق . لا مانع من أن تتداخل الخطوط . استمر في الرسم وحاول أن تقدم أمام ناظريك أجمل أشكال خطية يوحى بها إليك . ليس المطلوب منك أن تصور شخصا أو شيئا ، بل المطلوب هو القيام برسم الخطوط التي يوحى بها إليك . وهي التي تعبر عن خليجات وجدانك والتي تعبر عن الانسجام الجمالي الذي تحس به في أثناء التأمل . استمر في هذا التمرين أطول مدة ممكنة لأنه يفيدك في التركيز وفي تنظيم وجدانك ولم شعئك واشاعة الهدوء في نفسك .

وبالنسبة للتأمل الجمالي الصوتي عليك أن تستحدث نغمة من تأليفك فوراً وأن ترددها بصوت مسموع خافت . لا يهم ما تكون عليه تلك النغمة ولا يهم حكم أى شخص عليها . المهم أنها نغمة تستحدثها أنت بنفسك ولنفسك . إنك لست ملحقا ، ولست لذلك مسئولاً عن جودة ما تقدمه أو ما تبتكره .

المهم هو أن مثل هذا الاستحداث النغمي سوف يعود عليك بفائدة كبيرة لأنه يكشف عن مزاجك الجمالي الصوتي ويصبرك بما تهواه نفسك من أنغام . كرر المحاولة أكثر من مرة ولا مانع من ترك نفسك ترقص مع اللحن الذي تخلفه بنفسك ولنفسك . المطلوب هو أن تحيا وجودك الحقيقي بهذا التمرين « أعنى وجودك الجمالي الصوتي » .

التدريب الثالث : وهو خاص بتأمل أحد الشعارات ولتأخذ مثالا لما يمكن أن تقوم بتأمله :

اعرف نفسك . هذا هو الشعار الذي أطلقه سقراط . تأمل هاتين الكلمتين . هل يستطيع غيري أن يكشف نفسي ، أم أنى أنا وحدي الذي أستطيع الكشف عن هذه القارة المجهولة التي هي أنا ؟ أنا إذن مجهول حتى من نفسي . المعرفة التي أقرأها بالكتب لا تستطيع أن تقفني على حقيقة ذاتي . إذن لابد أن أتفحص نفسي لأعرفها . ماذا أقصد بكلمة «نفسى» ؟ هل أقصد جسمي وإمكانياته أم أقصد عقلى أم أقصد أشياء أخرى ؟ لابد إذن من تحديد معنى «نفسى» . فلأبدأ بما يتركه الانسان من آثار ولأبدأ بالرجوع من تلك الآثار إلى دخائل النفس البشرية . أجد أمامي علاقاتي بالآخرين . هل هي مجرد تقليد لما أشاهده حولي من سلوك أم أنى أعبر بتصرفاتي عن واقع نفسي معتمل بداخلي ؟ فلأسأل نفسي إذن هل أنا خاضع لعادات رديئة ؟ وهل هناك أشياء تضايق الناس مني ؟ وهل ما يضايق الناس مني يكون بالضرورة أشياء رديئة ؟ إننى أجد أن الحساد يتضايقون من تصرفات جيدة أقوم بها . إذن الاعتماد على مواقف الناس منى لا يكتفى للحكم على نوعيات سلوكي . فاذن لابد من التوصل إلى مجموعة مبادئ أو شعارات سلوكية أحثها والتزم بها وأفرضاها على الواقع من حولي . ماذا تكون هذه الشعارات ؟ لترك الإجابة لك . استرسل في التفكير وابحث عن وسائل سير أغوار النفس .

التدريب الرابع : وهو خاص بالمرور في خبرة مشابهة للخبرة التي مر بها شخص آخر .

لنضرب مثالا بكتاب « التأمّلات » الذى ألفه ديكارت وقام بترجمته الدكتور عثمان أمين . إنك ربما تقوم بقراءة هذا الكتاب ولا تخرج منه إلا بمجموعة من المفاهيم . لكن الواقع أن كتابا كهذا لا يقرأ بل يمارس . إنك تجد فيه مجموعة من التمرينات الذهنية التى اضطلع الفيلسوف بالمرور بها ومعاناة تجربتها . إذن عليك — إذا أردت — أن تتناول كل تدريب مما مر به الفيلسوف وتعانى مثله تماما . لا تقرأ الكتاب فى عجلة « بل عش الكتاب مرحلة مرحلة . إنك ربما تخرج بنتائج جديدة لم يصل إليها الفيلسوف نفسه . والمهم فى الواقع أن تتعلم من ديكارت طريقة التأمل لا أن تصل إلى نتائج معينة . عش مثله فى وحدة . يقول ديكارت فى ص ١٢٣ من الكتاب المذكور : « الآن سأغمض عيني وسأصم أذني » وسأعطّل حواسي كلها « بل سأححو من فكرى صور الأشياء الجسمية جميعا » أو على الأقل سأعدها باطلة زائفة ، ما دام يحوها عسيرا . وسأبذل جهدى حين أخلو إلى التحدث إلى نفسى وأعكف على النظر إلى دخيلتى « فى أن تزيد على التلريج معرفتى بنفسى وعشرتى لها . « عليك إذن أن تعايش ديكارت وتعمل مثله « وأن تتلرج معه خطوة بخطوة ، فصبير مثله أو قريب الشبه منه ، ومن ثم تكون قد هيأت نفسك لاستقبال الإلهام . بيد أننا إذا كنا قد ضربنا مثالا بديكارت وكتابه « التأمّلات » فإن هذا لا يعنى ضرورة التزامك بشخصية واحدة . إنك تستطيع أن تعايش شخصيات كثيرة سواء كانت شخصيات دينية أم شخصيات فلسفية أم شخصيات سياسية أم شخصيات أدبية . المهم أن يقع اختيارك على تجربة شخصية حية وتعيشها بالفعل .

الفصل العاشر

الطبيعة كمصدر الهامى

الطبيعة وشبه الطبيعة :

كثيراً ما نقرأ بالكتب الأدبية أن المرء عندما يتوجه إلى الريف ويسير بين المزارع ، فانه يكون بذلك فى أحضان الطبيعة . والواقع أن الطبيعة الخليقة بهذه التسمية ليست الحقول والبساتين ، بل هى الغابات والحشائش كما وجدت بغير تدخل من جانب الإنسان . ولعلنا لا نبالغ إذا ما قلنا إن شأن الحقول والبساتين هو نفسه شأن الشوارع والعمائر المقامة بالمدن . فمن يميز لنفسه إطلاق كلمة طبيعة على الحقول والبساتين يجوز له أيضاً أن يسمى الشوارع المرصوفة والعمائر المقامة بالطبيعة . ومن الطبيعى والمعترف به من الجميع أنك إذا سرت فى أحد شوارع القاهرة مثلاً فانك لا تزعم عندئذ أنك تتره فى أحضان الطبيعة . وبنفس المنطق فانك لا تستطيع أن تزعم أنك فى أحضان الطبيعة إذا ما قمت بالتجول فى أحد البساتين أو اذا سرت مع أصدقائك فى أحد الطرق الزراعية والحقول من يمينك ومن يسارك .

والطبيعة فى رأينا — وهذا هو عين الواقع — هى المكان الذى لم تمسه يد إنسان بالتعديل أو التعيد أو التهذيب أو التطوير . فإذا قبض لك أن تسلك عبر إحدى الغابات أو أن تشق طريقك فى الصحراء أو أن تصعد على سفح أحد الجبال غير المعبدة وغير المهذبة وغير المطورة أو المصطنعة ، فانك تستطيع عندئذ أن تزعم أنك موجود فى أحضان الطبيعة . ولكن اذا جلست فى أحد الكازينوهات المقامة على سفح جبل من جبال

لبنان أو عند سفح المقطم بالقاهرة ، فيجب أن نحذر من استخدام كلمة طبيعة .

يبد أننا مع هذا نستطيع أن نقول إن هناك ما نسميه بشبه الطبيعة وليس بالطبيعة . فالبساتين والحقول ليست طبيعة بل هي شبه طبيعة . فلقد اقتلع الإنسان منذ آمام بعيدة ما كان نابتا بالفطرة في تلك الأراضي وقام هو باستنباتها وتطويعها ففقدت بذلك عنصرا جوهرياً من كيانها . وذلك بما أدخله عليها من تعديلات وبما أقحمه عليها من خصائص جديدة لم تكن تتصف بها . لقد أخذ يزرع نباتات لم تكن لتررع بها قبلا . بل إنه أخذ يعبث بالتربة ذاتها فاحل تربة جديدة محل التربة الأصلية . أو أضاف إليها عناصر وأسمدة حتى يضمن محصولا أوفر . أو حتى يلائم بين العناصر الغذائية التي يحتاج إليها النبات الذي يقوم بزرعة وبين العناصر الجديدة التي يقدمها لتغذيته ومساعدته على النمو .

ولعلك تقول نفس الشيء بالنسبة للحيوانات التي صارت تعيش في رحاب الإنسان وبمحايتة وتوجيهه واستغلاله. إننا نستطيع أن نجزم بان الحصان الذي نستخلمه اليوم في جر العربات أو الذي نمتطي صهوته قد فقد الكثير من طباعه الأصلية التي نستطيع الوقوف عليها لدى الأحصنة التي لم تمتد إليها يد الإنسان بالاستئناس والرعاية والتربية . وقل نفس الشيء بالنسبة لما نراه من طيور في بيئة الإنسان . إنها لم تعد تعيش في نفس البيئة التي عاش بها الطير وهو في حال الطبيعة ، ومن ثم فإن الكثير من عاداته الأصلية قد فقد . وحتى بالنسبة للمواد التي تقوم طيور المدن ببناء أعشاشها منها ، فإنها تباينت عما كان عليه حالها بعيدا عن الحضارة الإنسانية . ويبعدا عن الحمامات أو المواد التي صارت الطيور الحديثة تستخلمها في بناء أعشاشها .

والواقع أن من الصعوبة بمكان أن يجد المرء الطبيعة على حالها الأصلية لكي يلقي بنفسه في أحضانها إذا ما أراد ذلك . ولنا أن نقول إن إنسان

اليوم صار منذ أول نهاره حتى صبيحة يومه التالى وهو محاط بيئته مصطنعة حتى ولو انتقل إلى شاطئ البحر في الصيف ليلقى بثقل متاعبه على شاطئه وقد خلع عن نفسه ما ظل يتقله عدة أشهر من أزياء مرتديا لباس البحر الذى يقربه من حال الطبيعة فحسب . واذا ما سأل أحد عن البحر « وهل هو طبيعة زائفة هو الآخر ؟ فأننا نقول لا ولكن البلاجات والمظلات والكازينوهات وما يرتديه الإنسان وما يستخلعه من مراكب شراعية أو بخارية إنما هو بعيد عن الطبيعة . فما ينبئ من طبيعة البحر هو ما لا يكاد الإنسان الحديث يحيا في إطاره . ولعلك تصافح طبيعة البحر مباشرة اذا أنت جلست على صخرة بعيدا عن ضوضاء المصطافين وأخذت في تأمل البحر في صخبه وهلوثة بغير أن يقطع عليك جبل التأمل شيء أيا كان . ولعلنا نزعم بحق أن الجو الحضارى الذى يتقله المصطافون عادة معهم من المدينة إلى الشواطئ لما يبعد بهم تماما عن حضن أمهم الطبيعة التى يشتاقون إلى الإلقاء بأنفسهم في حضنها . فحتى الشواطئ التى جعلت أصلا للاصطياف والعودة الى ما يشبه حال الطبيعة تبعد هى أيضاً بعدا شاسعا عن مضمونها القطرى الطبيعى » وتكتسب صبغة حضارية مصطنعة بعيدة عن الجوهر والأصل .

واذا كان هذا هو حال البيئة من حولنا وقد استحوطت عن طبيعتها الأصلية الى ما أراد لها الإنسان أن تكون عليه ، وقد صبغها بأصباغ حضارته التى كثيرا ما تكون أصباغا باهتة بل أصباغا ممسوخة مفسدة للألوان الطبيعية التى كانت تتمتع بها تلك البيئة قبل أن تعيث بها اليد البشرية « فانه في نفس الوقت حال الإنسان نفسه . وحتى بالنسبة للجسم البشرى والبنية البشرية، فان الحضارة البشرية قد انحرفت بها كل الانحراف . فالحضارة قد أبعدت بنيتنا الجسمية عن القوام الأصلى لها . فالملابس تحمى أجسامنا من الحر والبرد ، ولكنها في نفس الوقت قد عملت على قتلان أجسامنا للمناعة والقدرة على مقاومة الظروف المناخية الصعبة . والأطعمة التى تتناولها والتى افنتت يد الإنسان في طهيها ، وقد عذبت روائعها

واستسيغت طعومها ، قد فقدت الكثير من فوائدها الأصلية ، بل إنها صارت في كثير من الأحيان ضارة بالجهاز الهضمي . وفي النهاية صار الإنسان منحرفاً عن طبيعته الأصلية التي جبل عليها ، وهي الطبيعة التي كانت تناسب وجوده وبقائه . وحتى اللواء ومساندة الضعفاء من النسل البشرى وإن كان ذا فائدة عظيمة بالنسبة للأفراد والأمم ، فانه على المستوى البشرى العام قد أدى الى تناسل الضعفاء الذين كانوا ليواروا التراب لولا الطب والعلاج لعدم صلاحيتهم للحياة . وهكذا نجد أنه على المستوى العام فقد انحرف الإنسان عن طبيعته كنوع حيواني يتربع على قمة الهرم الحيواني ، أو هكذا نزع نحن البشر هذا الحد الموهوم لأنفسنا . وحتى اذا نحن صدقنا أنفسنا ، فما لا شك فيه أننا لا نتربع تلك القمة الموهومة في الواقع بسبب الذبول البيولوجي الذي سببته لنا الحضارة والذي تأتى لنا نتيجة بعدنا عن حال الطبيعة التي كان يتمتع بها أسلافنا البعيدون جداً في عصور ما قبل الحضارة .

ولا يقتصر الأمر على تزييف طبيعتنا البيولوجية ، بل ان الحضارة والبعد عن الطبيعة الأصلية قد أفقد الإنسان الكثير جداً من المواهب الروحانية التي كان يتمتع بها في الآماد البعيدة . فمالا شك فيه أن الحضارة بما تقدمه إلى الناشئة من ثقافات متباينة قد أثقلت الكواهل وملأت العقول بالمفيد والضار في نفس الوقت ، بل إنها حرمت الإنسان الحديث من نعمة التأمل ومن نعمة البقاء على حال الفطرة في المشاعر والأحاسيس الوجدانية . ولذا فان علماء النفس يبحثون اليوم عما طمر في الطبيعة البشرية من قدرات مثل التخاطر وقراءة الأفكار ، بل إن البعض من علماء النفس يبحثون اليوم في مجال علم النفس الروحاني عن وظائف أخرى للمخ البشرى غير الوظائف الاستقبالية المعروفة . إنهم يزعمون أن المخ البشرى ليس مجرد آلة استقبال ، بل هو جهاز استقبال وإرسال في نفس الوقت . فثمة قوى وقدرات روحية منوطة بالإنسان ، ولكنها فقدت — أو بالأحرى صعدت — نتيجة عدم الاستخدام ، أو نتيجة التطويع والتطوير والتربية

غير الروحانية ، وما تزدحم به الحياة البشرية الحضارية من خبرات يكون على الإنسان فهمها واستقبالها وهضمها ، ومن ثم عدم اعطاء الفرصة للوظيفة الإرسالية للظهور والاعمال في حياة الإنسان الحديث .

وإنسان هذا شأنه لا يستطيع أن يستلهم طبيعة هي في الواقع شبه طبيعة . فهو من جهة صار منحرفا عن طبيعته الأصلية التي فطر عليها ، ومن جهة أخرى فإن الطبيعة من حوله قد شوّهت وانحرفت عن مسارها الأصلي : والخطير والمؤسف في نفس الوقت أن إنسان الحضارة ينظر باحتقار إلى الطبيعة ، بينما يعول كل التحويل على التطويرات الحضارية التي يفرضها فرضا على نفسه وعلى الطبيعة من حوله . ولا شك أن اتجاهها كهذا من شأنه أن يحرف البقية الباقية من الطبيعة ، أو قل البقية الباقية من شبه الطبيعة فتطغى الحضارة أكثر من طغيانها الحال وتقتضى على كل أمل أمام الإنسانية في استلهام الطبيعة على حقيقتها وبغير تزييف أو انحراف عن الجادة . والمعجزة التي يأمل محبو الطبيعة في حلوثها هي أن يكتشف الإنسان ذلك الزيفان الحضاري الذي تردت فيه الإنسانية حقبا طويلة ، ويعود إلى نفسه من جديد ، ويزيح في نفس الوقت عن وجه الطبيعة مالوثها ومسحها بحيث تسترجع أصالتها وتترع عن وجهها برقعها الزائف ..

الشوق إلى حضن الأم :

إننا نعتقد أن هناك شوقا طبيعيا إلى الموت يعتمل لدى كل إنسان بعد مروره إلى شيخوخة طبيعية . ذلك أنه لا تناقض بين دورة الحياة الطبيعية وبين الجبلية البشرية . فكما أن الجنين يرغب لا شعوريا في الخروج من أحشاء الأم ليستمر في دورة حياته الطبيعية ، كذا فإن الشيخ ينحو ويصبو إلى الارتقاء في حضن أمه الأرض . فكما أن الإنسان يبدأ من تراب ، فإنه ينتهي أيضا إلى تراب . وكما أنه يستعير وجوده البيولوجي بمساعدة النبات والحيوان يأكلهما ويتمثلهما في قوامه البيولوجي ، كذا فإنه لابد أن يعيد الدين إلى أصحابه . فمن جسمه تتسجد الأرض من جديد ، ويجد النبات

غذائه من التربة التي تغذت من جثته المتعفن ، وبالتالي فإن الحيوان يجد ما يتغذى به من نبات ، وبالتالي مرة أخرى يجد الناس ما يتغنون به من نبات وحيوان . وهكذا تكتمل الدائرة وتستمر دورة الحياة من تربة إلى نبات إلى حيوان إلى إنسان ، ثم أخيراً إلى التربة من جديد .

ولكن قد يتساءل سائل : كيف تقول هذا الكلام ونحن نرى الشيوخ الذين ضربوا في العمر أمدا طويلا وهم يتحسرون على شباب ولى وعلى موت يقترب منهم وقد فتح فاه مستعدا لأفتراسهم ؟ الواقع أن الجبلية البشرية الطبيعية شيء ، وما تضيفه الحضارة الإنسانية إلى تلك الجبلية شيء آخر . فما تعتمد إليه الحضارة من تصوير للموت بأنه وحش غادر ، وما تعتمد إلى إحاطة الإنسان به من مقومات حضارية كثيرة ومتنوعة إنما يعمل في النهاية على إحالة الموت إلى شيء لا يمكن تحمله ولا يمكن تخيل وقوعه .

والواقع أن من قاموا بوصف الموت ومعاناته سواء بالقلم أو باللسان أو الفرشاة بالألوان هم من الشباب أو من الكهول . ونحن نعلم أن الناس في الشباب والكهولة يعزفون عن الموت بطبيعتهم تماما كما يعزف الرضيع عن الخروج من حضن أمه وقد تشبث بذلك الحضن وكأنه يمثل العالم بأسره . ولكن لسان حال الشيخوخة وبخاصة بالنسبة لأولئك الذين لم تستطع الحضارة ترك بصمة ثابتة على شخصياتهم ينطق باشتهاء الموت والتخلص من الحياة . فالحياة إذن مجموعة من الرغبات والميول والأهواء . فاذا ما زهد المرء فيما كانت تنوق إليه نفسه في طفولته ومراهقته وكهولته ، فانه يجد أن جميع وسائل التعلق بالحياة قد نفذت ، وأن الموت هو الحلقة التالية المستظرة والتي يجب الانخراط فيها والتعجل بالوصول إليها .

ونستطيع أن نؤكد أن الموت في الشيخوخة الطبيعية غير المصحوبة بالمرض وآلامه إنما يكون شيئا هينا وطبيعيا وبغير معاناة . ولنا لنجد المعاناة الحقيقية تتركز في المرض لا في الموت . وأكثر من هذا فلعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الموت نفسه هو المنقذ الوحيد من كثير من أمراض

وأوجاع الجسد في الشيخوخة . فإذا كنا مؤمنين بخلود الروح وأنها تفارق الجسد بعد الموت إلى حيث تكون ، فانتا نؤمن إذن في نفس الوقت بان الروح لا تتألم بالأمراض التي كانت قد أصابت صاحبها ، وأنها بانطلاقها من الجسد فانها لا تكون مشوبة بأي وجع أو ألم كان يتالم أو يتوجع منه صاحبها قبل الموت . وإذا كنا غير مؤمنين بخلود الروح أو غير مؤمنين حتى بوجود الروح أصلا ، فانتا في نفس الوقت تكون مؤمنين بأنه بموت الشخص فان نهاية أوجاعه وأسقامه تكون محتومة بموت المرء . إذن سواء كنا مؤمنين أم ملحدين ، فانتا في الحالتين لابد نؤمن بأن الموت هو نهاية المطاف لخضوع الانسان لأوجاع المرض سواء في الشيخوخة أو ما قبلها .

فالحضارة الوافدة على الطبيعة البشرية هي التي تحارب الموت وتبقى على الحياة في جميع أشكالها . وهي لكي تؤكد اتجاهها تعتمد إلى بث المخاوف الشديدة من الموت ومن كل ما يتعلق به . ونحن نعلم جيدا ما كشف عنه بافلوف العالم الروسي من أن الخوف أو أية استجابة أخرى كالفرح والتعزز والحب والكراهية ونحوها لا تكون مرتبطة بالضرورة بالمثير الأصلي ، بل يمكن أن ترتبط بأي شيء آخر يتلازم مع ذلك المثير الأصلي سواء بالاقتراب المكاني أم بالاقتراب الزماني أو بالاقتراب بمعنا. وبذا يمكن أن يخاف المرء من اللون الأسود لأنه يرمز إلى الحزن على فقيد ، ويخاف الناس من منظر النعش أو من عربة الموتى حتى ولو كانوا خاليين من جثة الميت . وإذا ما سمع شخص أجراس إحدى الكنائس وهي تلق دقاتها الثلاث المتواترة ترحيبا بالميت للصلاة عليه أو توديعا له وهو خارج منها ، فان شعر رأسه قد يقف وتستولى عليه جميع دلائل الخوف من الموت . ونفس الشيء إذا ما سمع المرء أصوات المكبرين وقد ساروا خلف نعش حتى ولو كان المرء باحدى غرف شقته ولا يرى النعش ولا المشيعين . فمجرد ارتباط أي شيء بالموت يحدث الخوف منه . ولقد لا نبالغ في القول إذا زعمنا أن المخاوف التي تصيب الانسان نتيجة ما يرتبط بالموت تزيد كثيرا جدا عن كمية المخاوف التي يحدثها الموت نفسه .

والواقع أن ما قد يعتل من ألم نفسى يعتصر جنبات المرء المحب للشخص المشرف على الموت قد تزيد مرات ومرات عن تلك الآلام التى تصيب الشخص المشرف على الموت نفسه . ذلك أن المشرف على الموت يكون فى غالبية الحالات قد فقد جانباً كبيراً من وعيه بحيث يعانى سكرات الموت باعتباره كائناً حياً يموت لا باعتباره إنساناً يفكر ويعقل ويدرك تمام الإدراك ما يحدث له . ولعلنا نكون بالفعل قد سبق أن أقرينا فى يوم ما من الموت وعانينا من شبه سكراته ونحن فى أشد حالات المرض التى نكون قد أصبنا به . صحيح أننا فى تلك اللحظات قد عانينا ، ولكن أحياءنا من حولنا كانوا يعانون أكثر منا . ذلك أنهم بعقولهم الواعية يضيفون الى واقع مشاعرهم أخيلة مبالغاً فيها حول ما نعانيه نحن من آلام وأوجاع .

وعلى الجملة نستطيع أن نقول إن ثمة شوقاً طبيعياً إلى حضن أمان الأرض . فنحن ننحو بطبعنا وبغريزتنا وجبلتنا إلى أن نكمل الدورة ونموت . فالموت كالانخراط فى النوم بعد السهر ، وكاليقظة بعد أخذ القسط الكافى من النوم ، وهو كالإقبال على الطعام بعد الجوع ، وكالانصراف عن الطعام بعد الشبع ، وهو كالشرب بعد العطش ، وكالزوف عن الماء بعد الارتواء . فنحن بعد أن نشبع ونرتوى وتأخذ القسط الكافى من الحياة نزهد فى البقاء على هذه البسيطة وننحو بقلوبنا قبل عقولنا إلى الموت .

يبد أن الغريزة وطبائع الأشياء فى جانب ، وما تنتشره من قيم ، وما تتأثر به من اتجاهات ، وما يملك على عواطفنا ويأخذ بزمام وجداننا شئ آخر . والواقع أن الإنسان يتسم بدرجة كبيرة من المرونة ومن القابلية الشديدة للتشكل والتكيف لما ليس من صميم طبيعته . فنحن نحب المال والجاه مع أن طبيعتنا لا تعرف المال ولا الجاه . وحتى إذا كان فى طبعنا البشرى ما ينم على حب الاقتناء وحب السيطرة على الآخرين والتفوق

على سوانا من أشخاص ، فان في طبعنا أيضاً وفي خصائص جبلتنا البشرية ما يؤكد زهد الإنسان في الامتلاك وفي السيطرة بعد أن ينخرط في الشيخوخة. ولكن الطبيعة أو الجبله شيء ، وما تنربي عليه وتنتشره من قيم واتجاهات شيء آخر . والأغلب أن ما نتعلمه وتنربي عليه يسيطر متفوقا على ما جبلتنا عليه بالفطرة . فليس من السهل أن نتخلص مما اعتدنا عليه في صبانا وشباننا وكهولتنا . وحتى عتلمنا نحس بالزهد في الأشياء وفي العلاقات الاجتماعية في الشيخوخة ، فاننا نجد أن المحيطين بنا يعملون إلى حثنا على الاستمسك بالحياة وعلم التصريط فيما سبق تحصيله بشق الأنفس . ومن ثم فاننا نخضع لما يقال ونرجح كفة المؤثرات البيئية والتقاليد والقيم الاجتماعية على كفة ما نتدفع إليه وننحو إليه بطبعنا .

فنحن في الشيخوخة نجد أن غريزة الموت ترجح على غريزة البقاء . ولقد كشف فرويد عن وجود هاتين الغريزتين لدى جميع الناس . فبينما نميل إلى التمسك بالحياة غريزيا ، فاننا من الجهة المقابلة ننحو أيضاً إلى القناء والانخراط في الموت . ولعل أن تكون غريزة البقاء أكثر قوة لدى الأطفال عنها لدى المراهقين ، وأنها أقوى لدى المراهقين عنها لدى الشباب ، وأقوى لدى الشباب عنها لدى الكهول . ولعلها أن تكون أضعف من غريزة الموت لدى الشيوخ . ولذا فاننا نجد الكثرة الكثيرة من الحوادث القاتلة هي تلك التي يتعرض لها الشيوخ . فالشيخ أكثر عرضة للهلاك من أصحاب الأعمار السابقة ، لا لأنه أقل انتباها وأبطأ حركة منهم فحسب ، بل لأنه لا يكون في الواقع حريصا على الاستمرار على قيد الحياة مثلاً يكون عليه حال الآخرين من غير الشيوخ . ولكن يجب أن نضع في حسابنا مرة أخرى عوامل التربية ، وتأثير القيم وما اكتسبه الشيخ من عادات قد تتغلب على كفة وقوة ما يعتمل في جبلته بالفعل .

وليس من شك في أن غريزة الموت التي كشف فرويد النقاب عنها دليل واضح وكاف للبرهنة على أن الإنسان بطبعه يميل إلى الارتقاء في

حضن أمه الأرض . وقد يجد المرء الذرائع التي تشجعه على مثل هذا الإلتواء فيسارع الى حتفة برجليه وبعملء إرادته وليس بأى ضغط خارجى . فعندما يدق ناقوس الخطر كاشتعال حريق فى مبنى ، أو عندما تعلن الحرب أو عندما يقوم شجار بين قبيلتين أو أسرتين أو عندما تنطق جنة « الأنا » لتحل محلها جنة « النحن » ، فانك تجد أن الراغبين فى الموت كثيرون جدا . وهذا إن دل على شىء فانما يدل على أن القشرة الرقيقة بالشخصية التي تسمى بالأنا سهلة الانتزاع . بحيث يظهر النحن ويعمل فى الواقع الاجتماعى . ولكأن طبيعتنا البشرية هى طبيعة « نحنة » — إن صح التعبير — وليست طبيعة إنية أو أناية . وبعبارة أخرى فإن الرغبة فى الموت لدينا أقوى من رغبتنا فى الحياة . فنحن نتوق إلى الارتواء فى حضن أمنا الأرض .

الانتهار الوجداني :

قلنا إن هناك توقا ورغبة لا شعورية عامة لدى البشر للارتواء فى حضن الأرض والرجوع إليها بعد اكتمال دورة العمر . بيد أن هذا الشوق يتخذ له صبغا متباينة غير الموت خلال الحياة . ومن ضمن هذه الصبغ التي نقصدها الصبغة الوجدانية حيث يريد أو يصبو المرء إلى الفناء وجدانيا فى الطبيعة . والواقع أن الحب والفناء فى شخص المحبوب شىء واحد . ونحن هنا نستخدم كلمة « شخص » بالمعنى العام للفظ . فالشخص المحسوس هو شخص بهذا المعنى . فالأرض والكواكب أشخاص إذن . وحب الطبيعة صنو للرغبة فى الفناء فيها . فالشاعر عندما يهتر وجدانيا بأى مظهر من مظاهر الطبيعة ، كأن يهتر وجدانيا لمنظر جبل عال ، أو لدى سقوط المطر غزيرا أو عندما يشاهد الندى يتساقط على أوراق الورد ، فانه يكون عندئذ مقبلا بالرغبة فى الاتحاد مع الطبيعة التي يقع عليها حسه . فالحب هو الرغبة فى الثلاثى فى المحبوب ، بحيث يصير المحب والمحبوب شيئا واحدا بلا انفصال أو تمييز .

والواقع أن تاريخ البشرية مفعم بالدلالات على أن الحب يتضمن في نفس الوقت الاتحاد . ولعلنا نسوق أمثلة على ذلك بما يسمى بالكانيباليزم أو أكل لحم البشر . فيقال إن هذه العادة قد ارتبطت في تاريخ البشرية بالطقوس الدينية . فالشخصية المحبوبة هي التي كانت تؤكل بقصد الاتحاد معها أو بقصد إحراز الفضائل والمزايا التي تتمتع بها . وفي المسيحية نجد أن تناول جسد المسيح وشرب دمه مرموزا إليهما بالقربان والخمر ، إنما هو صيغة رمزية للترعة الإنسانية نحو الاتحاد بالمحبيب . وعندما تحب الأم طفلها فإنها تحتضنه بشدة وقد تعضه . ولقد تداعبه بأنها ترغب في أكله . وعندما تخاف الأرنب أو القطة على أطفالها من خطر يحيق بها ، فإنها تلهمها الهاما .

ولعلنا نقول إن الشعراء في صدر الحضارة البشرية كانوا يلبون ذوبا في الطبيعة . وكانوا يهفون إلى الاتحاد بها . ولعلمهم كانوا يلبون فعلا في الطبيعة ثم يفيقون من ذلك النوبان فيكتبون شعرهم وكأنه ذكريات مروا بها في لحظات مرت بالفعل . فثمة إذن رحلة وجدانية كان يقوم بها الشاعر هي رحلة إلى حضن الأم . ولم يكن الشاعر يقول الشعر وهو في حضن أمه الطبيعة . بل كان يقرضه بعد أن يفيق إلى نفسه من نمرة سكره مجبها . ولكأن الشاعر يصف ما كان عليه ، وليس ما هو عليه بالفعل لحظة قرضه للشعر .

وبتعبير آخر فالتنا نقول إن الانبهار الوجداني بالطبيعة هو حالة من فقد الشعور والانخراط في حالة اللاشعور . ولعل أن تكون تلك الحالة اللاشعورية هي حالة من النوبان الوجداني الذي تناظر حالة النوبان البيولوجي في حالة الكانيباليزم . والواقع أن قطاع الوجدان من الشخصية ذو وجود لا يقل تحمقا عن قطاع الجسم . ولقد يكون الفرق الجوهري بين النوبان الجسمي وبين النوبان الوجداني هو أن الجزء لا يستطيع استرجاع نفسه في حالة النوبان البيولوجي ، بينما يتسنى له ذلك في حالة النوبان الوجداني . فالولهان يكون ذاتيا في الحبيب ، ولكنه يستطيع بعد فترة

تقصر أو تطول أن يتردد ذاتيته وأن ينسحب من ذلك النوبان حيث يجد ذاته مرة أخرى . بيد أن الذكريات المتعلقة بذلك النوبان الوجداني تظل معتملة في ذاكرة الحب ، فيأخذ في التعبير عنها بقلمه أو لسانه أو ريشته وألوانه أو بغير ذلك من وسائل تعبيرية .

بيد أن المحبين لا يعتبرون ما يعبرون به عن ذكرياتهم وقت أن كانوا في حالة اندماج أو ذوبان وجداني مع الطبيعة في نفس قوة ما كانوا عليه في ذلك النوبان . فهم يقولون لك إن ما يقدمونه باللسان أو بالقلم أو بالفرشاة لا يعلو أن يكون ظل ما عاشوه ، أو قل إن ما يقدمونه لا يعلو أن يكون جثثا لكائنات حية ماتت على أفواههم أو أقلامهم أو فرشهم وألوانهم .

على أن المتابع لتلك الجثث التعبيرية قد يستطيع الوقوف على كثير من ملامح الانفعالات التي كان ينخرط فيها الأديب أو الفنان . فالرمز وإن لم يكن في قوة وحيوية الأصل ، فإنه يشير إليه بشكل أو بآخر . ولقد يكون المتلقي للعمل أكثر انبهارا به من المبدع نفسه . فالواقع أن الأدباء والفنانين لا يستطيعون تقدير أعمالهم . فهم في الأغلب ينظرون إلى إنتاجهم بنوع من عدم الرضا . ذلك أن تلك الأعمال تقوم في أنظارهم باهتة فاترة إذا ما قورنت بالأصول التي عاشوا في إطارها . إنهم لا يستطيعون الاعتراف بأن ما قدموه من أعمال يتطابق مع ما عاشوه وانغمروا فيه . والمسألة هنا شبيهة بالحلم النابض بالحيوية تستيقظ منه وتقصه على من حوله ، فلا يجلون فيه ما انبهرت به وما أحسست به من انفعالات . فلساننا وقلمنا ووسائل التعبير التي في مكتتنا لا تستطيع أن تنقل الأحاسيس ، بل هي تنقل صيغا كلامية أو خطية أو لونية في محاولة للإشارة بصدق إلى تلك الأحاسيس . فالانبهار الوجداني هو حياة ، والتعبير عن ذلك الانبهار هو رمز لتلك الحياة ..

والواقع أن إنسان الحضارة قليل الحظ وجدانيا . ذلك أن الحضارة الشيئية تصبو جاهدة إلى جعل كل شيء شيئا موضوعيا مطروحا بعيدا عن

نطاق الوجدان الإنساني . إنها بصراحة تحارب النوبان الوجداني - وتجعل من الإنسان متفرجا على لعبة الحياة وليس لاعبا في خضم الحياة . وشاهد ذلك أن الصفة الرئيسية من صفات العلم هي أنه يتجرد عن الذاتية ويتصف بالموضوعية أو الشيئية . وحتى علم النفس ، وهو أقرب العلوم إلى الذات الإنسانية يتنكر للذاتية ويعمد إلى رصد الظواهر النفسية من منظور موضوعي بحت . وإنك لتجد أكثر الظواهر ارتباطا بالذاتية مثل ظاهرة الاستبطان أو ظاهرة الحسد وقد تعرضت للنقد الشديد من جانب معظم علماء النفس لأنها لا تخضع للنظرة الشيئية أو للفحص الموضوعي .

ونحنى أن نقول إن القوالب والصيغ الموضوعية التقليدية في الأدب والفن قد جعلت من النقد في هذين المجالين متربصين للأدباء والفنانين . فهم يضعون لهم القواعد والقوانين « ولكأن الواحد منهم يقول للأديب والفنان « هذا هو الخط الذي أرسمه لك ، فعليك اتباعه وحذار من الخروج عليه وإلا فاني سأسلط عليك سيف النقد وأحط من عمالك الأديبي أو الفني » .

ونحن نعلم أن الأدب الخليق بالاعتبار ، والفن الخليق بالتبجيل هما الأدب والفن اللذان يعبران عن ذكريات الانبهار الوجداني : وليس الأدب أو الفن الممارسين شعوريا وبخبر من الخروج عن الاطار الذي يرسمه الناقد الأدبي أو الناقد الفني . ولعلنا نعرف بمصدر واحد من مصدرين يمكن أن يستمد منه الأديب والفنان الأدب والفن . المصدر الأول - الانبهار الوجداني أو حالة الذوبان والتفاعل التي ذكرناها . أما المصدر الثاني فهو تلك القواعد التي يقررها الناقد الأدبي أو الفني . فإذا ما انحاز الأديب أو الفنان إلى الانبهار الوجداني ، فانه لا يرضى الناقد ، وإذا ما انحاز إلى الناقد وقواعده لارضائه وتجنب بطشه ، فانه يكون بذلك قد خان نفسه وخرج عن إطار انفعالاته الحقيقية .

ونحنى أن نقول إن الأديب والفنان المعاصرين لا يكادان يجدان من الطبيعة إلا فضلا باقية لا تقيم أود الوجدان ، ولا تنى بالأغراض الانفعالية

الوجدانية التي يجب أن يتخبط فيها الأديب والفنان لكي يبقا بعد ذلك الانحراط في سجلان ما يتذكرانه . وإنك لتجد شعراء اليوم يتحدثون عن الخمر والنساء تقليدا لمن سبقوهم من شعراء كانت في حياتهم خبرة حية بالخمر والنساء . ولست هنا لكي ندعو إلى احتساء الخمر أولهتك والارتقاء في أحضان النساء ، ولكننا نود أن نبرز ما يتعرض له الشاعر اليوم من زيف لأنه يريد أن ينقل صورة كان يحياها غيره في أزمان بعيدة ، وهو لا يحياها . ولكن الشعراء القدامى قد عاشوا ما يريد قرض الشعر فيه .

ونخشى أن نقول أيضاً إن المدنية قد أفسدت أمزجة الأدباء والفنانين . فصار الأديب والفنان المعاصران منبهرين بالخواء الحضارى . ذلك أننا كلما ضررنا بسهم أوفر في المدنية ، بعدنا بالتالى عن حال الطبيعة . ولعل فارس الأمس كان أقرب من راكب القطار أو الطائرة اليوم من حال الطبيعة بالرغم من أنه كان بعيداً نسبياً عن تلك الحال . ولذا فإنك تجد أن الانبهار الوجداني بالطبيعة شيء صعب المنال بالنسبة للحضاريين . ولكن صعوبة المنال شيء والاستحالة شيء آخر . فن الممكن الاقتراب من الطبيعة لفترات تقصر أو تطول . وأضعف الإيمان أن تقرب من أنفسنا بغير زيف حضارى ، وذلك باطراح ما أثقلتنا به الحضارة جريا وراء روسو وغيره من شخصيات تناصر حال الفطرة لدى الإنسان وتصبو إلى استرجاع حالة النقاء من التلوث الحضارى التي إبتليت بها البشرية والتي أفقدتها الحظ الوافر من الانبهار الوجداني والنويان والانفعال بالأم الحقيقية . فذلك الكائن الغريب على الجبلة البشرية يطحن الإنسان طحناً ، ويعد به بعداً شامعاً عن كيانه وعن متطلبات حياته الوجدانية التي لا تتغذى إلا من ثدى الأم الحقيقية أغنى الطبيعة . ولكم احتج المحتجون ونعى الناعون بسبب ذلك الحرمان من منبع الإلهام الحقيقى والصادق . وليس أمام إنسان الحضارة من سبيل إلا محاولة الاقتراب فحسب من أمه لأن من المتعذر والخال هذه الاتحاد معها والارتقاء في حضنها لإرتقاء كاملاً .

الكشف عن المخبوء :

قلنا إن الإنسان يصبو إلى النوبان في حضن أمه الطبيعة . بيد أن هناك في الواقع دافعا آخر يقابل ويناهض الدافع إلى النوبان المشار إليه . ولكأن الطبيعة البشرية قد جبلت على الثنائية في جميع أنحائها . فنحن نعلم أن المحّ البشري محكوم بقوتين أساسيتين : قوة الإثارة من جهة « وقوة الضبط أو الكف من جهة أخرى . ونعلم أيضاً أن الجسم محكوم بقوتين : قوة اللذة من جهة ، وقوة الألم من جهة أخرى . وكلنا فإن الحياة الوجدانية محكومة بقوتين هما الحب من جهة والكراهية من جهة أخرى . وكذا فإن الحياة الأخلاقية محكومة بقوتين هما الخير من جهة والشر من جهة أخرى . والحياة العقلية محكومة بقوتين هما الحق من جهة ، والباطل من جهة أخرى . « أخيراً وفوق كل ذلك فإن الإنسان متميز بقوتين أساسيتين هما القوة الجسمية من جهة « والقوة العقلية الروحية من جهة أخرى . ولعلنا نضيف إلى هذه الثنائيات هذه الثنائية الجديدة التي فطرنا عليها وهي الرغبة في النوبان في أمنا الأرض من جهة ، والرغبة في الاستقلال عنها والتميز منها من جهة أخرى .

والواقع أن تحقيق التوازن بين هاتين القوتين الدافعتين ينتهي بالمرء إلى ما يسمى بالتفكير . فنحن في لحظة التوقف عن الارتقاء في حضن الأرض وعن النوبان فيها والتوقف في نفس الوقت عن التوقف حول الذات والالتفاف حول الإنية الشخصية « فأننا نجد أنفسنا في موقف وسط يدعونا إلى ممارسة التأمل الذهني الصافي . ولقد سبق أن قلنا إن الأديب والفنان لا يعملان إلى الإنتاج الأدبي أو الفني ساعة أن يكونا ذائنين في الانفعالات وفي عشق الطبيعة والاندماج فيها ، بل هما يفيقان من حلمها العميق ويعودان إلى حالة من التذكر والوقوف على ما ترسب في أنحائها من خبرات ، فيحاولان التعبير الأدبي والفني . ومن الطبيعي أن تكون هذه المرحلة التي يعبر فيها الأديب والفنان عن خبرتهما واقعة في مرحلة

وسط بين مرحلتين هما مرحلة الاندماج والنوبان في الطبيعة .
ومرحلة البعد والانفصال والنسيان التام لما سبق لهما المرور فيه من خبرة
وجدانية . فالأديب والفنان إذا انتظرا أكثر من اللازم بعد المرور في
مرحلة النوبان أو الانصهار الوجداني الانفعالي في الطبيعة ، فإنهما يفقدان
القدرة على التعبير عن تلك الخبرة لأنها تكون قد انقشعت وتلاشت أو صدئت
وصارت غير واضحة المعالم في الذهن والوجدان جميعا . ومن ثم فإن
التعبير الأدبي والفني إذا ما أتى قبل الإفادة من النوبان ، أو بعد خفوت
الصور التذكيرية المتعلقة بتلك الخبرة الوجدانية فانه يكون تعبيرا فجأ أو غير
مترابط أو غير دقيق .

وعلى نفس النحو نقول إن العقول البشرية قد مرت بهذه المراحل
الثلاث التي عرضنا لها هنا . فثمة أولا النوبان والانصهار في الطبيعة ،
ثم مرحلة الافاقة والاحساس بالذاتية القرية نسيا من الخبرة الوجدانية ،
ثم مرحلة النسيان وفقدان الذكريات المتعلقة بالاندماج أو الانصهار . ولقد
نقول إن هذه المرحلة الثالثة هي في الواقع المرحلة التي تمر بها البشرية
اليوم . وبتعبير آخر فانا نزعّم أن العلماء الذين تلوا المرحلة الشعرية أو قل
مرحلة الوله بالطبيعة كانوا ما يزالون متعلقين بأمهم الطبيعة ، وكانوا ما يزالون
منبهرين بتأثير الطبيعة عليهم . ولقد نقول إن الحضارة البشرية قد بزغت
أول ما بزغت نتيجة تعشق الطبيعة والانصهار فيها ورضع ثديها . ولكن
بعد أن ابتعد الإنسان عن حضن تلك الأم ، فانه اتخذ موقف العداء منها ،
وصار متألبا عليها . ولقد لا نبالغ إذا ما قلنا إن العلماء يتنكرون اليوم لكل
ما هو طبيعي ويعملون إلى إحلال المصطنع محل الأصل . فالأسمدة
الكيميائية حلت محل الطمي ، والحاسبات الالكترونية حلت أو هي تحل
تدريجيا محل العقول البشرية ، والميكنة تحل محل اليد البشرية في العمل ،
والعقاقير الكيميائية تحل محل العقاقير الطبيعية المستمدة من النباتات مباشرة .
ولعلنا مقبلون على مرحلة وشيكة هي مرحلة تصنيع الأغذية من الحجارة
والمواد الكيميائية بدل تناولها مباشرة من النباتات والحيوانات . وقس على

ذلك مواقف انسحابية كثيرة تبعد بنا عن الطبيعة وتجعل الانسان في مكان قصى عن حضن أمه الأرض .

والواقع أن العلماء قد بدأوا مسيرتهم العلمية باحترام الطبيعة وتقديسها: والاحترام والتقديس يستوجبان الكشف عن الأسرار المخبوءة بغير هتك أو اعتداء على صاحبة تلك الأسرار . فكان العلماء من أمثال ارشيدس ونيوتن يبحثان عن أسرار الكون للوقوف عليها دون اللجوء إلى الاعتداء على الطبيعة . فكان العلم لا يطلب لهدف معين ، ولا لتحقيق نفع مرجو ، بل كان العلم أشبه ما يكون بالعبادة ولسدّ نهم عقلى معتمل بقلب العالم = ولم يكن هناك افرق جوهرى بين أن يكتشف الزاهب أو الصوفى حقيقة غيبية نتيجة تأمله في صومعته أو كهفه ، وبين العالم الذى يكتشف حقيقة علمية في برجه العاجى أو في عزله التأملية العلمية . ولقد نقول أكثر من هذا إن حياة الكثير من العلماء كانت نسكية في الواقع = بل إن الكثير من العلماء كانوا رهبانا بالفعل يعيشون في الأديرة ، وكانوا يمارسون العلم ويتنشقون التأملات العلمية إلى جانب تلوقهم للتأملات الروحية الدينية . من ذلك الراهب مندل الذى وقع على قوانين الوراثة وهو في ديريه حيث أتاح له فرصة العزلة بالدير ممارسة زراعة الزهور والنباتات وتبج نموها وعلاقتها وقيامه في نفس الوقت ببعض التجارب التى لم تكن لتسبى إلى طبيعة النباتات أو لتخرج بها عن أصولها وطبائعها . وقل نفس الشيء بالنسبة لعلوم اللغة العربية مثلا وعلوم المعمار والفلك وغيرها مما انتعش في الحضارة الإسلامية لخدمة الدين على أيدي رجال جاوروا بين الدين وبين التأمل العلمى الذى اعتبروه ضمن تيار التأملات الدينية .

ولسنا نشك في أن ثمة انفصالية كانت قائمة بين الفكر العلمى وبين الممارسة الأدائية . ولعلنا لا تحطىء إذا ما قررنا أن المهارات اليدوية جميعاً لم تكن مرتكزة على أسس علمية ، بل كانت مرتكزة على الخبرة اليومية . واتقد صار كل جيل تال يأخذ عن الأجيال السابقة خبراته العملية التى تتعلق

بالممارسات والحرف المتباينة ويضيف إليها . أما العلماء فانهم كانوا كالشعراء والفنانين . فهم كانوا يبحثون ويتأملون ويسجلون بحوثهم ويعلمونها لغيرهم بعيدا عن مجال الممارسات العملية المتباينة . ولعل الزواج الذي تم بين العلم والعمل قد أتى في مراحل متباينة بعد ذلك عندما أخذت فئة من العلماء يخرجون عن الصف ويزاوجون بين ما تنهى إليه الكشوف العلمية وبين النفع يحصلون عليه لأنفسهم أو الضرر يوقعونه على أعدائهم . وهذه الفئة من العلماء المنشقين هم التكنولوجيون الذين صاروا يسخرون نتائج البحوث العلمية لمصلحة الواقع العملي ولمصلحة الممارسات والأدوات المتباينة .

ويصح أن نذكر بحقيقتين أساسيتين ثابتين تاريخيا : الحقيقة الأولى أن العلم كان مرتبطا بالفلسفة أو قل كان جزءا منها ، وكانت الفلسفة لدى فئة كبيرة من الفلاسفة من أمثال فيثاغورس وأفلاطون وديكارتر مرتبطة بالدين . وكان التعليم أيضا مزها عن أن يكون حرفة يتقاضى المرء عنها أجرا . ولكن المنشقين لعهد سقراط الذين أطلق عليهم اسم السوفسطائيين قد خرجوا على هذه القاعدة وأخطوا يبيعون العلم والبلاغة للناس . أما الحقيقة الثانية فهي ان العلماء كانوا يحرقون المادة والاشتغال بالمحسوسات أعنى أعمال اليدين في الخانات . وقد جعل أفلاطون الاشتغال بالعمل اليدوي خاصا بفئة العمال التي تعمل لشهوة الكسب ، بينما يعمل الفلاسفة لشهوة العقل والتفكير المطلق . وبذا بعد العلماء عن العبث بالطبيعة وظلوا لفترة ذات بال وهم يتأملون الطبيعة ولا يعبثون بها . لقد كان موقفهم موقفا استطلاعيا لا موقفا استدلاليا للطبيعة .

ولكن التكنولوجيين استولوا على الأرض التي كان يابعب عليها العلماء شيئا فشيئا ، بحيث صار التكنولوجي والعالم متمثلين في أغلب الأحيان في شخص واحد . وصار العالم التكنولوجي يبحث في مشكلات محددة ذات غاية نفعية معينة . ولم يعد العالم يتأمل لذات التأمل ، أو يبحث لذات البحث . ولم تعد الرغبة في العلم لذات العلم ، بل صارت النفعية هي الأساس . وبذا فبدل أن يتقرب العالم من الكون بروح التعبد أو بروح الراهب أو

الصوفي ، فانه صار يقبل عل الكون بروح الغازى القاهر والمسيطر المتحكم أو حتى المخطم والمفسد . وبنا صار العلماء التكنولوجيون فئة تريد السيطرة على الكون ومعرفة أسرارہ للقضاء عليه أو امتصاص دماثة إذا كانت ثمة دماء باقية يمكن أن يسزرفها ويمتصها .

ومع ذلك فلقد يفيق الإنسان مرة أخرى إلى نفسه بعد أن ينوق المر نتيجة المنهج الردىء الذى ينتهجه حاليا « أعنى منهج استدلال الطبيعة . فبعد أن يشبع الإنسان نهمه ، وبعد أن يجد أنه وقد إنزاح بعيدا عن الأعمال بعد سيادة الميكنة والعقول الالكبرونية ، وقد صار فارغا ومتفرجا على الحياة وليس قواما من قوامات الحياة « فانه قد يعود كالابن الضال مترجيا الحصول على الفتات الساقط من مائدة الطبيعة لكى يتبلغ به ، وقد استدل نفسه بعد أن ظن أنه مستدل للطبيعة وحدها « بينما يظل هو سيدا عليها . ذلك أن الإنسان وهو يهدم صرح الطبيعة قد نسى أنه مرتبط بها وأنه جزء منها . فاذا ماتم له هدمها « فانه سينهدم معها . وبنا قد يلحق الإنسان القطار قبل أن يفوته ويعود إلى النهج القويم بتأمل الطبيعة للكشف عن الخبوء فيها فحسب .

الإلهام الارادى :

سبق أن قلنا إن الإنسان فى صلب الحضارة الإنسانية كان متعشقا للطبيعة بحيث كان يصبو إلى تأملها أو الكشف عن أسرارها الخبوءة . ومن هنا ظهرت الفلسفة والأدب والعلوم وقد كانت جميعاً تسعى إلى إشباع نهم الإنسان من المعرفة بغض النظر عما يمكن أن يترتب على مثل تلك المعرفة من فائدة لنفسه وأجيائه أو من ضرر يصيب به أعداءه . بيد أن هناك خطأ آخر قد سار جنبا إلى جنب مع المعرفة ألا وهو خط الفن والإبداع الفنى . والفن سواء كان مرتبطا بالألوان فى الرسم، أم باللمس والإدراك البصرى كما هو الحال فى النحت، أم بالنغم كما هو الحال فى الموسيقى — فانه فى جميع الحالات يعبر عما يخالج النفس من وجدانات

وأحاسيس عاطفية . ولعلنا نقول إن الإنسان قد سار فيما يتعلق بالفن وفق خطين أساسيين : خط يرتبط فيه الفن بالمصلحة أو الاستخدام اليومي « وخط ينبج فيه الانسان نهجا إطلاقيا حيث يبغي الفن لذات الفن ولا يترجى من ورائه قضاء مصلحة أو إحراز نتائج عملية من وراء تعبيره الفني . والواقع أن الانسان كان دائب الرغبة في صيغ أشيائه التي يستخدمها في الحياة اليومية بصبغة جمالية . وإذا نحن تذكرنا أن المصنوعات التي كان يستخدمها الإنسان قديماً كانت تنتج فرادى وليس بالجملة ، إذن لأدركنا كيف أن الإنسان القديم كان يتحرى في صناعته الصياغات الجمالية . بيد أنه من المقطوع به أن الإنتاج الجمالي الذي لم يكن يستهدف مصلحة أو منفعة كان على جانب أكبر من الاتقان والابداع .

ويدل هربرت ريد على أن الإنسان يتحرى في صناعته للأشياء التي يستخدمها كل يوم تلك النسب الجمالية التي توجد في الطبيعة حتى ولو لم يدرك ما يتحراه بطريقة واعية بقوله « خذ حالة الإبريق العادي . إن الأباريق ذات أشكال وأحجام لا حصر لها « ولكن إذا قمنا بعمل إحصاء للإبريق « فأعتقد أننا سوف نجد بالضرورة أن شكلاً واحداً قد كان هو السائد منذ اختراع الفخار : هو الشكل الكثري أو المتوج . وعلى الرغم من أن الأبريق قد اتخذ الشكل الكثري ، فلا أظن أن هذا الشكل مستمد من الفاكهة . فشكل هذه الفاكهة ذاتها إنما يعزى إلى قانون أساسي للفيزياء . فإذا أخذت سائلا مناسباً يكون أكثر كثافة بقليل من الماء ، وغير قابل للامتزاج به ، وصببت منه قدراً قليلاً في كوب ماء ، فانه سوف يأخذ في الانتشار على السطح ، مستحيلاً بالتدرج إلى نقطة كبيرة ماثلة بشكل نصف كروي تقريباً . ولكن حالما نضيف قدراً أكبر من السائل فان النقطة تأخذ في التسطح ، أو بالأحرى فانها تنحو بشدة إلى أسفل ، وهي لا تزال متعلقة بغشاء السطح . ويمتد إتران القوى بين الجاذبية وبين التوتر السطح بنقطة السائل إلى أن تتخذ شكل الكثري أو الشكل المتموج . وأخيراً فهي تنقسم إلى نقطتين : ولكن في اللحظة التي يصل فيها التوتر

إلى أعلى درجة فإن النقطة تتخذ الشكل الكمثرى . ولا يوجد هذا الشكل في الكمثرى فحسب « بل وأيضاً في كثير من الموضوعات الأخرى بالطبيعة — أصداف الرخويات الدقيقة « والأغلفة المتعددة لحبات النبات والكائنات الحية المسامية المتعددة . وما أزرعه هو أنه عندما يتخذ فنجان القهوة أو إبريق اللبن هذا الشكل « ونجده جميلاً ، فإن هذا إنما يعزى إلى أن الخراف لدى تشكيله للأناء ، يكون قد أعطاه الشكل المكثف لنقطة السائل بوحى من غريزته . وحالما يكتشف هذا الشكل الرئيسى « فإنه يستطيع بلا شك أن يدخل عليه تغييرات كثيرة . فهو يستطيع على سبيل المثال أن يقلبه رأساً لبطن « وأن يمتد به أو يضغطه « على الرغم من أن حدود تغييرات كهذه يمكن أن تكون محدودة « . (تربية النوق الثمى ص ٤١/٤٢ ترجمة المؤلف) .

ويتضح من كلام هربرت ريد أن الإنسان هو الواقع ابن لطبيعته « أعنى أنه ابن للطبيعة من حوله من جهة ، وابن لطبيعته الذاتية الداخلية المعتملة في أنحائه بغير وعى من جانبه من جهة أخرى . وهذا يتضح في قوله « إن الخراف لدى تشكيله للأناء ، يكون قد أعطاه الشكل المكثف لنقطة السائل بوحى من غريزته « والغريزة هي ما نعينه عندما نقول : « الطبيعة الذاتية الداخلية المعتملة في أنحائه » .

والفنان الحقيقي هو ذلك الذى يستلهم الطبيعة ويحلوها ولا يخرج عن إطارها وإن كان هذا لا يحول دون إضافات يستحدثها الفنان بحيث لا يكون مقلدا للطبيعة تماماً . يقول هربرت ريد في هذا الصدد أيضاً بنفس كتابه المذكور « قام المعماري التشيكي كارل هونزك بشرح القول بأن المعماري ليس قادراً على الاستعانة بالنسب الموجودة في نمو النبات فحسب ، بل وأيضاً في تركيبها الآلى . وجددير بالذكر أن لزنبيق الماء بأمريكا الجنوبية أو فيكتوريا ريجيا ورقة تبلغ مساحتها حوالى ستة أقدام بحيث يمكن أن يحمل عليها جرو أو طفل صغير على سطح الماء . أما دعائم هذه الورقة التى تستهدف نفس الغرض الذى يستهدفه تجزيع أية ورقة نبات عادية « فإنها

تكون نامية بدرجة هائلة « كما أنها تتطابق بشكل واضح مع الشكل البنائي الذي يضطلع به المهندسون لدعم أحد السقوف الحقيقية . ولقد قام السير جوزيف باكتون بالفعل لدى شرح خطته بصدد كريستال بالاس بعرض إحدى ورقات ذلك الزنبق المائي قائلا : إن الطبيعة كانت مهندسا « فوفرت للورقة عوارض ودعائم طويلة ومستعرضة . وقد اقتبسها منها لهذا المبنى » .

ولقد نقول إن الحضارة وإن كانت قد أفادت من الطبيعة في كثير من النواحي الجمالية ، فإنها من جهة أخرى قد زيفت طبيعة الإنسان الحضارى وحرمته من استلهاام الطبيعة مباشرة . فأغلب من يقرأون هنا وصف الزنبق الذى عرض له السير جوزيف باكتون لم يسبق لهم أن شاهدوا هذا الزنبق أو غيره . ونخشى أن نقول إن الكثير من أطفال المدن لم يقس لهم مشاهدة البقرة أو الجمل أو حتى الدجاجة . بيد أنهم لا يلتفتون بتلك الكائنات الحية إلا وهى مطبوخة وقد وضعت منها أجزاء أمامهم على المائدة وقت الغداء . فابن المدينة يتغلف بغلاف حضارى يفصله تماما عن أمه الطبيعة ، ومن ثم فانه إذا استلهم شيئا في حياته وفي إنتاجه الجالى ، فانه يستلهم الحضارة التى تكون في الغالب زائفة أو بعيدة عن الأصل ، أعنى الطبيعة التى تكون مفتقدة لجوانب أساسية متوافرة بالطبيعة وليست متوافرة فيها .

على أن ثمة جوانب من الطبيعة قد ساعدت الحضارة على الكشف عنها بحيث يقسنى استلهاامها . يقول ريد في هذا الصدد وإن الأشكال الجميلة توجد بالخلايا وجزئيات المادة الميكروسكوبية . فقد يقوم أحد العلماء مثلا بصنع نموذج لظهارنا على التنظيم المتقن للذرات بداخل إحدى بلورات الماس ، وعندئذ ترى أن الذرات تشكل نمطا منظما . نمطا سوف يصفه نفس ذلك العالم بأنه جميل ، ويمكن التوصل إلى البرهنة على أن هذا النمط ليس من اختراع ذلك العالم ، ولكنه يوجد في الواقع . فاذا ما قمنا

بتمرير شعاع من خلال باورة كاليوفوليت (سلكات بوتاسيوم وألومنيوم) فعندئذ يترجم نمط الذرات الموجودة بداخل البلورة بواسطة ذلك الشعاع إلى تنظيم شكلي مكون من ضوء وظل يمكن تسجيله على لوح فوتوغرافي. (نفس المرجع ص ٣٣) .

ولكن إذا كان للحضارة يد بيضاء واحدة على إظهارنا على ما جبلت عليه الطبيعة من جمال ، فإن لها ألف يد سوداء ، إن لم نقل إن الحضارة تتآمر على الجمال والابداع الجمالي وتعزف بالإنسان الحضارى عن استلهاهم أمه الطبيعة . فلقد عملت الحضارة على إزاحة الإنسان من طريق الإبداع الفنى وذلك بما توفره من قوالب جاهزة عليه أن يتخذ موقف المستقبل منها . فأنسان اليوم بمثابة مخرج على مباراة رياضية . فهو لا يشاطر اللاعبين لعبهم . ولكنه يهمل لهم أو يصفر ضدهم مستهزئاً بما أدوه من لعبات رديئة . فلقد انصرف أبناء الحضارة عن الابتكار الفنى إلى الابتكار الاقتصادى . فالرجل الناجح والمرأة الناجحة هما اللذان يضطلعان بأعمال تدر عليهما ربحاً وفيراً . أما أن يقتنى الواحد منهما طريق الابتكار الفنى الذى ينفق عليه من دخله ولا يعود عليه بدخل ، فانه عبث وضباع وخروج عن الخط القويم . ولعلنا تضرب مثالا واضحاً على ذلك بانصراف الفتاة المماصرة عن دراسة فنون الإنتاج الفنى غير النفعى واتجاهها إلى الفنون الاقتصادية التى يمكن أن تدر عليها ربحاً كبيراً فى المستقبل . وإذا كان هذا هو حال المرأة ، فما بالك بالرجل وهو الذى ما يزال مستولاً عن الاتفاق على أسرته وعن ضمان مستقبل اقتصادى باسم لأبنائه .

ولنا أن نزع أن الإنسان الحضارى يمكن أن يفيق إلى طبيعته الأصلية إذا هو عاد مرة أخرى إلى حضن أمه الأرض وإلى الكون من حوله لا يهلم صرحه ويمزقه إرباً لإربا كما هو حاله اليوم ، بل لكى يتصالح مع طبيعته الأصلية التى جبل عليها بداءة . ونحن لا نقصر الكلام على الانتاج الفنى فحسب بل نخرج من المجال الفنى إلى جميع المجالات ويضمنها

المجال الأخلاقي . فلكم رزح إنسان الحضارة تحت قيم أخلاقية بالية أو مصطنعة أو زائفة ، ونسى أن يستهدى بما جبل عليه فعلا من حنان وتعاطف وإنسجام مع ذاته ومع غيره . فليتنا نبداً أخلاقنا بمعايير سلوكنا من دخائل أنفسنا وليس من صيغ وقوالب جاهزة تفرض فرضاً علينا ونفرضها نحن على حولنا سواء كانت ذات مغزى وذات جمال أم لم تكن . إننا نريد أن نستلهم الطبيعة من حولنا والطبيعة في داخلنا حتى يأتى سلوكنا الخلقى منسجماً مع قوامنا وليس بمثابة رقعة مضافة إلى قوامنا إضافة أو هلاهيل ممزقة نحاول حياكتها في إنسجام مفتعل . بهذا يكون استلھامنا الإرداى « وبهذا أيضاً يتم التصالح مع ذواتنا ، ولا تكون شخصيات زائفة تسير في عالم زائف .

الفصل الحادى عشر

الآخرون كمصادر الهامية

دور المرأة فى إلهام الرجل :

من المعروف أن العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة قد تشعبت وتعقدت وأخذت لها معانى واتجاهات مباينة عما هى عليه لدى الحيوانات. فالعلاقة بين الرجل والمرأة لم تعد مجرد علاقة فسيولوجية يقصد من ورائها اللذة أو الانجاب أو كليهما ، بل تعدت ذلك إلى منح معنوية كثيرة . من ذلك مثلا ما يتعلق بالإحساس بالجمال وما يمكن أن يثمر ذلك الإحساس من فن وأدب . وأكثر من هذا فان تفوق الكثير من الناس فى جوانب حياتهم المتباينة وفى مناشطهم التى يضطلعون بها إنما يعود فى نهاية المطاف إلى ما اعتمل فى جنبتهم من رغبة فى إرضاء المرأة التى يحبونها والخطوة باعجابها . لقد يتفوق الطالب فى المدرسة المشتركة التى التحق بها أو فى الجامعة حتى يحظى باعجاب الطالبات اللاتى يزاملته فى حجرة الدراسة . ولقد نجد أن الكثير من الأبطال فى الملاعب يذلون قصارى الجهد حتى ينالوا إعجاب الصديقات والمعجبات بهم وهم يشاهدونهم ويتابعون نشاطهم على أرض الملعب . وقل نفس الشيء بالنسبة للممثلين والمطربين وغيرهم ممن يرسمون أو ينحتون أو يقرضون الشعر أو يبدعون فى شئ ألوان الإبداع البشرى .

والواقع أن الإلهام الجنسى يعتمل فى قلب الرجل إنما يقع فى مرحلة أو فى واقع بين واقعين أحدهما النشاط الجنسى الفسيولوجى ، والثانى اللامبالاة الجنسية وعدم التعلق بالموضوع الجنسى أو عدم الصبو إلى أى امرأة من قريب أو من بعيد . والواقع أن هذا لا يننى أن الزوج يرغب

أيضا في إحراز إعجاب زوجته به . وكذا فإن أكثر الناس بعدا ولآمالا بالمرأة هم في الواقع اللاشعوري على الأقل يهتمون برضى المرأة وإعجابها بهم . فسواء كنت مدركا لحاجتك ورغبتك في إحراز رضى وإعجاب امرأة بالذات أو رضى وإعجاب فئة النساء عموما ممن تقوم بينك وبينهن علاقات في العمل أو الدراسة أو غير ذلك من مجتمعات تجمعك بهن ، أو غير مدرك لتلك الرغبة أو تلك الحاجة ، فإنك بلا شك تتحرك من باعث جنسى خفى يحرك سلوكك ويدفع بك إلى بذل النشاط ومحاولة التفوق والتبريز فيها تمارسه من نشاط حتى تضمن رضى المرأة وتشجيعها لك وإعجابها بك .

ونستطيع أن نقرر أن فرويد كان محقا عندما عزا غالية - أو كل - النشاط البشرى إلى الجنس . ولكن الذى نختلف فيه عن فرويد هو أن ما نذهب إليه ونؤمن به هو أن الإنسان يصدر في نشاطه لا عن الجنس أيا كان ، بل عن جانب منه بالذات هو الحصول على الإعجاب الجنسي من جانب المرأة . فالمرأة هي التى تحرك فينا النشاط . وهي التى تدفع بنا إلى مجابهة الحياة بجرأة ، بل هي التى تجعلنا نركب الصعاب من أجل إحراز رضاها . ولقد نقدم حياتنا فدية لها إذا ما اقتضى الأمر ذلك . فأنك تجد الرجل وقد أخذ يدافع عن زوجته أو حييته حتى ولو قدم حياته ثمنا لذلك . وقد تبدى هذا بشكل واضح في المبارزات التى كانت تنشأ بين الفرسان في العصور الوسطى بسبب الرغبة في الاستئثار بحب امرأة جميلة . ولقد نجد في تاريخ النساء الشهيرات من كن يثرن حمم الرجال بل وغيرهم حتى تقع المعارك فتجد المرأة مشتهاها وهي تشاهد الدماء تنصب من أجساد الرجال الذين حاربوا بعضهم بعضا من أجل الحصول عليها والفوز برضاها.

يبد أن حب الرجل للمرأة الجميلة قد اتخذ له أشكالا متباينة كثيرة . يقول محمد اسماعيل المواقى في بحث له عن الحب الرفيع بين الرجل والمرأة « يتعلق شاعر حب بسيدة عالية المقام فلا يلبث أن يهيم بها ، فاذا هذا الهيام عملاً عليه وجوده . وإذا هي من الوجود مركزه . إن غابت عنه لم

يزايل خيالها خياله، وإن كان بمحضرها أخذته الخشوع واضطرب قلبه غاية الاضطراب . فالسيدة قد حلت من نفسه منزلة لا يرقى إليها مخلوق . ولهذا في عينيه من الجمال الكمال ما يرفعها إلى مقام إلهة تحول حبه لها عبادة تترجم بالسعى لاكتساب الللال التي تؤهله لأن يدنو من إلهته . وهو يتقرب إليها بالتلطف والتعفف ، بالحياء والوفاء والصدق والطاعة ، وخاصة بالكرم والشجاعة والتضحية . ولا غاية له إلا نيل رضاها . أما ما وراء ذلك فلا أمل له فيه إلا أن تأخذها به شفقة . وحتى ترق له إن رقت . قد تمر ستون طوال من المعاناة والصبر قد يظفر فيها ببسمة ويقنع منها بكلمة . ودون ذلك حياة من الحرمان هي أقرب للموت ، يننى النوم عن عينيه لوعة الغرام وتبرى عظامه تباريح الهوى ويلتهم حياته مر الأيام العجاف . ولكنه مع ذلك مستطيب لعذابه مستعذب لهواه لا تأخذه حسرة أو تدم ، (عالم الفكر - المجلد الحادى عشر - العدد الثالث) .

ولا شك أن هذا الترتب النفسى يمتلك ناصية الوهان لا يقف عند حدود نفسه ولا ينحبس فى دخيلته ، بل هو يبحث له عن قنوات يخرج من خلالها إلى حيث يجد له فرصة سانحة يعبر من خلالها عن نفسه . ويتجسد فى صيغة أدائية فيقتضى للآخرين الوقوف عليها وتفهمها واستشفاف ما تتضمنه بين السطور أو فى الخطوط أو الألوان أو المحسمات ما تخفيه من مشاعر وما سبق أن احتدم فى قلب الشخص المبدع من انفعالات ناتجة ومن مشاعر فائرة .

ولكن الحال لا ينتهى بالوهان فى جميع الحالات إلى الإبداع الفنى أو الأدبى ، بل إنه قد يخرج ما يحسنه من توترات فى الأحلام أو فى أحلام اليقظة أو حتى فى أشكال سلوكية غير مألوفة هى ما نسميه بالجنون . ولا شك أن التعبير الفنى والأدبى هما البديلان الرائعان لما يمكن أن ينحو إليه الوهان المتوتر من تعبير . ولكن يجب أن نعود فتؤكد أن التعبير عن الوله والعشق قد يكون تعبيراً مستخفياً فى أثواب تعبيرية غير مباشرة ، بل إن أحداً لا يكاد يصدق أن ثمة ارتباطاً بين التشاؤم بينه الشخص أو إنتاج

ينتج عنه وبين العشق والهيام . فالمهندس المحيد والطبيب النطاسى والمحامى
اللوذعى بل والنجار الحاذق والسائق المتمكن من فنون القيادة يمكن أن
يكون للحب لديهم جميعا باعث دفع بهم إلى التفوق والعبقرية .

ولقد نستطيع أن نحدد مراحل الإلهام الذى يتأتى للرجل المحب لامرأة
بعينها أو لفئة النساء بعامة على النحو التالى :

أولاً : مرحلة التهيؤ للحب : ذلك أن ثمة ارتباطا وثيقا بين النمو وبين
الجنس بصفة عامة . فالمرحلة والشباب هما المرحلتان الأساسيتان اللتان
يكون المرء خلالها منهيأ للحب . بيد أن الطفولة والشيخوخة تعرفان الحب
أيضا عند بعض الناس . فثمة من يذكرون أنهم أحبوا فى طفولتهم وكانوا
ولهاذين بمن أحبوه من النساء . ومن جهة أخرى فإن هناك من الشيخوخة
من يقعون فى غرام فتيات صغيرات أو شابات مراهمات . فثمة فروق
فردية فى هذا الصدد . فلقد تجد مراهما أو شابا أقل تشبهاً بالنساء من
طفل أو من شيخ . ولقد تجد فروقا شاسعة فى الاهتمامات الجنسية بصفة
عامة بين أفراد من نفس الجنس أو نفس السن .

ثانياً : مرحلة الكشف الجسمى : فثمة مناح معينة فى الجنس اللطيف
تجذب انتباه الذكر فى الأعمار المتباينة . وهنا نجد اختلافات شاسعة من
شخص لآخر . فثمة أجزاء معينة بالجسم تحظى باهتمام المرء فى المرأة
أكبر من أجزاء أخرى . وبعض الرجال يتعشقون الصوت الجميل تصدره
المرأة ، وبعضهم تأسر له حركة معينة فى المشية أو الجلسة أو الإشارة
باليدين أو حركات الشفتين أو الحاجبين ، وبعض الرجال يتعشقون البشرة
السمراء أو القمحية ... الخ

ثالثاً : مرحلة الالتقاء : وهذه المرحلة قد تتم بالتقاء متبادل بين
الطرفين ، كما أنها قد تكون التقاء من طرف واحد . وفى هذه الحالة يقع
الرجل فى الحب بغير أن تكون المحبوبة على علم بذلك . وفى بعض الحالات
لا يلقى الرجل هوى فى قلب محبوبته فتصده ، فيبعد عنها ويملها ويعزف

عنها ، أو يزيد تشبثها ويلج عليها لاستعطافها واسترضائها وترقيق قلبها فتعطف عليه .

رابعاً : مرحلة التعميم : فعندما يمر المرء في خبرات حب كثيرة ، فانه ينتهى إلى تصور معين للمرأة الجميلة ويكون قد شكل هيئة معينة للمرأة التي تعجبه . ولقد يكون التعميم متعلقا بالخصائص النسائية فتجد واحدا يصف النساء بأحسن الأوصاف ، وبعضهم يصفهن بأردأ الأوصاف . ومن هنا نجد الاتجاه العام للرجل قبالة النساء في حديثه وتصرفاته . فمن حظى برضى كثير من النساء في مراحل حياته المتباينة يكون رقيق الحاشية بتجاهن ويعاملهن باللطف والتقدير . أما الذى لم يجد سوى الصد من النساء خلال مراحل حياته وفي مواقف كثيرة متباينة : فانه يكون في الغالب ناقما على المرأة ودائبا على ذمها والتهمك عليها أو التربص بها .

خامساً : مرحلة الإنتاج : وهذه المرحلة تكون بوسيلة أو أكثر . والواقع أن هذه المرحلة تسير جنباً لجنب مع جميع المراحل السابقة ، ولكنها تكون قد اكتملت ونضجت بعد المرور بالمراحل الأربع السابقة : ومن هنا فانا نجد عطاء الكتاب والقصاصين هم أولئك الذين نضجت خبرتهم بالنساء بحيث تكون لديهم خبرات مهضومة تشكل ركائز الهام المرأة لهم . فهم يستلهمون المرأة عندئذ بشكل عام بغير تخصيص أو تعيين .

دور الرجل في الهام المرأة :

يختلف تأثير الرجل في المرأة عن تأثيرها في . ومن هنا فانا نجد أن الإلهام الذى تستشفه المرأة من الرجل يختلف اختلافاً بينا عن الإلهام الذى يستشفه الرجل من المرأة ، وهو الإلهام الذى عرضنا له في الموضوع السابق . ولعلنا فيما يلى نعرض لأوجه التباين بين هذين النوعين من الإلهام :

أولاً : إن العمق الوجداني عند المرأة أبعد بكثير عن العمق الوجداني عند الرجل . فالمرأة السوية أحادية القلب وغير تعددية العاطفة . فهي لا تستطيع أن تحب أكثر من رجل واحد في الوقت الواحد ، ولكن الرجل

يمكن أن يحب أكثر من امرأة واحدة في الوقت الواحد . ولذا فانا نجد أن النساء بوجه عام أكثر إخلاصا في حبهن من أغلب الرجال . ولكن هذا لا يحول دون وجود رجال يكرسون القلب لامرأة واحدة ، كما أنه لا يمنع من وجود نساء تحب الواحدة منهن أكثر من رجل واحد في الوقت الواحد . ولعل هذا يرجع إلى التباين في البنية الجسمية كما يرجع إلى التربية والقيم السائدة بالمجتمع : ونحن عندما نتحدث هنا فأنما نتحدث عن التكوين الأصلي للجهاز النفسى لدى المرأة والرجل بغير أن يتأثر هذا الجهاز بالمؤثرات المتباينة أو بغير أن نأخذ في اعتبارنا الحالات الشاذة التي لا يصح التعميم في ضوءها .

ثانياً : إن المرأة تحتزن عواطفها وتحفظ بها وتلدور في دوائها . وهى إذا عبرت عن تلك العواطف التي تفيض في صدرها ، فإنها تقتصر في التعبير عنها على أضيق نطاق ممكن . فهي من جهة تفجئ وتستحي من التعبير عن عواطفها ، ومن جهة أخرى فإنها تعزى بتلك العواطف وتعتبرها كنزاً ينبغي أن تستأثر به وألا يطلع عليه أحد .

أما الرجل فإنه بوجه عام كائن معبر . فهو يقرض أشعر ويكتب القصة ويرسم ويصور عواطفه بالصورة والمثال والالحن والأغنية إلى غير ذلك من وسائل تعبيرية . ولعلنا إذا ما تصفحنا شعر الحب على مر العصور وعلى المستوى العالمى ، فأننا نجد أن ما قاله الرجال يربو كثيراً ما قالته النساء في هذا الباب .

ثالثاً : إن ما تستلهمه المرأة من الرجل لا يكاد ينعكس عليها ، بل هو ينعكس على نفس الرجل الذي استلهمته وعلى أبنائها ، فهي تكثف ما استلهمته تكثيفاً شديداً وتجسده في أعمال وتصرفات . ولعل أهم ما يعنى المرأة ما تلهم به من الرجل هو أن تسهر على رضائه ، وأن تركز جهدها في إسعاده . ولعل أكثر وسيلتين ظهرتا في هذا المجال هما إعداد الطعام وإعداد الكساء . فالفتاة التي تحب خطيبها تستلهم أطيب طعام يحبه لتعده له يوم

أن يقوم بزيارة بيت أبيها ، كما أنها قد تنكب على التطريز لتصنع له شيئا يعجبه وينهر به . أما الرجل فانه خلافا لذلك - كما رأينا - يعبر مباشرة حتى وإن هو قدم شيئا إلى خطيبته في المناسبات فانه يقدم لها أشياء جاهزة لم يقض الوقت ولم يسهر الليالي في صنعها .

رابعا : هناك أيضا ما يسمى بتمصص الشخصية . فالمرأة عندما تحب الرجل تستلهمه بالتمصص الحركي والكلاسي . فهي تكتسب وتستوعب حركاته وطريقة كلامه بل وطريقة تعامله للناس . صحيح أن الرجل يستمد بعض المقومات السلوكية من زوجته أو من خطيبته . ولكن بصفة عامة فان ما يقتبسه الرجل من المرأة لا يتعلق بشكليات السلوك بل يتعلق بالإنجازات والمواقف العامة والعواطف التي تتعلق بالحب والكراهية . فالرجل المحب للمرأة يحب ما تحبه ويكره ما تكرهه . ولعل أكثر الأشياء استعصاء على المرأة أن تغير من القوامات النفسية اللاتخية لديها . وقد يرجع ذلك إلى ما سبق أن قلناه وهو أن عواطف المرأة تكون دائما ذات جلور عميقة لا يسهل اقتلاعها أو التخفيف من عمقها .

خامسا : نستطيع أن نقرر أن إلهام الرجل للمرأة هو إلهام نقل . فالمرأة في استلهاها للرجل تنقل عنه وتأخذ بما يريد وتجاوب معه فيما يرغب فيه . ذلك أن المرأة التي تحب تسعى إلى إسعاد حبيبها ، وهي ترى تحقيق تلك السعادة في الخضوع والطاعة والتقبل . وهذا يتبدى في سلامة القيادة تبديها المرأة في المجتمعات التي يكون المترس عليها فيها رجلا محبوبا ومرموقا . ولعلك تلاحظ هذا جيدا في مدرجات الجامعة وفي أوساط الموظفين بالبنوك وغيرها . فالطالبة أو الموظفة عندما تعجب بالأستاذ أو بالرئيس في العمل ، فانها تبحث دائبة عن الوسائل التي تجعله أكثر سعادة ورضاء عنها . ولقد يكون هذا هو سر اكتساح المرأة لكثير من مجالات العمل وتفوقها رئاسيا ، إذ أنها تكون قد اقتبست وتمصصت الكثير من تصرفات السابقين عليها من الرجال في سدة الرئاسة أو في كرسي الأستاذية . وواضح أن إلهام المرأة للرجل هو إلهام إبتكاري . ولعل هذا أن يكون

هو السر في خروج كثير من الرجال عن الخط الذي ترسمه أو ترسمه المرأة (تتخيله بذهنها) عندما تكون رئيسة عليه أو أستاذة له . فالرجل بطبيعته عندما يتأثر يتفاعل مع ما تأثر به بحيث يخرج من ذاتيته مركبا جديدا يتباين جذريا عن العناصر الإلهامية التي قبلها بداءة .

والواقع أن المرأة في استلهاها للرجل تكون بمثابة مفسرة لما يذهب إليه . أما إضافاتها التي تعلقها في بحث أو مقال أو محاضرة ، فإنها تكون في الأغلب مستفادة من مراجع أخرى . ويتعبّر آخر فان المرأة في استلهاها للرجل تكون منغمسة في العنينة من أم رأسها حتى أخمص قدميها . ولعلك تلاحظ انتحاء المرأة إلى القصة قراءة وكتابة (إذا كتبت) وهي قصص وصفية على أية حال ، لا تكاد تتضمن فلسفة قائمة بذاتها تنشأ إنشاء وتبتكرها إبتكارا . وكذا فان المرأة الشاعرة تنحو إلى وصف واقعها التفسى بصورة مرئية . ذلك أن الألوان والأطياف والأشكال والأحجام تسيطر على ذهن المرأة . أما التجريد وتخليص الصور الذهنية من الأصباغ والأطوال والأحجام وحلها إلى أجزاء متناثرة ثم تركيبها على نحو جديد لم يسبق أن ركبها أحد من قبل ، فهو أمر بعيد في رأينا عن تناول المرأة ذهنيا .

وهذا يجعلنا نقرر - على عكس الشائع على الألسنة والأفلام - أن المرأة أكثر واقعية من الرجل . فالمرأة مرتبطة بتاريخها وتاريخ غيرها . إنها تنقل الماضي إلى الحاضر وتقصفه أو تعيد حلوه إذا صح التعبير . ومن هنا يبدو ارتباط المرأة بدرجة كبيرة بالتقاليد الموروثة والعادات التي قد تتعارض مع المتغيرات . ولكن واقعية المرأة تتغلب في النهاية . فهي تغير ما دأبت على ممارسته بعد وقت يقصر أو يطول تشبثا بتلك الواقعية ، واستمساكا بتلايبيها . ولعل من أكثر الوقائع التي تهّم المرأة في استلهاها للرجل هو تشبثها واستمساكها بما رأت عليه والدها إذا كانت قد أحبت في نشأتها وأعجبت به . فهي تريد أن يكون جميع الرجال على نمط ذلك الوالد . فإذا ما كان زوجها شيئا بذلك الوالد ، فإنها تكون الزوجة الوفية

له الآخذة بمشورته . وعن العكس من ذلك إذا كان زوجها من نمط مباين
لنمط الوالد « فانها فى الأغلب لا تحبه ويكون زواجها به زواجا إسميا
حتى وإن اصطبغ بالصورية الشرعية .

ولقد نقول إن الأم تستلهم أيضا أبناءها الذكور . فعندما تكون الأم
محظوظة وقد أنجبت ابنا عبقريا وناجحا فى الحياة « وقد احتل منصبا
مرموقا « فانها تنقص ذلك المجد « وتلك العبقرية التى يتميز بها الابن .
فهى تنسب أصل العبقرية ومنبع التفوق إلى ذاتها حتى ولو لم تفه بذلك .
إنها تمتلئ ثقة بالنفس وتحس بتعزيز مزايا للنحن الذى هو حياتها . ذلك
أن المرأة دائبة على الإتجاه إلى النخبة كما قلنا . فهى لا تريد أن تقول « أنا »
بل تريد أن تقول « نحن » وقد ضمنت فى نطاق هذا « نحن » زوجها
وأبناءها . ولعل أن يكون هذا ذوبانا لذاتيتها فى نحن من جهة « ولعل
أن يكون من جهة أخرى إعظاما لشأنها وتأكيدا لذاتيتها ، ولو أنه تأكيد
أو إعظام مستخف خلف نحن .

على أن هذا الذى قلناه عن طبيعة الإلهام عند المرأة - تأثرا واستشفافا من
الرجل - لا ينقص من قدرها ولا يقلل من قيمتها . ذلك أن التكاملية التى
يمكن أن تتأتى للمجتمع الجامع بين الرجال والنساء لا تتسنى ولا تتحقق إلا
فى ضوء التباين الذى يوجد بين الجنسين والاعتراف بهذا التباين وعدم
الغض منه أو محاولة ملامته . والواقع أن المجتمع المتحضر الحديث قد
افتقد الكثير من التكاملية والإنسجام اللذين كان يتمتع بهما المجتمع القديم .
وذلك عندما اعتبرت المرأة الحديثة أنها لكى تتحرر ولكى تتساوى مع
الرجل ، فإن عليها أن تتلبس بجميع مواصفاته وسجاياه ، وأن تنفض عنها فى
نفس الوقت سجاياها وما جبلت عليه من خصائص . ومن هنا فإن اعتبرت
الكثير من صفاتها فى الإلهام وغيره تقلا عن الرجل استدلالا لكرامتها وطعنا
فى قدرتها . رمن ثم فانها سعت إلى صخب الحياة متشبهة بالرجل فى كل
شئ . ونحن نؤكد أن هذا التشبه إنما هو تشبه زائف لا صلة له بالصفات

الحقيقية للمرأة . ولو أن المرأة قد استمسكت بما جبلت عليه «
لكانت إذن أحسن حالا وأكثر سعادة بل وأكثر إسعاداً للزوج والأبناء
على السواء .

ولقد تعثر المرأة الحديثة — وقد إندرجت في مضمار الأعمال وصخب
الحياة — على المعادلة الصعبة فتحقق التوازن والتعادل بين ما جبلت عليه
بالطبيعة « وبين ما اكتسبته جرياً وراء ركب الحضارة . بيد أن الحل
المنشود يجب ألا يكون حلاً ترقيعياً كتلك الحلول الجزئية والمبتسرة التي
تنسجى إليها الهيئات والمصالح الحكومية والشركات تخفيفاً عن كاهل المرأة.
فالحل السليم أو المعادلة الصعبة لا تتأتى بالحلول الجزئية الناقصة . ذلك
أن أول الخيط المفقود ليس الحضارة بل الطبيعة « وهو في الواقع الاستلham
الصادق تستمد المرأة من طبيعة الرجل .

دور الطفولة في الإلهام :

يمكن أن ننظر إلى هذا الموضوع من زاويتين : زاوية طفولة المرء
نفسه وقد كبر ولم اكتمل نضجه وإنخرط بعد مروره في هذه المرحلة الثمينة
في مرحلة الشباب أو نخطاها إلى مرحلة الكهولة ، ثم زاوية طفولة الآخرين
التي تكون موضوعاً للإلهام المرء . وهناك في الواقع تفاعل بين هاتين
الزاويتين . ذلك أن الإنسان عندما يستلهم طفولة الآخرين ، فإنه يترجم
تلك الطفولة في ضوء الخبرات التي سبق له أن مر بها هو شخصياً في طفولته
وكذا فإن المرء عندما يستلهم طفولته الشخصية فإنه يعتقد ولو لا شعورياً
مقارنة بين طفولة الآخرين وبين طفولته . ولقد يكون الاختلاف بين
الزاويتين متبدلاً من حيث النتائج المتأتية عن مثل ذلك الإلهام فيما يستهدفه
وفما ينتجى إليه .

أما عن الزاوية الأولى — وهي زاوية استلهم طفولة المرء نفسه —
فنحن نعلم أننا لا نخلع عن أنفسنا مراحل نمونا السابقة التي يبدو ظاهرياً أننا
إنسلخنا عنها تمام الانسلاخ . فلقد يظن البعض أنه طالما أننا شبينا عن الطوق

وصرنا شبابا أو كهولا أو حتى شيوخا ، فاننا لا بد أن نكون قد تخلصنا تماما من كل المقومات الطفلية التي كانت لدينا أيام كنا أطفالا . والحقيقة غير هذا . فنحن لا نخلع مرحلة نمو لترتدى زى مرحلة نمو أخرى — إذا صح التعبير — بل إننا نتفاعل بجاع نمونا في المراحل الجديدة التي نتجه إليها أو نمر فيها . ففي المراهقة مثلا تتفاعل مقومات طفولتنا مع العناصر والخصائص الجديدة التي تبرز في هذه المرحلة .

وعلى الرغم مما يقال عن أن المراهقة أكثر نضجا من الطفولة ، ومن أن الشباب أكثر نضجا من المراهقة ، ومن أن الكهولة أكثر نضجا من الشباب ، فاننا نجد في الواقع ما يؤكد أن لكل مرحلة من مراحل النمو مييزات خاصة تتفرد بها ولا تباريها فيها أية مرحلة أخرى . ولعل من أهم الميزات التي تتصف بها الطفولة الخيال الواسع المنسلخ أو المتحرر إلى حد كبير من الواقع الضيق . أما بعد الطفولة فإن الأخيالة تركز إلى الهلواء أو إلى الفتور وذلك بسبب الارتباط الأكثر متانة بالواقع المحدود بحدود المكان وبحدود الزمان .

و بمطالعتنا في حياة العباقر (١) وجدنا أن العبقري شخص استطاع أن يخترن أخيلة طفولته بغير أن يصيبها التلف وبغير أن يعتورها الفساد . فالعبقري يعيش طفولته كما يعيش مراهقته ، كما يعيش شبابه ، كما يعيش كهولته . وبتعبير آخر فإن التفاعل الذي يحدث لدى العبقري بين مراحل النمو السابقة لا يؤدي به إلى فقدان الخصائص الخاصة بتلك المراحل ونوباتها أو تلاشيها في طيات ذلك التفاعل ، أو بالأحرى في طيات ذلك المركب الثقافي الجديد الذي يشكل ملامح العبقري الذهنية والوجدانية . ولنا أن نقول إن بمقدور العبقري أن يتذكر طفولته وأن يلم بأطراف تلك الطفولة وما تمنع به خلالها من أخيلة خصبة .

(١) انظر كتاب العبقرية والجنون المؤلف بمكتبة غريب بالقجالة :

وليس من شك في أن ثمة تراوجا وتوافقا وتفاعلا مكينا يحدث في ذهن العبقري فيما بين الواقع الذي يدركه ويعيه ويحيا في إطاره بالفعل « وبين الخيال المعتمل لديه والحي بين ضلوعه منذ أيام طفولته . ولذا فانك تجد العبقري يعيش حياتين لا حياة واحدة : حياة واقعية وحياة أخرى خيالية . ولكنه في الحياة الواقعية يعمد إلى ترجمة الأخيلة المخزنة لديه والحية في ذهنه والتي تشكل حياته الثانية إلى واقع فعلى يمكن أن يحس أو يدرك أو يعاش أو يستفاد منه من جانب الآخرين .

وثمة ما يمكن أن نسميه بالاجتزاز الذهني يعمل في أذهان الملهمين . فنحن كالحوانات المخمرة التي تخزن في وعاء خاص بجسمها كمية من الطعام تعيد مضغها ثم تبتلعها لتدخل معدتها . ولكن الاجترار الذي نقصده لدى الإنسان هو اجترار ذهني وليس اجترارا جسيما . فنحن نخزن صورا ذهنية معينة نعاود التفكير فيها واستيعابها من جديد لكي تشكل جانبا من لحم كياننا ومن جوهر قوامنا الذهني . ولعل أن يكون الملهم العبقري قد اختزن في ذهنه الكثير من الأخيلة التي لعبت دورا حيا في طفولته ، ولكنها لم تستحل إلى واقع أو لم يتسن للعبقري الملهم في طفولته أن يترجمها إلى صيغ اجتماعية مقبولة ، وذلك بسبب احتدامها في ذهنه من جهة ، ولأن الطفل الموهوب لا يجب أن يترجم تلك الأخيلة إلى واقع من جهة ثانية ، لأنها إذا ما ترجمت إلى واقع فانها تفقد نصاعتها وبريقها وقوتها . ومن جهة ثالثة فان الطفل الموهوب لا يستطيع أن يتحرك إلا في حلود إمكانياته الضيقة التي لا تسمح له باحالة تلك الأخيلة الذهنية إلى واقع فعلى .

ويمكن القول بأن ما اعتمل في ذهن الطفل الموهوب من أخيلة يكون بمثابة خطوة أولى يجب أن تتلوها خطوة تالية أخرى هي خطوة إحالة تلك الأخيلة إلى واقع فعلى . وهذه الخطوة لا تتأتى لذلك الطفل الموهوب إلا بعد أن ينضج ذهنه ويشهد عوده وتتوطد أركان خبرته ويتمرس أو يتسلح بوسائل إحالة الخيال إلى واقع وإحالة الصورة الذهنية المتحررة من حلود

الواقع إلى عمل أو أداء أو نتاج مثلبس مجلوده . على أن الواقع الذى ينشئه العبرى يكون بمثابة امتداد للواقع الذى سبقه وليس تكراراً له وليس فى نفس الوقت انجاساً فى إطاره . ذلك أن العبرى بطبعه ينبو عن الاستسلام لحدود الواقع الآنى ، ويهفو إلى إنشاء واقع جديد يربيع فيه أخيلته التى عاشها فى طفولته والتى أخذ يجترها فى يفوعته وقد ارتدت أثوابا تشاهد فيها، بل قل يكون العبرى قد كساها لحماً ودماً بحيث تصير واقعا مجسدا . ولكنه واقع جديد تمام الجدة ، أو هو واقع جديد إلى أبعد درجة ممكنة من الجدة .

فنحن إذن نجتر أخيلة طفولتنا . بيد أن عملية الاجترار النهية هذه ليست متاحة لجميع الناس بنفس الدرجة . فن الناس من تكون تلك الأخيلة لديهم قد ضمرت وذوت بحيث لا يكادون يجلون شيئاً منها يجترونه بعد بلوغهم الشباب أو الكهولة : وهناك أناس متوسطون فى هذا الباب، وهناك أخيرا الملهمون الذين يجلون من منابع طفولتهم الخصبية صورا ذهنية خيالية يطفون بها على سطح حياتهم يتأملونها ثم يبحثون عن أفضل الوسائل العملية التى تتيح لهم الترجمة من الخيال إلى الواقع، ومن الصور الذهنية المتذكرة إلى أشياء أو أعمال أو نتائج باهرة .

أما بالنسبة للزاوية الثانية التى ألمعنا إليها فى أول حديثنا - ألا وهى زاوية طفولة الآخرين كموضوع للإلهام ، فلإننا نقول إن الطفولة هى فى الواقع عالم يستعصى ولوجه أو الدخول فيه من جانب الكبار إلا لقلة نادرة منهم . ذلك أن المرء عندما يخرج من إطار مرحلة ما من مراحل النمو ، فإنه يكون فى الغالب ناظرا إلى تلك المرحلة وقد صب اهتمامه فيها . وإذا هو أراد أن يتملى مرحلة نمو أخرى ، فإنه يتملى المرحلة التالية وليس إحدى المراحل السابقة من مراحل النمو . ولقد يساعد على هذا الاتجاه تلك الضغوط الاجتماعية التى تغلف حياة المرء . فعندما يشاهد والدان ابنتهما أو ابنتهما الشابة ما يز الان يحيان فى إطار الطفولة، فأنهما سرعان ما ينزعجان، بل لإنهما

ينهران ذلك الإبن أو هذه الإبنة ويبحثانها على التمسك بخصائص الشباب فينفضان أيديهما من خصائص المراحل السابقة وأن يتحررا بصفة خاصة من خيال الطفولة الذي يعتاتنه بأنه وهم فارغ بلا مضمون .

ومن هنا فإن المرء نأرا ما يجد نفسه بالقادر على أن يلج الطفولة بعد أن يكون قد تركها ، بل إنه لا يستطيع أن يحس بأحاسيس أطفال مجموعة من الأطفال يوجد بينهم . والواقع أن معظم الآباء والأمهات يتبرمون بطفولة أبنائهم وبناتهم ويضجرون من تلك الخصائص التي يتصفون بها والتي تنبؤ عن خصائصهم . ومن ثم فإنهم يضغطون ويمارسون الإرغام لإحالة الأطفال إلى كبار . وليس لنا إلا أن نقول إن هذا عجز من جانب الآباء والأمهات عن تفهم طبيعة الطفولة وعن الدخول في عالمها . ولعل أكثر ما يسعد الأطفال هو أن يعثروا على أحد الكبار وقد حمل معهم خصائص الطفولة . إنهم عندئذ يقلدونه ويتعلقون به وينعمون بصحبته . وليس من شك في أن مثل هذا التوافق الوجداني والاجتماعي يحققه الكبير في نفسه فينسجم مع مجموعة الأطفال ويلعب معهم ويشاركهم أحيائهم ويعيش عيشتهم ويقيم علاقات معهم كأنه واحد منهم ، لما يسعد الأطفال من جهة ، ولما يسمح له بأن يستوحى ويستلهم طفولة أولئك الأطفال من جهة أخرى.

ومن عوامل عزوف الكبار عن الطفولة اتسامها في نظرهم بالفجاجة والركاكة ونقص النضج . ولكن إذا أنصف الكبار فإنهم يشاهدون في الطفولة خصائص لا تكاد تتوافر لديهم . والواقع أن الطفولة عالم مستقل لا يكاد يعثر على مفتاحه إلا أقل القليل من الناس . وشاهد ذلك أنك لا تكاد تجد إلا ندرة من كتاب قصص الأطفال استطاعوا أن يشبعوا نهم خيالهم وسد حاجاتهم الذهنية كما لو أن طفلا منهم هو الذي ألف تلك القصة . ولذا فإنا نقول إن كاتب القصة أو مصمم اللعبة أو مخطط أحد أندية الطفولة أو من يقوم بإنشاء دار حضانة أو ما إلى ذلك من مناشط تتعلق بالطفولة يجب أن يكون متمعا بخاصيتين رئيسيتين : الأولى أن يكون قد

اختزن منذ طفولته كنزا من الأخيلة التي عاشها في تلك المرحلة ، ثم أن يكون قادرا على استلهم طفولة أطفال اليوم في بيئة بالذات حتى يتسنى له تقديم شيء ذي بال إليهم .

دور الشيخوخة في الإلهام :

إننا بادئ ذي بدء لا نربط بين الشيخوخة وبين المرض والسقم والذبول . ذلك أننا نعتقد أن الشيخوخة — شأنها شأن أية مرحلة نمائية أخرى — يمكن أن تكتنف بالصحة كما يمكن أن تكتنف بالمرض والسقم والذبول . فثمة شيخوخة صحيحة وثمة شيخوخة سقيمة ، كما أن هناك شبابا أو مراهقة أو طفولة صحيحة وأخرى سقيمة . وليس هذا الكلام لتشجيع الشيوخ أو للتخفيف من وقع الشيخوخة عليهم ، أو لاشاعة الطمأنينة في قلوب من أقتر بوا من حافة الشيخوخة ، وإنما هو واقع فعلي وعلمي . فكما أن الشمعة تظل تضيء بنفس القدرة إلى آخر لحظة في عمرها ، كذا فإن من الممكن أن يظل المرء شخصا منتجاً ومفيداً إلى آخر لحظة في حياته . وما نراه شائعا بين الشيوخ من ضعف أو مرض أو بأس ، إنما هو نتاج لأوضاع حضارية ليس للشيخوخة ذاتها سبب في إحداثها .

ونحن نشاهد بين ظهرانينا شيخوخا مائز اللون يعملون وينتجون كأحسن ما يكون العمل والإنتاج . فلدينا إلى وقت كتابة هذه السطور توفيق الحكيم وزكي نجيب محمود يكتبان وكان قبلهما طه حسين والعقاد . ناهيك عن برتراند رسل وبرنارد شو وغيرهم كثيرون ظلوا على مسرح الحياة مؤثرين بما ينتجو . وهم شيوخ ناهيك عن الشيوخ الذين يستمرون في الحياة العملية التجارية والزراعية والصناعية والسياسية يعملون بدأب كدأب غيرهم من الشبان . فالشيخوخة على هذا الأساس ، وفي ضوء هذه الأمثلة وغيرها الكثير ، لا ترتبط ارتباطا عليا بالتوقف عن النشاط . فما يلم بالشيوخ من مرض يمكن أن يندب عنه . وثمة في الواقع جهود طبية متواصلة للبحث عن علاج لمرض الشيخوخة الوحيد الذي يتمثل في الضمور أو قلة الحيوية .

أما الأمراض الأخرى كنزلات البرد أو الروماتزم أو السكر أو ضغط الدم أو غير ذلك من أمراض تصاحب الشيخوخة عادة ، فإنها في نظر الطب الحديث هي أمراض مصاحبة فقط وليست امراضا من ذات قوام الشيخوخة. وبتعبير آخر فإن هذه الأمراض المصاحبة لا تلازم بالضرورة جميع الشيخوخ ، بل من الممكن أن يتخلص منها جميع الشيخوخ إذا ما أولاهم المجتمع عناية ، وإذا هم تجنبوا أسباب تلك الأمراض ، وساروا وفق نظام صحي سليم في حياتهم اليومية .

ولقد نقول إن النضج العقلي والوجداني والخبري يكون قد اكتمل لدى الشيخ إذا كان قد انتهج في حياته السابقة النهج السديد . فالفتان أو الأديب أو العالم أو السامى أو غيرهم إذا كان قد ظل في حالة دائبة على النمو والمثابرة على العمل والعلم والتأمل خلال مراحل نموه السابقة ، فإنه عندما يصل إلى الشيخوخة يكون قد اكتمل نضجا ، بل ويكون قد صار أدق حسا وأرسخ قدما وأنفذ بصيرة وأرجح رأيا من أقرانه في نفس الميدان من الشباب .

وهذا في الواقع هو الذى يخلو بالشباب إلى استلهاهم الشيخوخة الذين يعترفون لهم بالفضل ويقدرّون ما اضطلّعوا به من أعمال . فالشباب ينظرون إلى هؤلاء الشيخوخ كمثل عليا تباؤوا قم المجد فيهمون إليهم راغبين في الأخذ عنهم والاحتذاء بسلوكهم وانتهاج نفس الطريق الذى نهجوه حتى يصيرو مثلهم عندما ينضجون وتقيض لهم شيخوخة حكيمة مثلاً قيص لم .

ولقد كنا ونحن في الشباب نهفو إلى مجلس العقاد حيث كان يفتح لنا صدره فيقبل عليه من يرغب ويجالسه في بيته في أيام الجمعة . وكنا في ذلك الوقت ننظر إلى العقاد الشيخ وقد تباؤ مجلسه وسطنا وكأننا ننظر إلى هرم شامخ ، وكنت أركز نظري إلى يده اليمنى قائلا في نفسى إن هذه اليد هي التي كتبت المجد لهذا الرجل . وعلى الرغم من أن الحجرة التي كنا نجلس بها حيث كان يستقبلنا الكاتب الكبير غاصة بالناس ، فإن الأنظار لم تكن

تجته إلا إليه . واعتقد أن ثمة استلهاما روحيا حقيقيا كان يحدث بين الشباب وبين العقاد آنذاك في تلك الجلسات : ولعل تلك الندوات تكون قد شجعت الكثير من الشباب على السير قدما في مضمار الكتابة والإبداع الأدبي والخلق الفكري .

وأذكر أيضاً أنني شاهدت على شاشة التلفزيون لقاء بين مجموعة من المفكرين وبين الدكتور طه حسين . لقد كانوا جميعا جالسين بمشروع أما الأستاذ الكبير . وكان من هؤلاء الرجال شخصيات لها مكانتها وتأثيرها . ولكن الجميع الذين أحاطوا بطه حسين وقتئذ كانوا يحسون – كما لخنا في كلامهم – بالخشوع والخضوع والهيبة أمام ذلك العملاق العجوز . ومن الطبيعي أننا كنا نتابع كل حركة وكل كلمة كانت تصدر عن طه حسين .

والواقع أن الشيخوخة السليمة تشكل مصورا عظيما للإلهام . فللشيخوخة جمالها وبهاؤها . ولقد يكون من التناقض الذي يطنى جمال الشيخوخة محاولة أحد الشيوخ التلبس بمظاهر الشباب . فالشيخ الذي يصيغ شعره أو الذي يحاكي الشباب في مشيتهم مفتعلا الرشاقة ، يكون ماسخا وسخيفا وقد استحال جمال الشيخوخة لديه إلى قبح . ولو أن مثل هذا الرجل قد اتشح بجمال الشيخوخة وقام على خدمة هذا الجلال بالعناية بمظهره ونظافته وصحته ، لكان بهي الطلعة وجذابا للشباب . بل إن بعض الشبان قد يتمنون أن يكونوا مثله أو أن يصيروا في هيئته ومظهره عندما يبلغون سنه . وأكثر من هذا فإن بعض الشبان قد يقلدون مثل هذا الشيخ المتشح بجمال الشيخوخة في حركاته وطريقة كلامه .

ولعل أن تكون الشيخوخة هي تمام الخبرة ، وهي الثمرة التي خرج بها المرء من نتاج كفاحه ونضاله ودأبه واجتهاده . ومن هنا فإن الشيخوخة الصالحة تمتاز بالتخلص من الحساس الأجوف الذي يكثر تردى الشباب فيه ، كما أنها تتخلص من سقطات الكهولة حيث تكون جوانب كثيرة من الخبرة لم يقيض لها المضم والامتناع . ناهيك عن أن الشيخوخة تكون قد تخلصت من الأهواء والرغبات فينظر الشيخ إلى الأمور وإلى الأشخاص بنظرة حيادية

تماما . والشيخ الصالح يكون قد استطاع أن يجمع في نفسه النظرة الصادقة إلى الكون والناس . ولذا فانه يقدم المشورة الصادقة لمن يكون بحاجة إلى المشورة . وهو لا يكون متدعيا في أحكامه ، كما أنه لا يتناغم مع الصالحين أو المتحمسين أو المتحيزين أو الهائجين أو حتى المجاملين والمنافقين . فهو يكون قد خلص من تلك الأشياء التي كانت تهز وجدانه قبلا . فهو لا يهتز بالفرح المديح يقال له ، كما لا يهتز بالحزن لهجاء يوجه إليه . والأغلب أيضا أن يكون الشيخ قد تخلص من عوامل الخوف والتهيب . ذلك أنه يكون قد ترك الحياة العملية إذا كان موظفا أو تاجرا أو سياسيا . ولذا فانك تجده لا يخاف من رئيس كان يخشى بأسه أيام كان موظفا ، ولا يخشى مناوئين له في التجارة أو في السياسة إذا كان قد اشتغل في شبابه وكهولته بالتجارة أو بالسياسة .

وبهذا التصور فاننا نرى أن الشيخوخة تتمتع بالحرية والتحرر من الخوف ومن القيود التي كانت مفروضة على المرء قبل أن يندرج فيها . ومن هنا أيضا فإننا نجد أن مثل هذه الشيخوخة تكون مطمحا يرتجى من جانب الشباب والكهول . فالشيخ حر في وقته وحر في إرادته وحر في كل شيء . فلذا كان متمتعاً بالصحة وقد نظم حياته وفق نظام معين ، فلماذا لا يكون إذن مصدر إلهام للشباب والكهول بل وللأطفال أيضا ؟ لقد سمعت طفلا يقول لجده ، وكان ذلك الجدمرحا ومتمتعاً بالصحة والنشاط : ليتني مثلك يا جدي لأنك غير ملزم بالذهاب إلى المدرسة ولا تتعرض للعقاب والضرب مثلاً أتعرض أنا ؟

ومن المشاهد اللطيفة تجمع الشيخ الأصحاء بعضهم مع بعض في المقاهي . إنهم يعرفون متى يجتمعون ومتى ينصرفون إلى بيوتهم . إنك تجد الواحد منهم مهتماً بمظهره تمام الاهتمام . لقد قام في الصباح وحلق دقته وغسل وجهه وأعد ملابسه التي يخرج بها . وما أن يقبل على زملائه في الشيخوخة بالمقهى حتى يقابلوه بالترحاب وبما يشبه التهليل . فيلتئم المجلس ويستمرون في السمر

وفي سرد الذكريات وقديكون من بينهم القاضي والمهندس الزراعي والتاجر والسياسي والعلم والأديب والموسيقار والرسام والنحات . وقد تجد الواحد منهم يترك المقهى لكي يذهب إلى بيته حيث يمارس عمله الإبداعي إذ يؤلف أو يرسم أو يلحن : فمثل هؤلاء الشيوخ يعيشون حياة سعيدة هنيئة يحسداهم عليها كثير من الشباب و"كهل".

ولقد نقول إن الشيخوخة بحاجة إلى رعاية واهتمام فتتظم لهم الأندية (١) وتقوم الدولة على خدمتهم والعناية بصحتهم. فإذا ما تحقق هذا فإن الشيخوخة تشكل إذن مرحلة جليلة بالفعل بأن تكون مصدراً للإلهام للشباب والكهولة على السواء . وإذا كانت بين أيدينا أمثلة ليست كثيرة لشيخوخة تستحق أن تكون مصدراً للإلهام، فأننا نأسف أن نقول في نفس الوقت إن لدينا شباباً وكهولة ليست بالكثيرة جليلة بأن تكون مصدراً للإلهام. ذلك أن المواهب وعوامل النبوغ في الصغار والكبار لا تلقى كثير عناية في زحمة الحياة . ولو أننا خففنا من غلواء الحضارة وما ينوء به الناس من أثقال ومتاعب ، لكننا في جميع مراحل العمر أكثر سعادة ، ولكان الكثير منا في مراحل عمرهم المتباعدة جديرين بأن يكونوا مصدراً للإلهام لمن يحيطون بهم ولمن يشاهدونهم أو يسمعون عنهم من بعيد . ومهما يكن من شيء فإن الشيخوخة لها دور هام في إلهام الطفولة والشباب والكهولة على السواء .

دور الأبطال في الإلهام :

ثمة أنواع كثيرة من الأبطال. والبطولة هي نوع من الإعجاب المكثف والمتواتر والمتبلور في وجدانات فئة من الناس حول شخص معين ، أو بالأحرى حول ميزة أو خصيصة معينة ينجس بها ذلك الفرد . فثمة الأبطال العسكريون من أمثال الاسكندر الأكبر ونابليون بونابرت وإبراهيم باشا ابن محمد علي الكبير وغيرهم ممن يزرع بهم تاريخ المعارك التي دارت

(١) أنظر رعاية الشيخوخة بقلم المؤلف بمكتبة عريب بالقجالة :

رحاها، وثمة أبطال في عوالم السياسة والتجارة والخطابة والكتابة والشعر وأعمال الخير والرياضة بأنواعها المتباينة وفي مجال الدين وما يقبلى فيه من ميادين متباينة تتعلق بالعقائد والعبادات والإحسان والزهد والريادات الإجتماعية والدعوات إلى تحرير الإنسان من العبودية ورد العصاة إلى طريق الصواب إلى غير ذلك من مناح كثيرة يتضمنها الدين أيا كان اسمه أو مكان وجوده وانتشاره . فهؤلاء الأبطال لا تتحقق بطولهم إلا إذا اعترف بها بعض الناس من حولهم وقد تعلقوا بهم وأخلوا عنهم وحنوا حذوهم وضربوا في طريقهم وقلدوهم في مسيرتهم وتشوفوا إلى أن يكونوا مثلهم .

ومن هنا فان مثل هذا الاعتراف ببطولة الأبطال يرتبط ارتباطا وثيقا ودائما بعملية استلزام لما فعلوه ولما انصفوا به من صفات، مع التمتي والاجتهاد في أن يحظى أولئك المعجبون بقسط ولو ضئيل من الخصائص التي اتصف بها هؤلاء الأبطال . فالبطل في نظر أتباعه ومريديه والمتعلقين به هو شخصية تتجسد فيها جميع الموصفات التي تملأ على المرء حياته وتفعم عواطفه بما يشبعها وتشيع في جنباته ما يرضيها . إنه المرتكز النفسى الذى يرتكز عليه المتعشق له الراغب في الضرب فى إثره . ذلك أن الإنسان فى حاجة إلى شخصية مركزية تتبوأ الركن الركين من قلبه وتلم بجاع مشاعره وتستولى على مقود حياته . ويكون ذلك عن بعد أو عن قرب . ولقد نقول إن البطل إذا كان بعيدا نسييا عن المرء، كان تأثيره أقوى فاعلية عنه إذا كان ملاصقا له ومحتكا به أو إلفاً له .

ولعل مر هذا يمكن فى صفة الغموض التى يجب أن تكتنف شخصية البطل حتى تتاح الفرصة لخيال المعجب به ليصول ويجول ولأن ينسج من خيوطه ما شاء له أن ينسج من خصائص أو حتى من قصص حول ذلك البطل الذى استولى على مقاليد حياته . والواقع أن لدى الإنسان قدرة فائقة على تكبير الصغير وأيضا على تصغير الكبير . فهو يستطيع أن يجعل من بطله العادى بطلا ليس له نظير بين الأبطال الآخرين فى مضماره ، كما أنه يستطيع

بخياله أيضاً إحالة الأبطال الكبار الذين لا يستحذون على وجبانه وإعجابه إلى أقزام أو أن يحيلهم إلى أشخاص عاديين وقد جردهم من الهالات التي تحيط بهم عادة من جانب المعجبين بهم ومن المشدوهين يطولاهم . ولقد نقول إن تعظيم الأبطال ليس خطأ يقع فيه المعجبون بهم ، كما أن القصص التي يبالغون في تفاصيلها أو التي ينسجونها أصلاً حول أبطالهم لا تعتبر أوهاماً يجب القضاء عليها ، بل إنها تعد صواباً وحقاً إذا ما نظرتنا إلى سيكولوجية المعجب وشاهدنا كيف تنسج هذه الأقاصيص وكيف تتعاظم الخصائص أو التصرفات تبصر عن البطل في أذهانهم . فالمعجب بالبطل صادق في مشاعره ، وهو بتلك المظاهر النفسية التي تنحو إلى المبالغة أو إلى قص القصص المتباينة ، إنما يعبر عن طبيعة جبل عليها الإنسان . فنحن البشر بحاجة إلى مثل عليا نقيّة نحتلها ، ولا نريد أن يلحق بمثلنا العليا أية نقيصة . كما أننا لا نرغب في أن تشوب أياً من أبطالنا نقيصة واحدة . ومن هنا فأننا ندافع عنهم لاشعورياً وذلك بأحاطتهم بهالة كبيرة تحفظ صورهم اللئيمية في قلوبنا من أي شيء يحط من مقامهم أو ينقص من قدرهم . وحتى تلك القصص التي يمكن أن يحكيها المعجب ببطله تكون في الواقع تجسداً لخصائص ارتسمت وتبلورت في ذهن المرء ، ولا تجد لها تعبيراً لديه إلا عن طريق القصة يصنعها صنعا ثم يصدقها تصديقاً كاملاً لا يشوبه أي شك ، وبحيث لا تقل في يقينيتها عن أية حقيقة موضوعية أيا كانت .

من هنا فأننا نعتقد أن الأساطير البشرية الكبرى والقصص والملاحم اليونانية وأبطال شكسبير ، وغير ذلك من أساطير ، إنما تتضمن أشخاصاً أو قل أبطالاً حقيقيين لا من الناحية التاريخية البحتة ، بل من الناحية النفسية الإنسانية . فنحن لا يهمننا إذا كان روبنسون كروزو أو هملت أو علي بابا أو جحا أو غيرهم شخصيات حقيقية وجلت في حلود زمان ومكان معينين أم لا . وحتى إذا كانوا جميعاً قد عاشوا فعلاً أو لم يوجدوا أصلاً ، فإن واقعنا النفسي أو قل إن حاجة قلوبنا تستلزم وجود تلك الشخصيات العبقريّة تستلهمها وتلقى بأعبائها النفسية الثقيلة عليها .

على أن الأبطال قد يكونون شخصيات حية بين ظهرانيتنا نتعامل معهم
ولكننا مع ذلك لا نرى جميع جوانب حياتهم. فثنا من اتخذ من أحد المربين
في الابتدائي أو في الثانوي أو حتى في الجامعة بطلا له . بيد أن الطفولة
والمراهقة هما بالدرجة الأولى مرحلتا اتخاذ الأبطال نبراسا ومثلا أعلى .
وفي هاتين المرحلتين من مراحل العمر تكون شخصية المرء محتلمة تريد أن
تشكل وفق نمط أو نموذج معين . فيبحث الواحد منا عن شخصية جديدة
بأن تختلئ . فيعثر على مدرس أو تعثر البنت على إحدى مدرساتها فتأخذ
في استلهامها والأخذ عنها . ولا يقتصر الأمر في ذلك الاستلهام على مجرد
التقليد الخارجي بل يصل غالبا إلى حد التقمص الأشعوري . فيجذب المراهق
وتجذب المراهقة آتيا قد تلبسا بما يتلبس به المدرس أو المدرسة المحظوظان
من حركات أو إشارات أو أصوات أو كلمات . ولقد نجد أن بعض
الحركات التي يكتسبها المراهق والمراهقة ليست مما يمتدح كأن تكون الحركة
بمثابة لازمة حركية نائية عن السوية، أو قد تكون اللازمة الكلامية المكتسبة
غير مستساغة في السمع ، أو قد تكون الكلمة أو العبارة المكتسبة من البطل
كلمة أو عبارة خاطئة وغير صحيحة أو غير مستخلصة الاستخدام الصحيح
أو محرفة عن الأصل الذي استخلت فيه .

ولقد يرغب متعشقو البطل في أن يستأثر كل منهم بالبطل وحده دون
سواه . فيتخاصمون حول قضية أيهم أكثر فهما له وأكثر قربا من واقعه
أو أيهم كان أكثر قربا إليه أو أقربهم إلى قلبه . فيعتمد كل منهم إلى
التنافس في تقليد حركاته والضرب في إثره . ولقد ينجم عن مثل هذا
التنافس على حب البطل أن يحس بعض مريديه بالهزيمة من جانب منافسيهم ،
فيقلب حبهم للبطل إلى كراهية ، وقد يحضون مشاعرهم بالهزيمة والكراهية ،
فيأخلون في استمرار حبهم للبطل مع تقديم له وتخفيفهم بإزاء بعض
التصرفات التي صدرت عنه أو من بعض الأقوال والآراء التي فاه بها في
أحد المواقف . ولا يكون موقفهم الجديد هذا إلا من قبيل الانتقام من
حنافسهم . على وعلى أعدائي . فهم يهلمون سبب التنافس نفسه ولكن

بطريقة مأكرة . ذلك أنهم لا يتفصلون عن الركب تماماً « بل يقوضون البناء من أساسه وهم ما يزالون في حضنه . والمعروف أن العدو من داخل البيت أقوى وأخطر وأتكى من العدو الخارجى .

وسواء ظل المرء غلصا لبطله أم خرج عليه ونال منه وأخذ في الانتقاص من مقامه ، فانه بلا شك يكون قد اكتسب منه الكثير وقد ألمه العديد من أفكاره واتجاهاته وأخلاقه « بل لعله يكون قد أرسى لديه الدعائم الأساسية في شخصيته . والواقع أن المراهقين والمراهقات بعد أن يفرقوا في تعشق أبطلهم « فانهم ما يفتأون - وقد انحطوا في الشباب ملتحقين بالجامعة أو مندرجين بالحياة العملية - أن يتخلصوا من تلك العبودية التي طوقوا أنفسهم بها . بيد أن البعض منهم يفظمون من عبودية القلب للبطل بشكل تدريجي وصحى ، بينما يتقلب بعضهم الآخر ظهراً لبطن « بحيث يبدون الكراهية والإشمئزاز للأبطال الذين سبق لهم استرقاق أنفسهم لهم والتمسح في ركبهم .

ولقد يجد المراهق بطله في أبيه ، كما قد تجد المراهقة بطلتها في أمها . على أن بعض الأبناء من الجنسين يتقلبون على والديهم فيعلنون بين أصدقائهم أو حتى على الملأ أن إعجابهم السابق بهما لم يكن على أرض صلبة ، بل كان خدعة نفسية وقعوا فيها . ولكن هذا الموقف لا يحول في الواقع دون القول إن هذه الفئة من الأبناء قد استلهمت والدين في فترة الإعجاب الشديد بهما خلال المراهقة ، وأن ذلك الإعجاب لم يختلف ولم تتلاش آثاره من شخصياتهم مهما أعلنوا وشقوا عصا الطاعة . وفي كثير من الأحيان يعود أولئك الأبناء إلى الاعتراف من جديد ببطولة والدين وفضلهم الكبير في إرساء دعائم شخصياتهم في أخلاقهم وأساليب حياتهم . ويتبدى هذا بصفة خاصة بعد أن يكتمل النمو الشخصي لأفراد هذه الفئة وبعد أن تبلور شخصياتهم ويعترف لهم من حولهم بالفضل والنباهة والتفوق . ومهما يكن من شيء فان من أهم دلائل نجاح الأب في أبوته، والأم في أمومتها أن يكونا مصدر إلهام للأبناء عوالبات ولو خلال المراهقة . وعلينا أن ننظر إلى ظاهرة التمرد على الكبار في الشباب باعتبار أنها ظاهرة صحية وطبيعية .

الفصل الثاني عشر

أثر المشكلات والصعاب فى الإلهام

العاهات والإلهام :

لا يختلف اثنان على أن العاهات تشكل عائقاً أمام المصاب بها . بيد أن بعض العوائق تكون عند بعض الناس حوافز جليدة تدفع بهم إلى التقدم وإحراز التفوق الذى يلفت الأنظار ويثير الإعجاب . وفى هذه الحالات يصير للعاهة قدرة إلهامية خارقة . وثمة فى الواقع شواهد على هذا فى تاريخ الباقرة من أصحاب العاهات تؤكد أن العاهات يمكن أن تكون مصادر إلهامية خارقة ، ولا تكون — كما هو متوقع من وجودها — سبب تخلف المصابين بها وتدهور حالاتهم .

على أن من الخطأ أن نعزو عبقرية صاحب العاهة إلى وجود العاهة لديه . ذلك أن العاهة فى حد ذاتها لا يمكن أن تكون سبباً للتفوق أو عاملاً على التقدم . إذن فما العلاقة بين العاهة وبين الإلهام والعبقرية ؟ لابد أن العلاقة بينهما هى علاقة ثأرية أو تعويضية وليست علاقة غلبه أو سبيبة . فصاحب العاهة يحس بالتقص الشديد ، ولكنه بدل أن يركن إلى التخاذل والانهيار والتفوق حول ذاته والإحساس بالانهزام أمام الآخرين من غير المصابين بالعاهات ، فإنه يأخذ فى لم شتات نفسه والاندفاع بقوته نحو التفوق والتبريز على من سلمت أجسامهم من العاهات . إذن فتقطة البداية هى الشعور بالتقص ، ثم تجميع القوى والتركيز الدهنى .

وهنا نستطيع القول إن هذا التجميع وتركيز الذهن بمثابة إعداد للذات لاستقبال الإلهام عند صاحب العاهة . فلقد سبق أن قررنا أن الإلهام واقد يفد إلى الإنسان بعد أن يكون قد هباً نفسه لاستقباله . وصاحب العاهة إذا هباً ذاته أولاً بأن يستجمع لمام نفسه ثم بالتركيز الدهنى ، فإنه يكون

بالتالى قد أحد محطة استقباله انتفسية لاستقبال الإلهامات المتباينة المتعلقة بالجانب الذى جبل عليه والذى هي « من أجله وأعد ذاته وكرس جهوده. النفسية للاستزادة منه .

والواقع أن التعويض « ومن ثم الإلهام الذى يواتى صاحب العاهة. قد يكون متعلقا بنفس العمليات التى تتعلق بالعاهة ، كما أنه قد يكون متعلقا بأشياء أخرى لا صلة لها بالعاهة . فلقد نجد المصاب بالعرج مثلا وقد صار من أعظم أبطال السباق فيكون التفوق هنا مرتبطا بالعاهة ذاتها . ولكن فى حالات أخرى يتم التفوق بمساندة عضو آخر أو بتركيز العمل . من ذلك العاهة متعلقة بالبصر، فيعتمد صاحب العاهة الأعمى إلى إكمال العمل كله إلى أذنيه بدل أن يوزعه على عينيه وأذنيه . فهو يستقبل المعرفة عن طريق السمع بدلا من استقبالها بالبصر والسمع معا . ولقد يوكل العمل إلى خاصة أخرى لم تجعل لدى الشخص العادى لاستقبال المعرفة، فتم القراءة مثلا باللمس كما هو الحال فى طريقة بريل . فهنا نجد أن الأذن من جهة واللمس من جهة أخرى يتعاونان فى تلقى المعرفة بحيث يعوضان المرء عن فقدان عينيه .

على أن كل هذا لا يعلو أن يكون الطريق المألوف أو العادى بالنسبة لمن يصاب باحدى العاهات . ذلك أننا لا نستطيع أن نزعم أن كل من سلك هذا الطريق التعويضى بازاء الإصابة بعاهة يكون قد استطاع أن يحرز إلهاما فى هذا المضمار . فالواقع أن الملهمين قليلون أو نادرون فى جميع الفئات المجتهدة أو حتى المتفوقة . فالتفوق شئ والإلهام شئ آخر . فالتفوق هو الارتفاع عن مستوى العاديين واحتلال مكان القمة بينهم . أما الشخص الملهم فانه يحوز أشياء جديدة تماما ، أو قل إنه يقبض على ناصية أشياء لم يسبق لغيره قبل ذلك أن يحصل عليها أو قبض عليها . فهو يشق خطا جديدا وتكون له سمات أساسية يتميز بها ويعرف بها وكأنها قد خلقت خصيصا من أجله ثم أخذ الناس من بعده يسيرون فى هديه ويقفون أثره ويتخون نموه .

وما يلهم به صاحب العاهة بعد أن يكون قد هيا ذاته لاستقبال الإلهام ، إما أن يكون متعلقا بالشكل وإما أن يكون متعلقا بالمضمون . فلقد يكون أثر العبقرية والإلهام ظاهرا في أسلوب التعبير الأدبي أو الموسيقي أو التصويري أو التجسدي النحوي . وقد يكون أثر العبقرية والإلهام متبدياً في المضمون يسوقه المرء في الصيغ ووسائل التعبير المألوفة . ولقد تتبدى العبقرية والإلهام في الصيغة التعبيرية والمضمون في نفس الوقت . ولقد تتبدى العبقرية والإلهام أخيراً عند صاحب العاهة الملهم فيما يقيمه من علاقات اجتماعية أو فيما يسديه من عمل الخير وتقديم الإحسان إلى الآخرين أو تقديم المساهمة الفعالة في حل مشكلة كانت مستعصية لولاجهوده المشفوعة بالإلهام والمبادأة .

وبصح لنا أن نقول إن صاحب العاهة نفسه كان يمكن أن يكون صاحب إلهام في المجال الذي ألهم فيه بغير أن يكون مصاباً بتلك العاهة . فوجود العاهة لديه لم يكن سوى عامل مساعد فحسب في حفز همة وفي تركيز ذهنه وفي تهيئة نفسه لاستقبال الإلهام . فكأن القوس ليس العاهة ، بل إعداد الذات لاستقبال الإلهام . وإعداد الذات لاستقبال الإلهام يمكن أن يتم سواء وجلت العاهة أم لم توجد . وإذا كانت العاهة تشكل عاملاً مساعداً في بعض الأحيان لإعداد الذات لاستقبال الإلهام ، فإنها في أحيان أخرى كثيرة يمكن أن تشكل عامل تعويق وتثبيط ومعاكسة قبالة استقبال الإلهام .

والواقع أن من الشروط الأساسية التي يجب أن تتوافر لدى صاحب العاهة أو غيره لإمكان استقبال الإلهام تركيز الذهن وعدم التشتت في أمور كثيرة . فنحن عندما نكون في حالة استقبال بحثة نكون بالتالي قد ركزنا كل جهدنا الذهني في الموضوع المستقبل . ولقد يكون صاحب العاهة الملهم قد استطاع أن يركز ذهنه في استقبال المعطيات الإلهامية بفضل انغلاقه على إطاره النفسي خلال كثير من الوقت . ويتعبّر آخر يكون لدى صاحب العاهة الفرصة لإزالة الفكر بالتأمل ومواصلة التفكير غير المشتت في أمور كثيرة . وبما يساعده على هذا قدرته على تقليص علاقاته الاجتماعية

في نطاق ضيق . فانصراف الناس عن المرء وعدم شغل فكره بهم ، يكون مدعاة للتأمل . فاذا ما أتبع لصاحب العاهة علم الانهماك في علاقات اجتماعية تشتت ذهنه ، فانه يكون بذلك قد وفر جهده الذهني للتفكير أو بالأحرى لاستقبال الإلهامات المتباعدة . ولقد يكون انصراف الناس من حول صاحب العاهة وعدم إقبالهم عليه وعدم الرغبة في إقامة علاقات كثيرة معه مدعاة للروية والتأمل .

ولعلك تلاحظ في نفسك - وأنت الشخص العادي والسوي - أنك إذا كنت في إحدى الحفلات حيث لا يكاد تكون لك علاقة بأحد من الموجودين بها ، أنك تكون أكثر انبهارا بما يقع عليه بصرك وبما يصل إلى سمعك من أصوات . لقد تشاهد الجمال أو تستمتع به أكثر بكثير مما لو كنت نجم ذلك الحفل وقد أحاط بك الناس من كل جانب ، أو يكون جميع المدعوين قد ركزوا نظرهم عليك وأخذوا يتفحصون فيك . فانصراف الناس عن صاحب العاهة يكون بالأولى مدعاة له لمشاهدة الناس والوقوف على أحوالهم أكثر مما لو كانوا قد التفوا حوله وركزوا أنظارهم فيه .

ولذا فانك تجد صاحب العاهة الملهم هو في نفس الوقت صاحب مزاج حاد ، أو قل إنه في الغالب لا يكون حلو المعشر . فهو وإن كان متواضعا سمحا ، فانه يحاول ذب الناس عنه ، ولا يكون صاحب ارتباطات واتصالات متباعدة . إنه لا يكون إيجابيا بالمعنى الاجتماعي للكلمة ، بل يكون سلبيا أو استقباليا . إنه يرغب في أن يعزف عن الناس وعن العالم الخارجي أكثر من رغبته في أن يعرف الناس عنه خصائصه وطرائق تفكيره . أو نحو ذلك من أمور يعزف بها عن أن تعلن على الملأ : وحتى ما يعمد صاحب العاهة الملهم إلى استحداثه إنما يكون مرتبطا بوجوداته الشخصية أكبر من ارتباطه بالآخرين . فهو وإن أعجب المشاهدين أو المستمعين بما يقلمه ، فان مثل ذلك الإعجاب يكون بالمصادفة ولا يكون مقصوداً من جانب صاحب العاهة الملهم . فهو لا يخاطب الناس ، بل هو يناجي نفسه ، أو قل إنه يقيم حوارا بينه وبين ذاته ولينجم عن ذلك الحوار

ما ينجم . إن ههنا لا يهيمه ولا يعنيه في شيء . فصاحب المهبة
الم اللهم يدأب على العمل الاستقبالي لكي يحيل ما يستقبله إلى عناصر
ذاتية بحيث يحبكها من جليل في صور وأشكال وأنغام أو في غير ذلك
من نتاجات .

فالإلهام عند صاحب العاهة ليس لإلهامه من الخارج بل هو في الواقع
الإلهام من دخيلته . فاستقبله من الخارج يكون بمثابة خامات فحسب لإلهامه
وليس هو العامل المؤثر في الإلهام . ذلك أن بؤرة الإلهام عند صاحب
العاهة ليست الخارج بل الداخل . فما يمتصه من خارج ذاته يستحيل
بالتشرب والتفاعل إلى قومات أو إلى عناصر ذاتية في نطاق المركب الجبري
لديه . وهو عندما يأخذ في التأمل لا يبدأ بالعناصر التي استقامها من
الخارج قبل أن يستحيل إلى عناصر ذاتية . بل يبدأ بالقومات الذاتية
التي تشكل جوهر قوامه . وعندئذ ينشئ لديه الإلهام من دخيلته وفي
نطاق إطاره الذاتي

التوترات النفسية

على الرغم من أن الإلهام لا يتأتى للمرء إلا بالقدرة على حالة استقبالية
نفسية جيدة ، فإنا نستطيع القول بأن تلك الحالة الاستقبالية لا تتأتى له
إلا بعد أن يكون قد قلب رجلي أوضاع توقرية نفسية . وهذه هوأما يبدو
في الواقع لدى الأدياء والفلاسفة والفنانين ، وجيئح المبدعين . فإذاً ما قرأت
عين جياتهم — وقد سبق أن عجزنا الغنيات منهم بالفصل الثامن من هذا
الكتاب — فإنك تجد أن ثمة توترات نفسية كانت تعثوهم كلاً منهم في
وقت أو آخر . ذلك أن الشخص الملهم لا يكون بأي حال راضياً عن
الواقع المحيط به أو الواقع المطروح أمامه . . . ومن ثم فإنه يستشرفه واقعاً
أخز في طي الغيب يريد أن يحله محل ذلك الواقع الذي لا يرضيه
ولا يعجبه . . . فالتبرم الذي يشع في جنبات المبدع الملهم يصينه يقدر من
التوتر النفسي

يبد أن التوتر النفسى يصيب العبرى الملهم لا يصل لديه إلى حد التشنج أو الجنون . ذلك أن التوترات النفسية إذا ما زادت عن حد معين « فتمتها تخرج بالمرء عن طور العقل وتلدغ به إلى الجنون . والواقع أن التوترات النفسية ليست هى السبب فى إلهام الملهم « بل هى مجرد عامل مساعد يجعل الملهم غير متوافق مع الواقع الآتى من جهة « ويلدغ به إلى الانسحاب إلى دخليته من جهة أخرى . فلو لا تلك التوترات التى تصيب الملهم ، لكان قد اندمج وذب فى الواقع الاجتماعى من حوله ولرضى بالموجود بغير أن يتشوف إلى غير الموجود . ومن جهة أخرى فانه كان إذن ليظل على ارتباط وثيق بما ومن حوله بغير أن ينسحب إلى الآفاق الداخلية فى نفسه التى تعتبر المسرح الذى تلعب عليه الإلهامات دورها الأساسى .

والتوترات النفسية التى تصيب الملهم قد تكون موروثه لديه بحيث يكون شديد الحساسية مرهفا يتأثر جداً بالأشياء والوقائع فتخدش مشاعره لأنفه الأسباب « وتثور تأثرته لمواقف أو كلمات لا تثير الناس العاديين . ولقد لا تظهر آثار تلك التوترات على سطح حياة الملهم بسبب قهه لها واختزانه لآثارها . فهو لا يبدى استياء ولا ينخرط فى عدوان أو مهازرات جللية ، بل هو يتخذ من الانسحاب والتأمل الداخلى والتفريخ الداخلى وسيلة للتخلص من الآثار الناجمة لديه . فهو يجعل مسرح حياته الداخلية حياً نابضاً بالقوة ، بل إنه يجعل من صراعاته الداخلية مملكة قائمة بذاتها . ولكنه بخلاف الجنون يستطيع ضبط تلك المملكة فيشيع النظام والهدوء بها ، ويعوض عما أساء إليه فى الخارج بهدوء فى الداخل « وذلك بافراط العزلة والتأمل والمهرب من أسباب التوترات النفسية التى أثارته .

وثمة فى الواقع تأثير متبادل بين الانسحاب إلى الداخلى وبين ما يحس به الملهم من اغتراب وعدم التوافق فى الخارج مع الناس والأشياء والمواقف . فانسحابيته تقضى إلى ذلك الاغتراب ، كما أن إحساسه بالغربة وهو بين ظهرانى أهله وصحبه يقضى به إلى الانسحاب ومداومة التأمل .

. وإنك لتجد أن الملهم شخص غير راض وغير منسجم مع القيم الاجتماعية السائدة بالمجتمع الذي نعيش فيه . وهذا هو سر إحساسه بالاعتراب . وحتى عندما ينظر إليه من حوله باعتبار أنه متفوق عليهم وأسمى منهم وأعلى في قيمه ومواقفه من قيمهم ومواقفهم « فإنه من جانبه يحس بأنه غير قادر على مسايرتهم والإنسجام معهم أو أخذ الأدوار التي تناط به منهم .

وإذا نحن تأملنا حياة وسلوك الملهم ، فانتا نجد أنه في تأمله يبدأ مسترخيا ثم ما يفتأ أن ينخرط في التأمل المضني لأعضائه والمثير لكوا من نفسه . فهو يكون مشدودا بكل جوارحه إلى القطاع التأمل الذي ينغمس فيه إنغماسا ويندمج فيه اندماجا . وهنا نتذكر قصة حياة ولیم بليك الذي عرضنا لها قبلا ، وكيف أنه كان يغيب عن وعيه في أثناء تأمله للصور الإسقاطية فيقوم برسمها . وكلنا الحال بالنسبة لسقراط الذي كان يغيب عن الوعي فلا يحس بمن حوله فيقف محصلا في مكانه لا يشعر ببرد أو حر أو تعب فيظل منخرطا من تأمله طوال النهار والناس من حوله يذهبون ويمشيون ويصخبون أو ينهمكون في أعمالهم وهو لاه عنهم وقد وجه كل طاقاته النفسية إلى الحالات التأملية التي تنسيه كل شيء . على أن سقراط وغيره من الملهمين كانوا يحسون بالهكة أو التعب الشديد لدى إفاقتهم من الإندماج الإلهامي الذي كان يستغرق من وقتهم القليل الكبير . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن الشخص الملهم ما يكاد يخرج عن نطاق إندماجه الداخلي — منخرطا في الواقع من حوله — حتى يكون قد بدأ يهيء نفسه لإنخراط داخلي إندماجي جديد . ولعلنا نقول أكثر من هذا إن هناك تأملا يمارسه المرء وهو في نخم الحياة . فالملهم لا يجد فاصلا حاسما فيما بين وعيه ولا شعوره ، بل إنه لا يكاد يجد فاصلا حاسما فيما بين أحلامه وأحلام يقظته . وحتى وهو في أثناء تعامله مع الناس يكون في جانب من شعوره في حالة من التأمل أو في حالة من اللاوعي . ولذا فانك إذا تعاملت مع الملهم ، فانك تجده شبه نائم أو في حالة من علم الانتباه لما يلور حوله . وهذا ما يدفع

بالبعض من الملهمين إلى عدم الانتباه إلى واجباتهم الاجتماعية أو إلى ما كلهم وملبسهم ، كما أنهم ينسون المواعيد التي يجب أن يلتزموا بها في تعاملهم مع غيرهم ..

ومن هنا فإنهم لا يكادون يطبقون عوامل التشثيت تقلد بهم بعيداً عن مجالات تأملهم . فهم يجدون في الأشياء التي تشتت تدفق فكرهم أعلى أعتائهم . وهم لذلك يكونون في حالة هروب من تلك العوامل المشتتة ، ويحرصون على توجيه قواهم الذهنية والوجدانية الوجهات التي يرثفون منها إلهاماتهم .

بيد أن السعادة التي يحظى بها الملهم تعرضه في الواقع عما يعاينه من توترات نفسية مرهقة . فهو في تبرمه بالواقع والمألوف يجد السعادة في الجدة والابتكار اللذين يتسم بهما ما يلهم به من أشياء . فتمة إذن تعادلية فيما بين ما يلاقه الملهم من توتر وبين ما يحظى به من سعادة وجور عن طريق ما يحرز من إلهامات . ومن هنا فأنك لا تجد الملهم يهرب من المناخ النفسي الذي يسبب له التوتر النفسي ، ولا تجده نافرا من انتهاج طريق التأمل الذي ينتهي به إلى طريق الإلهام .

وإنا لنجد في تاريخ بعض العباقرة الملهمين من كانوا يستحدثون التوترات النفسية في أنفسهم عن طريق ما كانوا يتناولونه من منبهات . من أمثلة هؤلاء ما ذكر عن فولتير الكاتب الفرنسي الذي كان يلعب شرب القهوة ، إذ كان خادمه يرفع الفنجان الفارغ الذي تم له شربه لكي يضع له فنجاناً آخر منها . فكان لا يستطيع الكتابة والاستمرار في الإبداع إلا إذا احتاجت أعصابه وتنهت بما تتضمنه القهوة من صفات الإثارة والتنبيه .. وهناك من المفكرين من استعان بغير ذلك كالتدخين وغيره . المهم أن التوتر العصبي النفسي يستحدث لدى الواحد منهم لكي ينكب على الكتابة أو الإبداع الفني أو غير ذلك من مجالات تتسم بالإلهام في العادة .

يبد أن هناك من الملهمين من يكونون في غير حاجة إلى مثل تلك المواد
المنبهة لكي يتوتروا . ذلك أن من سماتهم الطبيعية أنهم متوترون وليسوا
بحاجة إلى عوامل مساعدة تصلهم إلى حالة التوتر . فهم بمجرد تناول
عملهم يصيبهم التوتر . ولا يصل الواحد منهم إلى حالة من الاسترخاء إلا
بعد أن ينتهي من الإنتاج الإبداعي . المهم عند هؤلاء هو ألا يقتحم عليهم
مفتحم جوهم النفسى المتوتر فيفسد عليهم توترهم الإلهامى . ذلك أن مثل
هذا التدخل يرتفع بدرجة التوتر عن الحد المطلوب ، فيستحيل التوتر
الوظيفى المطلوب لأداء العمل إلى غضب بسبب إفساد المناخ النفسى .

ونحن في الواقع نستطيع أن نقرر أن المطلوب للإلهام الحصول على
درجة معينة من التوتر هى مرحلة يبنية تقع فيما بين الاسترخاء النفسى وبين
التشنج العصبى . ولا يستطيع أحد أن يقيس أو أن يحدد الدرجة من التوتر
التي يجب أن يصل إليها الملهم أو التي ينبغي ألا تتقص أو تزيد عن ذلك الحد
أو عن تلك الدرجة المطلوبة للإنتاج ولتقبل الإلهام ، بيد أن الشخص الملهم
نفسه يستطيع أن يحدد ذلك حتى بغير وعى من جانبه . ذلك أن العمل
الإبداعي المطلوب لتقبل الإلهام خلاله يجب أن يكون في توازن وتكيف
مع شخصية المبدع الملهم ■ فكل مبدع له درجة من التوتر يعرفها هو ويحسها
ويصبو للوصول إليها ■

وإنك لتجد الشخص الملهم وقد استطاع أن يحدد النقطة أو الدرجة
التي يجب أن يتوقف عندها توتره . إنه عند تلك النقطة أو الدرجة يستمر
في العمل . فإذا لاحظ أن شدة توتره قد قلت ، فإنه يعمل عندئذ على
زيادتها . وإذا وجد أنه قد زاد في توتره عن الحد المطلوب ، فإنه يأخذ
عندئذ في الاسترخاء حتى يتزل بتوتره إلى الحد المطلوب . ومن الطبيعى
أن يعتمد الشخص المبدع الملهم إلى الاسترخاء اليوى حتى لا ينتهى إلى
الافلاس الإنتاجى . فالراحة وأخذ فترات مناسبة من الاسترخاء لمن
الشروط الضرورية حتى يتسنى للشخصية المبدعة الإلهامية مواصلة العمل
وإحراز ما يناسبها من إلهامات في المجال الذى كرسته نفسها له .

المشكلات الاجتماعية :

قلنا إن أهم شيء في الاستقبال الإلهامى تركيز الذهن وعدم الذوبان في الواقع الموضوعى أو الاجتماعى حول المرء . ذلك أنك عندما توزع اهتماماتك في الأشياء من حولك وفي العلاقات الاجتماعية التى تنخرط فيها ، فانك تفقد بالتالى قدرتك على إعداد نفسك لاستقبال الإلهامات التى يمكن أن تصل إليك . والواقع أن كبار الزعماء السياسيين والمصلحين الاجتماعيين لم يكونوا ذائنين في الإطار الاجتماعى الذى كانوا يؤثرون فيه ، بل على العكس من ذلك كانوا يذنبون ذلك الإطار الاجتماعى في ذواتهم . وبتعبير آخر ، فانهم كانوا يطفون دائماً على السطح ، ولا يسمحون بأن يغوصوا في لجة الحياة الاجتماعية التى تحيط بهم .

والصحيح أن عباقرة الشخصيات الاجتماعية كانوا لا يخضعون للمجتمع الذى يعملون في إطاره ، بل كانوا يخضعون ذلك المجتمع لنواتهم ، وقل إنهم كانوا يتصورون صورة ذهنية يرمونها ويتشوفون لتحقيقها وذلك بصب المجتمع القائم فيها ، ثم كانوا يضعون الخطط التى تحيل ذلك التصور الذهني إلى واقع فعل . على أن الزعيم الاجتماعى لا يرضى أو يقنع بما حققه من صوره الذهنية في الواقع الاجتماعى للمجتمع الموجود بالفعل .. ذلك أن الصورة الذهنية لديه تتجدد باستمرار وتسبق الواقع الفعلى بصفة دائبة . فما يتحقق بالفعل بالمجتمع ، سرعان ما تقابله صور ذهنية تستجد في ذهن الزعيم الاجتماعى الملهم : فما يعتل إذن في ذهن ذلك الزعيم يكون أكثر وأغزر مما يكون قد تحقق بالفعل . من هنا نجد أن الزعيم أو المصلح الاجتماعى يتسم بعدم الرضى المستمر والدائب . فهو يكون غير قانع بما استطاع تحقيقه . إنه يجد أن ما تحقق بالفعل في الواقع الاجتماعى أقل وأضعف وأضعف بكثير مما كان يؤمل في تحقيقه .

ومن هنا نستطيع أن نلاحظ أن الكثير من العباقرة لم يكونوا راضين عن المجتمع الذى عاشوا في إطاره . إنهم كانوا يتصورون في أذهانهم

مجتمعا مابيننا كثيرا أو قليلا عن المجتمع الذى كان يطويهم تحت رداثة -
ولعل ذلك التباين - أو قل التناقض - بين ما يترسمه العبرى من صور
ذهنية ، وبين ما يجده فى الواقع الاجتماعى من حوله ، هو السبب فى الانشقاق
الذى كثيرا ما نقرأ عنه فى حياة العبرى بينه وبين المجتمع الذى ينشأ فيه
وبحيا فى إطاره .

ولقد نقول إن هناك زاويتين يمكن أن نفسر منها ما نشاهده من
مشكلات اجتماعية تلف حياة العبرى الملهم فى لفاظها . الزاوية الأولى -
هى زاوية الصور الذهنية المعتملة فى القوام الذهنى للعبرى الملهم . أما
الزاوية الثانية فهى تلك الظروف الاجتماعية غير المواتية التى ينشأ فيها
العبرى الملهم والتى لا يكون له يد فى صنعها أو حياكتها . فلقد ينشأ
العبرى الملهم فى جو أسرى ردىء للغاية ، وقد يكون الفقر قد أحاط به
من كل جانب ، أو قد تكون النزاعات الأسرية - أو قد تكون البيئة المحلية
التي تحيط بالعبرى الملهم مناهضة له أو لأمرته أو لكل من على شاكلته
من يدينون بدينه أو يتسمون بلون بشرته أو ينحدرون من مسقط رأسه
أو نحو ذلك .

وبتعبير آخر فلقد نجد أن العبرى الملهم لا يكون على وفاق مع البيئة
الاجتماعية التى ينشأ فيها . إنه قد يكون مردولا أو منبوذا أو محمقرا أو
يلقى معاملة غير كريمة من الناس المحيطين به . ولقد يتنكر له الممسكون
بزمam الأمور من حوله ، فلا يعترفون له بالعبرية أو التبريز . ومن ثم
فانه يجد أنه ينزاح باستمرار ، أو يضطهد أو يستبعد أو يحارب أو توجه
إليه أصابع الاتهام أو يفتر فى عضده باستمرار أو توضع أمامه العراقيل
حتى لا ينمو وحتى لا يثبت وجوده .

يبدأ عبقرية العبرى الملهم الملحة تجعله يقف صامدا ولكنه لا يسعى وراء
المجتمع لاسترضائه ، بل هو يتلغى نحو شق خط جديد له لم يسبقه أحد
إليه . ولقد نقول إن العبرى يسعى إلى الاستخفاء فيجعل تقدمه فى خفلة

من أمر المتربصين به . فهو يسير في الظل « أو قل إنه يتسلل من وراء الأسوار التي أقيمت كحواجز دون تقدمه . فهو يحتاج في ممكن بعيد عن الانظار لكي يخطط لغزو ذلك المجتمع . فهو يتساءل بينه وبين نفسه عن الثغرات التي توجد في قوام المجتمع لكي يمر منها إلى الصفوف الأمامية به . وهنا يأتي دور الإلهام في حياة العبقري . إنه يكشف في لحظة خاطفة تلك الثغرات التي يمكن أن ينفذ من خلالها « والتي يستطيع أن يتخذها أداة لتقدمه ولتفوقه وإثبات وجوده .

ونحن لا نجد في الواقع أى شيء من التناقض بين تفسير المشكلات الاجتماعية التي تواجهه العبقري الملهم سواء بالزاوية الأولى المتعلقة بالواقع الداخلي للعبقري ، أعني بصوره الذهنية « أم بالتفسير لتلك المشكلات في ضوء الزاوية الثانية المتعلقة بالواقع الاجتماعي الفعلي المحيط بالعبقري . ذلك أن الزاويتين جميعاً يجب أن تؤخذ في الاعتبار . فالعبقري الملهم . بحكم تكوينه النفسي يكون شخصية غريبة عن المجتمع الذي ينشأ به ويوجد في نطاقه . إنه يكون دائماً سابقاً عليه « أو قل إن تصوراته الذهنية المتعلقة بالمجتمع المرغوب تحقيقه تتباين تبايناً جلياً وتبايناً مستمراً عن المجتمع الموجود بالفعل . ومن جهة أخرى فإن شخصاً هذا شأنه يكون قليل التكيف أو بالأحرى يكون منعدم التكيف مع المجتمع الموجود بالفعل في الواقع « ولنا فإن النبذ والطرده والمناهضة تكون من نصيبه في بداية الأمر على الأقل .

يبد أن العبقري يحاول دائماً أن يرأب الصدع الذي يوجد بينه وبين المجتمع . ولكنه بدلاً من أن يطأطيء الرأس للمجتمع الموجود ، فإنه يضع خططه لحمل ذلك المجتمع على التطور والتغير وإبدال جلده بجلد جديد . فإرادة التغير لدى العبقري الملهم لا تتجه إلى شخصه وأفكاره وصوره الذهنية تبلها وتعلها ، بل هي تتجه إلى المجتمع الموجود بالفعل ترغمه على الخضوع للتغير والتكيف للصور الذهنية المعتملة في ذهن العبقري الملهم .

وحتى بالنسبة للغربة التي يستشعرها العبقري وهو الموجود بحسبه في المجتمع . فانتا نجد أنه يحيلها إلى مؤانسة ووثام .. بيد أن المؤانسة والوثام ليسا مؤانسة ووثاماً مع المجتمع القائم ، بل هما مؤانسة ووثام مع المجتمع المثالي المفترض تحقيقه بعد وقت يقصر أو يطول . ولكأن العبقري يهفو بوجدانه وبجماع شعوره إلى مجتمع يستشعر أحقيقته بالوجود والتحقق عن المجتمع الموجود والمتحقق بالفعل في الواقع من نحوه . وأكثر من هذا فان العبقري الملهم يجد أن الواقع الاجتماعي للمجتمع من جوله قين بالتزاييل والاختفاء لكي يحل محله المجتمع المثالي المعتمل في ذهنه .

ولنا فانتا نلاحظ أن العبقري الملهم يستلهم من الشقاق الاجتماعي ما يجب أن يصير إليه المجتمع . وبصير أدق نقول إن المشكلات الاجتماعية التي قد تغلف حياة العبقري وواقعه الاجتماعي قد تكون في حالات كثيرة السبب أو الدافع المباشر لأن يحيا ذلك العبقري حياته الخاصة جداً التي لا يتازعه حولها منازع . وبصير آخر فانتا نقول إن أحلام اليقظة السوية هي التي تشكل الجو النفسي المناسب لدى العبقري لتلقى الإلهامات . ولعلنا نعود فتؤكد أن الإلهام مباين في جوهره لما نمكن أن يقال من أن الشخص الملهم هو شخص عادي قام بصنع صورة ذهنية بغيز أن يكون هناك تلق من الخارج : إننا نعتقد أن أعداد الذات للإلهام هي "مرحلة ضرورية لتلقى الإلهامات . ولكن لا يكفي للعبقري أن يعد نفسه - أو أن تقوم الظروف بأعداده - حتى يكون بالضرورة شخصية ملهمة : ذلك أننا نضع خطاً فاصلاً بين العبقرية وبين الإلهام ، فما تؤمن به هو أن الإلهام مرحلة تالية لمرحلة العبقرية : فثمة عباقرة غير ملهمين ، كما أن هناك شخصيات ملهمة ولكنهم لم يمروا بمرحلة العبقرية . فالعبقرية هي الأعداد ذاتي مكن ، وهي التسلح بجميع وسائل الابانة أو العمل أو التأثير . ولكن بعد هذا الأعداد الذاتي يجب أن تكون محطة الاستقبال الذاتية بجاهزة لاستقبال الإلهامات التي قد ترد إلى ذهن ووجدان العبقري وقد لا ترد إليه فكما سبق أن قلنا فان جهاز الراديو أو جهاز التلفزيون قد يكون متلفاً

ومستعداً لاستقبال الاذاعات أو الصور المرئية ، ولكن حيث لا تكون هناك إذاعة مذاعة أو برامج تلفزيونية مبنوثة فان الراديو أو التلفزيون لا يستقبل شيئاً بالطبع . كذا فان العبرى قد يكون هياً نفسه لاستقبال الالهامات ولكنه مع هذا لا يستقبل شيئاً جديداً لم يصل أحد إليه .

ولكن الواقع أن العبرى الملهم غالباً ما يستقبل إلهامات جديدة . ذلك أنه يدأب على الشعور بالاغتراب عن مجتمعه . ويتعبّر آخرقائه يظل في حالة ترقية استقبالية لما يمكن أن يلقى به إليه من إلهامات . فالمشكلات الاجتماعية التي تحيط بالعبرى الملهم تشكل عوامل مساعدة في كثير من الأحيان لاستقبال الالهامات المتباينة . وإنك لتجد في سير العباقرة الملهمين شواهد كثيرة تؤيد ما نذهب إليه هنا .

الآزمات الاقتصادية :

لاحظنا في الموضوع السابق أننا ننحو إلى القول بأن العبرى الملهم ليس بالشخص المنسجم أو اللئاب في المجتمع الذي يعيش فيه ، بل على التقيض من ذلك إنه الشخص الذي ينحو إلى إذابة المجتمع في قوامه . إنه يريد أن يحمل المجتمع على مطاوعته ولا يطاقىء هو رأسه للمجتمع . ومن هنا فأننا نجد أن الظروف غير المواتية اجتماعياً واقتصادياً تعمل على إحالة العبرى إلى شخصية غريبة عن المجتمع ، أو قل إن الظروف غير المواتية تشكل عوامل مساعدة على حمل العبرى على الاحساس بالاغتراب عن مجتمعه . فثمة نزعة طبيعية أو جبلية تحمل العبرى على الاحساس بالاغتراب ، يساعدوا ويدعمها ما يستشعره من ظلم يقع عليه ، أو من نبذ أو جفاء أو عدم تقدير أو حتى الاستنكار والاحتقار لمن جانب الكثير من أبناء المجتمع الذي يوجد به . بمدارستك لسير العباقرة ، فانك تجد أن ظروفًا خارجية غير مواتية كانت تزيد إحساسهم بالغربة في المجتمع الذي يوطنون به .

ولقد ذكرنا قبلا أنه لولا مثل هذا الاحساس بعلم التواؤم وبعدم الرضى عن المجتمع القائم ، لكانت إذن كفة ذلك المجتمع الممتحن بالفعل أرجح وأقوى وألصق بوجودان العبرى . ولكن حيث أن العبرى لا يكون راضيا أو منسجما مع المجتمع الراهن ، فانه يسعى لتشكيل صورة ذهنية عن المجتمع النموذجي وكيف يكون . على أن إحساس العبرى بعدم الرضى وبالتبرم من بالمجتمع الراهن يظل معتملا لديه حتى ولو تغيرت الظروف الاجتماعية والاقتصادية لصالحه . ذلك أن الرواسب النفسية التي سبق أن ترسبت في قرارة نفس العبرى منذ مطلع حياته تظل تعمل عملها وتظل مؤثرة بعمق في حياته الذهنية . فالمرء ليس ابن ساعته الراحة بقدر ما يكون إنا للظروف التي أحاطت به في نشأته والتي غلفتها في صباه ومراهقته وشبابه .

والواقع أن الأزمات الاقتصادية التي تحيط بنشأة العبرى في طفولته ومراهقته وشبابه تجعله راغبا في التعويض عما فاته من متع الحياة أو من الثرف والنعم المادى . من هنا فان العبرى يسعى إلى التعويض الداخلي عما فاته في الواقع الخارجى . ولكن ذلك التعويض النفسى لا يسير وحده في دخيلة العبرى ، بل يرتبط ارتباطا وثيقاً بالرغبة في الانتقام من الواقع الاجتماعى . من هنا فان العبرى يبطش داخليا — في ذهنه وفيما يصوره بالقلم أو بالريشة أو بغير ذلك من وسائل الإبانة — بالمجتمع الراهن وبالأوضاع القائمة . فهو يحارب المجتمع الذي حرمه من الرخاء ، ويتخيل نفسه في صورة مستقبلية عليه يوجد من جديد طفلا ومراهقا وشابا في مجتمع جديد من صنعه وتصويره الذهني . وهو يجد في عمليتي الهمم والبناء حيث يهلم المجتمع القائم وحيث يبنى مجتمعا ذهنيا جديدا ما يشبع إنتقاميته من جهة « وما يشبع بجوعته وما فاته من جهة أخرى .

ونستطيع القول بأن الانسان بعامة في حاجة إلى قدر معين من التوتر لكي يعمل فكره ولكي يشغل ذكاه في المشكلات والمواقف التي تصادفه.

ولا شك أن إحساس الانسان منذ بداوته بالخطر يهدده وبالمخاوف تتعلم بين أضلعه كان دافعا له على الاختراع وتفتيح مجالات كثيرة متباينة للرد الأخطار المترتبة به وتهدئة المخاوف التي تساور قلبه . ونستطيع أن نقرر في مقابل هذا أن الانسان الذي تحيط به الرفاهية من كل جانب ، والذي يحس بالطمأنينة الكاملة تنشر ألويتها على قواده ، والذي توفرت له جميع مقومات الحياة الرغبة ، والذي لا يستشعر توترا في قلبه ، لا يجد لديه بالتالي دافعا نحو الكشف والابتكار والتجديد . ومعنى هذا أن رغبة الانسان في الكشف والاستطلاع لا تكفى وحدها لتقلبه وإظهار مواهبه على الملأ .

ونحن لا نخطيء - بناء على هذا - إذا ما قلنا إن الأزمات الاقتصادية التي غلفت حياة معظم العاقرة في المجالات الانسانية المتباينة ، كانت دافعا لهم نحو الاحساس بالتوتر الداخلي . ومن ثم كانت دافعا لهم نحو شق طرق جديدة وترك بصماتهم الأصلية على ما اضطلحوا به من أعمال عظيمة . وصدق المثل القائل « إن الحاجة أم الاختراع » . على أننا لا نغنى هنا بكلمة « حاجة » مجرد الاحتياج إلى شيء من الكماليات ، بل نقصد الحاجة الأساسية التي يهدد عدم توافرها حياة الانسان أو مستقبله أو سمعته أو مكانته بين أقرانه . فاحساس الإنسان بالحاجة وبعدم توافر أسباب إشباعها ، إنما يجعله في حالة من التوتر التي تحمله على إخراج ما في جعبته النفسية من مواهب مطمورة .

على أننا لانستطيع أن نقرر أن هناك علاقة سببية بين الأزمات الاقتصادية وبين العبقرية والالهام . إننا نعتبر أن العلاقة السببية إنما تقوم بين التوتر المناسب الذي يشيع في جنبات المرء وبين ما يتسنى له عمله أو التأثير به في المجالات المتباينة المحيطة به . وهناك العديد من الأسباب التي يمكن أن تحدث التوتر في دخيلة العبقرى . ومن بين تلك الأسباب ما يفقده من رغد ورخاء ووفرة . ولعلنا نضيف أيضاً إلى هذا أن مجرد الاحساس

بالتوتر والابانة عن الذات بالتعبير عن المواهب الخبوة بالشخصية لا يعنى الحصول على الالهام . فثمة عباقرة كما قلنا في المجالات المتباينة لم يصلوا إلى مرتبة تلقى الالهامات . فلقد نحمد شخصية عبقرية توفرت لها جميع الوسائل وقد تمكن صاحبها من المجال الذى يعمل فيه ، ولكن عبقريته لا تكون مشمولة بالالهام . ومن ثم فان صاحب تلك الشخصية العبقريه يبرز ويضوق على جميع أقرانه ويلقى شهرة كبيرة وذپوع صيت، ولكنه مع ذلك لا يكون قد فتح مجالا جديداً يشد البشرية إليه . فهناك الكثير جدا من العباقرة فى علم الهندسة ، ولكن فيثاغورس بلا شك هو الشخصية الملهمة الأولى بينهم لأنه أول من وضع اللبنة الأولى للهندسة ، أو قل هو الذى اخترع الهندسة . فن المؤكد أن فيثاغورس قد تجاوز الى نطاق أعلى هو نطاق الالهام . ولكتنا نستطيع أن نسرّد أمثلة لشخصيات ملهمة ولكنها ليست عبقرية . فشاعر النيل حافظ إبراهيم كان شاعرا ملهما ، ولكنه لم يكن عبقريا . ذلك أن شعره كان مفعما بالالهامات ولكنه فى نفس الوقت لم يكن غزير المادة ولم يكن يتم على سعة الاطلاع ، كما أنه لم يتوسع فى شعره إلى آفاق متباينة كالمرسحة الشعرية مثلا مثلاً فعل شوقي . ونستطيع من جهة أخرى أن نقول إن العقاد كان عبقريا ولكنه لم يكن ملهما .

وبالجملة نستطيع أن نقرر أن الازمات الاقتصادية الى تحقيق بالعبقرية — أو بمن لديه استعدادات عبقرية — تعمل غالبا على شحذ همته والنفخ به إلى الابانة عما يتوارى فى ثنايا شخصيته من إمكانيات نادرة . ولكن ظهور تلك الخبوءات ليس بكاف لتلقى الالهام . إننا نستطيع أن نقرر أن إعداد الذات لتلقى الالهام يمكن أن يتواكب معه تلقى الالهام بالفعل ، كما يمكن ألا يتواكب ذلك معه . ولنا أن نقول إن النقد يمكن أن يوجه إلى من لديه استعداد للعبقرية ولكنه أهمل استعداده فلم تظهر عبقريته . ولكن الأمر ليس كذلك بازاء الالهام . فأنت لا تستطيع أن تتخذ الأديب أو الفنان أو الفيلسوف لأنه لم يحصل على الالهام . ذلك أن الاجتهاد والمثابرة

والدأب والمواصلة وحدها هي التي بيد المرء . أما تلقى الالهامات فانها خارج نطاق قدرته . فالإلهام موهبة أو هو عطية تمنح منحاً للمرء . وكل ما بيده لفعله هو أن يعد نفسه لتلقى الالهام فحسب . فأنت لا تستطيع أن تنهب الالهام . ولكن تستطيع أن ترقبه . فاذا ما لاح الالهام أمامك فعليك بالانقضاض عليه والتشبث به والامساك بتلابيه . ولعلنا نعود فتؤكد أن الالهام يتأتى للمرء الملهم على هيئة ومضات سريعة الاختفاء . فاذا لم تكن متيقظاً ومتربحاً للانقضاض على الكنز الذي يفتح أمامك ثم يغلق بعد برهة قصيرة جداً . فإن جميع مجوهراته الثمينة تضيع عليك ولا تستطيع الحصول عليها بعد ذلك إلى الأبد . .

ولعلنا نجد في حياة كثير من الناس لحظات الهامة توافرت لهم ولكثرت لم يستغلوها . لقد يعمل الفقير أو الحاجة على الإلقاء ببعض الناس في حماة اليأس أو الارتقاء في أحضان الجريمة أو الجنون . ولكن نفهم تلك الظروف المائلة القاسية هي التي جعلت العباقرة الملهمين في حالة من التفحص الذاتي ، أو قل إنها جعلتهم في حالة ترقب وإنتباه لما يمكن أن يصدر إليهم من إلهامات . ناهيك عن إعداد أنفسهم بوسائل العبقرية وذلك بالتمكن من المجال الذي كانوا يشتغلون به والتفوق فيه والتبريز على جميع العاملين به .

ولا شك أن العبقرى يكون أكثر قلرة على استثمار الالهامات التي تتأتى له من غير العبقرى . فاذا ما توافرت العبقرية والالهام جنباً لجنب ، فإن المرء يستطيع عندئذ أن يقدم إلى الإنسانية فتوحات جديدة لم يسبقه أحد إليها . فالإلهام هو الضوء الذي يكشف للملهم نطاقات جديدة لم تدسها قلم بشرية من قبل . أما العبقرية فهي الامتداد بالطريق المعبد إلى أبعاد جديدة . ولكن العبقرى الملهم يجمع في نطاقه بين التمكن من اكتشاف الجديد وبين استيعاب القديم في نفس الوقت .

التحديات والعقبات :

أكدنا فيما سبق أن إرادة الحياة بصفة عامة ، وإرادة العبقرية بصفة خاصة لا يمكن أن تبدى والمرء في حالة من الاسترخاء والدعة والوفرة والتعيم والاسترخاء التام : فكما أن النار لا تخرج أو تبزغ من الحجر الصوان إلا بالطرق ، كذا فإن المواهب لا تبدى إلا إذا حدث احتكاك وتحد لفكر ووجدان الشخص . فالحجر الصوان لا يبدى مواهبه أو فطرته النارية إلا بالاحتكاك والمصادمة . وكذا فإن التحديات والعقبات التي تجابه صاحب المواهب للعبقرية هي الشرط الوحيد والضروري لإبداء ما هو مخبوء في أغوار شخصيته .

على أن العبقرية التي تبدى لدى الشخصية الموهوبة والتي لا تبدو إلا بالتحديات والعقبات تتور حياة الموهوب ، لا تعنى إحراز الالهام كما سبق أن أكدنا . ذلك أن العبقرية تسبق الالهام في أغلب الأحيان . ولكن في أحيان أخرى يكون الشخص ملهما بغير أن يكون عبقرى . فالمايسترو قد يكون عبقرى في الموسيقى ، ولكنه ليس بالشخص الملهم . ولكن الالهام يواتى واحدا مثل بيتهوفن أو باخ أو غيرها . وفي أوساطنا العربية نجد واحدا مثل عبد الوهاب حائرا على العبقرية والالهام معاً ، بينما نجد أم كلثوم حائزة على العبقرية فحسب . ذلك أن الالهام يعنى الحصول على أشياء أو على نفحات لم يسبق لأحد أن حصل عليها . أما العبقرية فأنها تبدى في التمكن والأداء الممتاز .

وبمناسبة ذكر عبد الوهاب وأم كلثوم ، فانتا نجدهما جميعاً قد سارا على الشوك حتى وصلا إلى ما وصلا إليه من مجد في عالم الموسيقى . وكذا يقال عن فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وغيرهما من عباقرة في عالم الموسيقى والفناء . فالرحلة الأولى التي تجابه حياة العبقري لا بد أن تكون متسمة بالتحدي لقدرته . ولقد نجد أن القشل في بعض المواقف يشكل دافعا ومقوما ديناميكيًا في شخصية العبقري يدفع به إلى إبراز ما في جعبته .

ولذا فانتا نجد أن الكثير من كبار المربين لا يرغبون في عزل الأطفال الموهوبين عن جو المدرسة العادية ويقاومون فكرة إحاطة الموهوبين بكل الرفاهية وتذليل جميع الصعوبات التي يمكن أن تجابههم إذا ما وجلوا في إحدى المدارس العادية . فهم يؤكدون أن الصعوبات والتحديات أو حتى المقومات الرديئة تشكل مقومات هامة في بناء شخصية الموهوب . والأمثلة هنا شبيهة بترية الجسم في الجو العادي وتعريض الطفل ككائن حي للعوامل الجوية الصعبة ، فينشأ على الإحشوشان ومقاومة التقلبات الجوية . وكذا يقال إن تعرض أبناء الفقراء للإصابة ببعض الميكروبات يقمهم من الإصابة بالأمراض الفتاكة . ونفس الفكرة هي المطبقة طينا في الأمصال الواقية من الأمراض المعدية المتباعدة . فالمصل هو جرعة من الميكروبات التي يستطيع الجسم مقاومتها والقضاء عليها . ومن ثم فإنه يصير ملدريا جسيا على مقاومة تلك النوعية من الميكروبات .

فالمعلم يفتح الإنسان الموهوب الواقع من حوزة يشكل خبر الزاوية في إزارة الموهوبين والأفصاح أعزاء المحبوة من الاشتدادات بالشخصية

ولعلنا نعرض فيما يلي لأهم التحديات والعقبات التي تقف متحدة طريق تقديم العبقرى الموهوب والتي تعمل عادة على تثقيق مواهبه والدفع به نحو التقدم والتفوق المستمرين . إننا نجد أولا ما يعرف بمضايقات الآخرين للموهوب . فالكثير من الكبار والأتراب لا يعترفون لصاحب العبقرية بما لديه من امتيازات بل يرمونه بالتخلف . ونذكر هذه المناسبة ما وقع لاديسون الذي اعتبره مدرسه شخصا متخلفا لا يصلح لشيء وقد طلبت إجازة من مدرسته من أمه بحجة أنها لا يصلح لطلب العلم . ولكن هذه الإجازة كانت بمثابة دافع كبير للطفل لإثبات وجوده وتفوقه . على أن التقدم المستجود وعدم الاعتراف بالعبقرية الملهمة يظل قائمة ومستقرة من جانب المصنوع الذين يتطوعون بالفت في عضده وثنية عن التقدم في طريق المحبة والشهرة . ولكن كلما ازدادت الضغوط على الموهوب الملهمة فإنه يدين على التقدم والتفوق

والواقع أن فاعلية الضغوط التي تحيط بالشخصية الموهوبة تتلغ به إلى التركيز حول الذات وإلى علم النوبان في المحيط الاجتماعي قبل أن يتمج الشخص في الأشخاص المحيطين به فانه يحس بالتأثير منهم ، وبأنه متاير لهم ، أو قل بأن له عالمه الخاص الذي يستقل به ، ومن ثم فانه يوفر لنفسه المناخ النفسي المستعد لتقبل الإلهامات . فتللك الضغوط الخارجية لا تعمل على مجرد تحقيق مواهب الشخص وأظهار عبقريته — إذا كان مفعما بالعبقرية . — بل إنها تهبه الفرصة الكافية لتلقى الإلهامات المتباعدة .

أما التحدى: أو العقبة التالية التي تعمل على توفير المناخ المناسب لتلقى الإلهامات فهي الردى في الفشل . وهذا يجدد أن الشخص الفاشل قد يعقد العزم على التفوق فيما فشل فيه ، أو هو يعقد العزم على تعويض فشله بالتفوق في مجال آخر مباين تمام التباين للمجال الذي لم يوفق فيه . فبالنسبة للاحتمال الأول فانتا نجد أن واحداً مثل أينشتاين الذي أوسنة في مادة الفيزياء قد عقد العزم على التفوق في نفس المادة التي أوسنة فيها . وكان له التوفيق والتأثير على جميع أقرانه الذين نجحوا فيما أوسب هو فيه . أما بالنسبة للاحتمال الثاني — وهو الانصراف عن المجال الذي فشل فيه إلى المجال الآخر فيضيق فيه — فانتا تضرب مثالا بتحليل مطران الذي فشل في التجارة : فانتصرف إلى الشعر فتضوق فيه وقد ألقى بثقله في مضماره .

ولعلنا نغزو إلى الشعور بالفشل أو بالنقص الفصيل في التمايز من الآخرين أو عدم النوبان فيهم ، ومن ثم توفير فرصة لم الشعث وعدم التبعثر في أشياء متباعدة كثيرة حول المرء . ولا شك أن التمرکز حول نورة الشخصية يعمل على توفير نوع من الاستقلال الذاتي وعدم النوبان في الآخرين ، ومن ثم توفير فرصة لتلقى الإلهام المرء .

أما التحدى أو العقبة الثالثة التي تعمل على توفير المناخ المناسب للتفتش الداخلي وتوفير المناخ المناسب لتلقى الإلهام فهو النقص في الجاذبية الشخصية أو النقص في الجمال أو في الطلعة البهية أو وجود أى صفة من الصفات

الشخصية التي تعمل على عدم اقبال الناس على الشخص أو تعمل على نفورهم منه أو عدم الرغبة في إقامة علاقات به . ولعل أفضل مثال نضربه في هذا الصدد سقراط الفيلسوف اليوناني الذي لم يكن يتمتع بالوجه الجميل « بل كان صاحب وجه قبيح دميم الحلقة ومتفر . ومن هنا فان سقراط قد استطاع أن يستشعر ذلك منذ طفولته » ومن ثم فانه أثر الانصراف إلى عالم آخر غير عالم الناس من حوله . لقد كان سقراط يقضي الوقت الطويل في التأمل ، للرجة أن بعض مؤرخي الفلسفة قد اتهموه بالاصابة بمرض القصام إذ أنه كان يقضي وقتا طويلا وهو واقف في حالة تخشب فلا يحس بما كان يجري حوله ، وقد أخذ يتأمل إحدى القضايا الهامة التي كانت تشغله ، أو ربما كانت الإلهامات توجه إليه فيستقبلها وهو في تلك الحالة الناهلة عما حوله من أشياء وأحداث وأشخاص .

أما التحدي أو العقبة الرابعة التي تعمل على تهيئة المناخ المناسب لتلقي الإلهامات فهي عقبة جنسية . فالشخص غير الموفق في الحب أو الزواج ، قد يجد بغيته أو تعويضا عما حرم منه في تأكيد ذاته بطريقة أخرى . إنه يسعى إلى تعشق الأفكار والمثل العليا الذهنية ، ناهيا إلى إنجاب أفكار أو مخترعات بدلا من إنجاب الأطفال . ولعلنا نضرب مثالا هنا بفان جوخ الذي لم يكن موفقا في حبه . فكان كلما أقبل على الحب لم يكن ليجد الاقبال عليه من الأطراف الأخرى من النساء اللاتي أحبن . وحتى المرأة التي رضيت بعشرته كانت من الساقطات وبائعات الهوى . فكان يحس بفشلته المرير في الحب ، فانصرف في إقبال متقطع النظر على اللوحات يرسمها بعبقرية وإلهام مدهشين .

وأخيرا فان التحدي أو العقبة الخامسة التي توفر المناخ المناسب لتلقي الإلهام فهي الحرمان من عطف الكبار منذ نعومة الأظفار . فكثير من عباقرة الإنسانية الملهمين كانوا يتامى الأم أو الأب أو الأم والأب جميعاً . ولعل اليتيم الذي لم يجد الصلوة الحنون يبحث له عن صلوة حنون حتى ولو

كان ذلك الصلبر الحنون بعيدا عن الواقع المحسوس . لقد يكفل له الحنان من مصادر إلهامية روحانية تحنو عليه وتكأله وتعوضه عما فاته من حنان الوالدين . فالطفل والمراهق والشاب الذين يحسون بأنهم قد حرّموا من أم تحنو أو من أب يعطف ويرعى ، ينكفئون على ذواتهم الداخلية فلا يتسنى لهم النوبان في الوسط الاجتماعي الذي يوجدون به ، ومن ثمّ فإنهم يشكلون لأنفسهم عالما خاصا بهم مستقلا عن العوالم الأخرى المحيطة بهم ، وبالتالي فإنهم يوفرون لأنفسهم المناخ المناسب لتلقى الإلهامات المتباينة التي تناسب مواهبهم وما جبلوا عليه من استعدادات شخصية خاصة بهم .

الفصل الثالث عشر

التأمل والهروب الى الداخل

إخضاع الخارج للداخل :

نستطيع أن نستشف مما سبق أننا تؤمن بأن الإلهام حالة تتأق لبعض الأفراد بعد أن يكونوا قد عكفوا على أنفسهم وقدرت ذواهم والوجدان بلخاثلهم ، وبحيث لا يكونون مشتتين أو مبعثرين في الأمور الخارجية . ونستطيع أن نقرر أن بعض الشخصيات العامة التي توصف بأنها شخصيات ملهمة فيما قامت بالاضطلاع به ، إنما يكون الواحد منهم قادرا على الانصراف الى ذاته بعد أن يخلو الى نفسه وبعد أن ينفذ يده من الأعباء العامة الموكلة اليه . والواقع أن بعض الناس يجلسون في ضغوط الحياة وما تتطلبه من توجيه الانتباه الى الخارج — أعني خارج الذات — باعثا لهم على سرعة الانطلاق نحو الداخل ، وعلى شدة التركيز على دخيلة النفس .

ولعلنا نقرر أن مثل هؤلاء الناس يتشوفون الى البقاء مع أنفسهم والبعد عن صخب العلاقات الخارجية بعد أن يكونوا قد انخرطوا في تلك العلاقات الاجتماعية مدة طويلة يكونون بعدها بحاجة الى الملوء النفسى . فهم يجلسون في الحرب الى الداخل الراحة مما أصابهم من جهد وتعب نفسيين . فالواحد من هذه الفئة يجد إلهاماته بعد الانصراف عن المرح والمرج . ولكن العجيب أن بعض أفراد هذه الفئة يجلسون الإلهام وقد هبط عليهم وهم في الزحام وفي معمعة العلاقات الاجتماعية . بيد أن الواقع أن الملهم من هذا النوع لا يكون موجودا في الصخب الاجتماعى إلا بجسمه فحسب . إنه يجلس من الفوضىاء التي تحيط به إطارا أو خلفية بعيدة عن إثارة وجدانه ، ويبعدا عن تركيزه اللغنى . إنه لا يكاد يسمع مايلور من أحاديث تصافح أذنية ،

وهو لا يكاد يستين المراثيات التي تمر أمام ناظره . فالواحد من هؤلاء الملهمين في وسط الزحام يكون في الواقع غريبا عن الصخب الاجتماعي الذي يحيط به من كل جانب . إنه يشبه الزيت الطافي فوق الماء . إنه يلامس الماء ولكنه لا يختلط به ، أو هو كالغواصة التي تشق عباب المياه في أعماق المحيطات بغير أن يتخذ الماء إلى قوامها ، وبحيث لا تصير جزءا من الكائنات الموجودة بعمق المحيط .

وهناك شخصيات قوايتها الومضات الإلهامية فجأة وهم في أشد حالات الانهماك مع الناس ، أو وهم منهمكون في بعض الأعمال الروتينية أو الأدائية . فمثل هؤلاء الناس يجب عليهم المسارعة بتسجيل تلك الومضات الإلهامية في مفكرة خاصة حتى يتسنى لهم أن يرجعوا إلى ما ألهموا به بعد أن يعكفوا على أنفسهم في خلوتهم الذهنية . يقول لنا أحد المؤلفين إن إلهاما مفاجئا واتاه وقد كان في حفل صاخب . فثمة فكرة طارئة باسم الكتاب الذي ألفه بعد ذلك ، وكان في أثناء الحفل في غير توقع للتفكير في أى موضوع يتعلق بالتأليف . ولكن فجأة وبغير مقدمات أو بغير تمهيد أو ارتباط بالكتب أو الثقافة ، إذ بفكره ينسحب بعيدا عن جو الحفل الصاخب ، وكان من حوله منصرفين عنه إلى الدعابات والمناقشات . أخذ فكره يعمل وكأن شخصا أو جنيا بداخله على عليه اسم الكتاب الجديد ثم فصوله ومحتويات الفصول من جزئيات أو فروع أو موضوعات جزئية . لقد كان هناك ما يشبه الشريط المرئي يمر بذهنه في ذلك الجو الصاخب . فما كان منه إلا أن أخرج مفكرته وأخذ يلون ما كان على عليه من ذلك الجنى الداخلي الوافد عليه بغير توقع وبغير مقدمات أو تمهيد . ويضيف صاحبنا أنه ما كاد يعود إلى داره حتى بدأ في نقل ما كتبه في مفكرته على الورق الذي اعتاد أن يؤلف فيه ، وبدأ منذ تلك الليلة في تأليف ذلك الكتاب إلى أن آتته بعد عدة أشهر ، ودفع به بعد ذلك إلى المطبعة .

. وثمة حالات مشابهة لحالة هذا المؤلف الذي عرضنا له . ثمة ما أجاب به الشاعر محمد بهجة الأثرى على السؤال الذي وجهه إليه الدكتور مصطفى شوييف

في كتابه « الإبداع الفني » . يقول الشاعر « قد تيقظ الشاعرية عندى في الأماكن التي تكون فيها حركة وأصوات. لذلك ترانى في هذه الجالة أسرع في البحث عن مكان بعيد عن الحركة والجلبة لأنظم قصيدتى تحت تأثير الانطباعات قبل أن تغتر النفس وتضيع الفرصة » .

أما الشاعر محمد مجنوب فانه رد على سؤال الدكتور سوييف بقوله « هناك أحوال — لا عادات ثابتة — توافق عملية التأليف ، فلا بد من جو خاص يساعد على الاستغراق في روح الموضوع كالغزلة — ولا أغنى بها الانقطاع عن رؤية الناس بل الانقطاع عن مشاركتهم فقط — وقلم أستطيع الاعتزال للنظم في حجرة خاصة بل أنا أقوم بذلك في المقهى وعلى المائدة وفي السيارة. وقلم يشغلنى عن ذلك ضجيج الناس وحركتهم بشرط ألا أضطر لمشاركتهم في هذا لأن أقل شيء من المشاركة يقتضى إعمال الوعى ، وهذا بطبيعته يصرف النفس عن التصور واستحضار التعابير الملائمة لإخراجه » .

أما الشاعر عادل الغضبان فانه يجيب عن نفس السؤال الذى قلعه إليه الدكتور سوييف بقوله « لقد يبرز لى معنى من المعانى أو قافية من القوافى وأنا أعمل عملا ليس بينه وبين الشعر سبب أو أحدث أحدا حديثا لا علاقة له بالشعر ، فان لم أتمكن من تقييد خواطرى في وريقة أو ظرف رسالة أو على علبة لغافات ، فانى أثبتها في ضميرى إلى حين » .

وفي ضوء هذه الأمثلة التي أوردناها نلاحظ أنها جميعا تشير إلى حقيقة واحدة ، هي أن الإلهام يعنى إخضاع الخارج للداخل . فالملهم ليس شخصا يعكس ما يسلط عليه في اللحظة أو الآن الواحد ، بل هو شخصية مستقلة بذاتها ، أو هو شخصية تشكل عالما قائما بذاته له قوانينه ونظمه واستقلالته عما حوله . وأكثر من هذا فان هذا العالم الداخلى يسيطر على العالم الخارجى . فليس العالم الخارجى — بما يحويه من أشياء وأحداث وأشخاص وعلاقات اجتماعية — سوى خامة يقوم العبقرى الملهم بتصنيعها . فهى ليست المؤثرات التى تنعكس على فكر ووجدان العبقرى المبدع ، بل هى مؤثرات مبدئية

أو هي خامات أو عناصر سرعان ما يتم تفاعلها بعضهما مع بعض فينتج مركب جديد ليس فيه شبه بتلك العناصر التي يتشكل منها بالتركيب .

فاذا نحن قاضلنا بين نوعين من التأثير في العبقري الملهم : النوع الأول - هو تأثير الأشياء والأحداث والعلاقات والأشخاص في نفسيته ، والنوع الثاني - تأثير العبقري الملهم في الخارج بما يحويه من أشياء وأحداث وعلاقات وأشخاص ، فإننا نجد أن النوع الثاني من التأثير هو صاحب السلطان وأنه هو الطاغى على النوع الأول من التأثير . فعلى الرغم من أن العبقري الملهم يستمد عناصره التجريبية الأولية من الواقع الخارجى ، فإنه يحيل تلك المقومات الخارجية إلى كيانات مبهمة ، تهاين عما كانت عليه . وأكثر من هذا فإنه بما يحصل عليه من إلهام يخلق كيانات جديدة مستقلة تماما وجديدة كل الجدة ولا ترتبط بصفة ما بتلك العناصر المستفادة من الواقع الخارجى .

فثمة أحداث ذهنية بدخيلة العبقري الملهم أقوى بكثير جدا من الأحداث الحسية الإدراكية التي يقوم بها في تلقيه لمؤثرات العالم الخارجى . فبعد أن يعتصر العبقري الملهم المدركات الحسية ، وبعد أن يحيلها - كمرحلة تالية للاعتصار - إلى مركب أو مركبات ذهنية مغايرة تماما لما كانت عليه في المرحلة الإدراكية؛ فإنه يرتفع إلى المستوى الثالث - أعنى المستوى الإلهامى . وفى هذا المستوى الثالث الإلهامى ، يأخذ العبقري الملهم فى خلق عوالم جديدة ليس لأحد غيره قبلها . فهو يفتح مجالا مبتكرا لم يقرب منه حد قبله . وقد ضربنا مثلا قبل ذلك بفيثاغورس . ولنقل إن طاليس باليونان هو صاحب الإلهام الأول بالفلسفة ؛ فهو نقطة البداية لكل فكر فلسفى بدأ بتفكيره ونشأ معه وبه . ولنقل إن اختاتون هو الذى ألهم بالتوحيد فى المجال الدينى بمصر القديمة .

على أن الإلهام ليس قاصرا على العباقرة كما قلنا . ذلك أن الأشخاص العاديين يلهمون أيضا بأفكار أو تصرفات أو مخترعات . فالإلهام قسمة مشتركة بين العباقرة وغيرهم . وهو يتوزع بنسب متفاوتة بين كثير من

الناس . ولكنه عند البعض لا يكاد يذكر « بينما يكون واضحا جليا عند البعض الآخر منهم » . ولكن لا يستطيع المرء أن يفيد من الإلهام إلا إذا هو أخضع الخارج للداخل . وبتعبير آخر فإن المرء لا يفيد مما يلهم به إلا إذا كانت له شخصية مستقلة « وقد صار مقود النشاط في يديه . فالاستقلال الذاتي وعدم الخضوع للضغوط الخارجية هو شرط الإفادة من الإلهام . وهنا نكتشف المعادلة الصعبة بين الافادة من المقومات الخارجية الموضوعية وبين القدرة على تلقى الالهامات واستيعابها . ذلك أن أولئك المتخمين بالمعرفة والذين تثقل أذهانهم بما يغص فيها من معلومات لا يكادون يلهمون بشيء . فما لم يهضم المرء ما يصل الى ذهنه من معرفة وخبرة ، فإن المعرفة والخبرة تكونان عبئا عليه ومغوقا يعوقه عن تلقى الالهام .

الطفو على سطح الواقع :

هناك نوعان من الناس بصفة عامة : نوع يرتبط بجزئيات الواقع ، ونوع آخر يرتبط بالكلية . والنوع الأول من الناس يهتمون بالظاهر من الأشياء ، ولا يحاولون سبر أغوار الأشياء كما تبدو لكن يصلوا الى جواهرها وأعماقها . أما النوع الثاني من الناس فانهم يهتمون بالحقيقة يبحثون عنها خلف ما يبدو للعيان . على أن هذا النوع الأخير من الناس لا يتنكرون للوقائع الجزئية أو للأشياء كما تبدو في الحياة اليومية ، بل انهم لا يكفون بما يبدو أمام أعينهم وبما يقع على سمعهم ، بل يتقبلون الوقائع الإدراكية كنقطة البداية أو كأول المحيط في تفكيرهم . وهم يسبرون بما يصلون اليه بادراكهم الى أبعد شوط ممكن ، أو قل إن أفراد هذه الفئة الأخيرة لا يغطسون في قرار الواقع المحيط بهم ، بل يطفون على السطح حتى يشاهدوا جميع ما يقع في مجال الواقع بغير أن تفوتهم واقعة أو حقيقة دون أن يدركوها .

والواقع أن الحكمة منذ القدم قد استمسكوا بموقف هذه الفئة الثانية . فالحكيم ظل عبر الزمان هو الشخص الذي لا يغرر الواقع فيصده كما يبدو له ، بل هو الشخص الذي يستطيع أن يرى ما يحته الواقع من حقائق ثابتة

وجديرة بالتصديق . وبعد الحكماء أتى الفلاسفة ومن بعد الفلاسفة العلماء يبحثون جميعا عن الحقائق الثابتة التي تركز عليها الوقائع الجزئية . فالحقيقة لا تكن فيما ييلو « بل تكن فيما يجنبه ما ييلو . ومن هنا أخذ الإنسان يبحث عن القوانين التي تخضع لها الأشياء . وفي نهاية المطاف أخذ علماء الدراسات الإنسانية في البحث عن القوانين التي يسير وفقها الإنسان الفرد والإنسان المجتمع في واقفه المتباينة . فأخذ علم النفس من جهة « وعلم الاجتماع من جهة أخرى في البحث عن القوانين التي يسلك وفقها سلوك الفرد وسلوك المجتمع . فكما أن الفلزات تخضع لمجموعة من القوانين التي لا تريم عنها ، كذا فإن الحياة النفسية للإنسان الفرد، وكذا حركة سير وتطور المجتمع بالنسبة للإنسان المجتمع تخضع لمجموعة من القوانين التي لا تتأثر بزمان أو بمكان . فثمة حقائق أو قوانين نفسية ثابتة لا تتغير بتغير الأشخاص . فالمصري والصيني والانجليزى والرومى « وكذا البدائي والمتحضر ، بل وأيضا الطفل والكبير « والمرأة والرجل يخضعون لقوانين نفسية عامة تنطبق وتصدق عليهم جميعا . ولكن هناك قوانين خاصة بكل فئة من فئات الناس . فثمة قوانين نفسية خاصة بالطفولة ، وأخرى خاصة بالمرحلة ، وثالثة خاصة بالشباب ، ورابعة خاصة بالكهولة ، وخامسة خاصة بالشيخوخة بغض النظر عن الجنسية أو الدين أو مستوى التحضر . وقل نفس الشيء بالنسبة لباقي القوانين النفسية الفرعية الخاصة بفئة معينة من فئات الناس .

وما يقال عن علم النفس ينسحب بنفس الدرجة من الصديق بازاء علم الاجتماع وبالنسبة لعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وبالنسبة لباقي العلوم الإنسانية . فالعلماء الانسانيون يجتهدون في الوقوف على القوانين التي تحكم العلاقات الإنسانية والقوانين التي تحكم تطور المجتمعات الإنسانية عبر العصور أو عبر الحقب الكبيرة من تاريخ تطور البشرية .

وعليتنا ألا ننسى أن هناك منهجين يستعين بأحدهما أفراد الفئة الثانية الطافون على سطح الواقع والذين يبحثون عن الحقائق الغائصة تحت سطح

الوقائع والأحداث والعلاقات الظاهرة للعيان . أما المنهج الأول فهو المنهج الاستقرائي الذي يخلص المفكر بواسطته إلى القواعد أو القوانين العامة التي تندرج تحتها جزئيات كثيرة . أما المنهج الثاني فهو المنهج الحلمي ، وبمقتضاه يصل المرء إلى حقيقة الأشياء بغير استمانة بالمنهج الاستقرائي . إنه يقع على حقيقة الشيء بغير مقدمات تصل به إلى النتيجة . ومعنى هذا أن الحلم هو قدرة يختص بها بعض الناس ممن تكون لديهم فطرة سليمة . إنها قدرة على سبر أغوار والأشياء الوصول إلى كنهها بغير مدارسة للجصائص أو بغير تناول الجزئيات بالدراسة أو الفحص .

ونستطيع أن نقول إن كلا من التفكير الاستقرائي والتفكير الحلمي يشكلان المدخل إلى الإلهام . فهناك أشخاص استقرائيون ملهمون ، كما أن هناك أشخاصا حلميين ملهمين . ولكن من جهة أخرى فإنا نجد أن هناك أشخاصاً استقرائيين وأشخاصاً حلميين غير ملهمين . فالإلهام كما قلنا عطية عفوية لا يمتأق للمرء بالاجتهاد والمثابرة ، بل تواتيه كنتيجة غير ضرورية وغير حتمية لتوافر بعض الشروط النفسية اللازمة لاستقبال الإلهام . فسواء كان الشخص استقرائياً يبدأ من الجزئيات أو من الحالات الفردية ومنتها إلى القوانين أو الحقائق العامة ، أم كان حلمياً يقف على حقائق الأشياء طرفة واحدة بغير أن يمر في سلسلة المقدمات ومنتها إلى النتائج ، فلا بد له لكي يكون ملهماً أن يحظى بحس نفسي وجداني معين . إنه يجب أن يتمتع باستقلال جهازه النفسي وأن يكون بمنأى عن اللوبان أو حتى عن التعلق الوجداني بالأشياء التي يتفحصها أو يقوم بالتفكير فيها .

ولعلنا نقرب ما نعنيه بمفهوم الطفو على سطح الواقع بالتفكير في طريقة فهمنا العادي للأشياء أو إدراكنا البصري لما يقع عليه بصرنا . إننا لا نستطيع أن نترك الشيء إدراكاً بصرياً سليماً ودقيقاً إذا كان ملامساً لأعيننا . فلا بد لكي يكون الإدراك البصري سليماً أن يكون الشيء المدرك بعيداً نسبياً عن أعيننا . وكلما كنا على تقطه أبعد نسبياً من الأشياء المرئية، كان نطاق إدراك البصر أوسع نطاقاً . فلقد التقطت صور للأرض باعتبارها

كرة أرضية من مركبات الفضاء التي بعدت بعدا شامعا عنها . ولكن نفس تلك المركبات لم تكن لتستطيع تصوير الأرض باعتبارها كرة أرضية بعد أن اقتربت منها .

كذا نقول نفس الشيء عن الالهام . إنك لا نستطيع أن نحظى بالالهام عن مجال ما من المجالات طالما أنك منهمك فيه وغائص حتى أذنيك في نطاقه أو مشغولا به كل الانشغال . ولكن إذا أنت ابتعدت عنه نفسيا إلى مسافة نفسية معينة « فانك قد — ونقول قد — تستقبل إلهامات خاصة بذلك المجال . يقول الشاعر رضا صافي في رده على استخبار الدكتور / مصطفى سويف كما ورد بكتابه السابق ذكره « إذا ما أردت البدء بالقصيدة انكشفت أمام ناظري صور حياتي كلها فأنقل من واحدة لأخرى حتى حتى أبلغ أشدها مساما بموضوعي فأقف عندها وتشرق ساحتها إشراقا تاما ويتضاءل ما عداها فلا يظهر إلا بمقدار ما يساندنها ويتمها كجزء من حياة غير متفصل عن الكل « فأغرق عندئذ في الناحية المنيرة وكل عمل أني أضفها . وكثيرا ما أشعر أن: التعبير يقصر عما أحمل ، بل « ما أشاهد » فأكتفي بما يأتيني عن طبع ولا آخذ من المتكلف إلا ما لا غنى عنه ولا مفر منه لاستكمال الصورة . وللتذكر والتخيل مكان أسامي في طريقة نظمي؛ فكثيرا ما يقترح على نظم أبيات في حال «صادقة» من الحزن أو الطرب فلا أستطيع . على أني لا أعيا بذلك بعد زوال تلك الحال واستعادة ذكراها ، وحياة صورتها في مخيلتي وأقول حياة صورتها ، لأنني أحسب أن لا يدلي في إحياء تلك الصورة ؛ ، ولكن كل عمل ينحصر في مشاهدتها من زاوية نفسية الخاصة ووصفها ، كالصور الذي يري المنظر البديع « فيكون إبداعه الشخصي في اختيار الزاوية التي ينظر منها إليه ، وفي اصطفاء أرفع ما في ذلك المنظر من مظاهر الجمال .

ويقول للشاعر أحمد رامى في إجابته على استخبار الدكتور سويف «أنا لا أفهم أن يقال إن القصيدة تبرز وقت النظم فحسب ، بل على العكس من ذلك إن بعض القصائد تعيش معي فكرتها عدة سنوات قبل أن أنظمها:

وفى الواقع أنه بالنسبة لهذه القصائد التى قضت فكرتها مدة طويلة وهى تختمر فى نفسى . أقول لك إن هذه اللحظة لا تتخلل فى جوهر الفكرة المتمرة وإنما تتدخل فيها يشبه الهامش . وقد يحدث أحيانا أن تبلغ البداية من التركيز درجة هائلة تمنعنى من أن أكتب أى شئ بعدها . وبذلك يتعذر على أن أكمل القصيدة فتصل عند بدايتها فحسب

ونستطيع أن نخلص فى الواقع مما عبر عنه هذان الشاعران إلى حقيقة هامة وهى أن الإلهام لا يأتى المرء وهو غائص بإدراكه ووجدانه فى قلب الأشياء . فعلى الملهم أن يكون على بعد كاف نفسيا ووجدانيا - وربما مكانا وزمانا أيضا - عن المجال الذى يتأتى له الإلهام بازائه . ولذا فأننا نجد أن التريض والراحة وتنويع النشاط والبعد نسبيا عن مجال الاهتمام هام لتحقيق الإلهام . ولقد كان طه حسين محقا عندما قال فى محاضرة له بالفرنسية ترجمها له إلى العربية قواد دواره ونشرت بمجلة عالم الفكر ، إن المؤلف بحاجة إلى الوظيفة لأسباب نفسية إلى جانب الأسباب الاقتصادية ، مؤكدا أن الانشغال فى أعمال أخرى غير الفكر ينعش الفكر ويؤججه . ونحن نرى أن طه حسين عنى ما نذهب إليه هنا من أن الإلهام لا يتأتى للشخص الغائص فى المعلومات أو الأحداث أو الوقائع أو الأشياء أو العلاقات الاجتماعية ، بل يتأتى له وهى مطروحة على بعده .

الشعور واللاشعور :

لعل السؤال الذى يلور بالخلد ينشأ حول دور كل من الشعور واللاشعور فى الإلهام . ولكى نجيب عن هذا التساؤل فإن علينا أن نتدارس الحالات التى يتم خلالها الإلهام . إن أصحاب الإلهام يقررون أنه يواتهم فى الغالب وهم فى حالة بينية ، أعنى تلك الحالة التى يكون المرء فيها بين الشعور والوعى التام بما حوله ، وبين اللاشعور حيث يكون غائبا عن الوعى بما يلور حوله . على أننا نقرر أيضا أن البعض يواتهم الإلهام وهم غائصون فى أعماق اللاشعور ، سواء كانوا يغطون فى النوم العميق

أم كانوا ذاهلين في حالة من أحلام اليقظة وقد صاروا في حاة من التخشب
شبهة بالحالة التي كان يمر بها سقراط كل يوم .

ونحن نعتقد أن هناك حيتين أساسيتين يحياهما الإنسان : حياته الواقعية
المرتبطة بالواقع البيولوجي « وحياته الروحية المرتبطة بما هو أعلى من
الواقع البيولوجي . فثمة خوارق روحية تعتور الإنسان أو بتعبير أدق
تعتور جميع الناس بدرجات متفاوتة . فجميع الناس كائنات حية من
جهة « وكائنات روحية من جهة أخرى . ومن الناس من تكون حياتهم
الأولى أقوى بكثير من حياتهم الثانية « فيكونون مرتبطين بالواقع
المحسوس بدرجة طاغية . ومن جهة أخرى فهناك أشخاص يرتبطون
بحياتهم الروحية بدرجة أقوى من ارتباطهم بحياتهم المحسوسة « فيكونون
شخصيات روحية .

ولقد نجد من بين من يقرأون هذا الكلام من يستنكرون هذا التقسيم
ويزعمون أن الإنسان لا يعلو أن يكون كائنا حيا ذا وظائف متباينة .
وهم في نفس الوقت ينكرون ما قد يبلو من حالات روحية أو هم
يعزونها إلى ما قد يصاب به بعض الأفراد من الناس بالجنون أو بالأمراض
النفسية . والواقع أن أسهل وأيسر تفسير أن تعزو كل حالة روحية إلى
الجنون . ولعل خطأ وأخطل تفسير هو تفسير الحالات الروحية التي
تمر ببعض الأشخاص بالمرض النفسي أو بالجنون . على أن علم النفس
الحديث جدا قد بدأ يعترف — أو هو اعترف بالفعل — بالحالات
الروحية الخارقة ، أعني الحالات التي لا تمر في الحياة اليومية للأشخاص
العاديين ، والتي تبلو كبوارق خاطفة في بعض لحظات حياتهم ، أو
التي تبلو بنسب متفاوتة متفاوتا كبيرا في حياة فئة من الناس ممن تعتورهم
تلك الحالات الروحية .

ونستطيع القول بأن الإنسان يلهم خلال اللحظات التي يحيا خلالها
حياته الثانية ، أعني حياته الروحية . ففي أثناء اللحظات التي يرتفع فيها

المرء عن مستواه البيولوجى « يكون أدعى إلى تلقى الالهامات . ولعلنا لا نخطئ إذا ما قررنا أن معظم الناس يتحاشون أو يتخوفون من الوصول إلى تلك الحالات الروحية خشية الإصابة بالجنون . فهم عندما يستشعرون حالة الاغتراب عن واقعهم اليوى « يسارعون بتوثيق العرى بالحياة اليومية والانخلاع عن الحالة الروحية . وإنك لتجد الناس من حول المرء يحضونه باستمرار على الاستمسك بالواقعية . إنهم إذا ما لاحظوا أنه يشرذم بهذه البعيدا عن الوقائع المباشرة « فانهم سرعان ما يتدخلون فى خطه الشعورى ويسترعون انتباهه ويأخذون فى جذبهم بعيدا عن تلك المنطقة الخطرة - فى رأيهم - أعنى منطقة الاغتراب والتجرد من الواقع اليوى المباشر . ولستأ نشك فى أن الكثير من الاتهامات الباطلة التى وجهت إلى كثير من العباقرة بالجنون (١) ، إنما كان مبعثها ملاحظة أن العبقرى يعصى ويتشبث بعالمه الخاص البعيد عن الالهامات والمشاكل اليومية .

والواقع أن صفوة البشرية تتجه أكثر فأكثر إلى عالم التجريد ، ومن ثم إلى عالم الالهام . فنحن نعلم أن أسس الحضارة وركائزها الأساسية هى أسس وركائز رمزية . فالتفجير النووى كان مجرد معادلة رياضية فيزيائية عند أينشتين قبل أن يتم التفجير بالفعل . ومعنى هذا أن الرمز والمجرد يسبق فى حضارتنا الانسانية الواقع الفعلى المادى . والعبارة الشاهقة والطائرة الضخمة ومركبة الفضاء التى تهبط على الكواكب البعيدة لم تكن جميعاً سوى رموز على الورق ثم أخذ التقنيون فى إحالتها من الحالة الرمزية التجريدية إلى الحالة الواقعية . وكذا فإن التخطيط للمعارك الحربية الكبرى أو السياسة التى تخضع لها شعوب بأسرها ، أو التى تؤثر فى مجريات أمور العالم بأسره لم تكن لتزيد فى بداية الأمر عن مجرد رموز منقوشة على الورق ، أو قل إنها كانت أفكارا تعتمل فى أذهان البعض ، ثم نقشت

(١) انظر كتاب « العبقرية والجنون » للمؤلف بمكتبة غريب بالقجالة .

بعد ذلك على الورق . أليست الحاسبات الالكترونية التى ينام بها مستقبل الحضارة قد لقمت مجموعة هائلة من الرموز فاخترتها واستوعبتها وأقامت بينها علاقات دقيقة للغاية ؟

من هنا فأننا نعتقد أن زعماء البشرية يحظون بقدرة إلهامية مؤكدة . على أننا نعتقد أن هناك نوعين من التأثير فى البشرية : نوع سطحي ظاهرى ، ونوع آخر جوهري يعتمد فى لحم كيان البشرية . وكذا فإن هناك مؤثرات ضارة كذلك المؤثرات التى يحدثها الطغاة أو المتعاطشون للدماء الذين يتزلقون بالبشرية فى الحروب والدمار . فتأثير هؤلاء يمكن أن يكون نتيجة ما ألهموا به ، بل يكون نتيجة لتفاصيل أخلاقية تعتمد فى صميم شخصياتهم . ولكن إذا نظرت إلى أول إنسان قام باستنبات الزرع فى الأرض ، وأول إنسان تحكم فى الاشتعال ، وكذا أولئك الذين اخترعوا الطباعة والكهرباء وقهر الأمراض بالأمصال وبطرايق العلاج المتباينة ، وأولئك الذين اخترعوا الدينامو ، وكذا أولئك الذين قلعوا البشرية روائع الشعر وروائع الموسيقى وروائع الصور والتماثيل ، فأنك تجد أنهم كانوا ملهمين بلا شك .

ولعلنا لا نخطئ إذا ما قررنا أن أولئك الملهمين من زعماء البشرية الإيجابيين الذين ألهموا بالتفحات الإلهامية التى عرجت بالبشرية فى أنحاء جديدة ، وخطت بها خطوات جديدة تمام الجدة ، إنما كانوا مستغرقين فى أعماقهم . أو قل إنهم كانوا فى حالة لا شعورية أو شبه لا شعورية . وهذه الحالة الأخيرة هى التى تسمى فى بعض الأحيان باسم حالة ما تحت الشعور . فالإنسان فى الأوقات التى يكون خلالها مستغرقا أو مشلودا إلى الوقائع الجزئية لا يكون قادرا على سبر الأغوار أو الوقوف على كنه الأشياء . إن انتباهه لا يكون غائضا فى عمق الأشياء ، بل يكون محصورا فى ظاهرها فحسب . على أننا نؤكد — كما سبق أن ذكرنا — أن بعض الناس يكونون فى حالة تحت شعورية وهم فى معمع الحياة الواقعية . فليس كل إنسان منخرط فى ركب الحياة الصاخبة يكون فى حالة وعى كاملة .

كما أن العكس أيضاً ينسحب عليه نفس الكلام . فليس كل إنسان يجلس وحده في خلوة « حتى ولو كان منعزلاً وحده في جبل بعيداً عن الناس يكون في انفصال نفسياً عزٍ صعب الحياة . فبعض المنعزلين عن الناس يكونون مشلودين إليهم أكثر من المحيطين بهم . فالمسألة إذن نسبية تماماً . المهم هو دخيلة المرء وما يكون عليه من حالة نفسية .

والواقع أن بعض الناس يكونون قريبين دائماً من لا شعورهم . فهم يتمكنون من دخول مجال الآشعور بسهولة ويسر . ولكن هناك أشخاصاً آخرين لا يكونون كذلك « بل يكون ارتباطهم بحالة الشعور مستمرة أو تكاد تكون مستمرة . إنهم حتى في نومهم لا يكونون بعيدين عن أرضية الواقع . والشخصيات الملهمة هي تلك الشخصيات التي ترتبط بوشائج متينة بحالة الآشعور . ونذكر بهذه المناسبة الفنان ولیم بليك الذي كان في كثير من الوقت شارد الذهن للدرجة أنه كان يرى أحلاماً مرئية وهو يقظان . فكان يرسم الأشباح التي كانت تراءى له بألم عينيه . فهناك بعض الشخصيات النائمة اليقظانة . أو اليقظانة النائمة . ولكن ليس شرطاً أن يكون الشخص الملهم في حالة من الشرود الذهني الدائم . إن بعض الملهمين ينخرطون في الحالة التحت شعورية في بعض الأوقات ، بينما يكونون في حالة وعي شعوري تام باقى الوقت .

ومن الشخصيات الملهمة من يتسنى لهم استجلاب الحالة التحت شعورية بإرادتهم ووفق رغباتهم ، بينما هناك شخصيات ملهمة أخرى تخضع للظروف النفسية التي لا تخضع لإمرتهم بل يخضعون هم لإمرتها . ولكن مما لا شك فيه أن الشخص أعرف بحالته . فإذا كان من النوع الأول — وهو النوع الذي كان ولیم بليك ينخرط تحته — فإنه يستدعى حالته الآشعورية تبعا لإرادته ووفق هواه . أما إذا كان الشخص من النوع الثاني ، فإنه ينتظر حتى تواتيه الحالة . ويقال إن ولیم بليك فقد قدرته على استدعاء الأشباح التي كان يهفو إلى رسمها « فترك الأمر لله وظل حزينا لأنه فقد تلك الموهبة . بيد أن فقدانه لها كان فقدانا مؤقتا سرعان

استردها وصار بمقلوره بعد ذلك أن يستدعى الحالة الآشعورية التي كان يرى خلالها أشباحه ، التي يقوم برسمها .

ولكل شخص ملهم طريقته وعاداته النفسية التي يتسنى له من خلالها الانخراط في الحالة الآشعورية . فبعض الأفراد الملهمين يجلسون بطريقة معينة أو في ركن معين بالحجرة التي دأبوا أن يعملوا بها ، وبعضهم يقع على إلهاماته وهو في أحضان الحقل أو على سفوح الجبال ، وبعضهم يقع على إلهاماته في الزحام أو وهو في قهوة والناس من حوله صاخبون . ويقال إن أحمد رامى كان لا يأتيه الإلهام إلا إذا أمسك بقلم رصاص صغير جداً ومبرى بطريقة معينة . فتلك العادات والحالات ترتبط بالقدرة على استجلاب الآشعور وبالتالي القدرة على تلقي الإلهام .

الانطواء والانبساط :

يشيع في بعض الأذهان مفهوم خاطيء عن الانطواء والانبساط . فيظن خطأ أن الانطواء والانبساط هما موقفان أخلاقيان وليسا موقفين نفسيين . فيقال في كثير من المجالس إن الانطواء ردىء ، وأن الانبساط جيد . والخلط في المعاني هو خلط بين مفهوم الانطواء وبين مفهوم الانزواء والسلبية والانسحاب من مجالات النشاط المتبانية ، ثم الخلط أيضا بين مفهوم الانبساط وبين مفهوم الاقبال على مجالات الحياة والمشاركة الإيجابية في الأعمال المتبانية وتحمل المسؤولية . والواقع أن علم النفس غير علم الأخلاق . وعندما نستخدم لفظي الانطواء والانبساط ، فالتنا لا نمدح المتبسط ونذم المتطوى ، بل نقرر حالة نفسية أو طبيعة جبلية لا تدخل للمرء في استجلائها . ولا يعنى عالم النفس بالانطواء والانبساط التفضيل أو الترجيح لواحدة من الحالتين على الأخرى . وأكثر من هذا فإنه لا يعتبر الانطواء مؤشرا إلى المرض النفسى ، كما أنه لا يعتبر الانبساط مؤشرا إلى التمتع بالصحة النفسية .

وكل ما في الأمر أن علم النفس يحاول تقسيم الناس إلى انطوائين وانبساطيين في ضوء الزاوية المعرفية التي يستخدمها كل من الفريقين في الوقوف على الوجود من حولهم . فالانطوائى يرى الوجود من خلال نفسه ، بينما يرى الانبساطى نفسه من خلال الوجود . فالمنظار الذى يرى الانطوائى الوجود من خلاله هو منظار ذاتى . أما المنظار الذى يشاهد به الانبساطى الوجود فهو منظار موضوعى . وأكثر من هذا فان الانبساطى يترجم ذاته من خلال الواقع الخارجى الموضوعى .

ولا يهم فى الحكم على الشخص بالانطوائية أو بالانبساطية ما يمكن أن نشاهد فى حياته من مناشط اجتماعية . فلقد تجد شخصا يعمل فى فريق أو يؤدي أعمالا تستلزم وجود ارتباطات اجتماعية كثيرة ، ولكذك إذا ما قمت بتفحص جهازه النفسى ، فانك قد تنتهى إلى الحكم عليه بأنه شخصية انطوائية . ذلك أنه فى مناشطه المتباينة فى صخب المجتمع وعلاقاته المتشابكة يرى كل شيء من حوله من خلال ذاته . فقد نقول إن هتلر مثلاً كان شخصية انطوائية . ذلك أنه كان يرى الأشياء والأحداث والعلاقات من خلال منظار نفسه ، وليس من منظار الواقع الخارجى نفسه . ولقد نقول إن واحداً مثل باستير كان انبساطياً مع أن نشاطه العلمى كان محصوراً فى معمله عندما اكتشف اللقاح المضاد للجذوى الذى كان منتشراً فى فرنسا لوقته . إنه كان يتناول فكره وعلمه من منظار اجتماعى يتعلق بالمشكلة الصحية التى كانت تواجه مجتمعه وقتئذ . ومعنى هذا فى الواقع أن الحكم الظاهرى على الناس بالانطوائية أو بالانبساطية كثيراً ما يبعد عن الصواب . ولكن بالتحليل والدراسة المستأنية لكل حالة يمكن أن يصلو الحكم الصحيح على الشخص بأنه انطوائى أو انبساطى حسب تكوينه .

ولقد سبق لنا أن قلنا إن هناك أشخاصاً يتلقون الإلهامات وهم فى مجمع الحياة وصحبها . ولكن هناك أشخاصاً آخرين يتلقون إلهاماتهم وهم فى حالة ذاتية بحتة ، أو بتعبير أدق وهم يترجمون الواقع من خلال منظارهم الذاتى . ولعلنا نحسن صنعا إذا ما قلنا بتمييز الموضوعى من الذاتى . فإذا نقصد بالموضوعية ، وماذا نقصد بالذاتية ؟ إننا نقصد بالموضوعية تقديم

صور دقيقة لا يختلف عليها شخصان من حيث دقة التصوير والرصف .
أما الذاتية فهي صيغ ما يوصف أو يقدم بالصيغة الذاتية .

ونحن في الواقع لا نزع أن الانطوائين وحدهم يحظون بالإلهامات ،
بل نقرر أن للانطوائين إلهاماتهم ، كما أن للانبساطيين إلهاماتهم . فالإلهام
ليس وقفا على فئة دون أخرى من هاتين الفئتين .

ولنضرب مثالين لشاعرين ملهمين : أحدهما انبساطي موضوعي «
والآخر انطوائي ذاتي . ولتقدم المثالين من كتاب « الأدب العربي المعاصر
في مصر » تأليف الدكتور شوقي ضيف .

أما الشاعر الأول - وهو في رأينا شاعر إنبساطي فهو محمود سامي
البارودي (١٨٣٨ - ١٩٠٤) الذي يقول عنه الدكتور ضيف « ويستطيع
القارئ أن يقرن ما قدمناه عن حياة البارودي الخاضعة والعامية إلى ديوانه
فسيراها مرسومة فيه ربما دقيقا بكل جزئياتها وتفصيلاتها، فحياته الأولى
قبل الثورة العربية وما ترتبط بها من نعيم العيش ورغده مصورة أوضح
تصوير، فهو يصف لهوه ومرحه ومتعه، كما يصف بيتته المصرية وما فيها
من مشاهد الطير والأشجار والنبات، وله في ذلك طرائف كثيرة . . .
ويشارك في حروب الدولة العثمانية فيصف وقائعها وصفا دقيقا تسعفه تخيلة
ماهرة في التقاط المراتبات ، وعاطفة حماسية ملهية .

أما الشاعر الملهم الآخر - وهو في رأينا شاعر انطوائي - فهو إبراهيم
ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٣) . يقول الدكتور ضيف في تحليل شعر هذا
الشاعر بكتابه المذكور « وعلى هذا النسق فهم ناجي الشعر، فلم يصور
عواطف الناس السياسية والوطنية من حوله، بل انصرف إلى نفسه يتغنى
بحب شتى عائر، وهو غناء كله ألم وشجن وارتباب وقلق وهم، غناء عاشق
يخفق دائما في حبه، ولا يجد في نفسه ولا في يده منه إلا الذكرى الممضة
المحرقة، ومن خير ما يصور ذلك قصيدته « الناي المحترق » و « العودة »

وفيها يتغنى بذكرياته الحزينة لمعاهد شبابه وما كان له فيها من حب ، ذبل قبل أوانه ... وهذا النغم الذي يزخر بالأم نجده في كل صفحة من صفحات « وراء الغمام » . فليس فيه تفاؤل وليس فيه فرح بمحاضر ولا مستقبل ، إذ لا يبدو في ظلام حياته خيط من الأمل ، بل هو دائماً غارق في ليج من الشقاء والحرمان . وقد يقف بالطبيعة كما في قصيدته « خواطر الغروب » ولكنه لا يقف بها منفصلة عما في نفسه ، بل يستغلها لتصوير ما يعتلج في قلبه من مشاعر الأمل والحزن ... »

على أنه يجب ألا يظن من يقرأ هذا الكلام أن الانطوائى يجب أن يحكم عليه بالتشاؤم والحزن واليأس والأمل على ما فات كما كان حال ناجى في شعره ، بل إن كل ما يهمننا تقريره هنا هو أن الانطوائى يشاهد الواقع من خلال نفسه ، سواء كان ذلك النظر من خلال النفس إلى الواقع مصطبغاً بصبغة تفاؤلية كلها مرح وجبور ، أم كان ذلك النظر من خلال النفس إلى الواقع مصطبغاً بصبغة تشاؤمية كلها حزن ويأس .

وينسحب حكمتنا بالإلهام في الانطوائية والانبساطية على جميع مجالات النشاط الإنسانى . فالمخترع يكون في كثير من الأحيان شخصية انبساطية . فهو يستقرىء العلاقات بين الأشياء ليصل من استقرائه إلى التأكيد على علاقات معينة تفضى به إلى اختراعه الجديد الذى لم يسبقه أحد إليه . وكذا يقال عن المخرب العلمى الذى يقول عنه كلود برنار في كتابه « مدخل إلى دراسة الطب التجريبي » « ومثل المخرب الذى يجد نفسه أمام الظواهر الطبيعية كمثل الشخص الذى يرقب مناظر صامتة . وكأنه من بعض الوجوه قاضى التحقيق مع الطبيعة . غير أنه لا يواجه أفراداً يحاولون تضليله بالكاذب من الاعترافات والباطل من الشهادات ، بل إن الطبيعة له بمثابة أشخاص يجعل لغتهم وطباعهم ، يعيشون وسط ظروف مجهلة . ويريد مع ذلك أن يعرف أغراضهم ومراميهم ... » (ترجمة الدكتور يوسف مراد والأستاذ حمد الله سلطان) .

ومعنى هـ فى الواقع أن الانبساطى إذا كان مختزلاً أو عالمياً فإنه يستلهم الوقائع والأحداث والعلاقات الموضوعية . أما بالنسبة للشخص الانطوائى فإنه يستلهم ذاته ووجدانه وقد أخذ يترجم الواقع الموضوعى ترجمة ذاتية . بيد أن الانطوائى قد يلجأ إلى ظهور منطقية مجردة يرى العالم فى ضوءها . فواحد مثل ديكارت كان بلا شك شخصية انطوائية . فهو وإن كان قد شارك فى بعض المناشط الاجتماعية كالجنسية ، فإنه كان غارقاً فى الانطوائية فى فلسفته . ذلك أنه يبدأ من صميم ذاتيته لإثبات وجود الله والعالم المادى بعد إثباته لوجوده . فتقولته المشهورة « أنا أفكر فأنا موجود » كانت نقطة البداية لديه . فهو يرى أن مفتاح الحقيقة فى قبضة فكره الذاتى .

ولقد نستطيع أن نقسم الفلاسفة والمفكرين والأدباء والفنانين إلى قسمين أساسيين : فئة يكون إنتاج أفرادها بمثابة انعكاس للواقع عليهم . فهم بمثابة مرآة تعكس ما يوجه إليها من مراثيات . وهؤلاء هم الانبساطيون . أما إنتاج أفراد الفئة الثانية فهو بمثابة انعكاس ذات أولئك الأفراد على الواقع الخارجى ، وتقديم ذلك الواقع وقد اصطبغ بالصبغة الذاتية لكل منهم . وهؤلاء هم الانطوائيون . ولا يحول اختلاف هذين الموقفين دون القول بأن الإلهام يمكن أن يشملهما جميعاً . ولكن نوعية الإلهام ومصدره يختلفان فى الحالتين . فالإلهام لدى الانبساطيين ذو طبيعة موضوعية ويستمد وجوده من الواقع الموضوعى . أما الإلهام لدى الانطوائيين فإنه ذو طبيعة ذاتية وجدانية وعقلية ويستمد مقوماته من وجدان وعقل المرء .

بيد أن هذا لا يعنى أن الانبساطى لا يفكر ولا يحس بوجدانه ، كما لا يعنى أن الانطوائى لا يتطلع إلى الواقع الخارجى ولا يتأثر به ، بل يعنى فقط أن لكل منهما طريقته فى النظرة والتفسير : فنقطة البداية لدى كل منهما تختلف عن نقطة البداية لدى الآخر . ويصح لنا أن نذكر بأن الشخص يمكن أن يكون انطوائياً غير ملهم أو انبساطياً غير ملهم . فالإلهام بمثابة

عطية أو منحة أو نعمة لا تتأتى لكل الناس . ولكن هذا لا يحول دون القول بأن الشخصية الملهمة إما أن نكون شخصية إنطوائية وإما أن تكون شخصية إنبساطية . وبالتالي فإن من الممكن تصنيف الملهمين إلى هاتين الفئتين الأساسيتين في ضوء ما اضطلعوا به من أعمال .

البؤرة الالهامية :

نعني بالبؤرة الالهامية المجال المركز الذي ينصب عليه الإلهام . ذلك أننا نعتقد أن الواحد من الناس يتلقى الالهامات في أنحاء متباينة أشد-التباين ، ولكنه يتلقى إلهامات مركزة في واحد من المجالات التي يهتم بها . فالشاعر مثلاً قد يتلقى الهامات خاصة بعلم ما من العلوم التي ربما يكون قد درسها ، أو يتلقى إلهاما خاصا بتوجيه أبنائه تربويا أو فيما يتعلق بشأن ما من شئون حياته المادية. ولكن ذلك الشاعر يتلقى إلهاما مركزاً في مجال الشعر . من هنا فأننا أطلقنا على الالهام المركز على الشعر في حياة مثل هذا الشاعر اسم البؤرة الالهامية . فإذا ما قارنا الإلهامات المتباينة التي يتلقاها هذا الشخص بعضها ببعض ، فأننا نلاحظ أن الإلهام المكثف يكون لديه في مجال الشعر ، بينما هو يتلقى إلهامات مبعثرة وخفيفة ومتفرقة في المجالات الأخرى المتباينة التي يتوزع عليها اهتمامه .

وعلياً أن نستعرض الخصائص التي تتصف بها البؤرة الإلهامية . ذلك أننا عندما نستعرض تلك الخصائص ، فأننا نحدد مفهوم البؤرة الإلهامية ، فتصير قوية الملامح ومحددة السمات . وفيما يلي أهم تلك الخصائص :

أولاً : إن البؤرة الالهامية تتكون شيئاً فشيئاً ، ولا يولد بها المرء من جهة ، ولا تظهر على سطح الشخصية طفرة من جهة أخرى. والواقع أن الانسان يتقبل الكثير من الالهامات المتفرقة خلال الطفولة والمراهقة ، ثم تأخذ في التبلور في مرحلة الشباب . وبعد ذلك وحتى نهاية العمر تظل البؤرة الالهامية ثابتة نسبياً . بيد أنه بالنسبة لبعض الأفراد ، فإن البؤرة الالهامية تأخذ في التفكك والزایل والذبول في مرحلة الشيخوخة .

ثانياً : إن البؤرة الإلهامية لا تخضع لإرادة الشخص ، ولا تشتد قوتها نتيجة اجتهاد الشخص أو نتيجة ما يبذله من محاولات . ولكن ثمة شرطاً أساسياً لوجودها هو أن يقوم المرء بتوفير الظروف أو الشروط التي تسمح شرطاً لها بالنشوء . وبعد ذلك يتم لها الثبوت والتبلور والرسوخ . ومعنى هذا أن الشخص الملهم إذا لم يراع تلك الشروط في حياته ، فإن بؤرته الإلهامية تهتز أو تنبل . وهنا قد يحدث في أي مرحلة عمرية بما في ذلك مرحلة الشباب ذاتها . فالشاعر الملهم مثلاً يمكن أن يستحيل إلى شخص غير ملهم ، وذلك بأن تنبل بؤرته الإلهامية نتيجة انشغاله في أشياء أخرى غير الشعر أو نتيجة انصرافه عن قرض الشعر انصرافاً تاماً لسبب أو آخر .

ثالثاً : إن البؤرة الإلهامية تختلف في شدتها وقوتها من شخص لآخر في نفس المجال أو في المجالات المتباينة . فحدة وقوة تركيز البؤرة الإلهامية تختلف قوة وشدّة من شاعر لآخر من جهة ، ومن أحد الشعراء إلى أحد الفنانين التشكيليين من جهة أخرى . وطبيعي أنه كلما كانت البؤرة الإلهامية أكثر تبلورا وقوة ، فإنها تكون أكثر فاعلية في حياة الشخص الملهم .

رابعاً : بيد أن شدة فعالية البؤرة الإلهامية في حياة المرء لا تسير بطريقة مطردة الشدة مع مدى استثمار الشخص الملهم لما يتلقاه من إلهامات . فلقد يكون أحد الفنانين أكثر قوة وقلرة إلهامية بفضل شدة تماسك وتركيز بؤرته الإلهامية ، ولكنه من جهة أخرى قد يكون أقل إنتاجاً وأقل إتقاناً لما يضطلع به فنان آخر تكون بؤرته الإلهامية أضعف منه وأقل كثافة وتركيزاً من بؤرته .

خامساً : أخيراً فإن البؤرة الإلهامية برغم ثباتها في حياة الشخص الواحد نسبياً ، فإنها لا تظل بنفس القوة والتركيز طوال الوقت . فثمة من العباقرة الملهمين من تكون بؤرتهم الإلهامية متأججة في أعماق الليل أو عند بزوغ الفجر ، بينما لا تكون تلك البؤرة بنفس الشدة والقوة والتركيز

لديهم في الصباح أو في منتصف النهار . وبعض الملهمين تتأجج لديهم
بؤرتهم الالهامية في أماكن معينة . فبعض المبدعين الملهمين يحصلون على
أحسن بؤرة الهامية وهم في أحضان الحقول ، بينما بعضهم الآخر لا يحصلون
على أقوى وأشد بؤرة الهامية إلا وهم جالسون بالقهوة والناس من حولهم
يموجون بالحركة ويصخبون بالأصوات العالية أو بالمسامرات ، ويلعبون
الطاولة ويتقرون على خشبها بالقشاط أو بالزهر .

ولعلنا نقوم فيما يلي باستعراض الحالات التي تنبل فيها البؤرة الالهامية
بعد أن تكون قد اكتملت ونضجت . ذلك أن الوقوف على تلك الأسباب
يمكن أن يكون درعا لنا يقينا شر ذوبان البؤرة الالهامية إذا كنا من
الشخصيات المهمة .

هناك أولا : ما يعرف بانقيار الشخصية من الداخل . فنحن نعلم أن
بناء الشخصية بمثابة هرم تتبنى كل طبقة فيه على الطبقة أو الطبقات السفلى
به . وقاعدة الهرم هي الطبقة البيولوجية من الشخصية . ويعلو هذه الطبقة
البيولوجية الطبقةوجدانية « وفوق الطبقةوجدانية توجد الطبقة العقلية .
وفي قمة الهرم توجد الطبقة الاجتماعية . ونحن نعرف بأن هناك تداخلا فيما
بين هذه الطبقات الأربع في بناء الشخصية . ولكن هذا لا يحول دون
وجودها ودون تمايزها بعضها من بعض في نفس الوقت . فإذا
ما تضعفت الطبقة البيولوجية من الشخصية بسبب الشيخوخة أو بسبب إصابة
المخ بالأورام أو التلف ، فإن طبقات هرم الشخصية الأخرى تهتز أو تسقط .
وكما سبق أن قلنا فإن الشيخوخة التي تصل إلى مرحلة الهرم قد تكون
متواكبة في نفس الوقت مع ذبول البؤرة الالهامية لدى الشيخ الهرم .
وكذا يقال عن حالات الحوادث التي تؤثر على البنية البيولوجية للمرء .

وهناك من جهة ثانية : الأمراض النفسية الوظيفية التي لا صلة لها
بالجانب البيولوجي . من ذلك مثلا الوسواس والخوف المرضية وحالات
الاكتئاب ونحوها . ولكن يجب أن نميز هنا بين الحالات التي تنسب

خطأ إلى الأمراض النفسية الوظيفية لعجز العلم حتى الآن عن الكشف عن العلاقة بين الصحة النفسية وبين الحالات الجسمية البيولوجية لدقة وتعقد كيمياء الجسم وفسولوجيته « وبين الحالات النفسية التي لا علاقة لها بالفعل بالمقومات البيولوجية . والمهم أنه بالنسبة للحالات العارضة أو المزمنة من الأعراض النفسية غير المواتية « فان بؤرة الالهام تهتر أو قل إنها تنبل . ولكن في بعض حالات الأمراض النفسية فان البؤرة الالهامية تظل قوية « ولكنها تكون بغير ذات فاعلية لأن المريض نفسيا لا يستثمر ما يتلقاه من الهامات من خلال بؤرته الالهامية .

وهناك من جهة ثالثة . الأحداث الخطيرة في حياة المرء . من ذلك مثلا أن يصاب الشخص الملمم بأزمة اقتصادية خطيرة أو لدى وفاة أحد أحبائه المقربين جدا إلى قلبه « أو بسبب موقف حاد في حياته كأن يسجن أو كأن توجه إليه تهمة خطيرة أو نحو ذلك من أحداث مفاجئة وخطيرة « وهي الأحداث التي تكون بمثابة صدمة قوية في حياة المرء . على أننا نلاحظ أن البؤرة الالهامية قد تشتت تركيزا بعد مرور الصدمة بزمان يقصر أو يطول ، ويعود الشخص الملمم إلى حالة أقوى من حالته السابقة . من أمثلة ذلك ما أوتيت به الخنساء الشاعرة العربية عندما مات أخوها صخر في الحرب . فنحن نزعّم أن البؤرة الالهامية لدى هذه الشاعرة قد تأججت بعد موت أخيها بفترة ما .

وهناك من جهة رابعة : تشتت الانتباه أو توزيع الاهتمام على مجالات متباينة . من ذلك مثلا توزيع اهتمام أحد الفنانين بين فنه وبين أحد المشروعات التجارية الذي يستولى على لبه ويصرف وجدانه عن الفن . وهنا ينبغي أن نميز بين الانشغال عن المجال الذي يعشقه الشخص لبعض الوقت كأن يشتغل أحد الشعراء الملهمين بالتدريس ، وبين توزيع الاهتمام والوجدان بين هوائيتين . فلقد تكون الوظيفة كمصدر للرزق دافعا إلى بلورة الوجدان وتقوية البؤرة الالهامية لدى الشاعر الموظف . ولكن إذا ما وزع ذلك الشاعر اهتمامه بين الشعر والقصة والفن التشكيلي ، فالأغلب

أن يؤرثه الالهامية تضعف نسبياً » وذلك لتوزعها على هذه المجالات الثلاثة .

وهناك خامساً وأخيراً : حالات التعب والارهاق » سواء كان التعب والارهاق نتيجة لمواصلة العمل لمدة طويلة مستمرة وبغير انقطاع ، وبغير توافر الفرصة لاسترداد القوة والنشاط ، أم كانا نتيجة لكثرة التحصيل وحدثت تخمة تحصيلية عند المرء . ذلك أننا نعتقد أن هناك تخمة معرفية وثقافية تصيب كثيراً من المثقفين لا تقل في خطورتها عن التخمة التي تصيب بعض الناس نتيجة تناول كميات كبيرة من الطعام . فالملخ البشري شأنه شأن المعدة - بحاجة إلى فرصة ووقت كاف لهضم ما تلقاه من معلومات ومعارف . وإنك لتلاحظ أن الكثير من المناهج الدراسية التي يتلقاها التلاميذ والطلاب بالمراحل الدراسية المتباعدة تصيبهم بالتخمة المعرفية فينبون عن الاستزادة المعرفية طوال حياتهم بعد ترك المدرسة أو الجامعة لما أصابهم من تخمة معرفية . فهم يصابون بسبب الإرهاق في التحصيل والامتحانات بما يمكن تسميته بالنهكة المعرفية . فالتعب والارهاق يقشعان البؤرة الالهامية أو يعملان على إضعافها على الأقل .

الفصل الرابع عشر

التلاقح الخبرى والالهام

الخبرات كائنات حية :

إننا نعتقد أن الخبرات كائنات حية بكل ما فى الكلمة من معنى . ونحن نستخدم هنا لفظ « خبرة » ولا نستخدم لفظ « فكرة » . ذلك أننا نعنى بالخبرة ثلاثة أشياء أساسية هى أولا - الأفكار ، ثانيا - العواطف « ثالثا - المهارات اليدوية والاجتماعية . فكلمة « خبرة » إذن كلمة شاملة لهذه النوعيات الثلاث التى تمتلكها الشخصية. ونلاحظ أيضا أننا أطلقنا لفظ « مهارة » على المهارة اليدوية من جهة ، وعلى المهارة الاجتماعية من جهة أخرى . فالكتابة على الآلة الكتابة مهارة يدوية ، أما القلمة على قيادة مجموعة من الشباب فى حفل أو فى درس فانها مهارة اجتماعية .

وإذا نحن قارنا بين الخبرات من جهة ، وبين الكائنات الحية من جهة أخرى ، فأننا سوف نجد أن ما يقال عن الكائنات الحية ينسحب بنفس الصديق بازاء الخبرات . فهناك أولا ميلاد الخبرات . فالخبرة لا تضاف إضافة إلى المرء ، بل هى تولد لديه . وقبل الميلاد تمر الخبرة فى المرحلة الجنينية حيث تبدأ بازغة فى ذهن المرء فترة من الزمن تنمو خلالها إلى أن يقيض لها أن تولد . وبعد الميلاد تظل الخبرات فى حالة من النمو وكأنها تمر بمراحل نمو متتالية تصل إلى أوجها كما تصل الكائنات الحية إلى الشباب أو ما يشبه الشباب ، ثم تأخذ فى الضعف والذبول وتنتهى إلى الموت .

ولا يقتصر الأمر بالنسبة للخبرات على الحياة والموت ، ذلك أنها تتزوج أيضا فيما بينها . وبعد أن يتم التلاقح بين الخبرات « فان ثمار ذلك التلاقح

تبدو . وذلك بأن تنجب الخبرات المتلاقحة ذرية جديدة شبيهة بالذرية التي تنتجها الكائنات الحية بعد أن يتم التلاقح فيما بين أفرادها .

فالتكاثر في مملكة الخبرات البشرية لا يتم بالإضافة من الخارج إلى الداخل كما قد يظن البعض ، بل يتم بالطريقين معا . فثمة وارد من الخارج إلى الداخل بالكسب التحصيلي من موارد الثقافة المتباينة من جهة . و ثمة أيضا تزاوج وتناسل يتمان فيما بين الخبرات التي استوعبها المرء من جهة ثانية . وينجم عن التكاثر الخبري هذين الطريقين انتعاش ثقافي لدى المرء . وهناك أيضا تزاوج خبري واستيراد خبرات من الخارج يتمان في نطاق المجموعة من الناس . فالشعب الواحد أو القبيلة الواحدة أو الأسرة الواحدة تتلذذ عن هذين الطريقين في سبيل الازدهار الخبري . فثمة استيراد للخبرات الجديدة من خارج نطاق المجموعة الواحدة من جهة . و ثمة تزاوج الخبرات الفردية وتلاقحها حيث يتم ذلك التلاقح ثم التناسل بين خبرات أفراد تلك المجموعة من جهة أخرى . وبذا يتم الانتعاش الخبري أو الثقافي في نطاق المجموعة الواحدة من المجموعات البشرية بفضل انتاج هذين السيلين من التكاثر الخبري الثقافي .

يبد أنه لا يجوز لنا القول بأن جميع الخبرات التي يتلقاها الفرد من الناس ، أو التي تتلقاها المجموعة من الأفراد قابلة للتزاوج فيما بينها . فثمة خبرات تتنافر بعضها من بعض ، كما أن هناك خبرات تتخذ موقف اللامبالاة من بعضها البعض ، و ثمة أخيرا تلك الخبرات التي تميل بعضها لبعض وتنجذب بعضها إلى بعض ، وهي الخبرات التي يتم بينها التلاقح والتي تصاح للتكاثر والانجاب . وعلينا أن نقرر أن الفرد من الناس ، وأن المجموعة من المجموعات البشرية لا يستطيعان بارادتهما إحداث التجاذب فيما بين الخبرات التي تم لهما إحرازها . فثمة إرادة مستقلة للخبرات البشرية . فهي ترضى أو تأتي ، وهي تقبل أو تدبر ، وهي تتعاق وتلتاقح ، أو تتشاحن وتتنافر أو تتباعد وتأتى بعضها عن بعض . وكل ما يستطيع الفرد عمله ، وكل ما تستطيع المجموعة أن تضطلع به هو توفير المناخ المناسب لاجداث التلاقح الخبري

فما بين المقومات الخبرية الموجودة بالفعل في نطاقهما . فتوفير المناخ لايعنى القسر والاجبار ، بل يعنى الترغيب وإشاعة الطمأنينة بين الخبرات حتى تأنس بعضها إلى بعض . على أن كثرة التدخل في العلاقات الخبرية أو أكثر ٥ الضغط عليها والالحاف على تلاقحها ٥ إنما يؤدي — على عكس المتوقع — إلى التباعد والتنافر فيما بينها . فتوفير الجو المناسب للتلاقح لا يكون بكثرة التدخل في شئونها والالحاح عليها ، بل يكون بمجرد إشاعة الطمأنينة لها وتوفير الوقت والمكان المناسب لتواجدها . ولعل التراحم فيما بين الخبرات ينتهي إلى التصارع والتنافر فيما بينها . ومعنى هذا أن على المرء — وأيضا على المجموعة — أن يحقق التوازن بين ما يستقبله من الخارج من خبرات جديدة ، وبين ما يتم انجابه في دخيلته من أنسال جديدة . ذلك أن استيراد خبرات كثيرة من الخارج قد يعمل على نقص الإنجاب الداخلي أو قد يؤدي إلى قتل وإفناء الأنسال الجديدة .

ويصح لنا أن نتناول فيما يلي الأنواع الثلاثة من الخبرات : أعنى الأفكار والعواطف والمهارات اليدوية والاجتماعية حتى نتحقق من انطباق ما قررناه هنا بازائها . على أننا عندما نتناول كل نوعية من هذه النوعيات الثلاث في انفصال منجى ، فإن هذا لا يعنى فى الواقع أنها منفصلة بعضها عن بعض ، ولا يعنى أيضا أنها لا تتراوح بعضها مع بعض . فثمة فى الحقيقة تراوج يتم فيما بين الأفكار والعواطف من جهة ، وفيما بين الأفكار والمهارات اليدوية والاجتماعية من جهة ثانية ، وفيما بين العواطف والمهارات اليدوية والاجتماعية من جهة ثالثة . ولكن لتيسيط العرض علينا بالاختصار على تناول كل نوعية من النوعيات الثلاثة على حدة لمشاهدة ما يتم فى نطاقها من علاقات وتطورات متباينة .

فبالنسبة للأفكار ٥ فانتا نجسد أن الأفكار التى يحصل عليها المرء أو المجموعة، إما أن تكون أفكاراً مستوردة من خارج النطاق ، وإما أن تكون قد أنتجت فى دخيلة المرء أو فى دخيله المجموعة عن طريق تراوج الأفكار

بعضها مع بعض فانجبت تلك الأفكار الجديدة . ومن المؤكد أنه لولا مايم
انجابه من أفكار جديدة نتيجة التلاقح فيما بين الأفكار . لكانت البشرية قد
قد تقلصت فكريا في حدود ثابتة لا تتخطاها ، ولما كانت العلوم والفلسفات
والتكنولوجيات والمخترعات قد يزغت إلى الوجود . فثمة نمو من الداخل
فكريا ، كما أن هناك نموا يتم تحقيقه بفضل الاستيراد الخارجى للأفكار من
المخزون الفكرى يبطون الكتب أو من صلبور الناس .

والأفكار التى تتوالد في نطاق المرء أو في نطاق المجموعة تمر بالمرحلة
الجنينية ثم تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت . ولولا الاستيراد الخارجى من جهة ،
والتناسل الداخلى بفكر المرء وبفكر المجموعة من جهة أخرى . لكانت
العقول قد خوت ، وذلك بعد أن تموت الأفكار التى عاشت في إطارها ثم
شاخت واندرت . وكما أن الأفراد قد يتنازلون ويتعاركون فيما بينهم ، فان
الأفكار أيضا قد تتنازل وتتعارك فيما بينها .

وكنا يقال عن العواطف البشرية . ولقد سبق أن قرر فرويد أن العواطف
تتزوج فيما بينها بحيث ينتج ما يسمى بالعقد النفسية . ومعنى هذا أن فرويد
قد قصر مفهوم تزواج العواطف على نطاق العواطف الرديئة . ولكتنا توسع
بهذا المفهوم ، فتجعل هناك نوعين من تزواج العواطف : تزواج فيما بين
العواطف الجيدة ، وتزواج آخر فيما بين العواطف الرديئة . والنوع الأول من
تزواج العواطف ينبج عواطف جديدة تنصب الحياة الروحية والأخلاقية
لدى المرء ولدى الجماعة . صحيح أن التزواج فيما بين العواطف الرديئة ينبج
أنسالا أكثر عدداً وأقوى شكيمة لدى الأفراد والجماعات ، ولكن هذا
لا يحول دون القول بوجود تلاقح فيما بين العواطف النobile أيضا . ولولا وجود
مثل هذا التزواج فيما بين العواطف النobile . لما نشأت الدعوات إلى الرحمة
بالطفولة والمعوقين والشيوخ . ولما نشأت الدعوات إلى تحرير العبيد والاماء
ومساواة المرأة بالرجل ، والنظر بانسانية وتعاطف إلى المطحونين من الضعفاء
في الورش والمصانع في معمع الثورة الصناعية بانجلترا ، ولما وجدنا
الحركات الإنسانية إلى التعاطف والرحمة .

أما بالنسبة للمهارات اليدوية والاجتماعية فإن من الضروري أولاً التعريف بمعنى المهارة . انها عبارة عن ارتباطات عصبية يتم تكوينها واشتداد ارتباطها بالجهاز العصبي . ولدى تكون تلك الارتباطات العصبية ، تتشكل العادة الحركية أو النفسية أو طريقة تناول العلاقات الاجتماعية بالتشكيل والتعديل والتكيف . فالمهارة اليدوية والاجتماعية بمثابة عادة مركبة يتم بمقتضاها ممارسة نوع من النشاط الأدائي أو الاجتماعي بطريقة شبه لاشعورية .

والواقع أن المهارات اليدوية والاجتماعية لا تتشكل بمجرد الممارسة المتكررة ، بل يجب أن تتوافر الشروط العصبية اللازمة لتشكيل المهارة . فبغير توافر تلك الشروط العصبية ، فإن التكرار الأدائي لا يجدي بحال . وثمة تراوج وانجاب يتم في نطاق المهارات . وشاهد ذلك ما يمكن أن تلاحظه لدى لاعبي السرك أو لدى بعض الموهوبين في إقامة علاقات اجتماعية زعامية بين الأفراد . انهم لا يقتصرون على ما تم لهم كسبه من مهارات أدائية واجتماعية ، بل هم يمتثلون بما اكتسبوه بفضل ما يتم بدخائلهم من تلاصق خبري فيما بين تلك المهارات الأدائية والاجتماعية التي اكتسبوها وتمكنوا منها . وينطبق على المهارات كل ما سبق ذكره بازاء الأفكار والمواقف :

التهجين الخبري :

التهجين هو تراوج يتم بين فردين من فصيلتين متباينتين يقعان في نفس النوع . مثال ذلك ما يتم من تهجين ملكات النحل المسمى بالكرنيولى بذكر النحل المصري . ومن المعروف أن النحل الكرنيولى - وهو نحل يوغسلافى - وفير الانتاج ، وهادئ الطبع ، وشمعه أبيض . ولكن عيبه أنه يميل للتطريد ، أى أنه يطرد بعضه بعضاً من الخلية . أما النحل المصري فهو سريع الحركة وماهر في جمع الرحيق وكثير الانتاج . ولكن عيبه أنه شرس . وبالتهجين بين هاتين الفصيلتين من النحل تخرج سلالات جيدة تجمع بين الهدوء وبين الانتاج الوفير وعدم التطريد . وبتعبير آخر فإن التهجين يؤدي إلى الحفاظ على الصفات الجيدة في الفصيلتين المهجنتين كما أنه يستبعد الصفات الرديئة فيهما .

وثمة تهجين للخبرات مشابه لما يحدث في عالم الكائنات الحية النباتية والحيوانية . والتهجين الخبري معناه تلاقح الأفكار المتباعدة بعضها عن بعض لأنها تقع في مجالات معرفية متباعدة قليلا أو كثيراً . وكذا يقال بالنسبة للتهجين العاطفي . فنحن نقصد بالتهجين العاطفي تزاوج فصيلتين متباعدين من العواطف وإنجاب نوعية جديدة من العواطف المتولدة نتيجة التهجين . وكذا يقال عن التهجين المهاري حيث يتم التهجين بين فصيلتين متباعدين من المهارات الأدائية والاجتماعية مما يسفر عن تولد نوعية جديدة من المهارات .

ومن المعروف أن الكائنات الحية المهجنة ، تكون أكثر قدرة على البقاء وأكثر حيوية وأبقى سلالة من النوعين أو السلالتين اللتين تم التهجين بينهما . وكذا يقال عن الخبرات المهجنة . إنها تكون أكثر حيوية وأكثر جودة وأكثر خصوبة . ولسنا نشك في أن الشخصية التي تعتمد إلى التهجين الخبري تكون أكثر قابلية لتلقي الإلهامات عما يمكن أن تتمتع به الشخصية التي لا تمارس التهجين الخبري .

ويمكن بنا أن نعرض للعلاقة بين التهجين الخبري وبين القابلية لتلقي الإلهام . إننا نجد أولاً - أن الشخصية التي تمارس التهجين الخبري بأنواعه المتباعدة تكون قابلة للتفتح على قارات جديدة من المعرفة أو من العواطف أو من الممارسات المتباعدة . فالتهجين الخبري يجعل قابلية الحصول على آفاق جديدة في المجالات المتباعدة أمراً ممكناً ومتاحاً . وعلى العكس من هذا فإن الشخصية التي لا تحظى بالتهجين الخبري تنسم بالانغلاقية وبالاستاتيكية الخيرية . وبعبارة أخرى فإن صاحب الخبرات المهجنة يكون متشوقاً إلى الجديد . وهنا يأتي دور الإلهام في حياة مثل هذا الشخص . فهو يكون قد هبأ الأرض الخصبة لديه لتلقي الإلهامات المتباعدة المتعلقة بالمجالات التي تم فيها التهجين الخبري .

أما العلاقة الثانية بين التهجين الخبري وبين القابلية لتلقي الإلهامات فهي علاقة الحرية . ذلك أن الخطوط التي ترسمها الخبرات الأصلية

— سواء كانت أفكاراً أم عواطف أم مهارات — تكون مربوطة ومحددة وبالتالي فإنها تكون مقيدة بقيود لا سبيل إلى الانفكاك منها . والقيود التي تقصدها هي قيود في الطريقة من جهة ، وفي المضمون الخبري من جهة أخرى . فإذا ما تم التهجين الخبري ، فإن تلك القيود التي ترسفت فيها الخبرات تنهار وتتفكك بفضل التهجين . ذلك أن الطريقة والمضمون الخبريين يتجددان مجلداً تاماً بعد وقوع التهجين . ولكأن التهجين يخلق كيانات جديدة كل الجدة جديدة بأن تتناول من جديد بطريقة جديدة تماماً .

وهنا يتدخل الإلهام لإلباس الخلائق الجديدة الناجمة عن التهجين أثواباً جديدة تكتسبها ، كما يتدخل لتغذية تلك الخلائق الجديدة بأغذية جديدة مناسبة لقوامها . فبالتهجين الخبري تظهر مقومات خبرية جديدة . ولكن كيف تساق تلك الخبرات الجديدة ، وفي أي الاتجاه تتجه ، وبأي مقومات تمتد وتنمو وتتطور ؟ إن هذا هو الدور الذي يضطلع به الإلهام . فالإلهام يتناول الكينونات الجديدة التي تأتت عن التهجين ويأخذ في صلبها في قوالب جديدة ويلبسها صياغات مبتكرة ، كما يقوم بتغذيتها والتقدم بها أشواطاً جديدة إلى الإمام .

أما العلاقة الثالثة التي تقوم بين التهجين الخبري وبين الإلهام فهي علاقة التوظيف الجديد لتلك الخلائق الجديدة التي تتأتى عن التهجين . فالإلهام وظيفته تطبيقية في مجالات جديدة لم تكن ميسرة للسلالتين الأصليتين من الخبرات التي وقع التهجين فيما بينها . فإحالة الموليد الخبرية الجديدة إلى أعضاء حية ذات وظائف متجددة ، إنما هي من المهام الأساسية والعظيمة التي تتأتى للإلهام . فغير الإلهام لضربت الخلائق الجديدة المهجنة إذن في نفس الطرق القديمة التي كانت تسلكها السلالات القديمة . ولنضرب مثلاً بحجرة مهجنة تأتت للإنسانية نتيجة العلاقات التهجينية بين مجموعة من العلوم منها العلوم الرياضية والعلوم الميكانيكية والعلوم الفلكية وغيرها من علوم . فتأتى عن هذا التهجين الخبري ما يعرف بعلوم الأقمار الصناعية

وعلم الفضاء بما تتضمنه من مركبات فضاء ومن نزول على الكواكب الأخرى وغير ذلك من العديد من العلوم المتباينة التي تفتح شيئاً فشيئاً عن التهجين الخبرى بين المقومات المعرفية والعواطف الانسانية وما يعمل بالقلوب من رغبة وشوق إلى سبر المجهول والمهارات اليدوية والاجتماعية كما يبدو فيما بين راكبي الفضاء من علاقات ومهارات اجتماعية ونحوها .

ولسنا نشك في أن ما يلهم به المشتغلون بعلم الفضاء من حيث توظيف الكائنات الخبرية الجديدة لمن أهم ما يضطلع به الالهام في هذا المجال .

خذ مثالا واحداً لذلك ما عرف حديثاً بطب الفضاء . فتمه فرع جديد من فروع الطب التي ألهم بها الانسان بعد بزوغ علوم الفضاء نتيجة ما قد يحتاج إليه إنسان عصر الفضاء من طب جديد في ضوء ما سوف يتعرض له من إصابات فضائية كالإصابات بالأشعة الكونية ونحوها ، أو ما قد يتعرض له من أمراض نفسية نتيجة خروجه من الجاذبية الأرضية وانفصاله عن أمه الأرض لمدد تقصر أو تطول .

أما العلاقة الرابعة التي تقوم بين التهجين الخبرى وبين الالهام فهي علاقة أخلاقية . فبعد حدوث التهجين الخبرى يجد المرء نفسه بازاء نوعيات جديدة من السلوك ، أو قل يجد نفسه بازاء بعض المشكلات الأخلاقية التي لم تكن لتأتى له قبل التهجين الخبرى . ولنأخذ مثالا لذلك بعد وقوع التهجين الخبرى بين علم كيمياء الجسم وبين علم النفس . فلقد خرجت نتيجة هذا التهجين معرفة جديدة عن الانسان هي العلاج النفسى بالمواد الكيميائية والصددمات الكهربائية . ولقد نجم عن المعرفة الجديدة مشكلات أخلاقية وتساؤلات سلوكية متعلقة بقيم الانسان . من ذلك مثلاً التساؤل عن الآثار السلوكية التي يمكن أن تترتب على التهجين الجديد . فهل يجوز أن نعمل على تغيير مزاج الشخص مثلاً ؟ وهل يجوز لنا في المستقبل أن نتدخل في الجينات التي تحملها الكروموزومات فتغير بذلك الطبيعة السلوكية للمرء ؟ وبعبارة أخرى هل يقبل علماء الدين وعلماء الأخلاق أن يعالج الناس

منذ يواكير حياتهم بالكيمياء فنحصل على شخصيات ذات مواصفات أخلاقية محددة بلا اعتماد على الوعظ والارشاد والتوجيه الأخلاقي ؟

لا شك أن مثل هذا التهجين يقضى إلى نشوء مشكلات أخلاقية . ولندكر ما حدث بعد ماتم من تهجين بين مطلب أو حاجة اجتماعية هي الحد من زيادة السكان والتصدى للإنفجار السكاني وبين علم وظائف الأعضاء . لقد نجم عن هذا التهجين وسائل منع الحمل . ولكن نشأت نتيجة ذلك مشكلات أخلاقية واجتماعية بعيدة المدى . لقد كان الكثير من أفراد الجنس اللطيف في خشية من الانحراف جنسيا تجنباً للحمل غير الشرعى . ولكن بعد شيوع الطمأنينة من عدم حدوث نتائج محسومة نتيجة الاتصال الجنسي غير المشروع ، فإن وسائل منع الحمل قد شجعت بطريق غير مباشر على انتشار الرذيلة في بعض المجتمعات . وما يقال عن وسائل منع الحمل ، ينسحب أيضاً بازاء الأمراض التناسلية التي كانت تعتبر من ظواهر النعمة الآلهية تقع على المنحرف جنسيا . فكان البعض يتساءلون عن مدى جواز الكشف عن وسائل طبية لعلاج الزهري والسلان وغيرهما من أمراض تناسلية ؟

ولعلنا نؤكد في نهاية المطاف أن الإلهام لا يجد له مكانا في الوقت الحالى في المجال العلمى إلا بازاء الحالات التي يتم فيها التهجين الخبرى ؛ ويصح أن نشير إلى واقع نهضتنا الأدبية التي قامت نتيجة التهجين الخبرى بين ثقافات متباينة . فثمة تهجين خبرى عند البارودى بين العلوم العسكرية وبين الأدب . وهناك تهجين خبرى عند طه حسين بين الفلسفة والأدب . وهناك تهجين خبرى عند الدكتور حسين فوزى والدكتور يوسف إدريس وغيرهما من أطباء أدباء بين العلوم الطبية وبين العلوم الانسانية . وقس على هذا بالنسبة للعديد من المبرزين في عالم الفكر والأدب في مصر والخارج على السواء .

رعاية المواليد الذهنية الجديده :

لا يكفى أن تتولد لديك أفكار جديدة كمواليد تنجبها الأفكار والمواطف والمهارات التي يتم التزاوج فيما بينها بعضها وبعض ، بل يجب أن تلقى

الأجيال الخيرية الجديدة التى تتأتى لك نتيجة ما أسميناه بالتلاقح الخبرى ،
والذى استعرضناه قبلا ، ما تستحقه من عناية ورعاية . ولعلنا نزعج بحق
أن الكثير من الناس يصلون إلى مرحلة الإنجاب أو التكاثر الخبرى ،
ولكن ما تفتأ تلك المواليد الجديدة أن تذبل وتموت . ذلك أنهم لا يقومون
برعايتها والتهوض بأعبائها وتوجيهها الوجهة الصحيحة . فنحن نزعج أن
رعاية وتربية المواليد الخيرية الجديدة بحاجة إلى مهارة وتبصر بما يجب اتباعه
من أصول في رعاية وتربية الأنسال الخيرية الجديدة .

والواقع أن المواليد الجديدة التى تتأتى نتيجة التلاقح الخبرى تكون
غضة وسريعة الذبول بحيث تنتهى بسرعة إلى الموت إذا لم تعالج بعناية ،
وإذا لم يقم المرء بتدبير أمرها بحصافة ومهارة كبيرتين . ولقد نقول إن
المواليد الذهبية الجديدة بحاجة إلى حضانات تشبه الحضانات التى تخصص
للكائنات الغضة القابلة للهلاك بسرعة إذا ما تعرضت للعوامل الجوية العادية
التي يمكن أن تتعرض لها المواليد القوية بغير أن يحدث لها أى ضرر .
ولكن ماذا عسى أن تكون عليه تلك الحضانات الخيرية التى نقصد إلى
التعرض لها هنا ؟ الجدير بنا بادىء ذى بدء أن نحاول تقديم تعريف
للحضانة الخيرية قبل التعرض لوسائل استخدامها . فنحن نقصد بالحضانة
الخيرية الوسيلة أو الأداة التى يستعين بها المرء لحماية المواليد الجديدة الغضة
من التعرض للأخطار أو للهلاك . وتمثل هذه الوسيلة الوقائية فى البعد
بها عن الضوء وعدم تعريضها للأنتظار أو للهجوم أو للتقذ . فالحضانة
الخيرية تبعد بالمولود الخبرى الجديد عن التناول بخشونة . ذلك أن مجرد
لمسه أو النظر إليه أو حتى ذكره من قريب أو من بعيد قد يعرضه للهلاك.

ونحن نلاحظ من الخبرة اليومية فى حياتنا الشخصية أننا عندما نعرض
تمواليدنا الخيرية الغضة أمام الآخرين ، فإنها سرعان ما تهلك أو تذبل أو
تعوج أو تفقد أصالتها أو تتوقف عن النمو . فإذا ما سارع الشاعر إلى
عرض المولود الجديد الذى بزغ لتوه فى ذهنه أمام الأصدقاء والأعداء ،
فإن ذلك المولود الجديد يبدأ فى الضمور أو حتى لقد يتعرض للموت السريع .

فالمولود الجديد في الذهن بحاجة إلى فترة حضانة واحتضان وإبعاد عن الآخرين . وأكثر من هذا فانه يكون بحاجة إلى الإخفاء والإبعاد تماما عن الأنظار حتى يشتد عوده ، وحتى يتمكن من الدفاع عن نفسه والوقوف بصمود أمام معاول النقد والتهديد .

فكم من شخص عبقرى نشأت في ذهنه مواليد جديدة فسارع بتعريضها للضوء والتعبير عنها فخفت ثم ذبلت ثم ماتت ، ولم يقض لها أن تظهر على مسرح الحياة . ولكن العباقرة الذين وفروا للمواليد الذهنية حضانات تقيم شر التعرض للخطر « وقد ظلوا يقومون برعايتها بعيداً عن الأنظار فانهم استطاعوا أن يقلموها بعد أن كبرت وترعرعت أمام الملأ بغير خشية عليها . وإنك لتلاحظ ظاهرة استخدام الحضانات الخيرية في حياة كثير من الأدباء والفلاسفة والفنانين . ولعلنا نكتفي بأن نقدم فيما يلي مثالين لكي نوضح ونبرهن على ما نزرعه هنا من استخدام العبقرى للحضانات الخيرية .

ولنبداً بديكارت الفيلسوف . يقول ديكارت - كما رد بكتاب الدكتور عثمان أمين بعنوان « ديكارت » - « كنت حينئذ في ألمانيا عندما استدعيتي الحروب التي لم تنته فيها بعد ، ولما كنت في غودنق من الاحضال بتتويج الامبراطور ، أُلحقتي بدء الشتاء إلى قرية لم أجد فيها شيئاً من السمر . ولم يكن لدى لحسن الحظ ما يشغلني من هموم أو أهواء ، فكنت أحبس نفسي طول اليوم وحدي في حجرة دافئة حيث كنت أفرغ الفراغ كله لحديث نفسي وتصريف خواطر فكري » .

ويقول الدكتور عثمان أمين « والواقع أن ديكارت كان حريصاً جداً على أن يعيش آمناً مطمئناً ، وعلى أن يتجنب جميع أسباب الخوف والقلق وكان يشعر حاجته إلى ذلك الهدوء التام المطلق الذي لا يسمع فيه إلا صوت الفلسفة » والذي يكون فيه بمعزل عن جميع المضايقات من قبل الحكام أو رجال الدين . والحق أن رجلاً كان دأبه أن يتخفى عن جيرانه لكي يفكر « حتى جعل شعار حياته كلمة أبيقور « السعيد من عاش

متخفياً « لم يكن بمقلوبه أن يضحي براحة باله وهلواء نفسه كي ينصر
« جاليليو » على الكنيسة . ومن أجل هذا أراد « ديكارت » أن يقنع بحظه
من الدرس والبحث الحر لنفسه « دون أن يتكبد المشقة في إذاعة آرائه
على الناس » .

أما المثال الثاني فهو مستقى من كتاب الدكتور مصطفى سويف السابق
الاقباس منه « وهو من حياة الشاعر محمد مجنوب وتعبيراً بقلمه عن
خبرته الشعرية . يقول الشاعر « أول قصيدة لي هي تأوهات نظمها قبل
بضعة أيام ، وموضوعها كما يدل عنوانها وجداني صرف ، قصبت به إلى
التعبير عن أهم الخطوات التي تستغرق نفسي في حياة مشحونة بالكبرياء
والألم والحرمان . وهي خطوات قديمة أحسها كل يوم وتكاد تغلب على
كل ما أنظم من الشعر منذ أكثر من خمسة عشر عاما . فهي إذن لم تنبثق
بصورة مفاجئة وقت التأليف ، بل تمخضت بها النفس طويلا ، فكانت
مضغة ثم علقه ثم جنينا ، حتى إذا جاء ميقات وضعها كانت مخلوقا سويا .
وأريد بهذا التعبير أن موضوع القصيدة لم يأت ارتجالا ، وإنما عاش قبل
التأليف حياة متطورة متفعلة بمختلف المؤثرات النفسية التي تتصل به من
قريب أو بعيد ، ولا شك أن بدء هذه الخطوات لم يكن مساويا لشكلها
الأخير ، بل كان للحوادث والانفعال بها أثره الكبير في انضاجها والضرورة
بها إلى هذه النهاية . ولزيادة الايضاح أقول : إن عملية التطور والتغير
في حياة هذا الوليد كانت خارجة عن متناول إرادتي تماما . وكل ما أذكره
هو أنني كنت أشعر بوجود هذا الجنين يعضى في تكوينه على طي النفس
ويزداد شعوري به كلما صدمني من وقائع الحياة ما يبعث على التأثير وإن
كنت لا اذكر أنني توقعت أو صممت أثناء ذلك على ضرورة أن أضع هذا
المولود بعينه يوما ما . . .

ويتضح من هذين المثالين — ديكارت الفيلسوف ومحمد مجنوب الشاعر —
ما عمد كل منهما شعوريا أو لا شعوريا إليه من احتضان المولود الذهني

الجديد الذى انبثق في عقل كل منهما . ففلسفة ديكارت لم تكن منقولة من الخارج ، ولم تكن تأثراً بغيره . فالواقع أن ديكارت كما يقول الدكتور عثمان أمين « يقول بمنهج حى ، هو أشبه بتجربة شخصية ... والمنهج الحق عند ديكارت هو ذلك الذى ألفتته النفوس . ومارسه الناس ممارسة تجعله قواماً لأخواقهم وعقلياتهم » لا حفظ ألفاظ وحشو الذاكرة بمعلومات قد تظل دهرًا من غير استعمال . فكم حفظنا من المعاني ، وكم قرأنا في الكتب من أفكار غامضة مبهمه لا تصلح للحياة ولا تنفع في شيء . إننا لم نخلق في هذه الدنيا للدرس فحسب . وليس المهم في الحياة أن نعرف كل شيء ، ولا أن نعرف موضوعاً خاصاً من الموضوعات التى توفرنّا على دروسها . وإنما المهم أن يكون بمقدورنا أن نتعلم في سهولة ما نكون محتاجين إليه . أو مبالين إلى الوقوف عليه ... »

فديكارت كان يفكر من ذات خبرته الشخصية ، أو وفق ما ذهبنا إليه كان يؤمن بالتهجين الجبرى وبأن الخبرات كائنات عقلية ووجدانية حية لها استقلالها وكياناتها القائمة بذاتها . ولقد أوضح الشاعر محمد مجنوب ما اعتمل في قوامه الداخلى أفضل توضيح .

أما عن كيفية استخدام الحضانات الجبرية في حياة المرء لكي يحافظ بها على المواليد الجديدة التى نشأت عن التهجين الجبرى ، فانها تلتخص فيما يلى :
أولاً — يجب عدم الضغط على تلك المواليد الجديدة لحثها على النمو والتطور . فالواقع أن استعجال نمو تلك المواليد الغضة على أن تكبر ، إنما يعمل على تعريضها للهلاك أو على التوقف عن النمو فتصير كائنات ممسوخة شائبة . ثانياً — توفير فرص الراحة الذهنية وعدم حشو الذهن بالمعلومات التى تخنق الكائنات الجديدة التى تتحسس طريقها نحو النمو والتطور واليفوع . ذلك أن بعض ما يجهد المرء نفسه فيه بالدراسة يمكن أن يعطل التأمل وبالتالي يمكن أن يعمل على خنق المواليد الجديدة . والواقع أن المواليد الذهنية الجديدة بحاجة إلى رعاية نفسية هادئة . ثالثاً — وهذا يسوقنا إلى الوسيلة الثالثة في استخدام الحضانات الذهنية الجبرية وهى الهرب من التوترات

النفسية والمضايقات الاجتماعية وتوفير جو من الراحة النفسية التامة للمرء .
وبتعبير آخر فإن المفكر بحاجة إلى توفير أعصابه وجهده الذهني لرعاية
مواليدته الخيرية الجديدة . ولسنا ننكر بذلك ما يعمل في نفسه المبدع من
توترات . ولكن الذي ننكره وتنكر له هو إضافة أعباء توترية جديدة
إلى الأعباء التوترية التي يتعرض لها العبقرى الملهم . فيكفيه ما يعانيه من
توترات تتعلق بالعملية الإبداعية . ولا نريد له نهاية كنهاية نيتشة أو
فان جوخ .

الأمراض الفتاكة بالأنسال الذهنية :

قلنا إن المواليد الجديدة بالذهن التي تنجم عن التلاقح الخيري بحاجة إلى
حضانة خيرية لحمايتها من الهلاك . ذلك أنها مخلوقات غضة سريعة القابلية
للهلاك . ولعلنا فيما يلي نقوم باستعراض لأهم الأمراض التي تفتك بالأنسال
الجديدة بالذهن . وواضح أننا نميز بين المفاجأة والهشاشة ، وبين الإصابة
بالأمراض التي يتعرض لها تلك الأنسال الذهنية . فالأنسال الخيرية تتسم
بالضعف الخلقى من جهة . وبالقابلية للإصابة بالأمراض الفتاكة من جهة
أخرى . وعلينا فيما يلي أن نعرض لأهم تلك الأمراض التي تخيق بالأنسال
الثقافية وتعرضها للهلاك .

هناك أولا مرض القزامة الخيرية ، وهو المرض الذي يجعل النسل الخيري
قزما لا يقبل النمو ولا يبلغ مبلغ القامة والامتلاء والترعرع ، أى أنه لا يصل
إلى النضج الذي كان قد جبل عليه والذي كان من الممكن أن يصل إليه
لو كان قد قيض له المناخ التربوي المناسب لنموه واستكمال نضجه . والقزامة
الخيرية تصيب النسل الذهني لعدم القيام عليه بالتغذية المناسبة . فلا يكفي
أن تحصل على نسل خيري في ذهنك نتيجة التلاقح الخيري بين الأفكار
والعواطف والمهارات بعضها ببعض ، بل يجب أن توفر لذلك النسل ما يلزمه
من غذاء ورعاية مستمرة . والقزامة الخيرية تحدث أيضا نتيجة التشتت
بين اهتمامات كثيرة لا ترتبط فيما بينها . فالتشتت أو التبعض بين مناشط

متباينة ومتعارضة يصيب النسل الخيري الجديد بالقزامة والضمور ، وقد ينتهى به الأمر إلى الموت والهلاك .

أما المرض الثانى الذى يمكن أن يصيب الأنسال الذهنية فهو مرض العقم . فالأنسال الجديدة قد تصبح عقيمة لا تستطيع أن تتزوج فيما بينها لكى تنجب جيلا تاليا من الأنسال . والعقم فى هذه الحالة لا يكون عقما طبيعيا كتب على تلك الأنسال : بل هو عقم مرجعه إلى عدم توفير الجبرات المناسبة للتزاوج . والأمر هنا شبيه بما يحدث فى دنيا الحيوان إذا لم تتوفر الألفة بين ذكر وانثى أو عندما يكون التنافر هو الصبغة السائدة بين الجنسين من بنى الإنسان . فكما أن الرجل الكاره لفئة النساء لا ينبغي أن ينجب أطفالا لأنه يتحاشى مخالطتهم ويمتنع عن الزواج ، وكما أن الفتاة التى تربي على كراهية جنس الذكور تظل عانسا ولا تتزوج مع أن تركيبها الجسمى لا يخلو بينها وبين الزواج والانجاب . كذا فان الأنسال الذهنية الجديدة قد تصبح عقيمة لعدم توافر المناخ المناسب لها للتزاوج والانجاب . ومثل هذا النوع من العقم يمكن تسميته بالعقم الوظيفى ، وهو مابين للعقم الجبلى الناجم عن نقص جنسى فى جلة الكائن الحى .

أما المرض الثالث الذى يمكن أن يصيب الأنسال الذهنية فهو الشيخوخة المبكرة . فكما أن الواحد من الشباب يمكن أن يصاب بالشيخوخة المبكرة مع أن عمره الزمنى لا يبنى بالاصابة بالشيخوخة ، كذا فان الأنسال الذهنية يمكن أن تصاب بالشيخوخة المبكرة فتموت ، بينما كان من المفروض أن تكون فى شرخ الشباب . وهذا ما نلمحه بازاء بعض الأفكار المتولدة العظيمة التى ما تكاد تشب عن الطوق حتى تشيخ وتذبل . فقلد تتولد لديك فكرة عظيمة لمشروع ثقافى جبار ، فتبدأ فى بلورتها وتنفيذها وقد امتلأت بالإيمان بجلوها وفائدتها أو قيمتها . ولكنك ما تكاد تبلغ بهذا المولود الذهنى الجديد إلى شبابه وفتوته حتى تجده فجأة وقد أخذ يضرب فى الشيخوخة ، أو قل وقد أخذت الشيخوخة تضرب فيه . وهذا فى الواقع هو ما نشاهده فى الأعمال والمشروعات العظيمة التى لا تكتمل أو التى لا يتوافر لها النضج والاكتمال .

أما المرض الرابع الذى يمكن أن يصيب الأنسال الذهنية فهو مرض التشوهات الخلقية . فبدل أن يتم لتلك الأنسال الجديدة النمو السليم مع الخلو من العاهات والتشوهات الخلقية ، فانها تصاب بها ويكون نموها على غير ما خطط له بالجبله والقطرة . من ذلك مثلا أن تتولد فى ذهن أحد الروائيين فكرة مسرحية رائعة. ولكنه ما يكاد يبدأ فى صياغتها حتى ينحرف بالفكرة الأصلية التى ألهم بها إلى مسار آخر يوازع من بهرج والبريق وجذب انتباه العامة ، فتفقد الفكرة الأصلية الملهمة قيمتها بعد أن داخنها عناصر منفعية تتعلق بالسوق والرواج وما يسمى بالشباك . فالروائى الملهم هذا قد أحس بادىء ذى بدء بما تم فى أعماق ذهنه من تلاقح خبرى تولد عنه سل ذهنى خبرى جديد « فبدأ باخراج ما فى صدره إلى خارج ذاتيته على الورق . ولكنه بدل أن يترك لتلك النسل الجديد حرية النمو فى استقلالية وتلقائية ، فانه يأخذ فى تقييده « بل قل فى تشويهه والخروج به عن سويته إلى الشلوذ والتشوه . فإلزم به هذا الروائى نفسه من بريق وجاذبية شعبية يضيفها على عمله — كأن يقحم مسائل الجنس إقحاما « أو كان يدخل عنصر الفكاهة والمرح الرخيص حتى يحيل المسرحية إلى مسرحية كوميدية لأن الجمهور يحب الضحك — إنما يصيب عمله بالتشوهات الخلقية ويخرج به عن مجراه السوى الذى كان مقدر له أن يكون عليه لولا العناصر المفسدة التى أقيحها المؤلف عليه إقحاما .

أما المرض الخامس الذى يمكن أن يصيب الأنسال الخبرية فهو مرض التفوق على الذات . فاذا ما أريد للأنسال الجديدة أن تزدهر « فلا بد لها من مخالطة أنسال أخرى بعيدة عنها كثيرا أو قليلا . ولكن التفوق حول الذات ، وابتعاد الأنسال الجديدة عن الأنسال المغايرة عنها ، إنما يعمل على الذبول وعدم التفتح أو التفتق من الداخل . وعلينا أن نذكر دائما أن الحركة الذهنية بدخيلة المرء تنسم بالديناميكية لا بالاستاتيكية . والديناميكية حركة مستمرة ، والاستاتيكية سكون مستمر . فاذا لم تتوافر الحركة وإقامة العلاقات المتجددة بين الأنسال الجديدة بعضها ببعض ، وإقامة العلاقات

العديدة بينها وبين الأنسال المبينة ، والتي تختلف كثيراً أو قليلاً عنها ، فإن الحكم يكون بالخمول والضمور والموت على تلك الأنسال الذهنية . فلا تحبس إذن الأنسال الخيرية في قفم فكرك « بل اجعلها تتحرك وتنشط وأقم فيما بينها بعضها وبعض ، وفيما بينها وبين غيرها من خبرات مستفادة علاقات خصبة مستمرة . من هنا تأتي أهمية الخير المتجددة من الخارج . ولكن ليس كل ما تقف عليه بالخارج يكون مناسباً للمخالطة بأنسالنا الذهنية الجديدة . عليك إذن بالاختيار الجيد . اسأل أبناء فكرك الجدد عن الأصدقاء الذين يرغبون في معاشرتهم واجتلبهم لهم من الخارج من أى مصدر « سواء كان كتاباً تقرأه أو فيلمًا سينمائيًا شاهده أو إذاعة تستمع إليها أو حتى حادثة تشاهدها بالمصادفة في الطريق . المهم أن تجد أنسالك الذهنية الجديدة ما يناسبها من أصدقاء تعاشرهم وترعرع بمخالطتهم وإقامة العلاقات بينها وبينهم :

أما المرض السادس الذى يمكن أن تتعرض له الأنسال الخيرية الجديدة فهو الاختناق . ذلك أن بعض الأنسال الذهنية يمكن أن تتعارك مع أنسال ذهنية أخرى فتعنتق بعضها بعضاً . وقد ينتهى الأمر بعدم انتصار أى منها على الأخرى . فتموت جميع الأنسال الذهنية التى تتولد لديك : فتصير فى حالة من الإفلاس الذهنى ، ولا تكاد تحصل على ذرية خيرية متجددة مع أن التلاحق الخبرى يتم فى ذهنك على خير وجه : والواقع أن هذا المرض - أعنى الاختناق - إنما ينشأ عن التناقضات الذهنية . وعلينا أن نميز بين نشوب المعارك الذهنية فى عقلك من جهة « وبين قيام الأنسال الذهنية بنحت بعضها بعضاً من جهة أخرى . فالواقع أن نشوب المعارك الذهنية فى عقلك مسألة طبيعية ، بل هو ظاهرة صحية بالتأكيد . ولكن خنق الأفكار بعضها بعضاً إنما هو مسألة غير طبيعية وغير صحية بأى حال : والفرق بين الحالتين كالفرق بين الشك وبين الوسوسة . فالشك وظيفى ومفيد : أما الوسوسة فهى شك دائم وانحباس فى حلقة مفرغة ، وهى حالة ضاربة بذهن المرء وتصيبه بالاجهاد والضمور الفكرى . ومن المؤكد أن الخلق الذى تقوم به الأنسال بعضها بازاء البعض الآخر ليس مجرد وظيفة لنصرة فريق على

فريق آخر « بل هو غاية ونهاية . ذلك أن الجميع مصيرهم إلى الاندحار . ولا يكون هناك مستصر ومهزوم . بل تكون الهزيمة من حظ جميع الأنسال المتعاركة والتي تخفق بعضها بعضا . ذلك أن حرب الحق ليست حربا منتهية بل هي حرب مستمرة أبدا وبغير توقف . وتتأني حرب الحق هذه بين الأنسال الخيرية بسبب التناقض الذهني والوجداني الذي يلم ببعض الشخصيات . وفي مثل هذه الحرب يحس المرء بأنه يهدم من الداخل « وأن كل عبقرية فيه تنهار ، وأن الأنسال الذهنية الجديدة متعاركة أبدا بعضها مع بعض ، وتخفق بعضها بعضا ، وأنه لا انتصار لبعضها وهزيمة لبعضها الآخر ، وأن ساحة المعركة مليئة بالأشلاء ، وأن أنات الموت ورائحة الجثث المنتنة تملأ المكان ، وأن الخراب قد عم ، والدمار قد رفع لواءه على الجميع .

الحقم الإلهامي :

قد يعتقد البعض أن الإلهام يهبط على المرء من عل بفصه ونصه وكأنه شيء يقدم إليه ويتسلمه بيده ، ثم ما يفتأ يقدمه إلى الناس . والواقع أن الإلهام — كما نفهمه — يسير وفق خطوط طبيعية أو قل إنه شيء يقبل التفسير بالعلّة والمعلول ، أعني بالسبب والمسبب . فالإلهام في حد ذاته لا يمكن بحته أو الوقوف على كنهه . ولعله مناظر لما أسماه كانط بالنومين . والنومين عند كانط هو الوجود في ذاته ، وهو ما لا سبيل إلى معرفته والوقوف عليه . أما ما يمكن أن يبدو للناس فهو الفينومين . وكذا الحال بازاء الإلهام . فنحن لا نستطيع أن نقف على نومينية الإلهام ، بل نستطيع فقط الوقوف على فينومينيته أي على الجانب الظاهر منه ، أو قل الوقوف على تأثيره في الأشياء أو المواقف أو العلاقات .

وما يمكن مشاهدته والوقوف عليه من نتائج أو آثار الإلهام هو عملية التلاقح الخبرى وما ينجم عنها من أنسال خبرية . فالإلهام يبدو في حياة الناس في عملية التكرار الخبرى وذلك بتزواج الأفكار بعضها ببعض « وتزواج المهارات بعضها ببعض . فاهيك عن التزواج الذي يتم بين الأفكار

والعواطف والمهارات . والسؤال الذى يثار هنا هو عما إذا كان الزواج بين الخبرات يسير اعتباراً أم أنه يخضع لتوجيه معين ؟ إننا نعتقد أنه يسير اعتباراً عند بعض الأفراد ، وهم الأفراد غير الملهمين . أما بالنسبة للأفراد الملهمين فإن الزواج الجبرى يتم لديهم بتوجيه من الإلهام . فالشخص الملهم لا يختار بارادته أفكاره وعواطفه ومهاراته التى يتم الزواج بينها . إن كل ما فى وسعه عمله هو التحصيل والوقوف على الخبرات المتباينة بالدرس أو الملاحظة . فأنت بمثابة جهاز استقبال مركب ومعد أشد التعقد . ولكنك لست مجرد جهاز استقبال ، أو ليس عقلك مجرد شريط تسجيل ينقش عليه ما يتلقاه . وإنما أنت أهم من ذلك وأخطر . إنك تتضمن مجتمعاً داخلياً هو مجتمع الكائنات الحية التى نسميها بالخبرات . ومهمة الإلهام — وليست مهمتك أنت — توجيه عملية التلاقح الجبرى فى شتى مجالات الحياة . ويتبع هذا التوجيه السديد إنجاب أنسال خبرية ممتازة .

ولكن الإلهام كما قلنا — ليس مطواعاً لنا . إننا لا نستطيع أن نجتده لصالحنا . فهو موهبة أو عطية تمنح لنا أو تمنع عنا . ومن هنا فإننا نستطيع القول بأن أكثر الملهمين إلهاماً لا يستطيع أن يقرر أنه حاصل على الإلهام فى كل الوقت ، أو أنه سيحصل على الإلهام فى المستقبل . إنه يستطيع فقط أن يتحدث عن الماضى . أما الحاضر والمستقبل فإنهما ليسا فى مقدور المرء أن يتحكم فيهما .

ومعنى هذا بتعبير آخر أن الشخصية الملهمة يمكن أن تصبح شخصية غير ملهمة . ومعنى هذا أيضاً أن الشخصية غير الملهمة لا تستطيع أن تصبح شخصية ملهمة إذا ما اعترفت أن تصبح كذلك . ولكن هذا لا يعنى أن الإلهام يفرض نفسه على الشخصية الملهمة فرضاً ، بحيث لا يكون هناك فكاك منه . فالإلهام ليس قلباً مكتوباً على الملهم ، وإنما هو عطية تقدم إليه ، فيكون بمقدوره أن يقبلها كما يكون بمقدوره أن يرفضها . ومن جهة أخرى فإن الشخصيات الملهمة تتفاوت تفاوتاً بعيد المدى بازاء الافادة من الإلهام الذى توحى به . فبينما يفيد أحد الملهمين من نصف ما يلهم به مثلاً ،

فان غيره قد يفيد من ثلاثة أرباع ما يلهم به . وهكذا نجد أن المهم ليس فقط ما تلهم به ، بل المهم أيضاً أن تفيد مما تلهم به بأكبر قدر ممكن :

وما نسميه بالقيم الإلهامى إما أن يعود إلى كون الشخصية غير قادرة على تلقى الإلهامات ، إذ تكون شخصية غير ملهمة بأية حال ، وإما أن يعود إلى كون الشخصية لا تفيد مما تلهم به ، إذ أنها تتلقى الإلهامات ولكنها لا تستثمرها ولا تجسدها فى مناشط ظاهرة للعيان . وإما أن يعود من جهة ثالثة إلى أن الشخصية تتوزع بين منح كثيرة ومتضاربة ، فما تكاد تتلقى إلهاما حتى يفسد بسبب الانشغال والتوزع والتشتت فى أنحاء كثيرة متباينة أو حتى متناقضة .

ونحن نرجع القيم الإلهامى الذى يعود إلى كون الشخصية غير قادرة على تلقى الإلهامات إلى سببين أساسيين : أما السبب الأول — فهو أن الشخص القيم إلهاميا لم يوفر لنفسه الفرصة الكافية لأن يكون ملهما . فلقد قلنا إن شرط تقبل الإلهام يتبدى أول ما يتبدى فى هيئة نفسية المرء لتقبل الإلهام . فاذا لم يعتمد المرء على إعداد نفسه لمثل ذلك التقبل ، فانه يظل محروما طوال عمره من تلقى الإلهامات . أما السبب الثانى فهو ما يعرف بالضغوط الثقافية والاجتماعية . فتكديس المعلومات فى الذهن من جهة ، والانغماس فى خضم العلاقات الاجتماعية من جهة أخرى يؤدى بالمرء إلى الحرمان من تلقى الإلهامات . فكم من أشخاص يحملون فى أذهانهم الكميات الهائلة من المعرفة ، ولكنهم مع هذا لا يتلقون أى إلهام من قريب أو من بعيد . إنهم لا يزيلون عن كونهم دوائر معارف بشرية متحركة . ولكن من المؤكد أن الشخصية المكسدة بالمعرفة ليست ذات خطر فى المجتمع الحديث الذى يحظى بالعديد من وسائل التسجيل الدقيقة وذات السعة الكبيرة والى لا تتأخر عن تقديم المعلومات بسرعة هائلة .

أما الشخصية التى لا تفيد من الإلهامات التى تصل إليها بالفعل ، والى تصير — كنتيجة مرتبة على هذا — شخصية عقيمة إلهاميا فانها تصير فى

الواقع بلا إلهام متجسد أو معبرا عنه في صيغ معينة . فلقد يتلقى أحد الشعراء إلهاماً رائعاً خاصاً باحدى القصائد الشعرية « أو قل بتعبير أدق يلهم بالفكرة العامة للقصيدة أو بالاحساس الوجداني العميق بها ، ولكنه لسبب أو لآخر يعزف عن قرص تلك القصيدة » وينأى عن التعبير عما يجيش في صدره من مشاعر جياشة . إننا نعتبر أن مثل هذا الشخص عقيم إلهامياً . فعلى الرغم من أنه يتلقى الإلهامات بالفعل ، فان تلقيه أو عدم تلقيه لها ميان .

وئمة - كما قلنا - عقم إلهامى يرجع إلى الانشغال والتوزع والتشتت في أنحاء كثيرة متباعدة أو حتى متناقضة . وهذا العقم يتضح لدى كثير من الشعراء أو القصاصين الذين ما يكادون يحظون بالشهرة حتى تتلفق عليهم القرص لإذاعة أخبارهم وأعمالهم عن طريق الإذاعة والتلفزيون والصحافة . ولقد تسند رئاسة تحرير إحدى الصحف أو المجلات إلى الواحد منهم . فإذا تكون النتيجة ؟ التشتت الذهني أو قل بعثرة الإلهامات التي تصل إليه . ذلك أن الإلهام لكي يثمر إنما يكون بحاجة إلى نوع من الاستقرار والهدوء النفسيين . صحيح أن الاشتغال ببعض الأعمال أو تقلد إحدى الوظائف قد لا يتعارض مع تلقى الإلهامات . ولكن هناك عنصرين أساسيين يجب أن نذكرهما بهذا الصدد . أما العنصر الأول فهو عنصر الزمن . فإذا كانت الأعمال الأخرى أو المناشط الوظيفية تستغرق وقتاً طويلاً أو تحتاج إلى بذل جهد كبير يضني المرء ، فان الشخص لا يستطيع في هذه الحالة أن يفيد من الإلهامات التي تصل إليه . أما العنصر الثاني فهو نوعية النشاط الذي يقوم به الشخص . فإذا كان العمل الذي يضطلع به يستلزم القيام بنفس الأداء الذي يرتبط بالإلهام ، أو يشترك في قطاع معه ، كأن يكون المطلوب من الشخص الملهم في التعبير الأدبي كتابة مقالات صحفية باحدى الصحف اليومية ، فان قيام مثل هذا الشخص بعمل يرتبط ارتباطاً مباشراً بالتعبير الأدبي أو الفلسفي - وهو التعبير الذي يلهم عادة فيه - إنما يحرمه من الاستفادة من الإلهامات التي تصل إليه . فهو يتشتت فكراً ، أو قل إنه يتوزع بين العمل المقروض وبين العمل التلقائي . ونحن نعلم أن الإلهام يتعارض أو لا يتساوق مع

الإجبار . فإنيما يكون الإجبار والقسر والاضطرار ، لا يكون هناك إلهام على الإطلاق . وعلى العكس من هذا فإن الإلهام مساوق للحرية . أو قل إنه صديق للحرية . ولكن الحرية قد تكون خالية من الإلهام . فكما أن الصديق يمكن أن يتواجد وحده في أحداً ماكن بغير أن يكون مرافقاً للصديق ، كذا فإن الحرية يمكن أن توجد في بعض الأحيان بغير أن تكون ملازمة للإلهام . ولكن لا يمكن أن تتخيل وجود الإلهام مع علوه اللئود ، أعنى الاجبار أو القسر .

والواقع أن علاج العقم الإلهامى من الصعوبة بمكان . ولقد نقول إن مثل هذا العلاج قد يكون مستحيلاً في بعض الأحيان . ولاشك أن التربية والحضارة التى نستظل بظلها يحاربان الإلهام . ذلك أن التربية تنحو في أغلب الحالات إلى إجبار الناشئة على الضرب وفق خطوط مرسومة لهم من قبل . وكذا فإن الحضارة تلزم الناس بالارتباط بالمواعيد وبالتواجد في أماكن بعينها، وبالالتزام بروتين يومى معين ، بل ويصب أنفسهم في قوالب فكرية ونفسية وأدائية محددة . وحتى وسائل الاعلام وعلى رأسها التلفزيون والراديو يشكلان وميلتين لصب الناس في قوالب فكرية ووجدانية لا حياد عنها . والإلهام يكره التحديد والقولبة . فطالما هناك ضغوط خارجية تقسر الناس على الضرب في طرق مرسومة ، فإن العقم الإلهامى يكون إذن من نصيبهم .

الفصل الخامس عشر

الاتحاد الثلاثى بالشخصية

إذا تفككت أضلاع المثلث :

إننا فى الوقت الحاضر وبعد أن أوغل الإنسان فى طريق الحضارة يتميز فى الشخصية الإنسانية ثلاثة قطاعات أساسية هى : قطاع العقل ، وقطاع الوجدان ، وقطاع الإرادة . وبتعبير آخر فإن الشخصية الإنسانية تشبه المثلث الذى لا يمكن أن يوجد كمثلث إلا بأضلاعه الثلاثة . والمشكلة الكبرى التى تواجه الإنسان الحضارى هى مشكلة تفكك أضلاع مثلث شخصيته ، أو بتعبير آخر عندما لا يقتصر إحساس الإنسان الحديث بتمايز الأضلاع الثلاثة فى شخصيته بعضها من بعض ، بل إحساسه أيضاً بتفكك تلك الأضلاع وابتعادها بعضها عن بعض ، أو ضياع أحد الأضلاع الثلاثة أو ضياع ضلعين من تلك الأضلاع الثلاثة ، فلا يبقى له من مثلث شخصيته سوى ضلع واحد منها فحسب .

فالإنسان الحديث قد يفقد ضلع العقل ، ويعيش بالوجدان والإرادة فحسب . فهو ينساق عندئذ وراء ما تلغى به عاطفته إليه من مناح متباينة ، فينخرط فى أعمال وتصرفات خالية من العقل . قارادته لا تبين عما يترسمه عقله ، بل تبين عما يفور فى قلبه من عواطف فحسب . ولقد تجدد بعض الشخصيات فى ظل الحضارة وقد خشي التعبير عما يحتاج فى قلبه من عواطف ، بعد أن فقد ضلع عقله ، فبعث حيس قلبه فحسب بغير أن يجروا على التعبير عن عواطفه . إنه ينحس بعواطفه فى دخيلته ، فما يريد فعله فى الخارج يقتصر على فعله بالخيال فحسب . ومثل هذا الخيال ليس من العقل فى شيء . ذلك أننا نقصد بالعقل التفكير المنطقى المادى .

فالسجين الذى يحلم بالخروج من السجن ، وقد تخيل أنه طليق بينما هو مقيد فى حجرة السجن المظلمة ، ليس بمفكر حتى وإن كان يستعين بمخه فى خياله .
 وشأن هذا المسجون يختلف عن شأن الأسير الذى يتخيل خطة واقعية للهروب من أسره ، فيخطط لهربه ويقوم بالتنفيذ . فتخطيط الأسير للهروب من الأسر يعتبر تفكيراً . أما أحلام اليقظة التى ينخرط فيها السجين ، فإنها لا تعتبر فكراً . فشرط الفكر عندنا هو أن يكون محاولة لحل مشكلة أياً كانت .

فنحن نعتبر أن مجرد تشغيل الخيال لا يعتبر تفكيراً . ولنأخذ مثلاً يوضح ما نعنيه . لنفترض أن أحد المراهقين قد وقع فى حب زميلة له بالفصل لأنه فى مدرسة إعدادية مشتركة ، وأن هذا المراهق قد أخذ ينخرط فى أحلام يقظته فينسج قصة حب وغرام بينه وبين حبيته دون أن يجرؤ على التعبير عن حبه لها من قريب أو من بعيد ، وأنه يخشى حتى مجرد الاقتراب منها أو التحدث إليها . إننا نعتبر أن أحلام اليقظة التى ينخرط فيها هذا المراهق ليست فكراً . إنها مجرد رغبات جنسية تنعكس على عقل ذلك المراهق . وبتعبير آخر فإن العقل فى هذه الحالة لا يقوم بعمل إيجابى . إنه مجرد عاكس لرغبات جنسية معتملة بدخيلة ذلك المراهق . ولكن افترض أن أحد الأطباء أعجب بزميلة له فأخذ يفكر فى مفتاحها فى أمر خطبتها . وبالفعل وضع خطة لينفذها . ثم قام بمفتاحها فيما فكر فيه . إن ما قام به عقل ذلك الطبيب يعتبر فكراً ، وذلك لأنه يتم بالإيجابية ولأنه لم يكن مجرد رد فعل لرغبة ، بل كان تخطيطاً لهدف مستقبلى واقعى .

ومن ظواهر تفكك مثلث الشخصية الحضارية أيضاً فقدان ضلع العاطفة أو تقليصه مع الإبقاء على ضلعى العقل والإرادة . فتجد أحد العلماء مثلاً وقد انكب على التفكير مقلماً المؤلفات أو مبتكراً الاختراعات ، بينما جفت عواطفه ونضبت مشاعره . فهو لا يتذوق الجمال فى حياته . فلا يطرب للحن الجميل ، ولا ينجذب إلى الصورة الرائعة أو إلى التمثال المبهر ، ولا يجد فى أى من أفراد الجنس الآخر ما يلقى باب قلبه ، ولا يتذوق

الشر ولا يعرف معنى الحنان أو المودة . وباختصار فانه إنسان بلا قلب .
فمثل هذا الانسان يكون قد فقد ركناً ركيناً من كيانه ويكون مثلث شخصيته
قد انفصم وتمزق .

وثمة من جهة ثالثة النوع الثالث من تفكك مثلث الشخصية الانسانية
وهو الاعتماد على ضلع الارادة فحسب مع إهمال ضلعي العقل والعاطفة .
فتجد أن بعض الناس يعيشون في أداءات يومية بغير أن يكون لهم رأى وفكر
فيما يضطلعون به من أعمال ، وبغير أن يكون لديهم احساس وجداني قبالة
النشاط الذى ينخرطون فيه . إنهم يكونون في حالة اللامبالاة الوجدانية وفي
حالة من السلبية الذهنية . ولعل أن من الوظائف والأعمال الروتينية ما يشير
إلى هذه الحالة . وبالنسبة لكثير من الحرف اليدوية في المصانع يكون
العامل محدوداً في نشاطه العملى بحلود شريحة صغيرة جداً من العمل الكبير .
فهو مكلف مثلاً بربط مسار قلاووظ في جهاز أو آلة كبيرة تمر أمامه
بالمصنع . فيبعد العامل بذلك عن التفكير كما أنه يصير خلواً من حب أو
كراهية العمل ، أو قل إنه صار يمارس عمله وكأنه استحال إلى ما يشبه الآلة
الصماء التى لا تحس ولا تفكر . وتذكر بهذه المناسبة ما قدمه شارلى شابلىن
من تصوير كاريكاتورى في أحد أفلامه لهذه الحالة التى اتسمت بها الثورة
الصناعية في العالم الصناعى والتى حرمت العامل من الفكر والعاطفة جميعاً
فاستحال إلى مجرد قطعة من عمل كبير معقد أو إلى مجرد ترس فيها .

والوضع الأمثل للشخصية أن يكون مثلثها متساوى الأضلاع ، بمعنى أن
تكون القسمة متساوية بين التفكير والانعطاف والأداء . ولكن الواقع أن
هذا التصور الأمثل للشخصية لا يتوافر في الغالب حتى بالنسبة لأكثر
الشخصيات تمتعاً بالتكامل . ولكن إذا ما اتسع امتداد أحد الأضلاع بحيث
يغطي على أحد الضلعين الآخرين طغياناً كبيراً ، فإن هذا يعد من قبيل تفكك
أضلاع المثلث بالشخصية ، حتى وإن ظل المثلث قائماً . فالتفكك هنا تفكك
محازى وليس تفككاً واقعياً . فإذا ما طغت المناشط العملية ، فإن الشخصية

تكون قد فقدت اثرانها وتكاملها . وكذا يقال عن الشخصية إذا ما ضفت
المنشط الوجدانية أو المنشط العملية فيها على النوعين الآخرين من المنشط .

ونحن نزع أن الانسان الملهم هو ذلك الشخص الذى يستطيع أن يجعل
مثلث شخصيته متساوى الاضلاع . على أننا عندما نعرض لأضلاع مثلث
الشخصية ، فإننا ينبغي أن ننظر إلى المثلث الخاص بالشخصية باعتباره كلا
متكاملا ، وباعتبار أن كل ضلع من أضلاع الشخصية يلعب دورا أساسيا
فى تكامل المثلث ووجوده كوحدة كلية متكاملة ومتفاعلة بعضها مع بعض .
وأكثر من هذا فإن الأضلاع الثلاثة تختفى فى مثلث الشخصية بحيث لا يبدو
منها إلا ذلك المركب المتكامل .

ولعلنا نجد فى شخصية واحد مثل فيثاغورس ما يشير إلى طبيعة هذا
التكامل فى مثلث شخصيته . لقد كان فيثاغورس مهتماً بالعقل والوجدان
والارادة جميعا . وكانت الفيثاغورية قائمة على أساس من تعاليم النحلة
الأورفية ، وهى جماعة دينية استمدت تعاليمها من الهنود القدماء . فكان
فيثاغورس يحيا هو وتلاميذه حياة روحية بمعنى الكلمة . لقد أنشأ فيثاغورس
ما يشبه الدير ، وكان ذلك الدير يضم أفرادا من الجنسين . وكانت التعاليم
فيه سرية . وكان هناك نظام يخضع له الجميع . وكان النظام الموضوع هو
نظام عقلى يخدم العقل وذلك عن طريق الرياضيات والفلسفة . وكان التأمل
الذهنى هو تأمل اشراقى وليس تأملا منطقيا فحسب . فكان الفيثاغورى
يتأمل بعقله ووجدانه أيضا . وكانت الرياضة فى أذهان أفراد هذه المدرسة
مرتبطة ومتفاعلة بالدين . فكان للأرقام دلالات روحية . كان العدد
واحد صحيح يمثل للإله . وكان السبيل لتنقية الروح يتخذ شقين أو طريقين :
أحدهما يتعلق بالطعام . فهناك ممنوعات لأن الفيثاغوريين كانوا يعتقدون
أن بعض الأطعمة — كالبقول مثلا — تفسد العقل . أما الطريق الآخر
فهو التربية الرياضية العنيفة والمنظمة . فكانت التربية الفيثاغورية التى يخضع
لها أفراد هذا الدير (مجازا) تهتم بالعقل والوجدان والجسم . فبالترية

الرياضية تقوى الارادة . وإذا ما أراد الانسان أن يقوى لإرادته « فإن عليه وفق تعاليمهم أن يجبر نفسه على الامتناع عن ممارسة بعض الأشياء « وأن يجبر نفسه أيضا على ممارسة أشياء أخرى .

والواقع أن انسان الحضارة يحرم من الإلهام إذا ما اتبع طريق العقل فقط أو طريق العاطفة فقط أو طريق الارادة فقط ومهملا الطريقين الآخرين . فالتكاملية هي المرحلة الأولى من مراحل الاستعداد لتقبل الالهامات .

وأكثر من هذا فاننا نعتقد أن النشاط المتوزع – أو حتى المتعين – يفقد الانسان القدرة على تلقي الالهامات . فاللهم شخص مركب . فهو إذا ما فكر فانما يفكر وينعطف ويعمل في نفس الوقت . والعمل الذي نقصده قد يكون مجرد الابانة عن الفكر والاحساس . فالتقبلية الاسفنجية التي يتصف بها كثير من أبناء الحضارة إنما تتعارض تعارضا جليا مع القابلية لتقبل الالهام . فالشخص الملهم هو شخص إيجابي تعبيرى . إنه يحيا بذلك المركب المتكامل « وهو الشخص الذي لا يقتصر على تقديم ما يصل إلى عقله من أفكار ، بل هو ينسج نسيجاً جديداً كل الجدة ويكون قادرا على تقديمها والتعبير عنها .

كيف يتحقق الاتحاد الثلاثى ؟

سبق أن عرضنا لما أسميناه بهرم الشخصية ، وقلنا إن قاعدة هذا الهرم تتمثل في القوام البيولوجى . ومن تلك القاعدة ينبثق الطابق الثانى بالهرم « وهو الطابق الوجدانى . ذلك لأن الوجدان يتأتى عن الانفعال . والانفعال في طبيعته بيولوجى أو قل إنه المرحلة الوسيطة بين ما هو بيولوجى وما هو نفسى . والوجدان صنوان للانفعال ، بل هو صادر عنه ومرتبطة به جوهريا . ومن الوجدان تنبثق العواطف المتباينة . ذلك أن الوجدان عندما يتبلور حول محور ما أيا كان ، وعندما يتخذ لنفسه صفة الثبوت والاستقرار والاستمرار النسبى ، فانه يصير عاطفة . وفوق هذا الطابق الثانى الخاص

بالوجدان والعاطفة نجد الطابق الثالث بالشخصية ، وهو طابق الفكر .
والواقع أن الفكر ينبثق من الطابقين الأولين . فهو لا ينبثق عن العواطف
والوجدانات وحدهما ، بل وينبثق أيضاً عن القوام البيولوجي للمخ .

ونستطيع القول بأن هذا الهرم ذا الطوابق الثلاثة ينقسم بالتامسك
والترابط . ذلك أن المنشأ هو قاعدته البيولوجية كما قلنا . بيد أن
العواطف والأفكار تعتبر قوامات جديدة ذات طبيعة مستقلة نسبياً .
فالعواطف ليست جسماً ، وكذا فإن الأفكار ليست مادة بيولوجية .
فالعواطف والأفكار ليست كالللموع التي تفرزها الغدد الدرقية بالعينين .
فالخ البشرى لا يفرز عواطف وأفكاراً . إننا نستطيع تشبيه العواطف
والأفكار بالنار في نسبتها إلى عود الثقاب . فنحن لا نستطيع أن نقول إن
عود الثقاب يفرز ناراً . والصحيح أن نقول إن ثمة شروطاً معينة تتوافر
في رأس عود الثقاب تسمح له بالاشتعال . فالنار ليست موجودة في رأس
عود الثقاب . والموجود هو الشروط اللازمة لاشتعال المواد الموجودة
برأس عود الثقاب فحسب . فثمة إذن نوعان من الوجود : النوع الأول —
هو الوجود الكينوني ، والنوع الثاني — هو الوجود العلى . والوجود
الكينوني كوجود الدهوع في الغدد الدرقية . فقبل أن تدمع العين كانت
الدهوع في داخل تلك الغدد بالفعل ، ولكنها كانت حبيسة بداخلها . أما
الوجود العلى فانه وجود تلوى ، بمعنى أنه ما إذا ما توافر شرط أو توافرت
مجموعة معينة من الشروط ، فإن الوجود العلى يبدو في الواقع . فإذا أنت
حككت رأس عود الثقاب بالغلاف الخشن بعلبة الثقاب ، فثمة نتيجة
تترتب على هذا الاحتكاك هي الاشتعال . والنار لم تكن حبيسة رأس عود
الثقاب كما هو الحال بالنسبة للموع التي كانت حبيسة الغدد الدرقية .

وكما أن النار بعد الاندلاع من عود الثقاب يمكن أن تتصلب بأشياء
أخرى قابلة للاشتعال فتزيد تأججا والهبابا ، كذا حال العواطف والأفكار
عند الانسان . إنها تتواجد علواً وتلويها وقد بزغت نتيجة توافر شروط

معينة بالمخ جعلها تظهر إلى الوجود . ولكنها يمكن أن تزداد في رقتها
وشدتها إذا ما توافرت لها تغذية من البيئة الخارجية . فالمواقف والعلاقات
تغذي عواطفنا وأفكارنا . وهذا يعني أن من الممكن أن تجد العواطف
غذاء لها أكثر مما يتوافر للفكر . والعكس أيضاً ممكن . فقد نتخيل
شخصاً وجد غذاء غزيراً لعقله ولكنه لم يجد غذاء كافياً لوجدانه . فإذا
تكون النتيجة في الحالتين ؟ بالنسبة للحالة الأولى التي تتوافر فيها الأغذية
للعواطف دون العقل ، فإن العواطف تنمو ، بينما يصاب العقل بالضمور .
وبالنسبة للحالة الثانية التي يجد فيها الفكر غذاءه ، بينما لا يجد العواطف
غذاء لها . فإن الفكر ينمو بينما يضمّر نطاق العاطفة .

ونستطيع أن نقرر أن هاتين الحالتين السابقتين هما علة فقدان اتحاد
أضلع مثلث الشخصية . أضف إليهما ما يمكن أن يصيب المخ من تلف
يفقده القدرة على العمل ، أو يضعفه فلا يفكر بطريقة سليمة . ولكن
إذا ما تحققت الصحة للمخ ، ووجد كل من قواى الوجدان والفكر الغذاء
المناسب لهما ، فإن مثلث الشخصية يظل متاسكاً ، ويظل قوياً فعالاً ،
وبالتالى فإن الشروط المناسبة لتلقى الإلهام تكون بالتالى متوافرة .

على أنه ينبغي لنا أن نقرر ماسبق أن ألعنا إليه من أن قطاعات الشخصية
الثلاثة تسير في نموها بطريقة تراكبية تفاعلية ، وليس بطريقة تراكمية .
والتراكمية تختلف عن التراكبية ، في أن التراكبية تتسم بالتفاعل بين
المركب الذى تأتى للمرء مع المؤثر أو المؤثرات الجديدة . فالإنسان منذ
تكوينه جنيناً فى بطن أمه وجسمه يتفاعل مع المؤثرات التي يلاقيها بطريقة
تفاعلية . فهو يزداد تعقداً وتركيباً عما كان عليه الحال قبل حدوث التفاعل .
وكذا الحال بالنسبة لعواطفنا . فنحن قد تكون لدينا جهاز عاطفى نتيجة
التفاعلات الوجدانية الكثيرة . وهذا الجهاز العاطفى عندما يقابله موقف
أو علاقة عاطفية جديدة ، فإن ذلك الموقف أو هذه العلاقة لا تضاف إلى
الجهاز العاطفى ، بل تتفاعل معه . كما تتفاعل المعدة والأمعاء مع الغذاء الوارد
من الفم . فكما أن الجسم يتفاعل مع الغذاء ، كذا فإن جهاز العاطفة

يتفاعل مع المواقف والعلاقات الجديدة ويمتص منها ما يناسبه في حدود طاقته . وكذا الحال بالنسبة للفكر . فجهاز الفكر يستقبل المفاهيم والعناصر المنطقية الجديدة ولا يضيفها إضافة إليه « بل يتفاعل بطريقة دقيقة للغاية بحيث يتم له النمو .

وإذا ما أجبر جهاز العاطفة أو جهاز الفكر على تقبل ما لا يستسيغه، فإن حالة تشبه حالات سوء الهضم بالنسبة للمعدة تحدث لجهاز العاطفة وجهاز التفكير . وهذا ما يحدث في كثير من الحالات التي يجبر فيها المرء على افتعال عواطف ليست من قوامه الوجداني . فإذا ما أرغمت على أن تحب ما تكره ، أو على أن تكره ما تحب ، أو إذا ما حرمت من الغذاء اللازم لتغذية جهازك العاطفي، فإنك مصاب بما يمكن أن نسميه بالمرض الوجداني . ولعلنا نرجع الكثير من الأمراض النفسية إلى هذه الحالة التي لا يسير فيها النمو الوجداني في الطريق السليم الذي كان يجب أن يسلكه . ونستطيع أن نرجع الأمراض الوجدانية جميعاً إلى ثلاثة عوامل : الأول - افتقار جهاز الوجدان إلى المقومات الغذائية الوجدانية التي يكون بحاجة إليها . والثاني - الإفراط في تقديم الأغذية الوجدانية إليه وذلك بكثرة ما يكره وبكثرة ما يحب بغير أن تكفه لديه الفرصة الكافية لهضم المقومات الوجدانية المطلوب منه هضمها . والثالث - تقديم عناصر غذائية وجدانية متناقضة بعضها مع بعض ولا تتآلف بعضها مع بعض ، مما يترتب عليه حدوث ما يعرف بالتناقض الوجداني .

ونفس الشيء يقال عن فكر الإنسان . فلماذا ما توافرت العناصر والمقومات العقلية المناسبة لنمو الفكر نمواً سليماً فإنه ينتعش ويصح . ولكن الإفراط في تكديس الذهن بالمعلومات ، أو حرمان الفكر من المعرفة المناسبة وعدم تدريسه على التفكير وهضم ما يقدم إليه ، أو تقديم إليه جرعات غذائية فكرية متناقضة بعضها مع بعض أو مقومات غذائية ضارة، إنما ينتهي به إلى التوقف عن النمو وإلى عدم قيامه بواجبه على الوجه الأكمل .

ولا يفوتنا أن نؤكد أن العلاقات القائمة بين الأجهزة الثلاثة أو الأضلاع الثلاثة بالشخصية إنما هي علاقات ديناميكية مستمرة الحركة ودائية التفاعل فيما بينها . فنحن وإن كنا نزعم وجود نوع من التعيين والاستقلال لكل ضلع من هذه الأضلاع الثلاثة بمثلث الشخصية ، فإن هذا لا ينفي وجود التفاعل المستمر والدائب بينها جميعاً . فالمثلث كل متكامل وإن كانت به أضلاع ثلاثة متعينة ولها حدودها واستقلالها . بيد أن الاستقلال يختلف جئرياً عن الانفصال . فأنت تستطيع أن تكون شخصية مستقلة في المجتمع ، ولكنك في نفس الوقت لا تكون منفصلاً عن ذلك المجتمع . فثمة تفاعلات مستمرة وقوية بينك وبين مجتمعك « حيث يؤثر فيك وتؤثر أنت فيه . ولكن التفاعل التبادلي بينكما لا يفقدك ولا يفقد مجتمعك استقلالكما بعضكما عن بعض .

ونستطيع أن نتخيل عمل الأضلاع الثلاثة بالشخصية بطريقة متوازية . فكل منها يعمل بصفته الشخصية من جهة « وبصفته متأثراً ومؤثراً في الضلعين الآخرين من جهة أخرى . ولكن التأثير الذي يحدثه أحدهما في الضلعين الآخرين لا يؤثر في قوامه اللداني ولا يعمل على نحو شخصية الضلعين الآخرين . وهذا ما يعمل في الواقع على تحقيق التكامل والتعاون بين الأضلاع الثلاثة جنبياً . ولكن إذا ما حدث أن طغى أحد الأضلاع الثلاثة على الضلعين الآخرين ، فإن الشخصية تفقد عندئذ تكاملها ، ومن ثم فإنها تفقد القدرة على تلقي الإلهامات . وإنك لتجد أمثلة لذلك بين العلماء . فثمة بعض العلماء الذين يعيشون بالعقل فقط أو يكادون وقد أهملوا عواطفهم . فتجد الواحد منهم فيج العاطفة بحيث يمكن أن تبدر منه تصرفات توصف بأنها تصرفات صبيانية ثم على عدم النضج والفجاجة . فيها اختزن الواحد من أمثال هؤلاء العلماء المعلومات من ذهنه « فانه لا يستطيع أن يصير شخصية دلهمة .

فلندافع عن حيائنا وحدتنا الداخلية :

لا شك أن القدرة على تلقي الإلهام لا تنأى إلا لمن استطاع أن يحافظ على وحدته الداخلية . صحيح أن الوحدة الداخلية — وهي ما عبرنا عنه

يتأسك أضلاع مثلث الشخصية — لا يضمن تلقى الإلهام . ذلك أن الإلهام — كما قلنا — بمثابة عطية تمنح ولا تؤخذ . فليس بيدك أن تكون شخصية ملهمة ، ولكن بيدك أن تعد نفسك الإعداد الكافي والسديد لتلقى الإلهام . والسبيل إلى ذلك هام وضرورى لتوفير الحد الأدنى لسعادتك وقوة شخصيتك . فحتى إذا لم تكن طموحا لأن تكون شخصية ملهمة ، فلا أقل من أن تكون طموحا لأن تكون شخصية متكاملة . وتكامل الشخصية ضرورى لتوفير مناخ الطمأنينة النفسية ولتحقيق التوازن النفسى الداخلى .

ولقد يعترض معترض على كلامنا بأن التفوق فى مجال من المجالات لا بد أن يكون على حساب مجالات أخرى يكون الانسان خالى الوفاض فيها ، أو ضعيفا فيها على الأقل . فالعالم لكى يتفوق فى علمه أو فى فرع العلم الذى يتخصص فيه ، عليه أن ينصرف عن الشعر والموسيقى وعن كل ما يتعلق بالجمال . وكذا فان الشاعر أو الموسيقار عليهما أن ينصرفا عن تحصيل العلوم الوضعية وأن يحلقا فى أجواء الخيال غير الواقعى . وكذا الحال بالنسبة للمشتغلين فى التجارة أو الصناعات المتباينة أو بالنسبة للمشتغلين بالعلاقات الاجتماعية . إنهم جميعاً ينصرفون عن المسائل العلمية الفيزيائية وكذا عن مجالات الجمال . ذلك أن الحياة لا تسمح لهم بأن يوزعوا اهتماماتهم على جميع المجالات بدرجة واحدة كما قد يشتم من كلامنا .

والواقع أننا نعرف بادية ذى بدء بالضرورات الحضارية التى تلزم أغلب الناس بأن يتخصصوا فى مجال صغير . وأكثر من هذا فاننا نعرف بأن الوقت ضيق بالنسبة لمن يعيش فى ظل الحضارة وما تترجم به من علاقات مستمرة وكثيرة . ولكن الذى لا نعرف به هو تعذر توفير النمو للشخصية من جميع الجوانب الأساسية . فنحن لا نعرف بأن ينصرف العالم عن المجالات الجمالية ، ولا نعرف أيضاً بأن ينصرف التاجر إلى تجارته فحسب دون أن يلتقى بالا إلى جوانب شخصيته الأخرى التى لا تتعلق .. بالتجارة .

ونحن في نفس الوقت لا نطالب بأن يتخصص ابن الحضارة الحديثة في كل شيء ، ولا نطالبه بأن يوزع جهده بالتساوي على المجالات المتباينة ، وإنما نطالبه فقط بالعمل على نمو شخصيته بطريقة تكاملية بحيث لا يحرم نفسه من النمو الطبيعي لما جبل عليه من مقومات جوهرية . ولستنا بالطبع نصدم على أن يستوعب العالم الشعر أو أن يلاحق الحركة الفنية فيكون عالماً بالقصائد التي قيلت أو أن يكون ملاحقاً للمدارس التشكيلية المتباينة . ولكن الذي نلح عليه هو ضرورة النمو الوجداني للعالم ، وضرورة النمو العلمي بالنسبة للفنان . وهذا لا يتأتى إلا بالعمل على أن تطفو الشخصية فوق الجزئيات مهما كانت تلك الجزئيات . فالعالم الحقيقي بهذا الاسم - وهو الذي يرغب في أن يكون شخصية متكاملة أو حتى شخصية ملهمة - يجب أن يكون إنساناً بمعنى الكلمة . إنه يجب ألا يفقد صفة الإنسانية لكي يكتسب صفة العالم . إنه يجب أن يظل إنساناً وبعد ذلك يكون ما يكون .

والإنسان المتكامل يجب أن يكون طافياً على سطح الحياة وليس غارقاً فيها . من هنا فالتناطح بأن يتشبث الإنسان الحضاري بالعموميات ، وأن تكون له مبادئ عامة يصب فيها كل شيء . فنحن البشر نعلم بطبعنا إلى صب الكثير في القليل ، وأن نخلص من الجزئيات إلى العموميات . وإذا كان هذا حالنا في المجالات العلمية الدقيقة ، فانه حالنا أيضاً في سائر المجالات . فعلى الإنسان أن يشاهد الكل من زاوية معينة .

فالعالم يجب أن يظل متلوقاً للجمال ، وأن يحس بالخير ، وأن يعرف العلاقات الاجتماعية الأساسية في مجتمعه . إنه يجب أن يتقن فن التعامل مع الآخرين . يجب أن يعرف موقفه من الكبير والصغير والند . ويجب أن يحوز الحد الأدنى من النظام ، وأن يلم إلاماً عاماً بالقانون الذي ينظم أبناء مجتمعه وقه وإن براعيه في حياته . ومعرفته بالقانون لا تعني دراسته لتفاصيله وأن يحصل على المعرفة القانونية التي يتخصص فيها رجال القانون . ولكن معرفة الأساسيات ترتبط به كإنسان وكواطن ولا ترتبط به كشخص مفكر أو كعالم .

والخوف كل الخوف من أن تشوه الأجهزة الداخلية لدى المرء فيفقد قدرته على إحراز التكامل. ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يلغى جهاز عقله أو جهاز وجدانه . فالعالم مهما أهمل حياته الوجدانية « فإنه لا بد يعيش حياة عاطفية على نحو أو آخر . صحيح أن تلك الحياة الوجدانية لديه يمكن أن تكون ضامرة أو يمكن أيضا أن تكون فاسدة « ولكن في جميع الأحوال لا يمكن إلغاؤها . فنحن لا نستطيع أن نتخيل عالما بغير أن تكون له حياة وجدانية « ولكن ما نستطيع تخيله هو وجود عالم قد ضمّر جهازه الوجداني أو أعوجت حياته الوجدانية وانحرفت عن المسار الذي كان يجب أن تسير وفقه . وكذا فاننا لا نستطيع أن نتخيل فاننا خلا وفاضه من الفكر « ولكن الذي يمكن تخيله هو وجود فنان يفكر بطريقة فجأة أو خاطئة .

يبد أن هناك أمثلة لعلماء وفنانين ملهمين ولكن حياتهم العقلية أو حياتهم الوجدانية مريضة . من أولئك نيتشه في مجال الفلسفة « وفان جوخ في مجال الفن . وكلاهما انتهت حياتهما بالجنون . وثمة كثيرون أيضا يمكن أن يحتج بهم ضد ما نقرره هنا من أن التكامل شرط أساسي يجب توافره قبل تلقى الإلهام . ونحن نعتقد أن جميع ما يمكن أن يحتج بهم من شخصيات ملهمة كانت مصابة على نحو أو آخر باعوجاج في الشخصية ، كانوا مصابين بالتقلب بين التكامل والاعوجاج . فنحن قد نجد شخصا يحيا حياة متكاملة ومتجانسة وخالية من الاعوجاج لبعض الوقت ، ثم ما يفتأ ينحرف عن جادة الصواب . ففي أثناء الوقت الذي يكون الشخص متكامل الشخصية يحظى بالإلهام . ففان جوخ مثلا كان ملهما وقت أن كان مريضا ، ولكنه لم يكن كذلك في أثناء فورة المرض النفسي . ومن المعروف في تاريخ الأمراض النفسية أن هناك أمراضا نفسية وقتية أو دورية . فهي تهاجم الشخصية لبعض الوقت ثم تتركها لحين . وبعد فترة تقصر أو تطول تعاود هجوما على الشخصية المريضة . ففي الوقت الذي تكون فيه شخصية العبقري في

حالة من الانسجام الداخلي، وفي وضع يسمح بوصفها بأنها شخصية متكاملة بصفة مؤقتة يكون هو الوقت الذي تتلقى خلاله الالهام .

وهناك في الواقع رأى يقول إن أكثر الناس ميلا إلى السرقة ، يكونون في بعض الوقت من أكثر الناس تمسكا بالأمانة . ومن بين المومسات من يتشبثن بأثواب الطهر وقد صرن نافرات من ممارسة الجنس لبضعة أيام أو لبضعة أشهر فيرفضن بيع الجسد بصدق وإخلاص . ولكن دورة الانحراف تلور عليهن من جديد ، فتقبل الواحدة منهن على ما سبق أن تمرست به من بيع للجسد . وبعض الناس الذين يعرف عنهم اقتراف الجرائم تنتابهم نوبات من التدين والتششف والبعد عن ملذات الدنيا . ولكن بعد أن تمر فترة التدين والزهد والتششف تعود المياه إلى مجاريها ، ويعاود المحرم إجرامه من جديد .

ولنا أن نقول إن الوقت الذي يقضيه مثل هذا المحرم في التدين لا يكون خداعا يندع به الناس من حوله ، بل يكون حالة حقيقية وصادقة تماما . فهو في أثناء نوبات الإجرام يكون مجرما حقيقيا ، كما أنه في أثناء نوبة التدين يكون متدينا بصدق وإخلاص أيضا . والتناقض الذي يبدو في شخصيته ليس تناقضا لحظيا ، بل هو تناقض فرى . ففي الآن الواحد لا يكون مثل هذا الشخص مجرما ومتدينا ، بل يكون مجرما أو متدينا ، ولا يجمع التقيضين في نفس الوقت .

ونحن نعتقد أن القاعدة العامة هي أن الالهام لا يواتى الشخصية السوية المتكاملة التي استوت فيها القطاعات الثلاثة الأساسية : أعنى الناحية الجسمية المتعلقة بالمشاعر ووظائفه الأساسية ، وقطاع الوجدان بما يشتمل عليه من عواطف مرتبة وغير متصارعة ، وأخيرا قطاع العقل حيث يكون التفكير المنطقي متاحا للشخص . فاذا ما انحرفت الشخصية وتحطم تكاملها لانهار ضلع من أضلاع مثلث الشخصية ، فإن القابلية لتلقى الالهام تكون مستحيلة ، أو هي ترايل الشخصية . وإذا افترضنا أن الشخصية هي

شخصية نواوية ، بمعنى أنها تتقلب على التكامل وعدم التكامل بين الفينة والفينة ، فان من الممكن أن يتاح لها تلقى الإلهام في أثناء الفتره التي تكون فيها متكاملة وسوية .

ومن المؤكد أن الشخصية التي ينهار تكاملها النفسي بدءا بالخضوع لما يسمى بالنواب ، أعنى التعرض لفترات من فقدان التكامل النفسي ، إنما ينتهى بها الحال في الأغلب إلى الجنون المطلق وفقدان التكامل فقداناً مستمراً . ذلك أن فترات المرض النفسي تزداد اتساعاً من جهة، وتلاحق بسرعة من جهة أخرى ، فيصير الشخص غير قادر على تلقى الإلهامات التي كان يتلقاها قبلاً . وهذا بالفعل ما حدث في حياة كل من نيتشه وفان جوخ وغيرهما . وقد انتهت حياة كل منهما الإلهامية تماماً قبل أن تنتهى حياتهما الفعلية . ولكن في مقابل هذين المثالين نجد شخصيات أخرى من أمثال ديكارت وطه حسين وأينشتين وقد اكتملت لهما الحياة الشخصية المستقرة نفسياً واجتماعياً ، فكان كل منهم جديراً بأن يتلقى الإلهامات المتعلقة بالمجالات التي صب اهتمامه فيها . فتلقى ديكارت الإلهام في الفلسفة وطه حسين في الأدب وأينشتين في الفيزياء . من هنا فحرى بنا أن ندافع عن حياض وحدتنا الداخلية حتى نتيج لأنفسنا فرصة تلقى الإلهام .

أول الخيط بين يديك :

قلنا إن الإلهام ليس بيدك ولست مسئولاً عن أن تكون شخصية ملهمة. ولكن المسئولية المنوطة بك هي مسئولية إعداد نفسك بالتكامل النفسي وذلك بأن تكون صاحب جهاز عقلي وجهاز وجداني سليمين وأن تحافظ على جهازك العصبي المركزى الذى يحتل الموضع مكان الرئاسة به ما وسعتك المحافظة والرعاية والعناية . فلقد قلنا إن تكامل أضلاع شخصيتك الثلاثة يعد شرطاً أساسياً كنقطة انطلاق نحو المجالات الإلهامية المتباعدة . صحيح أنك لا تستطيع أن تكون بالضرورة شخصية ملهمة ، ولكنك تستطيع أن

تعد نفسك لأن تكون كذلك . فالاستعداد للتقبل الإلهامى سابق على تقبل الإلهام نفسه .

ونخشى فى الواقع أن تعد نفسك للإلهام فيواتيك ، ولكنك لا تكون مستعدا الاستعداد الكافى لصياغته وحالته إلى شىء يقع تحت الحواس : ذلك أنك إذا كنت شخصية ملهمة فى الأنغام الموسيقية مثلا ، فان عليك أن تكون قد سلحت نفسك بفنون التعبير الموسيقى حتى تستطيع إحالة ما يتلقاه من إلهامات موسيقية إلى واقع موسيقى يقرأ أو يسمع . وكلنا الحال بالنسبة لجميع الإلهامات بكافة أنواعها . فالملتقى للإلهام يترجم ما يتلقاه إلى واقع محسوس باد للعيان . ولكن إذا لم يكن المرء مسلحا بالقدرة على الإبانة ، فانه يقف عاجزا قبالة ما يتلقاه من إلهام . فتمة إذن جانبان أساسيان يجب ألا يعزبا عن البال : الجانب الأول هو تلقى الإلهام بالفعل . والجانب الثانى – القدرة على الإبانة فى المجال الإلهامى المعين الذى يختص به الشخص الملهم .

وهناك عامل آخر ضرورى للملهم حتى يتسنى له إحالة الإلهام إلى واقع معبرا عنه هو سرعة الالتقاط الإلهامى . فالوقت الذى يصرفه المرء بين لحظة تلقى الإلهام وبين التعبير عن ذلك الإلهام ربما يكون أطول مما يسمح بالقبض على الومضات الإلهامية . ذلك أن الإلهام يأتى للمرء كومضات سرعان ما تختفى بحيث لا يتسنى للشخص الملهم القبض عليها بعد أن تكون قد تراكبت واختفت . وهناك فى الواقع فرق كبير بين الإلهام كما يقدم إلى الشخص الملهم وبين تذكره لتلك الإلهام . فالومضات الإلهامية إذا ما اختفت فان تذكرها لا يكون تذكر نفس الومضات البراقة المتوهجة ، بل يكون تذكرها لبقايا ذلك التوهج وذلك البريق . إن ما يمكن أن يتذكره الشخص بعد زوال الومضات الإلهامية لا يعلو أن يكون شيئا يشبه الضباب القاتم . فالومضات البيضاء اللامعة سرعان ما تستحيل فى ذهن الشخص الملهم إلى ما يشبه الظلام .

ومن هنا فانك تجد الشخصيات الملهمة تسارع إلى التقاط تلك الومضات الالهامية بسرعة . ولعلنا نحسن صنعنا إذا ما اقتبسنا من كتاب الدكتور سوييف السابق ذكره اعتراف الشاعر محمد بهجة الأثرى فيما يتعلق بلحظات الالهام الشعري عنده . يقول الشاعر « إن تطور القصيدة ... كان يجرى بعيدا عن متناول قدرتي في ناحية بواعثه ودواعيه . أما من ناحية السيطرة في توجيه هذا التطور فإني كنت أمارس « علميته » وفق مشيئتي ورغبتى . ولا عادة لي أمارسها ساعه الكتابة إلا انتحاء المكان الخالى والسكون الشامل حتى لا أحس غير نائمة نفسى ، بل المكان الخالى والسكون الشامل طالما أوحيا إلى فنونا من القول لم يتيسر لي مثلها . وقد تتيقظ الشاعرية عندي في الأماكن التي تكون فيها حركة وأصوات . لذلك ترانى في هذه الحالة أسرع في البحث عن مكان بعيد عن الحركة والجلبة لأنظم قصيدتي تحت تأثير تلك الانطباعات أو الانفعالات قبل أن تغتر النفس وتضيع الفرصة .

ونحن نستطيع أن نميز في اعتراف هذا الشاعر جانبين أساسيين : الجانب الأول - هو المتمكن من صناعة الشعر بحيث يكون قادرا على الابانة الشعرية في القوالب المعروفة في اللغة العربية . أما الجانب الثانى فهو سرعة الالتقاط الالهامى . فواضح أنه يشير إلى الومضات الالهامية التي إذا ما أفلتت ، فانه لن يستطيع إذن الإمساك بمقاليدها إلى الأبد . وقد وصف دى لاكروا الالهام بأنه صدمة كالانفعال . وقال إن حال الملهم في لحظة الالهام كحال من يجذب انتباهه فجأة ، عندئذ يختل الاثران لديه ، ويمضى نحو اثران جديد ، وينقطع سير العمليات الذهنية ، ويدخل في الميدان شيء جديد . وطبيعى أن توجد عندئذ حال وجدانية قد تكون عنيفة ، حتى لتبلغ الحماسة ، وينساب في الذهن سيل فجائى من الأفكار والصور . وقال فليكس كلاي يصف هذه اللحظة أيضا : « إننا نطلق كلمة الالهام على لحظات الابداع الفجائية ، وهي لحظات تنتابنا مصحوبة بأزمات انفعالية ، وتبلى بعيدة عن العمليات العادية للعقل والشعور ، وبعيدة عن حكم الارادة وسيطرتها ، تأتي غير متوقعة ، ومجيئها غير مرهون بدعائنا ، كالنوم

والأحلام . وقال بولدوين معرفا الإلهام بأنه اشراق الدهن أو تنبه بالذي
ينظر إليه كأنما هو آت مما وراء الطبيعة « (الأسس النفسية للإبداع الفني
ص ١٧٦) .

والواقع أن انخراط الشخص الملهم في إلهامه يختلف عن قدرته على
التقاط ما يلهم به بسرعة وإثباته وحالته إلى واقع . ولكي يكون الشخص
الملهم قادرا على الالتقاط الإلهامي وصياغته « فانه يجب أن يكون قد
جهز نفسه بالتمرن على الابانة في المجال الذي تخصص فيه . وهنا يصح أن
نشير إلى عنصرين أساسيين حتى يكون التمرن ناجعا . العنصر الأول -
الصحة والدقة . والعنصر الثاني - السرعة . فإذا كان الشخص شاعرا
مثلا « فان عليه أن يكون قد تعلم فنون صناعة الشعر إلى درجة الاتقان
والتمكن . أما السرعة فانها ضرورية حتى لا تهرب الومضات الإلهامية منه .
فالواقع أن البلاء في الابانة الشعرية يمكن أن يشكل عائقا أمام الشاعر في
تقبل الإلهام . وإنك لتجد بعض الشعراء قد أخطوا يتقنون في شعرهم
الذي سارعوا بكتابته وقت الإلهام . ولكن البعض الآخر منهم لا يرضون
ذلك ويعتمدون على اللحظة الإلهامية وقد اطمأنوا إلى تمكنهم في فنون الابانة
الشعرية . وحجة هذا الفريق الأخير في هذا هو أن ما يقومون بتلويته
لحظة الإلهام يكون صادقا ومعبرا ، وأن أي تعديل يدخله المرء على ما سبق
له كتابته إنما يكون من قبيل التشويه وليس من قبيل التحسين . وهنا نذكر
ملاحظة ريدلي على كيتس ، إذ يقول إن كيتس قلما كان يعود على قصائده
بالتصحيح في جلسات أخرى غير جلسة الإبداع ، ويورد نصا للشاعر يقول
فيه « إن قوة النشاط في لحظة الكتابة تماثل قوة خيالي ، بل إن
ملكائي لتبدو مثارة إلى أقصاها .. فهل لي بعد أن يتعطل خيالي « وأفقد
الحرارة التي كنت أكتبها « هل لي أن أجلس في برود وليس معي سوى
ملكة واحدة ، لأفقد ما كتبت وأنا في حمى الإلهام ؟ » (المرجع السابق
ص ٣٤٣) .

وبعد أن عرضنا للمقومين السابقين ، أعنى الصنعة من جهة ، والالتقاط الإلهامى السريع من جهة أخرى ، فإن علينا أن نعرض للمقوم الثالث الذى ينبغى أن توفره لنفسك باعتبار أن هذه المقومات الثلاثة تشكل أول الخيط الذى يجب أن تمسك به وتحذر من أن يفلت منك . والمقوم الثالث الذى نعينه هو التخطيط العام للعمل الإلهامى . فالمفهوم أو الانطباع يواتيك فجأة كمسألة عامة غير محددة التفاصيل وغير متعينة القسما . فما عليك إلا أن تسارع إلى تسجيل ما تلهم به بسرعة حتى لا يضيع منك . ولكن بعد أن تلتقط الومضات العامة ، فإن عليك أن تأملها لمكى تضع تخطيطا بعيد المدى أو تخطيطا يحتاج منك إلى نفس طويل وإلى وقت قد يمتد إلى سنوات لكى تضطلع بتنفيذه . وواضح أن هذا التخطيط الذى تضعه لا يتسم بالعفوية بل يكون بالتأمل أو بالدراسة الطويلة أو المكثفة . وهنا نجد أن الصنعة والخبرة والتمرس بالمجال الجبرى تلتحم جميعاً مع الإلهام فى إنتاج العمل .

ولا شك أن اعتمادك على الإلهام الطفرى فحسب لا يوفر لك إلا انتاج الأعمال المنقطعة والصغيرة . ولكن إذا ما تأملنا الأعمال العظيمة كوضع سيمفونية أو ككتابة قصيدة طويلة ، أو كنحت تمثال كبير ، فإننا نجد فى أى من تلك الأعمال جانبين أساسيين : الجانب الأول – هو الجانب الالهامى ، والجانب الثانى – هو الجانب التخطيطى . على أننا لا نستطيع أن نقول إن جميع الأعمال التى تحتاج إلى تخطيط أو إلى نفس طويل تشتمل فى نفس الوقت على الجانب الالهامى . لقد تكون بعض الأعمال استمراراً لأعمال سابقة ، أو قد تكون بمثابة تنفيذ لأوامر أو توجيهات أو بمثابة تحقيق لرجبات أو تحقيق لأهداف اجتماعية . ومن أمثلة الأعمال الالهامية المخططة مسرحية مالشكسبير فهى تتضمن الجانب الالهامى من جهة ، والجانب التخطيطى من جهة أخرى .

على أننا لا ننكر أن الجانب التخطيطى فى الأعمال الابداعية تشتمل فى طبيعتها على بعض الجوانب الالهامية الفرعية . فثمة فى مراحل العمل وفى

أثناء انجازها جوانب يمكن أن توصف بالصنعة « وجوانب أخرى يمكن أن توصف بالالهام . ولا شك أن الجانب الالهامي إذا كان هو السائد في العمل ككل ، فانه يكون إذن أرقى وأفضل . ولكن ليس هناك تعارض بين أن يكون الشخص المبدع قد ارتكز على أسس موضوعية وخبرية أو على خبرات الآخرين ، وبين أن يكون ملهما ومبدعا . فكثير من الأعمال الابداعية الرائعة تجمع في طياتها بين الصنعة وبين الأصالة « ولا تكون الافادة من الخبرات السابقة أو التمسك بأصول الصنعة مدعاة للتقليل من قيمة العمل . المهم أن يكون العمل الذي تقدمه بمثابة كائن حي روحه الالهام وجسمه الصنعة والتزام التقنيات المعترف بها عند أصحاب الفن الذي تعمل في اطاره .

ولكن ... لتكن لك فلسفة :

صحيح أنك لا تستطيع أن تجعل نفسك شخصية ملهمة « وصحيح أيضا أن كل ما بيدك هو أول الخيط فحسب ، أعني أن توفر لنفسك الشروط الأولى لكي تكون مستعداً لتقبل ما قد يوهب لك من الإلهام وذلك بأن تكون شخصية متكاملة ، ولكن هذا لا يعفيك من أن تشكل لنفسك فلسفة حياة تعيش وفقها وأن تنهج بمقتضاها في حياتك وفي جميع تصرفاتك . والواقع أن إعداد نفسك لأن تكون شخصية متكاملة شيء ، وأن تكون لك فلسفة حياتية شيء آخر . وما نعينه هنا لدى استخدامنا لكلمة فلسفة هو أن تدبر حياتك وفق مبدأ واحد كبير يتسع لجميع تصرفاتك ولأنحاء حياتك المتباينة . فأنت عندما تتخذ لنفسك فلسفة في حياتك ، فانك تكون بذلك قد جعلت هناك دقة لسفينة حياتك . فإذا أنت أعددت نفسك فقط لأن تكون شخصية متكاملة بغير أن تكون لك فلسفة حياة تستهدي بها في فكرك ووجدانك وتصرفاتك ، فانك بهذا تكون قد عرضت مستقبل حياتك لكل خطر يمكن أن يهددك ، وبالتالي فانك يمكن أن تتخبط بغير هاد يهديك ، وبغير أن تكون لك قدرة على توجيه شخصيتك نحو مستقبل واضح . فبغير فلسفة الحياة فانك تكون سائراً في حياتك خبط عشواء بحيث تصير عرضة للتخبط

والضياع والالتئام إلى أى اتجاه يقذف بك تيار الحياة نحوه . ولكن إذا ما كونت لنفسك فلسفة « فانك تكون بذلك قد ضمنت تسيير فكرك وعواطفك وتصرفاتك وفق خطوط محددة « وقد ضمنت لنفسك عدم العصف بك إذا ما هبت رياح النزوات، أو إذا ما طرأت ظروف تبعد بك عن جادة الصواب ، أو تشط بك كما تشاء .

ولعلنا فيما يلى نعرض عليك بعض الفلسفات الحياتية التى بمكنتك الاختيار من بينها ، فتتخذ لنفسك واحدة منها دون غيرها لتكون نبراسا لك تستضيء به وتلتزم بمقرراته ، ولا تنأى عن أحكامه « ولا تنحرف عن جادته . على أن اختيارك لواحدة من هذه الفلسفات التى تقلمها إليك إنما يكون اختيارا وفق ما جبلت عليه من جهة ، ووفق ما صرت إليه من مركب خبرى كبير ومترابك من جهة أخرى .

والفلسفة الأولى المقترحة هى الفلسفة الحلمية . والحلم هو إصدار أحكام قطعية لا تستند إلى مقدمات أو أسانيد . إنها الأحكام التى تحصل بناء على استنباط داخلية يحس المرء بصدقها وعدم زيفاتها على الإطلاق . والواقع أن هناك من الناس من يمكن اعتبارهم شخصيات حلمية . فهم يقدمون أحكاما على الأحداث والأشياء والأشخاص والمواقف لحظة بلحظة وبغير انتظار لمقدمات منطقية أو لشواهد عملية يستدلون بها أو يقيمون أحكامهم بمقتضاها . ولقد يذهب البعض إلى اعتبار الحلمس بمثابة خبرة سابقة ومكتشفة « أو هو أحكام على المواقف الحاضرة والمستقبلية فى ضوء مواقف سابقة مشابهة تمام المشابهة لها . فأنت تحكم على الشيء بنفس الحكم الذى سبق أن أصلوته على شبيهه . ولقد كان حكمك السابق على الشيء قائما على مقدمات وشواهد واقعية « ولكنك وجدت نفسك فى الموقف الجديد فى غير حاجة إلى أن تستلهم المقدمات أو أن تثقف على شواهد واقعية ، فتكتفى بالمقدمات المنطقية والشواهد العملية السابقة المتعلقة بالموقف السابق . فاستغناؤك عن المقدمات والشواهد فى الموقف الجديد هو

نوع من التكيف الجبرى ، أو قل إنه تطبيق نتائج خبرة سابقة على خبرة آتية .

ولقد يزعم البعض الآخر من الناس أن الحلس هو فى الواقع حصيلة خبرية جمية تأتت لنا نتيجة توارث لخبرات بشرية باللة تمتد إلى أجيال سابقة كثيرة جدا . فنحن البشر لا نرث عن أجدادنا البعدين جدا عنا — بماهم أجدادنا بالقبائل البدائية — المقومات البيولوجية فحسب ، بل إننا نرث أيضاً خبراتهم التى لاقوها والتى حصلوها فى مواقف حياتهم المتباينة.. فتمة إذن — بناء على هذا التفسير — وراثتان : وراثه بيولوجية تتعلق بالجسم وتركيبه وكيميائيته ، ووراثه أخرى نفسية أو خبرية تتعلق بالخبرات التى نزلت إلينا بحيث نتلبس بها وننسلح . وهذه الوراثه الأخيرة تساعلنا على إصدار أحكام صحيحة وسريعة على المواقف التى تعتبر جديدة بالنسبة لنا ، ولكنها ليست جديدة فى ضوء ما سبق لنا أن ورثناه عن أسلافنا القريين والبعدين على السواء .

وسواء كان الحلس نتيجة لخبرات مرت بنا شخصيا فى هذه الحياة ، أم كان نتيجة وراثه عن أسلاف بعدين ، أم كان منحة روحية يختص بها بعض الناس دون بعضهم الآخر ، فإن الذى لابد من تقريره والاعتراف به هو أن بعض الناس أكثر قدرة على الحلس من سواهم ، وأن أحكام الحلميين تكون أحكاماً متينة إذا ما كانوا قد استهلوا بالحلس فعلا . وإذا لم يكونوا قد جانبوا أحكامه وما يوحى به إليهم . ونحن نعتقد أن من يتسلحون بالفلسفة الحلمية فى حياتهم هم أولئك القمينون بأن يكونوا شعراء أو فلاسفة أو روائيين أو فنانين تشكيليين . ولعل السؤال الذى ينبغى أن توجهه إلى نفسك هو ما إذا كنت بالفعل من الشخصيات الحلمية . فإذا كنت كذلك ، فإن عليك أن تخضع حياتك بمقوماتها العقلية والعاطفية والعملية للحلس حتى تستطيع أن تسلك فى الطريق السديد المناسب لطبعك ومزاجك وتكوينك .

أما الفلسفة الثانية التي نقرحها فهي الفلسفة المنطقية . ونحن نعلم أن المنطق له شقان أساسيان . فثمة طريق الاستقراء من جهة ، وثمة طريق الاستدلال من جهة أخرى . والاستقراء كأن تقول إن جميع قطع الحديد التي صادفها وعرضتها للحرارة تتمدد . إذن فأستطيع أن أخلص إلى قاعدة عامة تقول إن الحديد يتمدد بالحرارة . أما الاستدلال فن أمثله أتى أقول إن الحديد يتمدد بالحرارة كقاعدة أسلم بها . وهذه القطعة الموجودة أمامي مصنوعة من الحديد . وعلى هذا فأتى أصدر حكما بأن هذه القطعة الموجودة أمامي تتمدد بالحرارة إذا أنا قت بتعريضها للحرارة .

ومعنى هذا أن الاستقراء يبدأ بالجزئيات إلى القاعدة العامة ، بينما يبدأ الاستدلال من القاعدة العامة وينحصر كل الجزئيات أو أى جزئية من تلك الجزئيات لما تقررته تلك القاعدة العامة . وقل نفس الشيء لافى مجال الأشياء المادية فحسب ، بل يلزأ جميع الأشياء والأحياء والأحداث والمواقف . وأنت تكون شخصية منطقية طالما أنك تستعين بالاستقراء والاستدلال . وفى الخالتين فانك تعتمد على شأ تصدر أحكامك فى ضوءه . فى حالات الاستقراء ، فانك تعتمد على الخبرة العملية . أما فى حالة الاستدلال فانك تعتمد على القاعدة العامة التي جعلتها نبراسا لك تسهذى به فى أحكامك ، وفيما تقررته يلزأ جميع الحالات الفرعية الجزئية التي تصادفك .

فإذا كنت شخصا منطقيا لا حلسيا ، فانك تكون إذن ميالا إلى الاستعانة بالمنطق فى حياتك اليومية . إنك لا تصدر إذن أحكامك بغير مقدمات تستند إليها . إنك إما أن ترتبط بالوقائع المحسوسة . وإما أن ترتبط بقاعدة تكون قد صدقها وآمنت بها ولا تخالف عنها . ولكن لا يكفى أن تقول إنك شخص منطقي بل يجب أن تسلح بالفلسفة المنطقية ، وذلك بأن تمتد إلى مسافات بعيدة فى هذا المظهر ، وألا تخط بين فلسفتك المنطقية وبين فلسفة غيرك الحلسية . لا يصح مثلا أن تكون منطقيا فى

بعض المواقف بينما تكون حلسيا فى مواقف أخرى . إن إيمانك بالفلسفة المنطقية يجب أن يكون إيماناً قاطعاً وقويًا وثابتاً فى أعماق نفسك . والإيمان يتطلب منك التمرس بما تؤمن به . فلا تقف من إيمانك موقف المتفرج « بل اجعل منه شجرة باسقة يانعة مثمرة فى حياتك . وذلك بأن تدرب نفسك على التفكير المنطقى بأبعاده الكثيرة ومجالات تطبيقه المتباينة فى شتى المواقف والأحداث .

ولا شك أن الشخصيات المنطقية هى أفضل الشخصيات صلاحية لأن تكون شخصيات علمية . فالعلماء والتكنولوجيون والمخترعون هم فى الواقع أناس لديهم استعداد لأن يكونوا شخصيات منطقية . ذلك أنهم يصلحون الأحكام على الموضوعات التى تقابلهم بما لديهم من استعداد وقلرة على التفكير المنطقى العلمى .

أما الفلسفة الثالثة فهى الفلسفة الاجتماعية . فتمتد شخصيات لديها قلرة على إنشاء علاقات اجتماعية بين الأفراد بعضهم وبعض ، أو بين الجماعات بعضها وبعض لم تكن قائمة من قبل . والشخصية الاجتماعية لديها قلرة نسميها بالقلرة على التجميع . فالزعيم أيا كان — وفى أى موقع يكون — هو شخصية لديها قلرة تجميعية . فهو يجعل من الأفراد المتفرقين أو من الجماعات المتفرقة كتكتلات ، ولكأنه يجعل الكثرة وحدة . وهو يسير فى العمليات التجميعية بموهبة زعامية يصعب تقليدها أو تعلمها . فإذا كنت تستشعر فى نفسك هذه الموهبة أو القلرة ، فأنت إذن زعيم بطبعك ، وتستطيع أن تحيل ما بداخلك من استعداد إلى واقع اجتماعى .

والمهم فى جميع الأحوال أن يعرف المرء نفسه . فعليك بسؤال نفسك : هل أنت شخصية حلسية أم شخصية منطقية ، أم أنك شخصية اجتماعية . إنك إذا ما عرفت نفسك ، فإنك تستطيع بالتالى أن تتسلح بالفلسفة التى تناسبك . ومن المؤكد أن تسلحك بالفلسفة التى تناسبك سوف يساعذك على تقبل ما عسى أن يوجه إليك من إلهام متمش مع طبيعتك وخبرتك ومع ما اخترته لنفسك من نهج فى الحياة .

المفهرس

الصفحة

٣	مقدمة
٧		الفصل الاول : معنى الإلهام
٧	:- المعنى الغيبي
١١	— المعنى الواقعي
١٥	— المعنى السيكلوجي
١٩	— المعنى الفردي
٢٤	— المعنى الاجتماعي
٢٩		الفصل الثاني : سيكولوجية الإلهام
٢٩	— الوراثة والبيئة
٣٣	— العوامل البيولوجية في الإلهام
٣٨	— الذكاء والإلهام
٤٢	— الجنس والإلهام
٤٦	— الاستغراق الإلهامي
٥١		الفصل الثالث : اكتشاف القارة المجهولة
٥١	— لاهلودية الإلهام
٥٥	— السعي وراء المجهول
٥٩	— التسكع الإلهامي
٦٤	— ترك ما تم اكتشافه وراء الظهر
٦٨	— التخلص من العنينة والبدء من الصفر
٣٥٥		

الصفحة

٧٣ الفصل الرابع : مجالات الإلهام

٧٣	— المجال الأدبي
٧٧	— المجال الفني
٨٢	— المجال العلمي
٨٦	— المجال الفلسفي
٩٠	— المصدر الروحي

٩٥ الفصل الخامس : معوقات الإلهام

٩٥	— المعوقات البيولوجية
٩٩	— المعوقات النفسية
١٠٣	— المعوقات الأخلاقية
١٠٨	— المعوقات الثقافية
١١٢	— المعوقات الحضارية

١١٧ الفصل السادس : الحضارة والإلهام

١١٧	— الجذور الإلهامية للحضارة
١٢١	— الآكلون من فئات الحضارة
١٢٦	— روح الحضارة وجسمها
١٣٠	— هل سيعيد الإنسان اكتشاف ذاته ؟
١٣٥	— التزيغان الحضاري

١٤١ الفصل السابع : التربية والضغط الثقافي

١٤١	— الأصل الحضاري للتربية
١٤٥	— الشكل والمضمون في التربية

الصفحة

١٥٠	التعليم يقذف بالتربية بعيدا
١٥٤	القصر الربوى
١٥٩	الضغوط الثقافية خارج المدرسة

١٦٥ الفصل الثامن : الإلهام في حياة العباقرة

١٦٥	في الفلسفة
١٦٩	في التصوير
١٧٤	في الموسيقى
١٧٩	في الشعر
١٨٤	في العلوم

١٨٩ الفصل التاسع : إعداد الذات لاستقبال الإلهام

١٨٩	الإعداد البيولوجي
١٩٣	الهضم الحبرى
١٩٨	التخفف من الموم
٢٠٢	ساعات الخلوة اليومية
٢٠٧	التدريبات التأملية

٢١٣ الفصل العاشر : الطبيعة كمصدر إلهامى

٢١٣	الطبيعة وشبه الطبيعة
٢١٧	الشوق إلى حضن الأم
٢٢٢	الانبهار الوجدانى
٢٢٧	الكشف عن الخبوء
٢٣١	الإلهام الإرادى

الصفحة

- رعاية المواليد الذهنية الجديدة ٣١٧
- الأمراض الفتاكة بالأنسال الذهنية ٢٢٢
- العقم الإلهامي ٣٢٦

الفصل الخامس عشر : الاتحاد الثلاثي بالشخصية ٣٣١

- إذا تفككت أضلاع المثلث ٣٣١
- كيف يتحقق الاتحاد الثلاثي ؟ ٣٣٥
- فلندافع عن حياض وحدتنا الداخلية ٣٣٩
- أول الخيط في يديك ٣٤٤
- ولكن ... فلتكن لك فلسفة ٣٤٩
- فهرس ٣٥٥
- للمؤلف ٣٦٠

للمؤلف بمكتبتنا

- | | |
|---------------------------|------------------------|
| ١ - الشخصية القوية | ٢ - الشخصية المحبوبة |
| ٣ - رعاية المراهقين | ٤ - رعاية الشيخوخة |
| ٥ - العبقرية والجنون | ٦ - الحب والكراهية |
| ٧ - الشباب والتوتر النفسى | ٨ - قوة الارادة |
| ٩ - سيكولوجية الشك | ١٠ - سيكولوجية الالهام |

رقم الايداع ٢٥٠٣ / ٨٣

الترقيم اللولى ٦ - ٠٤٠ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاطوغلى - القاهرة)

ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تلفون : ٢٢٠٧٩

هذا الكتاب

موضوعه جديد ، كانت مكتبتنا العربية مفتقرة اليه . قام مؤلفه بمعالجته بجرأة وموضوعية وبروح علمية صابغة ، مستقيدا في دراساته له خبرته الشخصية ويخبرة الآخرين النفسية .

أما المنهج الذي اتبعه المؤلف والتزم به ، فانه جدير بالملاحظة . انه المنهج الفلسفي التأملى . فهو يستتق الأفكار التي يعرض لها الى أن يسير أغوارها ويقدم انحاءها التي كانت مخبوءة عن الأنظار قبل تناولها .

والواقع أن أصحاب هذا المنهج التأملى هم الذين يقدمون للعلماء الأطر الفلسفية التي عليهم أن يملأوها بالتجريب والقياس والتطبيق . تلك أن النظر سابق على التطبيق ، كما أن الفكر الفلسفى سابق على الفكر العلمى .

وعلى علماء النفس إذن أن يتناولوا هذا الفكر الوارد بهذا العمل وأن يضعوه تحت محك التجريب والقياس ، لكي يكملوا مشوارا بدأه المؤلف وقطع فيه شوطا فلسفيا بعيدا . وسوف يظل الفكر الفلسفى الميكولوجى ضوءا يهد الطريق أمام علماء النفس ، لأن العلم الذى لا يستهدى بفلسفة ، إنما يسير فى طريق مسدود لا يشر بتقدم .

فهذا الكتاب إذن جدير بالقراءة المتعمنة والتأمل المستثنى

عبد الحميد احمد غريب

دار غريب للطباعة

١٢ شارع نوبار (لاطوغلى) القاهرة

ص ٠ ب ٥٨ (الدواوين) - تليفون : ٢٢٠٧٩